مايلز كوبلاند
مؤلف «لعبة الأمم»

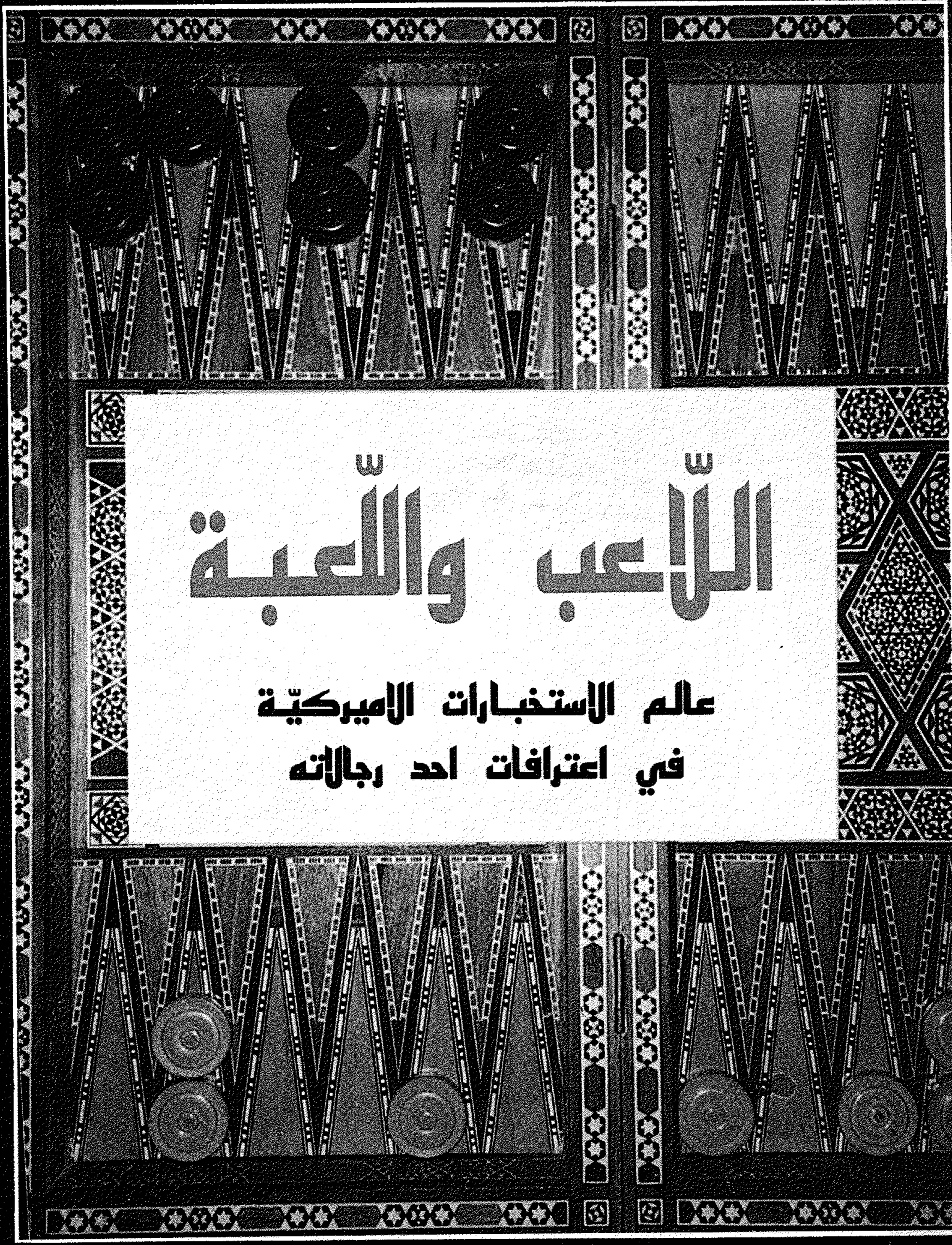

اللاّعب واللاّعبة

عالم الاستخبارات الاميركيّة في اعترافات احد رجالاته

دار الحمراء

اللّاعب واللّاعبة

دار الحمراء للطباعة والنشر

رأس بيروت، شارع الكويت، بناية مكارم، الطابق الخامس، تلفون: ٨٠١٦٨٨

مايلز كوبلاند
مؤلّف «لعبة الأمم»

اللاّعب واللاّعبة

عالم الاستخبارات الاميركيّة في اعترافات احد رجالاتها

دار الحمراء

كلمة الناشر

من «لعبة الأمم» إلى «اللاعب واللعبة»

لا بأس من تذكير القارىء في تقديمنا لهذه «الاعترافات» بالقواعد التي طُلب إليه ان يضعها نصب عينيه فيما لو أراد ان يفهم ما تعنيه «لعبة الأمم» وترمز إليه هذه العبارة التي دخلت القاموس السياسي المعاصر. إنها القواعد الست التالية:

- ● كل أمة من الأمم تجعل في مقدمة أهدافها البقاء في اللعبة وممارستها وليس إلى الخروج منها.
- ● تتصرّف الأمة في غالب الأحيان على نحو لا يهدف إلى احراز النجاح داخل اللعبة بقدر ما تسعى لضمان استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها أو لقيادتها.
- ● التصريحات الرسمية حول السياسة الخارجية لا يمكن قياسها بصفاء النيّة، بل قوامها المناورة والمداورة والكتمان والازدواجية: اللاعب الرئيس لا يكشف أوراقه، بل يُظهر ما لا يبطن.
- ● لا تهدف الأمم المتخاصمة من وراء إظهار حسن النوايا والإقرار بوجود أهداف مشتركة سوى إلى تحسين أوضاعها الداخلية أو إلى ممارسة الضغط على فريق ثالث، وقلّما يحدوها الأمل المخلص في تحقيق ما تعلن عنه حقيقة.
- ● حين تعمد دولة عظمى إلى مغازلة أمة ضعيفة والتودّد لها، فإن الأمة الضعيفة سوف تلتفت في غالب الأحيان صوب الخصم الرئيس للدولة العظمى بغية إثارة التنافس بين الخصمين وحملهما على خطب ودّها لكي تنتهز الفرصة لتحقيق الأرباح والمكاسب.
- ● عندما تحرز الأمة الضعيفة في اللعبة مركزاً دبلوماسياً وقوة من خلال استغلال مقولة التنافس، فإن من شأنها تبوء مركز استراتيجي يسهم في مساعدتها على نيل المزيد من القوة والنفوذ، وذلك من خلال لجوئها إلى التهديد بالاقدام على مغامرات لا تحبّذها الدول العظمى ـ لأن فهمها للعبة يتطلّب ذلك!

هذه هي القواعد التي شرحها مايلز كوپلاند عام ١٩٦٩ في كتابه عن «لعبة الأمم». ولتبسيط الشرح وتلخيص القواعد بعبارة موجزة، يمكن القول إن «لعبة الأمم» هي كناية عن النشاط الذي تمارسه نظارة الخارجية الأميركية في واشنطن من أجل رسم المخططات الملائمة لبسط النفوذ الأميركي على بلدان العالم أجمع عن طريق استخدام السياسة والخداع والحيلة بدلاً من اللجوء إلى إضرام نار الحرب المسلّحة. إنها التخطط السياسي لتوجيه الصراع على مناطق النفوذ في العالم من خلال استخدام أساليب الحرب الباردة ـ وما أكثرها تنوعاً وأوسعها حيلة!

وفي الكتاب الذي بين أيدينا يَبوح العميل السياسي واللاعب المتمّرس في قواعد اللعبة بالكثير من الخفايا والأسرار التي اكتنفت ممارسة اللعبة في بلدان الشرق الأوسط وغيرها من بلدان العالم. ويعترف للقارىء بوجود أكثر من لعبة يمارسها اللاّعب على مختلف الأصعدة وفي شتى المجالات. مثلما يكشف المؤلف عن «العمل السياسي في الخفاء» والعمليات السرية أو الخفيّة التي تمارسها أجهزة إدارة اللعبة في الولايات المتحدة وخارجها، هذا بالاضافة إلى الحيل القذرة التي تستخدمها وتلجأ إليها على سبيل التغطية والتمويه، متذرّعة ببلوغ الهدف.

ليس الغرض من هذه الكلمة إثقال كاهل القارىء بالشروحات والتعليقات والتنبيهات. ولا حاجة بنا إلى التذكير بتلك الوفرة العارمة من الكثير والترجمات والاقتباسات التي تقذف بها المطابع وتملأ رفوف المكتبات. بل نكتفي بالاشارة إلى دلالة هذه «الاعترافات» التي جرى تعريبها بتصرّف دون الاساءة إلى فحواها وتشويه محتواها.

ومن نافل القول إن ناشر الكتاب لا يعتبر ما جاء على صفحات «اللاعب واللعبة» بمثابة «فصل الخطاب»، كما انه لا يتبنى الآراء والمواقف الواردة في فصوله. إنها وجهة نظر من داخل المؤسسة، يبوح بها أحد اللاعبين الكبار والقدامى على رقعة العمل السياسي الخفي في الشرق الأوسط. ولا غرو فإن القارىء الفطن لن يفوته الكشف عن الكثير من الآراء المتحيّزة والمعلومات الخاضعة للتلاعب علاوة على «التنظير» المضلّل والمملّ في كثير من الأحيان. فالاطلاع على هذه الاعترافات، بالرغم من اللمسات والشطحات الشخصية التي تشوب مواقف اللاعب وتكتنف مغامراته التنظيرية واستغراقه في السرد ـ يغدو ضرورة لا بد منها على سبيل أخذ العلم والإلمام بالمخططات التي تُرسم للسيطرة على مقدرات بلادنا والتحكم بمصيرنا من خلال التذرّع بتأمين مصالح الدول الكبرى.

إنها اعترافات لاعب متقاعد، واكب أجهزة بلاده منذ انشائها بهدف جمع المعلومات في ظروف الحرب العالمية الثانية وحتى اتساع نطاقها وتشعّب اهتماماتها وانتفاخها البيروقراطي، وصولاً إلى اعتماد الحيل القذرة والأساليب اللاأخلاقية في ما يطلقون عليه تسمية «العمل السياسي الخفي». ولا ضير في الاطلاع على تفاصيل السجالات وكيفية وضع السيناريو المطلوب لبلوغ الأهداف المنشودة من وراء ممارسة اللعبة.

بيروت في ٣٠ أيار (مايو) ١٩٩٠ — الـدار

الـفصــل الأول

البداية في ولاية الاباما

ضمّ فريق العلماء النفسانيين الذين استجوبوني تمهيداً لتكليفي «بمهمة خاصة» كلاً من: الدكتور أغرتن باللاتشي من جامعة ستانفورد الذي سبق له أن عمل مع فريق الدكتور هنري موراي من جامعة هارڤارد، والدكتور موراي مؤلف كتاب «تقويم الرجال» الذي صار فيما بعد من المراجع الكلاسيكية في حقله أثناء الحرب العالمية الثانية. وضمَّ أيضاً الرائد وِليَم مورغن، وهو عالم نفساني من جامعة ييل درس بإمعان قدرة العملاء على «تحمّل الإحباط» في حالات «اليأس من تحقيق الغايات المنشودة». وكانت في الفريق أيضاً الدكتورة مابل تيرنر وهي سيدة لطيفة في العقد السابع من عمرها هبطت في صباها ست مرات وراء خطوط العدو في الحرب العالمية الثانية وحازت على عدد مماثل من الأوسمة تقديراً لشجاعتها وإقدامها وهي أيضاً مؤلفة كتاب ارشادي عنوانه: «العقلية الإجرامية وعمليات التجسس». ذاع صيتها في وكالة الاستخبارات المركزية (سي. آي. إي ـ CIA) على انها امرأة عطوفة متوقّدة الذكاء والتفهم بحيث يعلم كل صاحب خطيئة أن عليه مراجعة خطاياه معها قبل بلوغ مرحلة تحديد اللياقة الأمنية.

عندما بدأت جلسة التقويم كنا قرابة الثمانية أو التسعة رجال نرتدي بدلات من محلات «بروكس اخوان» ومعنا شابة واحدة تضع على عينيها نظارتين وتبدو عليها دلائل الجدية، وهي عائدة حديثاً من حملة تنقيب عن الآثار في شرق افريقيا. ولما حان موعد الامتحان الخطّي، أطلت سكرتيرة برأسها من خلف الباب ودعتني دون غيري إلى غرفة مجاورة ليس فيها سوى طاولة واحدة وقلة من الكراسي الخفيفة حيث جلست بمفردي للإجابة عن اسئلة بإحدى كلمتي: «نعم» أو «لا» ثم لاختيار جواب صحيح من مجموعة أجوبة عن أسئلة أخرى، ثم لسرد ما توحيه إليَّ بعض الكلمات، وأخيراً مررت باختبار «رورشاخ» وهو عبارة عن سرد ما توحيه إليَّ بعض بقع الحبر المتناسقة الترتيب على قطعة من الورق. وراحت امرأتان شابتان وجذابتان، عليهما مسحة تومىء بانتمائهما إلى الوسط الاكاديمي، تراقبانني عن كثب على امتداد الامتحان الخطّي. فتارة تقرأ الواحدة منهما ما أسطّره على الورق وطوراً تحدّقان بوجهي بإمعان لمراقبة تغيرات قسماته كلما واجهت اسئلة وهما على علم مسبق بما تنطوي عليه من خدعات.

انتهيت من الامتحان الخطّي خلال فترة أقصر بكثير من الوقت المحدد له وعدت إلى الغرفة التي كنت فيها مع المرشحين الآخرين فإذا بهم قد ذهبوا كلهم وإذا بي أقف أمام العلماء النفسانيين الثلاثة. بادرتني الدكتورة تيرنر بطلب أن أذكر لها ودون التوقف للتفكير اسماء أشخاص ثلاثة أكنّ لهم البغضاء. لم يخطر ببالي أي اسم وبعد أن حككت رأسي لبضع ثوانٍ أخبرتها بذلك.

قالت: «اسمع الآن، لا بد ان ثمة شخصاً لا تحبه». ومرة ثانية لم أتمكن من تلبية طلبها رغم محاولتي الصادقة، وكان قد شاع بين الناس آنذاك ترديد عبارة اطلقها وِل روجرز تقول: لم ألتقِ قط شخصاً وبغضته». لم أستطع بالطبع الذهاب إلى ذلك الحدّ في جوابي، ولكن كان باستطاعتي وبكل صدق القول بأنني لم أقابل قط أي رجل ـ أو امرأة ـ أمقته. غير ان حدسي فرض عليَّ عدم البوح بذلك. فقد كنت قيد الاختبار لكي يُسدى إليَّ القيام «بمهمة خاصة» لمؤسسة لا تعتبر فيها المحبة المطلقة للانسانية من الصفات المُرجّحة.

قلت: «لست من المعجبين جداً بادولف هتلر». لم تحدث ملاحظتي تلك مجرد ابتسامة بل كانت كقول مريض بداء الايدز (أو السيدا): «إنني على الأقل أحافظ على انخفاض وزني». وهنا توجه إليَّ أحد الثلاثة ببضعة أسئلة عن معتقداتي الدينية. فقلت في نفسي لقد أدركت الآن ما يرمي إليه بذلك السؤال، وأوضحت له بأن محبتي للانسانية ـ أو ان هذا العجز المؤسف عن مقت أي جزء منها ـ تعود إلى لا شيء لا يتعدى في أهميته نقصاً غددياً وبأن ليست لديَّ أي قاعدة اخلاقية له على الاطلاق. وأضفت: «فإن كنتم تريدون مني تصفية شخص ما فسأفعل ذلك بكل سرور». وأردفت بابتسامة بريئة: «ولكن لا تطلبوا مني ان أكرهه». جاء الجواب محكماً وحصلت على أول مهمة لي عبر البحار: في دمشق في سوريا حيث مثل ذلك الموقف جوهري.

وهكذا انتقلنا إلى الأسئلة التي حملتني على ذكر جلسة الامتحان هذه في هذا الفصل بالذات. سألني الدكتور باللاتشي «هل تتذكر المؤثرات المبكرة في حياتك التي أسهمت في صيرورتك إلى ما أنت عليه اليوم؟» أجبته: «بالطبع، هناك الآنسة إدي والآنسة آرشيبالد والآنسة كالن وشخص أو اثنان غيرهن ولكن الأسماء تفوتني الآن، ولكن كان لهن جميعاً تأثيراتهن العميقة». وأوضحت له بأنني ذكرت الأسماء الأولى التي تبادرت إلى ذهني من أسماء معلّماتي في المدرسة الثانوية.

قال: «لم يكن هناك رجال؟ هل كان كل الذين علّموك في المدرسة نساء؟»

قلت: «أظن كان هناك البعض منهم ولكنهم نكرات وما عدت أذكر أياً منهم».

قال: «من منهن كانت مثلك الأعلى؟»

قلت: «أظن ينبغي أن أقول الآنسة ارشيبالد». ڤاليونغ ارشيبالد! هل ثمة اسم أفضل؟ كانت تقريباً . . . » وتوقفت عن الكلام لمشاهدتي دلائل اهتمامهم الشديد، ولكنه كان في غير محله. وأدركت فجأة إلاَمَ كانوا يرمون، فقلت: «أعني انها انسانة لطيفة جداً وأعجبت بروح النكتة لديها وبطريقتها في التعاطي مع الناس وغير ذلك. أما مثلي الأعلى فهو دوغلاس فيربانكس. نعم، انه دوغلاس فيربانكس». (نجوت بأعجوبة).

تنفس الجميع الصعداء ذلك ان المهمة التي أعدّها لي رؤسائي تتطلب رجولة جدية لا مكان للهو فيها. وعلمت فيما بعد أن العلماء النفسانيين الثلاثة دوّنوا في ملف تقويمهم لشخصيتي ملاحظات متعددة منها: «علاقات جنسية سليمة جداً» تليها مباشرة عبارة «لا اخلاقياً تماماً». وتبين لي، عندما سرقت ملفي الشخصي من ديوان الوكالة أن نتيجة امتحان «ايحاء الكلمات»، وبقع الحبر أظهرت للنساء تأثيراً بالغاً في حياتي، وهو بالطبع أمر لا يزال صحيحاً حتى اليوم. غير ان ما يصح قوله فيَّ يصحّ أيضاً في جميع الشباب الذين ربوا في الاباما خلال العشرينات والثلاثينات. وكانت النساء اللواتي يتمتعن بالذكاء والتربية الرفيعة والجاذبية ـ وكنا آنذاك ندعوهن «السيدات» ـ يقبلن بالرواتب المتدنية في قطاع التربية والتعليم التي لم يكن الشباب يقبلونها رغم الحاجة في تلك السنوات العجاف.

بتّ أعلم الآن ماذا حدا بي آنذاك للخروج بذلك الجواب السخيف الذي اعتبرته في حينه يصوّر حقيقة أفكاري. فعندما ذهبت أولاً إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية ومنه فوراً إلى وكالة الاستخبارات المركزية ترك في نفسي علم وثقافة كل الذين رأيتهم فيهما انطباعاً عميقاً ليس فقط لكونهم حَمَلة شهادات الدكتوراه بل لكونهم يحملون شهاداتهم تلك من جامعات مثل هارڤارد وييل وغيرهما من جامعات الدرجة الأولى. وأدركت كذلك ان الآنسات: إدي وارشيبالد وكالِن ودايفِس وغايم وكروس وولوبي، كنّ جميعاً أشخاصاً ممتازين يعلمن علم اليقين ان ما يجري داخل غرف صفوف المدرسة ليس تلقيناً بل

اكتساباً للمعرفة والعلم وان مهمتهن هي اثارة اهتمامنا بها وتزويدنا بأصول تصنيف الأمور وتقويمها. استطيع القول الآن دون أن يرفّ لي جفن بأن «الثقافة» ـ حسبما تعلمت استعمال هذه الكلمة ـ التي نلتها انا وغيري في «مدرسة إرسكن رمزي الفنية العالية» في مدينة بيرمنغهام في ولاية الاباما تضاهي تلك التي حصلها الكثيرون من حملة شهادات الدكتوراه سواء من جامعة هارڤارد أو ييل أو برنستون الذين عملت معهم لاحقاً في الوكالة أكانوا أرفع أو أدنى مني رتبة.

دعوني أسوق هنا مثلاً بسيطاً. فقد طُلب إلينا في الامتحان استعمال البارومتر (جهاز قياس ضغط الهواء) لتحديد ارتفاع ناطحة السحاب «امپاير ستايت» في نيويورك. وفيما راح المرشحون الآخرون يسترشدون بما تعلّموه من أصول الرياضيات في جامعاتهم المختلفة خرجت بالجواب الذي نتج عنه استدعائي إلى الغرفة المجاورة حيث خضعت للامتحان الافرادي كما سبق وأوضحت، فقلت: «أبحث أولاً عن المهندس الذي صمّم البناية وأقدّم له هدية هي عبارة عن بارومتر جديد وجذاب شرط أن يقول لي الرقم الصحيح لارتفاع البناية». وهذا بالفعل ما كنت لأفعله لو انني واجهت في الحياة الواقعية موقفاً كهذا.

كانت دهشة الأساتذة الثلاثة ـ باللاتشي ومورغن وتيرنر الذين صاروا فيما بعد من أقرب أصدقائي ـ كبيرة من جوابي بمقدار ما كانت دهشتي منهم. لقد كان شعوري إذ يحيط بي رجال ونساء من ذوي الكفاءات العلمية الرفيعة مزيجاً من التواضع أمامهم والاحترام البالغ لتفوقهم العلمي من جهة والدهشة المستمرة من إصرارهم على تحويل القضايا البسيطة إلى قضايا معقّدة من جهة أخرى. ثم، وبعد عجزهم عن حلّها، رغم معرفتهم لمسبّباتها، تبقى لديهم غير قابلة للحل. العقليات المماثلة تحيط بي منذ بداية معاطاتي مع وكالة الاستخبارات المركزية. ولدى سؤالي عن المؤثرات الأولى التي عملت في نفسي كان من الطبيعي ان الجواب الأول الذي سبق غيره إلى ذهني جاء متعلقاً بمؤهلاتي الدراسية رغم ادراكي للتفاوت الشاسع بينها وبين تلك التي يتمتع بها أفراد الهيئة الذين يستجوبونني.

لنرى إذاً ممن جاءت تلك المؤثرات؟ أمِن أبي؟ كلا، فقد كان أكبر سناً من والدتي بثمانية عشر أو بعشرين عاماً أي من سن أجداد أترابي لا من سن آبائهم. إن كل ما أذكره عنه انه كان يؤمن بالتلقين لا بالتعليم وانني كنت أقاوم كل شيء أرادني أن ابتلعه ابتلاعاً. فنتج عن ذلك وجود ثغرات في ادراكي حيث ينبغي أن أرى الأمور بجلاء، وتقزّز في نفسي لكل ما هو مفروض عليَّ فرضاً. ام انها من أمي؟ أجل، فقد كانت عطوفة وغفورة ومرحة وقصاصة ممتازة، وقادرة على رؤية البقعة المنيرة في أي محنة كالحة، والناحية المضحكة في أي كارثة، وشفوقة في الوقت نفسه على ضحية الكارثة.

أُصبت قبل موعد دخولي المدرسة بداء السل الصدري فقضيت سنتين في الفراش. وعندما دخلت المدرسة وجدتني متقدّماً جداً عمن هم بعمري من أترابي ذلك لأنني قضيت سنتين من الدراسة المكثفة. فعلى يَدَي عمتي التي اعتبرت تعليمي تحدّياً لها تعلمت القراءة والكتابة والجمع. وكان هناك أيضاً جارنا المفكر وايتس تايلور الذي أرشدني إلى ماذا أقرأ، كما علّمني شقيقي الأصغر، هنتر، وهو الرياضي في حيّنا، كيف استغلّ الرياضة في حياتي المتبرعمة. وهكذا سرعان ما اكتشفت بعد دخولي المدرسة ان الذكاء ليس خطيئة، وان هزال البنية ليس خطيئة هو الآخر، وان اجتماع الذكاء والهزال هما بالنسبة لباقي الطلاب بمثابة الاعلام الحمراء لثور المصارعة. تكيّفي مع واقع ان باستطاعة أخي الذي يصغرني بسنتين أن يصدني كلما حاولت مهاجمته جَعَلني ما أنا عليه اليوم. فلما أدركت عدم قدرتي على انتزاع ما أُريده منه بالقوة لجأت إلى الحيلة ونجحت فيها، بل تفوقت.

قبل بلوغي العشرين من العمر صار بإمكاني ليس فقط التحايل على شقيقي بل وكذلك على باقي الرفاق والحصول على ما ابتغيه منهم. فقد جعلتهم مرة يقفون طابوراً طويلاً لشراء طوابع بريدية تذكارية مزوّرة، ومرة أخرى لشراء تذاكر يانصيب «لرحلة لغز»، وثالثة لشراء مهيّجات تؤثر في الشابات «المهذبات»، وللاشتراك في «حديقة حيوانات» تجمع فيها حيوانات ولاية آلاباما بواسطة الافخاخ في وقت غير محدد، على أن يقوم الكشاف المحلي بذلك. ولما انفضح أمري في نهاية المطاف قال المستر تي. سي. يونغ مدير المدرسة ان على ضحاياي ان يشكروني لأنني لقّنتهم درساً سيكون بالغ الأهمية وجزيل الفائدة لهم في المستقبل عندما يدخلون العالم الحقيقي. وكان المستر يونغ نفسه أول «مشترك» في «حديقة الحيوان» تلك، وأحد الذين تذوقوا قبل غيره لذّة طعم العالم الحقيقي الذي تحدث عنه.

الله، كيف تجرجر الذكريات بعضها بعضاً! جاك هولبندر، نجم حفلة الربيع في المدرسة سجّل حدثاً في التاريخ المسرحي. فقد أصابه انتصاب وشوهد بوضوح من آخر مقعد في القاعة، أثناء تأديته مع فتاة من عمره تدعى مايبل البرناثي أغنية «آه، أوعديني». لم يكن ذلك الفتى المسكين يدرك، لحداثة سنه، ما حدث له علماً بأنه لا بد شعر بأن لامساكه بيد مايبل شأناً ما بذلك. ولم تفطن مايبل بدورها لما يجري حولها حتى أخذت همسات الحضور تتحول إلى ضحك ثم إلى قهقهة فانتبهت إلى انتفاخ سروال جاك وصاحت بأعلى صوتها هاربة عن الخَشَبة لا تلوي على شيء.

أما الفتى المسكين الآخر هركي مكدرمك فقد اعترته البراغيث ـ نعم، براغيث! فلم يعد أحد يقترب منه، ناهيك عن الجلوس بقربه في الصفّ. ولا بد انه كان في ذلك الوقت أتعس فتى في الوجود، لجأ إلى الاستحمام مرتين في اليوم فضلاً عن استعمال جميع أنواع العقاقير المعروفة في حينه، ولكن دون جدوى. وأخيراً عندما علمنا ان البراغيث لا تحبّ سواه ولا تنتقل إلى غيره صرنا نقترب منه أثناء الفرصة نمازحه بشأنها. ولكنها لا تكاد تودعه حتى تعوده ثانية متجاهلة باقي الرفاق. وهكذا وبفضل البراغيث صار هركي للمرة الأولى في حياته محور اهتمام أترابه فأشرقت أساريره بالرضى والارتياح واكتسب ثقة المجتمع. وفي اعتقادي ان عليه الاعتراف بجميل البراغيث لصيرورته أشهر محامٍ تجاري في الولاية.

وكان بيننا أيضاً فتى هزيل البنية قصير القامة يدعى بوريغارد روزبلوم اسميناه «بو» تصغيراً وتحبّباً، صار الآن أحد كبار جراحي الدماغ في نيويورك. و«بو» هذا يلثغ بحرفي السين والكاف. وكمثل ديموستين الخطيب، قام بتنمية قدرته الخطابية فبات يسحر المؤتمرات الطبية ببلاغته وإلقائه وهو يحاضرعن التهابات أطراف الأعصاب وأمراض الغدّة النخاميّة والحركات العصبية اللاإرادية. وكان نطقه ميؤوساً منه كلياً وهو في الثانية عشرة من عمره. في المناسبة التي أشير إليها هنا طلب من «بو» ان يلقي في الاجتماع الدوري الاسبوعي في مدرج المدرسة خطبة الرئيس لينكولن في ذكرى معركة غتيسبرغ.

بدأ الالقاء: «منذ ثمانين وثبع ثنوات . . .» ثم استمر بجدية وبصوت آخذ في الارتفاع حتى كاد يصبح زعيقاً فيما كان المستمعون يضحكون لدى تلفظه بكل كلمة فيها حرف سين أو حرف كاف. ولما ضاق ذرعاً توقف عن الالقاء ونظر إلى الحضور نظرة اشمئزاز وتحدّي ثم تفوّه بكلمات صارت فيما بعد كلمات خالدة في المدينة، اضافة إلى ان سلاح الاشارة في الفرقة الحادية والثلاثين من الحرس القومي قد تبنّاها. صاح قائلاً: «بامتانتُم تلُتُم أن تلحثوا تفاي!!!» ونزل عن المنبر بخطى ثابتة تنمّ عن

شعوره. فما كان من الحضور إلّا أن نهضوا من مقاعدهم يصفقون له بحماس. وصار «بو» الآن أحد أبطال مدينتنا الاسطوريين.

يبقى سرد بعض ذكرياتي هذه مبتوراً إن أنا تغاضيت عن ذكر رجل طيب حقاً هو الاستاذ الوحيد الذي أتذكره من بين الرجال الذين علّموني في المدرسة. وكان باستطاعتي الافصاح بسهولة بالغة عن انه أدّى قسطاً وفيراً في تكوين شخصيتي لولا ذلك البحر الواسع من العلم والمعرفة الذي أحاط بي أثناء تأدية كل تلك الفحوص والامتحانات في وكالة الاستخبارات المركزية. إنه المدرّب كِلّي، أو «فرِد»، كما صار يسمح لنا بمناداته بعد بلوغنا مرحلة الشباب.

الزمان: أظنّه العام ١٩٤٤. والمكان جادة الشانزليزة في باريس. كنت سائراً في ذلك الشارع الشهير وإذا بي أرى المدرّب كِلي مقبلاً عليّ. إنه مثلي برتبة نقيب، علماً بأن رجلاً يتمتع بذكاء وشخصية كلّي ينبغي أن يكون برتبة عقيد أو أرفع منها. تبادلنا التحية بحرارة صادقة وسألته كيف يريدني أن أخاطبه، ذلك ان «مستر كلّي» تبدو عبارة سخيفة ومصطنعة في تبادل النكات بين ضابطين من رتبة واحدة، فقال: ان «فرِد» تفي بالغرض. ذهبنا لتناول الغداء وأخبرني قصة مدهشة أعيدها الآن لمصلحة أصدقائنا القدامى في برمنغهام الذين قد يقرأون هذا الكتاب شرط أن يعدوني بألّا يفشوا سرّها. ولكن لا بد لي من سرد خلفية تلك العلاقة الخاصة التي نشأت بيني وبين المستر كلّي.

خلال العام الدراسي ١٩٣٠ ـ ٣١ حصل في مدرستنا سلسلة من المزاح، بعضه بريء والبعض الآخر أقل براءة، كتبديل العلامات على مسابقات الامتحانات وتعليق نشرات على لوحات الاعلان عن علاقات عاطفية بين المعلمات والمعلمين الشباب ومذكّرات تنصح وترشد ضحايا الحب والغرام إلى أساليب اكتساب ودّ الفريق الآخر أو إلى وسيلة للتخلص منه. كل ذلك من باب التسلية واللهو ولكنه ملفت للنظر. استعار الشخص عن تلك التقليعات اسم أرسين لوپن، اللص الباريسي المختص بسرقة التحف الفنية ودارت حول مغامراته قصة احد أول الأفلام السينمائية الناطقة. ولما كنت أحد الطلاب المعروفين بشعورهم بالمسؤولية المجتمعية تقدمت بعدة اقتراحات للقبض على ذلك النذل وذهبت إلى حدّ انشاء فريق حراسة لمراقبة الردهات حيث توجد لوحات للاعلانات. وفي النهاية قدمت للمستر كلي قائمة بافخاخ، إذا نُصبت وخضعت للمراقبة بدقة، أدت إلى كشف هويّة ذلك المحتال.

أما المستر كلّي الذي كان يعرف سراً تلك الهوية ـ أي أنا ـ فنصب الأفخاخ في الأمكنة التي تضمن وقوعي فيها وتمكن من ذلك قبل شروعي بحملة دعائية عن علاقة عاطفية بينه وبين الآنسة مون، معلمة الجغرافيا اللطيفة المعروف عنها انها تكنّ له مودّة خاصة. يا له من ثعلب عتيق! طلب رئيس المدرسة طردي منها عقاباً على أفعالي، ولكن المستر كلّي كان قد استمتع بتلك الألاعيب انه استطاع انقاذي مما هو أكثر جدية بكثير من البقاء بعض الوقت الاضافي بعد الانصراف ولبضعة أيام في صف معلمة اللغة اللاتينية الآنسة غايم الجميلة فلم اعتبر ذلك قصاصاً صارماً.

هكذا التقينا المستر كلّي ـ فرد ـ وأنا في باريس وكان قد بلغني انه مرّ بفترات صعبة. فعلى الرغم من كونه رجلاً شريفاً وعلى الرغم من ان أحداً لا يستطيع أن يتهمه بأي سوء ائتمان سواءً من حيث التلاعب بأموال المدرسة أو تضخيم فواتير نفقاته أو حتى خيانة زوجته مع أرملة ثرية، لم يفقه مجلس أمناء المدرسة كيف استطاع المستر كلّي شراء منزل جميل في حيٍّ راقٍ وسيارتَيْ بيويك واحدة له والثانية لزوجته. سأفضح الآن سره.

أثناء تناولنا طعام الغداء قال فرد: «سأدلي باعتراف حبسته سراً طيلة هذه السنوات. هل سبق

لك أن قرأت مجلة «الشبح؟» طبعاً، هل هناك من لم يقرأها؟ لقد كانت أكثر المجلات المختصة بقصص الاجرام والتحرّي شعبية، واقتبس عنها برنامج اذاعي اسبوعي مدّته ساعة كاملة اجتذب المستمعين من كل الأعمار مساء كل يوم أحد. حسناً، أين الاعتراف؟ المدرس فرِد كلّي هو «الشبح» فقد كان يتقاضى ثلاثة سنتات عن كل كلمة يكتبها للمجلة في قصة مؤلفة من ١٥ ألف كلمة. ولا شك في أن دَخلا متوسطه الاسبوعي ٤٥٠ دولار إضافة إلى راتبه في المدرسة وإلى الاتاوة التي يتقاضاها من المحطة لقاء اذاعة رواياته شكّل في تلك الأيام مدخولاً كبيراً. لقد كنا هو وأنا شخصين متشابهين في التفكير ومختلفين في بعض وسائل التعبير. المدرب كِلّي صاحب مخيلة غزيرة ومقدام لا يتورع عن الخوض في أمور يعتبرها العاديون حوله بعيدة عن مناهم إلى حدّ وصف التفكير بها على انه مجرّد أحلام قصيّة، ولكنها كانت كافية لجعلهم في سنوات الكساد في الثلاثينات ينعتونه بألطف القسوة الممكنة كقولهم: «إنه رجل طيّب ولكن قدميه ليستا على الأرض». وإذا حذفنا عبارة «إنه رجل طيب» تظل العبارة الثانية هي الصفة التي ألصقها به اساتذتي ورفاقي في الصف والمدرسة.

الفصل الثاني

المدرسة، فرق موسيقى الجاز والجيش الأميركي

لنرى بماذا خرجت من مدرسة رامزي العالية اضافة إلى امتلاكي لنظريات بولن في الجبر وهندسة اقليدس ولنظرية لعبة الرياضيات ولمجموعة التعابير الفلسفية ولمنطق الاخلاقيات وما شابه ذلك؟ صحيح بماذا؟ ولكن شغفت بنشاطينْ غير مدرسيين: الأول هَوَس بمتابعة ما لدى رفاقي من دراهم الجيب، لأنني كنت قد حفظت عن ظهر قلب تراكيب لعبتي البوكر والبلاك جاك. أما الثاني فكان مبعث أمل لشاب حساس لم يبلغ العشرين من عمره بعد في أيام الكساد الكبير من أعوام الثلاثينات: انه نفخ البوق. لكنني كدت أكفر بالبوق وبالنفخ فيه لأن والدي جعلني أقضي ساعة من التدريب القسري عليه كل يوم. غير ان ميلي الطبيعي للموسيقى وأذني الحساسة جداً بها سهّلا عليَّ اتقان العزف والحلول في مرتبة عازف البوق الأول في فرقة المدرسة. ولكن برز في تصرفي الموسيقي شواذ لم أدرك له سبباً إلّا بعد ما صرت أباً لعبقري موسيقي: قلت ان والدي أجبرني على قضاء ساعة في التمرين على العزف صباح كل يوم. فكنت أعزف خلالها أحد الألحان المفضلة لديه، نشازاً فقط نكاية به وثأراً من إكراهي على التمرين، وفي الواقع كنت استرق ثلاث أو أربع ساعات من التمرين بعد ظهر كل يوم قابعاً في فناء قاعة الموسيقى في المدرسة.

يعود الفضل في صيرورتي عازفاً مرموقاً لا إلى تلك الساعة الكئيبة التي فرضها أبي عليَّ داخل البيت بل إلى ساعات التمرين السرّي في المدرسة. وما أن أطل العام ١٩٣٢ حتى أصبحت أحد عازفي فرقة الاذاعة المحليّة وتعاقدت معنا احدى شركات العطورات لتقديم اعلاناتها من الاذاعة. تحولت الفرقة المتواضعة إلى فرقة كبيرة وحملني البوق إلى جامعة الاباما التي دخلتها وكلّي تصميم على متابعة الدروس فيها إلى أن اغاظني عازف السكسوفون الكبير، جيري جيروم، حتى الجنون. ففي كل مرة زعق فيها بوقي بنوتة نشازاً، نظر إليَّ جيري نظرة اشمئزاز وتوقف برهة عن العزف ليهزّ رأسه ثم عاود العزف وكأنه يقول: «لا حول ولا . . .» وأطلق عليَّ لقب «بوّاق المدرسة». كنا آنذاك في فرقة عرفت باسم «كاڤاليرز» [الفرسان].

فعلت بي نقائصي الموسيقية ما فعله اللثغ بـ «بو». فقد كنت أيام المدرسة في بيرمنغهام استرق ساعات التدريب استراقاً أما الآن فتخلّيت كلياً عن التظاهر بمتابعة الدروس الجامعية وأخذت أقضي في التمرين من ستٍ إلى ثماني ساعات يومياً، وكانت تلك طريقتي بالقول لجيري وغيره في فرقة كاڤاليرز: «بامتانتم تلّتم أن تلحثوا تفاي». لم أقضي الساعات الطويلة هذه بالتمرن على عزف السلالم الموسيقية والدروس العادية بل على عزف وصلات البوق المنفردة من ضمن المعزوفة العامة. صحيح انني لم أتعلم قط عزف مقطوعة «طيران ذكور النحل» مثلما يعزفها هاري جايمس، ولكن عندما التقى جيري بهاري في فرقة بني غودمن قال الأول للثاني بأن عليه التخفيف من غلوّه ومتابعة ما يقوم به صديقه القديم في كل من بيرمنغهام ونيو اورلينز. وفي الواقع أخبرني هاري بذلك عندما زارني خصيصاً ليدعوني للالتحاق بفرقته في العام ١٩٣٧.

كان انتزاع إعجاب جيري غاية بحد ذاتها عندي، وبعد بلوغه أعلى قمم الفرق الموسيقية آنذاك

لم يكفّ عن اطرائي في أوساط فرق الجاز بحيث بتّ مديناً له بعضوية كل واحدة من الفرق الكبرى التي انضممت إليها فيما بعد. لا أنسى ذلك الاسبوع الذي حاولت فيه جهدي مكافحة النعاس طيلة أيامه التي أمضيناها في فرقة غلين ميللر نعزف في مربع ليليّ على سطح فندق روزفلت في نيو اورلينز أواخر صيف ١٩٤٠ وفي اعتقادي ان ذلك الاسبوع رغم ما عانينا فيه من إرهاق شكّل قفزة كميّة في اسلوب حياتي الآخذ بالتسارع. ففي آخر ليلة من ليالي تعاقدنا مع الفندق جمع غلين أفراد الفرقة ليطلعنا على فكرة رائعة خطرت له، وقال: «سيطالنا التجنيد الاجباري جميعاً فربما استطعنا دخول الجيش معاً». كان غلين نفسه قد تخطّى سن خدمة العَلَم، أما نحن فكنّا كلّنا شباباً أصحاء راقت لنا جداً فكرة قضاء فترة الحرب نعزف الجاز ترفيهاً عن الجنود في مختلف المواقع. حملت الفكرة على محمل الجدّية خصوصاً بعدما قال غلين انه هو وأفراد الفرقة الدائمون سينضمون إلى الجيش بعد انقضاء أجل التعاقد مع مربع ميدو بروك في ولاية نيوجيرزي.

غاب عن ذهني الآن معظم تفاصيل دخولي الجيش، لكنني ما زلت أذكر أنني ذهبت، بعد عودتي إلى الاباما بقرابة الاسبوعين، إلى مركز الحرس القومي والتحقت بفرقة فرسان «راينبو» المشهورة بأن البلهاء فيها أكثر عدداً من الجياد. كنت آمل في الانتهاء من فترة التدريب بحيث انضم إلى ميللر وفرقته لدى دخولهم الجيش، ولكن شاءت الظروف أن يتأخروا سنتين قضيتهما في الخدمة الفعلية في أوروبا وفي حياة مختلفة كلياً عن سابق اسلوبي فبتّ كأنني في عالم آخر.

إنه لعالم جديد بالتأكيد. فبصفتي عازف جاز كنت أتقاضى راتباً كبيراً (بالمقارنة مع رواتب تلك الأيام) وأحظى باحترام بل وباعجاب زملائي، كما كنت استمتع أيضاً بعزف موسيقى الجاز أكثر من أي عمل آخر (أو بطالة عن العمل) قمت به قبله أو بعده. ولكن عالم المرابع الليلية والأفلاك التي تدور فيها فرق الجاز لم يكن عالمي المفضل. لقد أحببت زملائي كثيراً وأظنهم أحبّوني أيضاً. ولكن لم يحدث إلّا مرتين أو ثلاثاً خلال وجودي بينهم طيلة سبع أو ثماني سنوات ان قال لي أحدهم مجرد «قم لنذهب إلى السينما بعد ظهر اليوم». وبالمقابل كانت الحياة في الجيش مختلفة كلياً. لقد كنت أسوأ جندي في العالم ولكنني استطعت الاختلاط بسلاسة مع كل الذين اشتغلت برفقتهم. وخلت انني عثرت على موقعي الطبيعي.

كان آمر الوحدة هناك المقدم كوغديل يعمل في أيام السلم بائع لبوليصات تأمين. لا يعرف في الشؤون العسكرية بمقدار ما يعرفه من التزلّفات الرخيصة. انضمّ إلى الحرس القومي لأن في ذلك فائدة له في ترويج أعماله واستطاع بلوغ رتبة «مقدّم» لأنه تفوّق من حيث مواهبه بقدرات فتيان فرق الكشاف في أيام السلم. عيّن ابنه البالغ الثامنة عشرة من العمر برتبة عريف أول، وعين نائباً للعريف قاضي الناحية لأنه سيحتاج إلى خدماته. أما معي أنا فقد ارتكب احدى أفدح غلطاته، على كثرتها. ذلك انه لا بد ان مظهر ثرائي المتمثل بأناقة ملابسي وبسيارتي الفخمة التي وصلت فيها إلى المركز قد أثّر فيه فعينني الرقيب الثالث. ثم عين معنا بوب كرايغ وهو عازف الطبل في احدى الفرق الموسيقية المحلية المرموقة وأحد أمرح الرجال في الدنيا، وجاءنا أيضاً بصديقي هيو ياربر وبجورج آلن سميث وهو ابن أحد القساوسة في المدينة الذي تجرأ أن ينافسني في مغازلة أجمل بنات المدينة، وببضعة شباب آخرين ارتحت كثيراً لمخالطتهم. لقد كان ذلك الجو جوّي الأمثل ـ لتلك الحقبة على الأقل.

أما الوظيفة؟ كانت ممتازة حقاً، فلا يحتاج المرء فيها حتى لدماغه! فكنت أجلس طيلة النهار أراجع حسابات الرواتب بسرعة ودون تفكير، فيما يبتعد عقلي عن عملي ذاك مسافة ألف ميل. المقدم

وابنه أبلهان دون شك، ولكنني أحببتهما. فقد كانا لطيفين معي دون أن يخلو ذلك من بعض التزلّف، وأضفيا الكثير من الهزلية على حياتنا. فبحضورهما كان علينا بالطبع أن نحملهما على محمل الجدية. أما في غيابهما فكنت أنا وهيو وبوب نتبادل الآراء الشفهية والنكات عنهما وعن تصرفاتهما التي لو كتبناها آنذاك لكانت تشكل الآن، بعد أربعين سنة، حواراً لسيناريو الفيلم الذي طلب مني كبير أبنائي كتابته. الواقع انني، مثل اينشتاين، بارع في الرياضيات وضعيف جداً في الحساب. فأخطائي في الجمع البسيط عديدة إضافة إلى صعوبة تحديد مواقع في الفواصل في الكسور العشرية. ومنها مثلاً انني حسبت الراتب لشهرين لملازم ثانٍ في المركز على انه ١٣٠,٠٠٠ دولار. لا ريب انه قدّر لي اريحيتي ولكنه كجندي نزيه ينتظر ترقيته إلى رتبة ملازم أعاد الشيك وعرضه على المقدّم الذي أمر فوراً بدفع راتبه الصحيح، فقط ١٣٠ دولار لا غير. (قال لي الملازم لاحقاً: «ستكون هذه الحرب طويلة»). المهم ان المقدم حدّد مهمتي فقط بتعداد أوامر صرف الرواتب لا بتعبئة خانات الأرقام فيها.

وفي النهاية اسمعني المقدم كوغديل ما يشبه العبارة التقليدية التي يقولها كل مدير مدرسة للطلاب الراسبين بأنه «قد يكون من الأفضل لهم الالتحاق بمدرسة أكبر» مقترحاً بكل ما أوتي من كياسة بأنني قد أكون «أكثر سعادة» في وحدة «أقل تميزاً» ليس فيها أي مجال للحساب - أي وحدة مشاة عادية أو ما شابهها. وهنا أنقذني رنين الجرس. ولكن تشاء الصدف ألاّ يكون مجيئي على ذكر اينشتاين مجرد هراء. فقد تبين أنني رجل ذكي فكان ذلك الاكتشاف نقطة تحول أخرى في حياتي. فقبل أن نستقلّ القطار العسكري باتجاه مخيّم بلاندينغ في ولاية فلوريدا، وهو أول مكان تنقل إليه فرقة الحرس القومي الحادية والثلاثون جُمع بضع مئات منّا في مركز الفرقة حيث أخضعنا لما عُرف آنذاك بالامتحان التصنيفي العام للجيش، وهو امتحان يشبه امتحان تحديد نسبة الذكاء أدخلت عليه تعديلات لقياس المهارات ولاستثناء الأسئلة «ذات الصلة الحضارية» التي من شأنها عدم انصاف الأفراد المنتمين إلى عرقيات «أقل ثقافة». ولما كان معظم الأسئلة من النوع الذي يختار فيه المرشح جواباً من بين عدة أجوبة، فأي انسان يتمتع بغريزة المقامرة يدرك بأن عليه اهمال الجوابين الأقل منطقية واختيار واحد من الجوابين الآخرين. وهكذا فعندما أجهل فعلاً الجواب الصحيح أُعمل الحدس في الاختيار. جاءت نتائجي في الامتحان، كما علمت لاحقاً، بتصنيفي بين العباقرة.

وفيما كان المقدم يكتشف مدى بلاهتي انكبّت دائرة شؤون المِلاك في الجيش على دراسة مجالات الإفادة من قدرتي العقلية المتفوقة. وما أن انتقلت فرقتنا إلى مستنقعات لويزيانا لإجراء مناورات الربيع تحت المطر - في الأراضي الموحلة، حتى دعيت إلى مكتب مساعد القائد العام ومنه إلى معسكر ليڤينغستون في مونروڤيا، في ولاية لويزيانا، للخضوع لامتحانات اضافية. لم يكن في غرفة الامتحان سوى جنديين غيري. قدّمت الامتحان فكانت النتيجة مشابهة لنتائج الامتحان السابق أي ١٦٠ نقطة بينما المعدل العام المقبول به للجنود محدد بمئة نقطة وذلك المقبول به لتدريب الضباط هو ١١٠ نقاط، مقابل ٨٥ نقطة فقط للسود والهنود الحمر - الواقع انني سجّلت ١٤٥ نقطة في الامتحان الأول و١٦٠ في الثاني، علماً بأن من يحصل على ١٤٠ نقطة وما فوق يعتبر في مصافّ العباقرة.

بلغني فيما بعد ان علامتي الأخيرة هي أعلى علامة سُجلت في القوات العسكرية الأميركية، وأعلى من علامة ابن خالي، دون سكوت (يبدو ان الذكاء من سمات أسرتنا) وتكاد تتماثل مع المستوى المقدر لألبرت اينشتاين، وليوهان ڤولفغانغ غوته، وللسيد المسيح حسب ما أظهرته دراسة أجراها فريق من علماء النفس في جامعة ستانفورد ضم البروفسور إغرتُن باللاتشي الذي ذكرته في مطلع الفصل

السابق. قلت لنفسي بأنني ذو عقل متفوّق. فماذا تراني أفعل تحت المطر وفي الوحل بين كل هؤلاء الفلاحين المساكين؟

لما رجعت إلى خيمة المالية أخذت قلماً وورقاً وسطرت رسالة إلى أحسن رجل في العالم، النائب جون سباركمن، الشيخ سباركمن فيما بعد، وأقوى رجل في لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجية، وصاحب أفضال متعددة أسبغها عليّ في السنوات اللاحقة. ثم ادّعيت وفاة جدتي أو غيرها عذراً للحصول على اجازة لعشرة أيام وتوجّهت بالقطار السريع إلى واشنطن العاصمة. ولدى سماعه عن عبقريتي الفذّة أرسلني النائب سباركمن فوراً إلى مكتب الجنرال «وايلد بِل» دونوڤان الذي كان آنذاك يشكل شيئاً سمي «مكتب تنسيق الاستعلامات» الذي تحول إلى «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الشهير [= OSS = Office of Strategic Services وهو مكتب الاستعلامات الأميركي لأيام الحرب ثم إلى وكالة الاستعلامات المركزية في أيام السلم = CIA = Central Intelligence Agency

قامت بيني وبين الجنرال دونوڤان علاقة تفاهم ومودة منذ لقائنا الأول. وصلت مكتبه بعيد الظهر ولم يكد يمضي بضع دقائق حتى بدأت أقصّ عليه حكايات المناورات في مستنقعات لويزيانا والفترة التي قضيتها مع المقدم كوغديل وابنه. راح الجنرال يضحك ويضحك ثم سألني عما إذا كنت قد تناولت طعام الغداء. فإذا بي بعد دقائق قليلة أتناول السندويشات وأشرب الجعة في مكتب وايلدبِل دونوڤان الشهير علماً بأن الاتصال به متعذّر إلاّ على الرئيس روزفلت. خرجت من مكتبه بتأكيدات بأنه سيتصل بي قريباً.

وهكذا عدت إلى الوحل وإلى تعداد أوامر الصرف. وأُصبت بضربة الشمس وتسممت بسموم الأعشاب ونلت حصتي من قرصات البعوض ونمت في فراش بلّلته الأمطار ونزلت بي جميع أشكال البؤس والشقاء التي يمكن أن تحلّ بانسان عليه العيش في مستنقع بارد وممطر ليلاً وحار ورطب نهاراً. كنت أحلق ذقني صباح كل يوم حتى في أيام المناورات، حسب الأوامر، انـا كانت بزّتي مجعدة وملطّخة بالوحل اليابس. باختصار كنت في حال تعيسة كحال المقدم كوغديل لدى معرفته، عبر الأوامر السرية جداً، بأنني موضع تحقيقات تمهيداً لتكليفي بمهمة في واشنطن. شعر المقدّم بارتياح كبير لفكرة التخلّص مني لم يقابله شعور مماثل لما تنمّ عنه تلك البشائر. دعاني في احدى الامسيات قبيل موعد العشاء ولما رآني قال: «إنك تحقير لبزّتك!».

تحقير لتلك البزّة؟ حاولت جهدي التمالك من الضحك فلم أتمكن من ذلك. وعندما رأيت أن المقدم لم يقدّر الدعابة في ذلك الموقف حاولت استعادة الجدية ثم انفجرت ضاحكاً لأعود وأتمالك نفسي ثم رحت أقهقه من جديد حتى أفلت من يدي فأخذت أتدحرج على الأرض والدموع تنهمر من عينيَ من شدة الضحك، في حين جلس المقدم كوغديل يزداد حنقاً واحمراراً. وكان المقدم قد استشاط غضباً قبل تلك المقابلة لأن دماغه ذا المئة وعشر نقاط قد تمكن بشكل ما من الادراك بأن جدتي لم تكن على فراش الموت وبأنني استعملت اجازة العشرة أيام لاعداد صفقة ما وبأنني استعملت النفوذ السياسي الذي يختص هو به لتأمين نجاح تلك الصفقة. وكنت آنذاك قد أخذت أضحك منه وجهاً لوجه. وهنا قال لي: «من الأفضل لك أن تصلّي ليلياً من أجل الحصول على تلك المهمة، أياً تكن، ومن الآن وصاعداً لن يكون هذا المكان مكاناً فرِحاً لك».

لم تقم وسيلته في جعل حياتي بؤساً على اعطائي المزيد من أوامر الصرف لأعدّها وهو أمر لم يكن ليهمّني، بل على اهمالي كلياً. فكان ذلك من حسن حظّي لأنه سمح لي بأن أتسلّل إلى موقع قيادة كتيبة لويزيانا وزيارة فرقة الجاز التي تضم موسيقيين من نيو اورلينز وبعضهم من أصدقائي والبعض الآخر انخرط في الجيش على أمل الانضمام إلى فرقة غلين ميللر التي سيتم تأليفها بعد زهاء السنة. ومن دون الخوض في التفاصيل أجريت الترتيبات لنقلي إلى الكتيبة المذكورة ريثما تنتهي الاستقصاءات والتحقيقات الأمنية بشأني.

وهكذا عدت إلى فرقة للجاز. ولما رأى المقدم كوغديل ان انتقالي إلى الفرقة يعني تخفيض رتبتي من رقيب إلى مجرد جندي ارتاح بل فرح، وازداد فرحه عندما سمع ان أفراد الفرق الموسيقية العسكرية لا ينفخون في أبواقهم في ساحات القتال الفعلي بل تسند إليهم مهمة اخلاء جثث الجنود القتلى. وفيما كان يوقّع على الأوراق المتعلقة بنقلي قال: «هذا العمل ينا سبك شرط ألاّ يطلبوا منك ان تعدّ الجثث».

ليس من الدقة في شيء القول بأنني بلغت أوج خدمتي العسكرية في الأسابيع القليلة التي تلت انتقالي. فسحب الدمى المخضبة بطلاء أحمر من ساحة قتال وهمية لم يكن ذلك العمل المضني خصوصاً وانه فرض علينا ساعة من التمرين على الموسيقى العسكرية صباحاً وثلاث ساعات من التدريب على موسيقى الجاز بعد الظهر يومياً. وبينما كنت أتأمل وضعي في ليلة ممطرة تحت خيمة شاطرني إياها هانك فريمن، سمعت صوتاً في العتمة الدامسة يناديني باسمي. خامرني الشك في بادىء الأمر بحسن سمعي، ولكن الصوت ازداد ارتفاعاً ووضوحاً بحيث لم يعد ثمة مجال للتشكيك بما سمعت إذ قال عند باب خيمتي تلك: «الجندي كوبلاند، معي أوامر سرية جداً بحيث لا أستطيع قراءتها».

كان الساعي عريفاً يرتدي معطفاً يقيه المطر وعليه اشارات مضيئة تنبىء بمهمته. سلّمني الرسالة وأنار مصباح يدٍ كيما أقرأها فقرأتها وإذ بها تقول بوجوب توجّهي فوراً إلى معسكر ليڤينغستون وسحب مئتي دولار (ما يعادل ألف دولار اليوم) وشراء تذكرة درجة أولى بالقطار، والسفر إلى واشنطن العاصمة عن طريق بيرمنغهام حيث يحق لي قضاء إجازة عشرة أيام وشراء ملابس مدنية.

في اليوم التالي، وبعد أن استلمت أوراق تسريحي من معسكر ليڤينغستون من الضابط المسؤول عن الملاك والذي أبدى اعجاباً شديداً بالأوامر السرية التي أحملها، جلست في مركبة الطعام في القطار ارتشف كأساً من المرطبات بانتظار تناول وجبة عشاء فاخر. نظرت من نافذة المركبة فيما كان القطار يسير مسرعاً عبر ساحة المناورات وإذا ببحر من الجنود يستعدّون للمبيت في خيمهم في ليلة غزيرة الأمطار. وهكذا عدت إلى «العصبة الكبيرة» التي لم تكن هذه المرة سوى فرقة موسيقى الجاز.

الفصل الثالث

واشنطن في الحرب

ها أنا أخيراً في واشنطن. توجهت إلى مقر قيادة الجنرال دونوڤان فوجّهوني إلى منزل خاص تحول إلى مكتب أطلق عليه اسم «فرقة شرطة الاستعلامات» التي ما لبث أن تحول اسمها لاحقاً إلى «مكتب مكافحة الجاسوسية». والظاهر ان مكتب تنسيق الاستعلامات كان في طور التحول إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي لم يكن قد بلغ مرحلة استيعاب «عملاء» كمثل ما هو مقرر لي. غير ان جيم مورفي المساعد الرئيسي للجنرال دونوڤان أكد لي بأن الأمور تجري على ما يرام وبأنني سأجد العمل مع العقيد غوردن شين، رئيس فرقة شرطة الاستعلامات، وبأنني سأنتقل فيما بعد إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية هذا في حال لم أقرر البقاء مع فرقة الشرطة المذكورة.

العقيد غوردن شين شخص منفتح ونشيط وهو نموذج للرجولة ومن أوائل الأميركيين الذين حازوا الحزامين الأسودين في فنيّ الجيدو والكاراتيه. وتبين أيضاً انه جعل من نفسه ما يشبه جايمس بوند في أيامنا ـ ان لم يكن في الواقع ففي تخيلاته والقصص التي يسردها عن نفسه. المهم انه ممتاز وتجسيد لشخصية الرئيس الذي كنت بحاجة للعمل تحت إشرافه في تلك الحقبة من حياتي. إن إدراكه المحدود جداً لواقع الأمور ـ هذا اذا توافر ـ نابع كله من أفلام وروايات المغامرات البوليسية والجاسيوسية، ولكن العقيد شين ليس بمهارة والترماتي من حيث الاخراج. لقد درّب نفسه تدريباً شاقاً ومتقناً كما انه يتمتع دون ريب بقدرة التعاطي الفعال مع أي من الحالات المستحيلة التي يتصورها، ويقضي ساعات يقظته كلها في اعداد الخطط الرامية إلى جعل تلك الحالات تحصل فعلاً.

بكلام آخر أفسح العمل مع غوردن شين مجالاً واسعاً لشخص مثلي. ولحسن الحظ، ومن أجل التدريب ـ مع بعض التصرف في استعمال هذا التعبير ـ عُيِّنت للعمل مع الشريك الأمثل للافادة من الفرص التي أتاحها غوردن شين. إنه فرانك كيرنز الذي صار أقرب صديق ورفيق لي طيلة السنوات العشرين التي تلت لقاءنا، وأضحى فيما بعد أحد كبار المراسلين الخارجيين لوكالة سي. بي. أس للأنباء. إنه يتمتع بموهبة جعلته لا يُقدّر بثمن. فما أن ينصب معدات التصوير، سواء في شارع خلفي في كاراتشي أو في جادة مطلة على البحر في بيروت حتى تبدأ الحوادث المثيرة الجديرة بالتصوير. طبعاً كان ذلك بعد لقائنا الأول بسنوات عديدة. عندما التقيته للمرة الأولى، وكان آنذاك في السابعة والعشرين أو في الثامنة والعشرين من عمره، بدا لي وكأنه توأم صديقي ورفيقي في احدى فرق الجاز، ستان كنتن، إنما أحاطت حلقتان بأسفل عينيه من كثرة السهر والمغامرات المرافقة للسهر، وتماثلت رغباتنا في الكثير من الحالات تماثلاً سيزداد وضوحاً من خلال صفحات هذا الكتاب.

كان معظم تدريبي على يدي فرانك كيرنز عبارة عن تركيز على اتقان استعمال كل العبارات التقليدية التي ترد في تحرير المقابلات والتحقيقات. وبمساعدة فرانك سرعان ما تعلمت فن تحريرها دون القيام بها فعلاً، وهو فن استغليته أحسن استغلال بعد سنوات عديدة عندما أنيط بي تحرير مراجعات الكتب في صحيفة «واشنطن بوست»، هذا علماً بأن معظم تلك الكتب كان على كل حال من باب الكلام الفارغ. وهكذا باستثناء فترات بعد الظهر التي لم نكن نشاهد أنا وفرانك مباريات «البايس بول» أو فيلماً في احدى دور السينما، رحت أحاول التوفيق بين تخيلاتي وتخيلات العقيد شين فكانت محاولتي تلك تشبه محاولة اعادة معجون تنظيف الاسنان إلى انبوبه. وفي كل مرة ذهبنا أنا وفرانك إلى

مكتبه لابلاغه عن نقص جديد ما اكتشفناه في نظام وقاية أمن بلادنا، كان يقول لنا شيئاً شبيهاً بـ «يذكرني كلامكما بالمرة الأولى التي زرت فيها طوكيو حيث أنيط بي أمر كشف وسيلة التخابر بين الاستخبارات اليابانية وبين . . .» ويمضي في الكلام مسترسلاً ينسج حكاية غَزَلَ خيوطها من حقائق قليلة ومما قرأه في الليلة السابقة في احدى مجلات المغامرات التافهة، هذا إضافة إلى أن الرواية تتغير في كل مرة عن سابقتها. بعد احدى تلك الزيارات قال لي فرانك: «إن العقيد المفضل عندنا رجل يصعب حمله على التقيد بشيء».

استطعنا أخيراً الإمساك به من ضمن ما كان احدى أصعب وأبله وأتعب المهمات التي أوكلت إليَّ خلال الأسابيع القليلة الأولى من خدمتي في جهاز شرطة التجسس. ففي احدى الليالي القارصة في منتصف كانون الثاني (يناير) أنيط بي وبفرانك القيام بالدورية من الساعة العاشرة ليلاً حتى السابعة من صباح اليوم التالي حول المربع الذي يقوم فيه المقر الرئيسي لجمعية الصليب الأحمر الأميركي والذي يبعد قليلاً عن مبنى وزارة الخارجية. كانت مهمتنا مراقبة جواسيس أو مخربين من المتوقع أن يهاجموا المبنى في أي وقت. جواسيس ومخربون يهاجمون جمعية الصليب الأحمر؟ إنه حقاً لخيال خصب! ما زلت أذكر انني لم أغضب من البارون مونشهاوزن* ـ مثلما أخذ فرانك يسمّي العقيد شين ـ كما غضبت منه في الساعات الأولى من تلك المهمة في صقيع ووحدة ورياح تلك الليلة الجليدية.

لا مجال للريبة في ان تلك المهمة ـ وهي البساطة بعينها ـ أعدت أصلاً لإبعادنا أنا وفرانك عن مرابع جورجتاون الليلية، ولكنها في مضامينها تحولت إلى ما يشبه رواية معقدة الحبك. لا مجال بين دفتي هذا الكتاب لذكر كل التفاصيل ولكن يكفي القول إن خبرة تلك الليلة باتت بمثابة القاعدة الأساسية التي اعتمدتها في لعبة حياتي: أي إذا كنت تبغي التيقن مما يرمي إليه عدوك عليك أولاً ان تقدر مقدرته مثلما تقدر مهارة خصمك في لعبة البوكر ثم تضع نفسك مكانه وتفكّر بما يفكر به هو لفترة وبعد ذلك تضع خطتك وتتصرف كما لو كنت مكانه في تلك الظروف.

بعد ليلة من الدوران حول مبنى الصليب الأحمر والأبنية المجاورة وفي جو بارد حرارته تحت الصفر وتفتيش خزنات مقر الصليب الأحمر، وتصادم مع شرطة واشنطن، وبعد رشوة رقيب في الشرطة وتهديده بفضحه لإعادة الرشوة إلينا، أمضينا ساعتين في مقر إقامتنا أعددنا خلالهما تقريراً بعنوان «المضامين الأمنية للفساد في شرطة واشنطن العاصمة». وعند وصول العقيد شين إلى مكتبه في الساعة الثامنة صباحاً اعترفنا أمامه بأننا لم نقضِ طيلة الليل في الدوران سيراً على الأقدام في ذلك الطقس البارد، بل استعملنا بعضاً من تلك «المبادرة» التي طالما تغنى بها أمامنا، لندخل بناء الصليب الأحمر بالكسر والخلع وفحصنا ملفّاته سعياً لمعرفة ما الذي يُحتمل أن يبحث عنه الجواسيس الألمان.

لم تبد على العقيد شين إمارات تنم عن أي امتعاض أو دهشة، بل تمتم قائلاً: انه كان ليعتبرنا أكثر جنوناً مما ظن لو اننا قضينا تلك الليلة الجليدية نرتجف برداً. وأبدى اهتماماً فورياً بالاقتراح الذي عرضناه عليه. قلت: «أيها العقيد، لقد بذلنا وما زلنا نبذل جهداً كبيراً في تكديس المعلومات والحفاظ على سريتها دون أن يكون عندنا أدنى فكرة عن أي من تلك المعلومات يبحث الالمان. كما اننا لا نعرف كيف يحاولون الوصول إلى تلك المعلومات. إننا نأتي بافتراضات قد لا يكون لها أي مسوغ، وأظن بأن ثلاثة أرباع الاجراءات الاحترازية التي نتخذها ليست ضرورية وبأن الجواسيس الألمان الذين قد يكونون هنا يركزون على النقاط التي لا نوليها الحراسة اللائقة بها».

* بارون كارل مونشهاوزن ضابط في القرن الثامن عشر بات بتلفيقاته الخيالية موضوع قصص خرافية.

واقترحت بأن ننتحل أنا وفرانك شخصية جاسوسين المانيين لفترة لنرى ما يمكن أن نعثر عليه. ومن أجل ذلك يمكننا ان نفعل شيئين: الأول معرفة ماذا يمكن لهؤلاء الجواسيس فعله لتخطّي مختلف وسائل الوقاية والمراقبة البالغة التكاليف التي نصبناها. والثاني ماذا يمكنهم معرفته بعد ذلك التخطّي. أضاف العقيد على ذلك اقتراحاً انه بإمكاننا أيضاً معرفة ما الذي يفعله الجواسيس بالمعلومات بعد حصولهم عليها نظراً لأن نقل المعلومات أصعب من الحصول عليها. فهل ينقلونها بواسطة رسائل بالحبر غير المرئي؟ أم هل لديهم أجهزة لاسلكية يبثونها وكأنها محاورة بريئة بين هواة التخابر بتلك الأجهزة؟ واسترسل في مثل تلك الافتراضات. ثم قال لنا: «إن فكرتكما مدهشة»، وهنا تبادر إلى ذهني انه كان سيقول بأن الفكرة خطرت له نظراً لأنه يعيش في عالم من نسج خياله.

لا وسيلة عندي لمعرفة ماذا حدث لفكرتنا بعدما أرسلها غوردن شين إلى أعلى للموافقة ـ وهذا يعني بالطبع موافقة منظمة الجنرال دونوفان التي كانت منشغلة في صراعاتها البيروقراطية لوضع كل هذه المشاريع في عهدتها. ولكنني أعرف انها بعد أن أعيدت إلينا مخفضة إلى درجة حتى لتكاد تعادل مجرد حاجز للأمن. وبعد الانتظار جاءتنا التعليمات بأن نقوم بدور جاسوسين المانيين وزودنا بوثائق وأوراق الصليب الأحمر المزورة تزويراً واضحاً. كان الغرض من ذلك معرفة أي من تدابيرنا الاحترازية المتعددة يمكن اختراقها.

استعرضنا جميع الاحتمالات وأخيراً ركزّنا على الوسيلة التي تؤدي إلى نتيجة حقيقية هي «تجنيد العملاء وتفعيلهم» التي طُلب إليَّ بعد عشر سنوات أن أضعها في كتاب اعتمدته وكالة الاستخبارات المركزية في تعليم عملائها. ما هي الأسئلة التي يسعى ضابط الاستعلامات للحصول على أجوبة عنها بواسطة التجسس؟ انها التالية:

ـ ما هي المعلومات التي يحتاج إليها رؤسائي لوضع خطتهم الدفاعية والهجومية وأي قسم من تلك المعلومات يمكن الوصول إليه فقط بالتجسس عوضاً عن استعمال الوسائل التقنية أو المراقبة المفضوحة؟

ـ أين توجد تلك المعلومات؟

ـ مَن هُم الأشخاص الذين لهم وصول إلى تلك الأماكن؟

ـ أي من هؤلاء الأشخاص بحاجة ماسّة إلى شيء ما بإمكاننا توفيره له، أو بإمكاننا حمله على الحاجة إلى شيء نستطيع توفيره له؟

ـ ما هي أفضل طريقة لمقاربة هؤلاء الأشخاص، وحملهم على الحاجة لشيء والعرض عليهم بتوفيره لهم مع تجنب خطر وشايتهم بنا إلى رؤسائهم أو غيرهم؟

على كل حال انتهت لعبتنا هذه بعد أن رفعنا تقريراً أعربنا فيه عن الاحتمال بأن الاستخبارات الالمانية ربما بنت هيكلية جاسوسيتها حول أشخاص أميركيين اجتازوا التحقيقات المتعلقة بلياقتهم الأمنية راجين لهم الوصول إلى معلومات سرية جداً، ولكنهم معرّضون بطريقة ما للابتزاز أو ضعفاء أمام الاغراءات المادية المشوقة.

لم يطل الأمر بنا، أنا وفرانك، حتى تقدمنا بطلب لنقلنا إلى خارج الولايات المتحدة. وبعد ظهر أحد أيام خريف العام ١٩٤٢ كنت عائداً برفقة فرانك إلى مقر إقامتنا بعد التحقيق في قضية بالغة الصعوبة (أي كنا عائدين من مباراة في لعبة البايس بول) فعلمنا أن فريقاً من جهاز شرطة التجسس جمع على عجل وغادر المقرّ قبل ربع ساعة فقط من وصولنا ووجهته استراليا. ولو اننا عدنا إلى المقرّ

بسيارة تكسي لكان كل مجرى حياتنا قد تبدل. ولكن فرانك أصرّ على العودة بالباص كي يقتصد بعض القروش ليومه الأسود. صحيح أن استراليا فاتتنا ولكننا عُيّنا لمهمة في لندن وأمرنا بالتوجه إلى مركز طبي لتلقي التلقيح والتطعيم اللاّزمين للوقاية من الأمراض التي قد نتعرض لها في بريطانيا. زودنا بما يلزم لرحلة عبر المحيط الأطلسي، والتعليمات الأمنية المناسبة وبعد اسبوع كنا على سفينة تقلّنا مع الجيش إلى أوروبا.

كنا اثني عشر رجلاً من المخابرات وكل منا باستثنائي أنا يحمل شهادتين جامعيتين أو أكثر ويحسن التكلّم بواحدة أو أكثر من اللغات الأوروبية، كما كنا أذكى رجال جهاز مكافحة التجسس قاطبة. (تجدر الاشارة هنا إلى أن جهاز شرطة التجسس كان قد أعيد تسميته فصار يعرف بجهاز مكافحة التجسس). قطعنا المحيط الأطلسي الشمالي ببرده وضبابه واغبراره على متن سفينة الكوين اليزابيث وكان معنا ضباط وجنود فرقة المشاة الأولى في الجيش الأميركي المؤلفة من مختلف أصناف الجنود والضباط وزهاء الخمسين ممرضة وقد أعطين المقصورات المخصصة لركاب الدرجة الأولى إبّان رحلات السفينة الفخمة في أيام السلم.

ضمّت وحدة جهاز مكافحة التجسس في تلك الرحلة الاثني عشر «عميلاً خاصاً» الذين ذكرت وثلاثة ضباط باللباس العسكري هم الرائد كيربي جيليت والنقيب موراي فوكنر (شقيق الاديبين وِليَم وجون) والملازم لِنْ آلن وكلهم موظفون سابقون في مكتب التحقيق الاتحادي أبدوا اهتماماً واحتراماً بالغين بمن عُهد بهم إليهم من أهل العلم والعالم. فقد أمّنوا لنا كل ما أمكن تأمينه في سفينة مكتظة بالجنود رغم معارضة بائع الأحذية السابق في مدينة ممفيس من ولاية تنسي الماجور جنرال آرنولد جنينغز المسؤول الأول عن جميع من هم على ظهر السفينة. بلغ جنينغز رتبته هذه من خلال الحرس القومي. ولما كان غير واثق من نفسه وخائفاً على مركزه صار يشك في كل أمر لا تنصّ عليه صراحة التعليمات العسكرية التي لا تنطبق علينا بصفتنا مدنيين. فقد قال لنا مرة «إذا خالفت أنظمة الجيش وقوانينه أنتم أول من يرفع تقريراً بذلك، وهذا ما أتوقع منكم فعله». لا شك في ان الجنرال جنينغز ضابط ممتاز يراعي ضميره ومتقيد بمبادئه وعلى استعداد لبذل أفضل طاقاته في سبيل وطنه. إنه بكلام آخر شخصية تافهة تماماً.

في أيام السلم كانت الناحية المخصصة لنا في السفينة تشكل الجسر وغرفة المرضى، وقد تأمنت لنا فيها أسباب الراحة المقبولة قياساً إلى الظروف. ولكن وقع حدثان كان من شأنهما تحسين أوضاعنا على ظهرها. فقبل إبحارنا باسبوع التقى قبطان السفينة البريطاني الكابتن هاويز بريلي في حفلة كوكتيل في نيويورك بالمقدم المحبب إلينا غوردن شين. ولا بد ان هذا الأخير همس في اذن الضابط البريطاني (مع غمزة لها مغزاها من عينه اليسرى) وبصوت ينمّ عن انه يطلعه على معلومات سرية وحيوية بأننا «عملاء خاصّون» وبأنه، أي الكابتن هاويز بريلي، يسدي خدمة ضرورية وفعّالة لتحسين العلاقات البريطانية الأميركية ان هو عاملنا المعاملة الحسنة والخاصة واللائقة التي تستحقها مهمتنا الخطيرة. راح الكابتن يبحث عنا فَعَثر علينا بعد يومين وأمّن لنا المشرب (بار) المزود أحسن تزويد وطاولة وكدسات الورق للعب إضافة إلى عدد من المجلات التي تكثر فيها صور النساء والمصادرة من أفراد طاقم السفينة.

أما الشيء الثاني الذي زاد من تحسين وضعنا فكان القضية التي صارت فيما بعد تُعرف بـ «الحادث»، وقد تمّ وصفه في تقرير غطّى صفحة واحدة لا غير مكتوب بالآلة الكاتبة رفعت إلى الدوائر الرسمية المختصة. أما بالنسبة إلينا فكان «الحادث» قفزة كمية إلى الامام كما وصفها لاحقاً

الرائد كيربي جيليت المسؤول عن وحدتنا. لم نشاهد فصول ذلك الحادث انما يبدو أن أفراد طاقم المطبخ في السفينة، المؤلف من مدنيين بريطانيين منتمين إلى اتحاد البحارة، طلبوا من الجنود بقشيشاً. ولما رفض هؤلاء أخذ عمال المطبخ يرمون بالقمامة، ومعظمها مواد سائلة، في المكان الذي يفترشه ليلاً رماة الرشاشات التابعين لفرقة المشاة الأولى. في اليوم الثالث من هذه الممارسة طلب آمر الرماة العريف أول جاك كويغلي ـ ويزيد وزنه عن المئة كيلوغرام من العضل المفتول ـ من المسؤول عن العمّال وممثل اتحاد البحارة على السفينة إزالة تلك الأوساخ فأجابه: «نظّفها بنفسك».

وهنا استدار كويغلي إلى رجال المشاة الواقفين يتفرجون وقال: «أنت، وأنت، وأنت، وأنت، ارموا بهذا الابن كذا إلى البحر». ودون تردد ولو لبرهة قصيرة أمسك الرجال الأربعة بالمسكين من يديه ورجليه وأرجحوه بضع مرات ثم رموا به إلى مياه المحيط الأطلسي الباردة.

ذُهل رجال طاقم السفينة الذين كانوا هناك وقبل أن يتمكنوا من العودة إلى صوابهم صاح كويغلي بالباقين «من هو المسؤول بينكم»؟ فساد صمت قصير قطعه كويغلي بأن أشار إلى أضخمهم جثة وقال: «إسمع أنت وخذ هؤلاء البلهاء إلى أعمالهم». انتهى الأمر وأخذ العمال المكانس والمماسح وشرعوا ينظفون المكان. سمع كويغلي أحد البريطانيين يتمتم عن نوعية الخدمة التي سيتلقاها الأميركيون فأمسك به وهدّد بأنه إذا ما شعر أحد الجنود الأميركيين بمجرد ألم في المعدة أو في الامعاء فسينتهي الأمر بإلقاء جميع الموظفين البريطانيين إلى البحر. لم يترك هذا الكلام أي مجال للشك في أذهان الموظفين بجديّة الرقيب، كما أن «الحادث» كله حصل خلال دقائق قليلة.

لم نشاهد «الحادث» بأنفسنا كما قلت بل سمعنا به في اليوم التالي من قبل الكابتن هاويز بريلي الذي لم يستدع الرائد جيليت بل جاء بنفسه إلى مقرنا. إنه رجل مرح يوحي بالثقة وبالطيبة المتوقعة من قبطان سفينة سياحية جعل المتمرسّين منّا بالأسفار يتذكرون بعض السفن الكبيرة التي كانت في أيام السلم والبحبوحة توظف قبطانين (اثنين) للسفر بين ميناء لوهافر الفرنسي وميناء نيويورك يقوم احدهما بالقيادة ذهاباً بينما يقضي الثاني وقته بالسكر ويعود بها الثاني فيما يقضي الأول وقته مع الركاب يحتسون مختلف أنواع الخمور.

بدأ الكابتن هاويز بريلي حديثه بطريقة تومىء إلى انه يقوم بزيارة ودّية متحدثاً عن محبّته للأميركيين وتقديره لمجيئهم للمساعدة في الحرب وعن أقرباء له في مدينة ميووكي ثم انتقل إلى صلب الموضوع فقال: «يبدو ان بعضاً من شبابكم ألقوا بأحد طهاة السفينة في البحر». وأخبرنا بما تناهى إليه عن الحادث مؤكداً انه سرد لنا كل ما يعرفه عن الموضوع وانه يريد ان يعرف حقيقة ما جرى.

بدا من كلامه انه حمل كل الكلام الفارغ الذي سمعه من العقيد شين على محمل الجد واعتبر ان باستطاعتنا اجراء تحقيق «بصفتنا اختصاصيين» ولنا من الاتصالات على المستويات الرفيعة في واشنطن ولندن ما لا يعرفه إلاّ الله واعتبر أيضاً اننا قادرون على تمييع القضية كي لا تؤدي إلى اساءة في العلاقات بين البلدين. وسبق له ان تحدث في الموضوع مع بائع الأحذية واتفقا على انه بإمكاننا القيام بما يلزم.

بعد دقائق فقط من مغادرة القبطان هاويز بريلي مقرنا وصل قائدنا بائع الأحذية سابقاً وعلى وجهه كل دلالات الاحترام والوجوم الذي يقارب الوجوم الجنائزي وأيد طلب القبطان بأن نقوم بالتحقيقات اللازمة، وطلب إلينا إيداعه تقريراً مفصلاً وصادقاً يكون في الوقت نفسه صالحاً لرفعه إلى رؤسائه. أجابه الرائد جيليت: سنقوم بالمهمة بكل سرور، ورأى في ذلك فرصة أخرى جديدة بالاقتناص بغية الحصول بالمقابل على تحسينات اضافية في رفاهيتنا خلال الاسبوع المتبقي من رحلتنا عبر الاطلسي.

انتدب كيربي جيليت للمهمة رفيقنا هاري أمِرمن الذي لا يرف له جفن وهو رجل يمكن الاتكال عليه لاستقصاء الوقائع «بطريقة ذكية وخالية من العواطف كما لو كان زائراً حلّ بنا من كوكب آخر»، حسب قول لاحق منسوب إلى هنري كيسنجر. أعلن هاري فوراً بأنه ليس بحاجة إلى أي مساعدة في عملية التحقيق بحد ذاتها ولكنه أسرَّ بأنه سيكون شاكراً لي ولفرانك إذا ما عاونّاه على «استغلال الفرص» التي توقع توافرها نتيجة لمجهوداته. جاءت تحقيقات هاري، مثلما توقعناها، أكثر مما كان رؤساؤنا ينتظرون. فقد تبين منها أن الضحية (أو «السَبَّاح» كما سمّاه أحد الكتبة القليلي الذوق في قيادة الشرطة العكسرية) كان رجلاً مهذباً وهادئاً ومخلصاً لعمله قبل بتمثيل اتحاد موظفي طاقم السفينة لعدم قبول أي شخص آخر به. ومما كاد يُدمِع عينيَّ حزناً عليه انه كان من أمهر لاعبي البوكر وان نقيصته الوحيدة في اللعب ميله اللاارادي إلى توزيع أوراق اللعب من أسفل الكدسة عند تخلي الحظ عنه. أما أفراد الطاقم المدنيون غيره والبعض من رجال الجيش الأميركي، فوضعهم مختلف كلياً، ذلك انه خلال اسبوعي الرحلة تمكنوا من اقامة عمليات سوق سوداء في السفينة مبنية على السرقة من مستودعاتها وتخبئة المسروقات للتصرف بها بعد بلوغنا ميناء الوصول، مما أثار دهشتي واعجاب كلٍ منا ـ أنا وفرانك الذي قال: «انني متأكد منذ الآن بأننا سنربح هذه الحرب!» ولكن «السوانح التي تنتظر الاستغلال» أسالت لعابنا كما انها حولت أذهاننا عن التفكير بأن «أبن الكذا وكذا نال ما يستحق» إلى التفكير بالناحية الرياضية المسلية من القضية.

بعد يوم أو اثنين من استجواب «الشهود» في وضع كان يستوجب التستر عوضاً عن البحث عن الدقة والصراحة، أعد هاري تقريراً بدأه بما يشبه الجملة التالية: «تقع البقعة التي لامست الضحية الماء فيها فوق منطقة جرف فارادى عند طرف سلسلة جبال مغمورة تدعى جرف شمال الأطلسي حيث يبلغ عمق المياه أكثر من ميل واحد بقليل» وأنهى تقريره بعبارة تصف ملايين الليترات من المياه التي شكلت قبر البحار. وتضمن متن التقرير سرداً واقعياً للحادث مع ملاحظة من قبل الضابط الأول في السفينة بأنه سينبىء جميع موظفي المطبخ في مختلف القوافل البحرية المقبلة بتفاصيل الحادث الذي وصفه بأنه «درس جيد».

أما نحن فتلقينا درساً من نوع آخر جاءنا عن اللجنة التي اعادت النظر في التقرير. وكانت نوعاً من «لجنة تحقيق» حسبما قيل لهاري. جلس حول طاولة تعلوها أكداس من كراريس الأنظمة العسكرية المختلفة كل من قائد الشرطة العسكرية في فرقة المشاة الأولى ونائب قائد الفرقة المسؤول عن التفاصيل الادارية المتعلقة بالرحلة وأمين صندوق الباخرة وهو أيضاً الضابط الحقوقي فيها، إضافة إلى شخصين أو ثلاثة أشخاص آخرين لم يعرف هويتهم. بالنسبة للمجتمعين كان عنوان اللعبة تفادي المسؤولية فلم يظهروا أي اهتمام على الاطلاق «بالضحية» باستثناء أحد كبار الضباط الذي سأل: «هل أخطرتم عائلته؟» للمرة الثالثة بعد أن قيل له إن الفقيد لم يترك خلفه أي عائلة. ثم قال أحد أعضاء اللجنة: «آمل بألاّ نفسد ملف عريف ممتاز بسبب موت مدني تافه». وهنا توجهت الأنصار إلى هاري الذي قال: «سأروي الأشياء كما رأيتها»، ولكن لما نمت نظراتهم عن عدم موافقتهم أردف قائلاً: « إلى حد ما بالطبع».

بعد ان انتهى هاري من تقريره الشفهي أعرب كل من أعضاء اللجنة عن رأيه في طريقة التعاطي مع القضية واختصر قائد الشرطة العسكرية النتيجة بقوله: «وفاة بسبب حادث مؤسف»، وأعقبه بعبارة أو اثنتين تترك انطباعاً بأن شجاراً قام بين مجموعة من المجندين وأخرى من طاقم السفينة سقط «الضحية» أثناءه في البحر. وتحلّق الضباط حول هاري ينظرون إلى ما يكتبه، فعدل تقريره على

الفور وصار التقرير متوافقاً مع الحقائق التي نطق بها قائد الشرطة العسكرية وانتهى الأمر.

كان كل ما جاءنا به هاري إلى غرفة التسلية التي أقمناها بالقرب من موقعنا صفحة واحدة بالآلة الكاتبة هي عبارة عن صفحة غلاف تقريره الأصلي المؤلف من اثنتي عشرة صفحة. أما الفرص القابلة للاستغلال فقد أنيط أمرها بي وبفرانك واستلزم ذلك بعض التخطيط والتخيل ولكننا نفذنا المهمة التي برهنا على اننا بمستواها. ففي بادىء الأمر سجّلنا نقطة لصالحنا مع العريف كويغلي وشركائه الأربعة بالجريمة بأن أوهمناهم بخطورة وضعهم ثم طمأناهم بأننا سنصف الحادث بطريقة تقيهم شر العقاب. ثم تحولنا بالطريقة عينها إلى الطاقم البريطاني مؤكدين لهم بأننا سنشيح النظر في تقريرنا عما تكشف لنا عن سرقاتهم وتهريبهم وعلاقاتهم بالممرضات (حصل على الأقل اغتصاب واحد) على ظهر السفينة، وخوّفنا كبار ضباطها أيضاً بوسائل أخرى وبالمخالفات الكبيرة التي كشفتها تحقيقات هاري.

انبرى فرانك فجأة ليقول لهؤلاء: «لكم الحق في أن تتوقعوا تقديراً مالياً رمزيّاً لما تقومون به حيالنا. لقد تنادى الشباب الذين قاموا بذلك العمل الرهيب، تنادوا عن طيبة قلب وليس عن شعور بأي الزام وقدموا مبلغاً من المال لنوصله إليكم». ثم توجه نحوي قائلاً: «هيّا بنا، أعطهم المبلغ». فألزمني بأن أدفع كل المبلغ الذي ربحته من رفاقي في لعبة البوكر الليلة السابقة. لست أذكر قيمة المبلغ ولكنه بالطبع أكبر بكثير من كل البقشيش الذي حسب عمال المطبخ انهم سيحصلون عليه من الجنود طيلة الرحلة. ونجحت العملية نجاحاً تاماً. أما الرجل الذي ألقي به إلى البحر فلم أعد أذكر إلامَ انتهت قضيته أو أن النسيان لفّها قبل نهاية رحلتنا، وتبلغ أقرب أقربائه وهو ابن عم أحد أبناء عم عمومته الأقدمين نبأ وفاته في رسالة تعزية تقليدية حذفت منها أسباب الوفاة مراعاة لاعتبارات تتعلق بالأمن القومي.

كم قدّر عمال المطبخ بادرتنا! وفيما أبديت مهارة في الضغط أظهر فرانك مهارة مماثلة في تحديد البَدَل. ولما كان بنيتنا الحصول على خدمات أخرى جعلنا البدل معقولاً فقد طلبنا من زعماء عمال المطبخ تحضير وجبات طعام خاصة بأفراد فريق جهاز مكافحة التجسس وتقديمها لهم في مقرهم. وهكذا وخلال الأيام السبعة الأخيرة من رحلتنا تناولنا أصنافاً لذيذة من الطعام لم نتناول ما يشبهها طيلة سنوات الحرب، باستثناء الأشهر القليلة التي قضيناها في باريس بعد إنزال الجيوش في أوروبا.

ولكن بقي أمامنا سبعة أيام قبل الوصول إلى بريطانيا بيّنا خلالها أن قيادة جهاز مكافحة التجسس في واشنطن اتخذت قراراً حكيماً جداً باختيارها أعضاء فريقنا كأول فريق ترسله إلى بريطانيا. وعلى الرغم من ان المنطقة المخصصة للممرضات في السفينة محظورة على الرجال استطاع فرانك تهريب البعض منهن لإقامة حفلة راقصة في موقعنا ثم هرب واحدة إلى مقصورة على الشرفة حيث قضيا معاً سويعات بعد الظهر والليالي التي تبقّت من الرحلة. أما أنا فقضيت تلك الأيام في الفراش نهاراً وفي مراقبة لعبة البوكر ليلاً والمراهنة على لاعبين من فرقة المشاة الأولى يعتمدون على الخرافات أكثر من اعتمادهم على الرياضيات فكانت النتيجة انني وطئت اليابسة في بريطانيا وفي جيبي أكثر من ألفي دولار. وبعد الحرب قطعت المحيط الأطلسي أكثر من عشر مرات على متن السفينة كوين اليزابيت ـ٢ وعلى سفن فخمة أخرى وكانت رحلاتي تلك كلها في الدرجة الأولى وأكثر، ولكنني أقول الآن دون أي تردد أن رحلتي في أيام الحرب وبرفقة زملائي في مجموعة جهاز مكافحة التجسس كانت الأفضل وانني على استعداد للقيام بها ثانية لو أمكن ذلك، وبدفع كلفتها في الدرجة الأولى.

أما ماذا حدث لتقرير هاري؟ كانت تلك ضربة المعلم. فبينما كانت حقيبة الأوراق السرية جداً على وشك أن تُقفَل وتُختَم استطاع هاري سحب تلك الورقة الملفّقة وأن يدسّ محلها تقريره الأصلي وقد كتب بخط يده على الصفحة الأولى: «فلتسقط القطع أينما شاءت». أما إذا ما قُيِّض لها أن تسقط في أماكنها أو انها لم تسقط فيها، فأمر لم يدرك مسامعنا قط.

الفصل الرابع

لندن في الحرب

بعد شهر ممل في تشلشتم ملأته المماحكة والمناقشات مع العقداء والمقدّمين في محاولتهم لمعرفة هويتنا وغايتنا، ارتدينا ألبسة مدنية واستقلينا قطاراً خاصاً إلى لندن. ليست محطة پدينغتُن أجمل ما يطالعك عند وصولك إلى ما صارت الآن مدينتي المفضلة والتي وصلناها في يوم بارد وممطر من أيام أيلول (سبتمبر). ولكن الانطباع الأول الذي تركته في نفسي رائع حقاً! الروائح، الأصوات، الأبنية القديمة، كل ذلك في حيٍّ من المدينة سرعان ما تعرفت إلى انه يضم الكثير من الفنادق الصغيرة يقيم فيها طلّاب فقراء وتنشقت فيه رائحة شحم الضان والسجّاد المتعفن. عشقته واغرورقت عيناي بالدمع وخُيِّل إليَّ انني لربما قد أقمت فيه خلال حياة سابقة.

وفيما كان الآخرون ينتظرون بصبر من يستقبلهم امسكت بفرانك وبرفيق آخر وأوقفت سيارة تاكسي توجهت بنا إلى مكتب إسكان كبار الضباط في شارع اودلي الجنوبي. أبرزنا هوياتنا أمام ملازم ثان فكان لها عميق الأثر في نفسه وأخبرناه بأننا في «مهمة خاصة وطويلة الأمد» وقلنا له بأننا نفضل مسكناً فخماً يكون قريباً من سفارات الدول الكبرى في آسيا وافريقيا وغيرِ بعيد عن السفارة الأميركية في ساحة غروسفنور. حوّلنا فوراً إلى مسكن كامل التأثيث في ساحة اوفنغتُن على بعد قرابة المئة مترٍ من محلات هارودز الشهيرة، ولا شك في ان البيت المذكور قد أصبح الآن منزل أحد شيوخ النفط العرب، وكان بدل اجاره الشهري في أيامنا ١٢٠ جنيهاً نتقاسمها مثالثة. لم يطل الأمر حتى جاءنا طاقم من الموظفين المنزليين المشهورة بهم البيوت البريطانية الثرية يضم بستانياً وخادمة وطاهياً قادراً على تأمين فطورنا كل صباح وعلى اعداد وتقديم وليمة عشاء فاخرة لنا ولضيوفنا عند الحاجة، نأتي بموادها الأولية من الأطايب التي كانت متوافرة في محلات هارودز ومن أطايب أخرى نستطيع تهريبها من مطعم كبار الضباط القائم في شارع أودلي الجنوبي. وقد استطعنا ذلك بمساعدة الضابط المسؤول عن مستودعات المطعم الذي تصادق فرانك معه في اليوم الثاني من وصولنا إلى لندن.

كنت بعد ظهر أحد أيام الآحاد أتمشّى في شارع شافتسبوري فسمعت تدريباً على المقاطع الأخيرة من كونشيرتو للمؤلف راخمانينوف تُعزف على پيانويين. اقتربت من مدخل مسرح كامبريدج، مصدر الموسيقى وتبين لي ان ماريا هِسْ تعزف على پيانو وآرت تاتُم يعزف على الآخر وجاء في الاعلانات عند باب المسرح ان العازفة الشابة الاعجوبة مورا ليمپاني تحيي الحفلة. مورا ليمپاني! اندفعت دون التوقف لحظة واحدة نحو باب المسرح الخلفي وقلت للبواب بأنني مندوب اوركسترا فيلادلفيا السمفونية وأن عليَّ مقابلة الآنسة ليمپاني ومدير أعمالها في غرفتها داخل المسرح لبحث جولتها المقبلة في الولايات المتحدة. ولدى سماعه لهجتي الأميركية سمح لي بالدخول دون أي اسئلة.

توجهت نحو مورا مباشرة وهي خارجة من على المسرح، وسط تصفيق يصمّ الآذان وعرّفتها بنفسي. وعلى طريقتها الخاصة قالت لي: ـ «نعم، نعم، تفضل مع الآخرين إلى كِنغزوود بعد أن اعزف مقطوعة أخرى إرضاءً لاصرار الحضور». لست أذكر بالتحديد كل «الآخرين» إنما كان هناك عازفة پيانو ارجنتينية تحولت فيما بعد إلى رجل وصديقها الشاب الغريب المظهر الذي تبينّ فيما بعد انه عشيقها (مع بعض التصرف باستعمال هذه الكلمة) وهو عازف ناي يعمل في مخزن للآلات الموسيقية،

وطالب أو اثنين، ورجل بلجيكي وزوجته وهما من جيران مورا في كينغزوود التي سنتوجه إليها جميعاً بعد الحفلة.

وكان أيضاً بين أفراد هذه المجموعة رجل نحيل طويل القامة أنيق اللباس في أواسط الأربعينات من العمر يضع نظارتين كثيفتي الاطار ويدخن من حامل سجائر طويل. بدا لي هذا الرجل شريراً جداً. أتذكرون انني قلت في بداية هذا الكتاب بأنني لم أكره أحداً في حياتي؟ غير أن هذا الرجل، كولن ديفرايز، وهو القيِّم على مورا ورفيقها ومرافقها في العزف على البيانو الثاني وعشيقها كما تبين لي سريعاً، هذا الرجل كاد أن يكون استثناءً لما قلته في بداية الكتاب. باختصار، لم يستسغ واحدنا الآخر منذ اللحظة الأولى للقائنا.

كانت مورا مدهشة. فقد بدأت تعاملني كما لو كنا صديقين منذ طفولتنا، وانضم الآخرون إلينا ودارت الأحاديث بيننا بالانكليزية وبالفرنسية في السيارة الفخمة التي نقلتنا إلى محطة واترلو التي انتقلنا منها بالقطار إلى كينغزوود ثم لتناول العشاء في منزل كولن الأنيق حيث كانت مورا تقيم ومعها بيانواها. أبدى الجميع مودة جمة تجاهي باستثناء كولن تناولنا طعام العشاء وقضينا ساعات طويلة نتبادل الأحاديث قبالة نار بهيجة غذّتها قطع الحطب الضخمة وانتهى بي الأمر أن بتُّ ليلتي هناك. أفقت صباح اليوم التالي لتناول وجبة الفطور الانكليزية الشهية ثم قضيت بعض الوقت مع مورا نتنزّه في الغابة وساعتين استمع إليها تتمرن على البيانو قبل أن نستقل القطار عائدين إلى لندن. وإذا ما تبين ان في تلك التجربة نقصاً في اثارة غيرة كولن فلا تجوز ملامتي للتقصير في المحاولة.

يوم الثلاثاء التالي تناولت طعام الغداء مع مورا في فندق دورشستر، ودعوتها لتناول العشاء في مطعم ميرابل برفقة فرانك كيرنز ومعه ممثلة مختصة بتمثيليات شكسبير اسمها روزالند فوللر تعرف إليها بطريقة شبيهة بطريقة تعرفي إلى مورا. ولكن مورا جاءت إلى المطعم برفقة كولن الذي كان بغيضاً حقاً في تلك المناسبة. فقد استأثر بالحديث منذ بداية اللقاء وطيلة السهرة وغايته اظهار براعته في صياغة الذم بصيغة المدح التي وجهها إلى الأميركيين عموماً (انه يراهم قوماً يبعثون «الانتعاش» في النفوس) وإليَّ بشكل خاص. أما أنا فرأيت فيه «مشكلة» حسب التعريف الوارد في التعليمات الموجهة إلى ضباط فريق جهاز مكافحة الجاسوسية، أي انه شيء يجب ازالته من الطريق المؤدية إلى الهدف المقصود.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ جلسنا قبالة الموقد المشتعل في منزلنا نبحث في الصعوبات التي تعترضنا. وكم كانت دهشتي لمعرفتي ان فرانك كيرنز استلطف كولن. على كل حال، وبعد استعراض عدة احتمالات تساءل فرانك: «لماذا لا نقتله، هكذا بكل بساطة؟» لست أذكر تفاصيل بحثنا في الموضوع باستثناء ان فرانك كرر القول بأننا في حال حرب وبأننا «سنقتل خلالها الكثير من الناس» وأضاف متسائلاً مرة ثانية «ماذا يهم نقصان أو زيادة سفينغالي* واحد؟

سفينغالي! نعم انه الجواب. لقد كان كولن سفينغالي عن حق وحقيق غرر بفتاة صغيرة موسيقية وعبقرية مثلي، وأطبق عليها على براءتها ببراثنه الشريرة. أما قصتها، كما روتها لي خلال نزهتنا في الغابة فتتلخص بأنها كانت في جولة موسيقية في أوروبا عند نشوب الحرب فاحتُجِزَت هناك فترة ثم عادت إلى بريطانيا ومعها بيانواها ووالدتها وهرتها الصغيرة وليس لها بيت تأوي إليه. تدخل الصناعي الثري كولن ديفرايز، وهو أيضاً من هواة عزف البيانو الممتازين، وعرض عليها الاقامة في منزله الجميل في

* شخص يحاول عادة بالترغيب أو بالترهيب حمل شخص آخر على تنفيذ ما يطلبه منه. Svingali

كينغزوود، إضافة إلى استعداده لمرافقتها على البيانو الثاني في عزف المقاطع المخصّصة للاوركسترا في الكونشيرتو فيما تعزف هي متن الكونشرتو. رأت مورا ان العرض أفضل بكثير من أن يُرفض خصوصاً وان كولن أكد لها بأنه «من عمر أبيها».

وهكذا، وخلال الأشهر القليلة التالية أخذنا أنا وفرانك وجايمس نقضي معظم أوقاتنا في التخطيط جدياً لاغتيال مواطن بريطاني معروف. وأولينا الموضوع كل الاهتمام والمهارة المهنية اللذين عالجت بهما فيما بعد وأثناء عملي في وكالة الاستخبارات المركزية كل القضايا التي تهمنا على الصعيد الوطني. أخيراً قرَّ رأينا على أن يضرب كولن بالهراوات أثناء خلاف محدود ومُدَبَّر سابقاً ـ شرط أن يقوم بذلك شخص غيرنا حسب رأي قائدنا الرائد جيليت.

حصل كل ذلك منذ أكثر من أربعين عاماً وبات ضباب النسيان يلف التفاصيل، ولكنني ما زلت أذكر جيداً ان الخطة بَدَت لنا في حينه ممتازة، هذا فضلاً عن اننا أعددنا خططاً بديلة ومساندات، كأي تخطيط عسكري صحيح. وعندما أصبحنا على استعداد للتنفيذ كنا قد استشرنا كل الذين يُحتمل أن نستعين بمعرفتهم ومهارتهم في القضية. توقعنا بأننا سنحتاج إلى بعض العون الخارجي فذهبت إلى الشرطة وبحثت الموضوع أولاً مع العريف بلاك ثم مع المفتش كوفني: المفوضين لوقاية وحدتنا من أي طيش. دعوني هنا أسدي نصيحة لكلٍ منكم يريد أن يغتال أمّه أو زوجته: في أمر كهذا لا تعتمدوا على أية مساعدة تأتيكم من سكوتلنديارد انهم جماعة لا يرجى منها خيراً! فهم لا يكتفون بمعارضة الاغتيالات بل يخلقون لكم جميع العراقيل البيروقراطية التي يمكن اقامتها بوجهكم، وهذا يعني الكثير في بريطانيا.

حصلنا من زملائنا الأميركيين على الكثير من التأييد والتشجيع وعلى القليل جداً من الارشاد والمساعدة ذات القيمة الفعلية لمشروعنا. وعندما انتهينا من وضع اللمسات النهائية كان في ساحة غورسفنور كلها أقل من عشرة أشخاص يجهلون بأننا نخطط لاغتيال مواطن بريطاني بارز. على كل حال ما زلت حتى اليوم أتلقّى بطاقات بمناسبة عيدي الميلاد ورأس السنة من أصدقائي القدامى في ايتوزا (الأحرف الأولى من كلمات عبارة «المسرح الأوروبي لعليمات الجيش الأميركي في أوروبا» تشكل كلمة «ايتوزا»). البعض منها في مظاريف معنونة على نحو: «السيد والسيدة قاتل ك. كوبلند» وفي البعض منها عبارة: «هل تخلصتم من بريطاني ما في الفترة الأخيرة؟»

أما ماذا حدث في النهاية، فقد سالت مياه كثيرة تحت الجسر منذ ولادة الفكرة والموعد المحدّد لتنفيذها، إلى ان انقضى عدة شهور ونسيت كل التفاصيل باستثناء مورا، ولعلّها تجد هي الآن صعوبة في التعرف إليَّ. هكذا انتهت القضية. إن استمراري في التخطيط لها ونسج المؤامرات لتنفيذ المخططات إلى ان تخليت عنها، عائد فقط إلى انني انغرمت بالمخططات بحد ذاتها. ولم أكن مستعداً بالطبع للمضي في تنفيذ عملية الاغتيال. فعلى الرغم من انني قتلت زهاء ستة أشخاص منذ ذلك الوقت ولكن لم يكن بينهم أي شخص قامت بيني وبينه علاقات اجتماعية. كلا، فالفرق كله يكمن هنا.

عندما كتبتها جاءت مؤامراتنا لاغتيال كولن قطعة أدبية رائعة باعتراف الرائد كيربي جيليت والضابط الأرفع منه رتبة في هرمية القيادة رأي فيها جميع هؤلاء السادة المثقفين، أو ادعوا بأنهم رأوا فيها «عملاً من أعمال الخيال مكتوباً ليكون مثلاً يُساق في صفوف الأركان»، هذا على الأقل ما ورد في الكتاب المرفق بها الذي أرسله كيربي إلى مكتب رئيس عمليات ايتوزا المعرَّف عنه بـ ج ـ ٣. وتلقى كيربي ملاحظة خطية من رئيسه العقيد كالفرت جاء فيها: «آمل بأنكم تستغلون هذه المواهب في

أمكنتها المناسبة» فسرَّ كيربي الملاحظة هذه انها تعني فرانك وتعنيني وان عليه اختلاق مهمات خالية من المشاكل ينيطها بنا نحن الاثنين لابقائنا بعيدين عن المتاعب. وهكذا فبدلاً من تكليفنا بتتبّع الجواسيس والقبض عليهم جعلنا كيربي نتحرى خروقات سريّة أمن الدولة، الحقيقية منها والخيالية.

انتابنا الملل وبسببه حلَّ بنا التهور،قبضنا مرة على «جاسوس» الماني سمعت إشاراته البرقية احدى صديقات فرانك (هكذا قالت) المقيمة في شقة محاذية لشقته. أخذناه إلى مقر جهاز مكافحة التجسس بسيارة تاكسي وضعناه فيها بيننا وصوَّب كل منا مسدسه المرعب من عيار ٤٥ إلى رأس المسكين الذي كان يرتعد فزعاً.

دفعنا للسائق اجرته فغادر المكان على عجل وفيما هممنا بإدخال أسيرنا إلى المبنى توقفت سيارة رسمية خلفنا وخرج منها صديقانا كوفني وبلاك من سكوتلنديارد يرافقهما رائد أميركي اسمه روجر سَكسُن المساعد الخاص للعقيد كالفرت. بصوت مرتفع قال لنا المفتش كوفني: «سنهتم نحن بأمر هذا الرجل»، فيما ارتسمت على وجه الرائد سَكسُن امارات الشماتة بنا وكأنه يقول: «هذه المرة ستنالان جزاء فعلتكما، أيها الغبيان». انقضى عدة أشهر قبل أن أدرك ما عناه ولماذا لم تنل مبادرتنا الشجاعة الاستحسان الذي حسبناها تستحقه. أما سكسُن الذي سنأتي على ذكره في فصول لاحقة، فقد غمر قلبه الاقتناع بوقوعنا في ورطة صعبة أثلجت صدره.

قبل دخول قواتنا ساحات الحرب جدياً مررنا بخبرة أخرى تعلمنا منها شيئاً جديداً. واستناداً إلى تشكيك أبداه أحد المسؤولين بأن يكون البريطانيون إما مهملين جداً في تعقب الجواسيس والقبض عليهم، أو انهم يتعقبونهم ويقبضون عليهم دون اعلامنا بذلك، قرر رؤساؤنا وجوب قيامنا بمجهود مستقل في هذا المجال بغية معرفة حقيقة واقعنا فيه. ولما كنا ضيوفاً في بريطانيا لم نستطع متابعة ومعالجة القضايا المحددة كل بمفردها بل كان بإمكاننا على الأقل تحديدها والتعرف إليها باعتبار انها قد تشكل خطراً على مجهودنا الحربي. ولدى تحديد المهمات قال العقيد كالفرت بأن علينا أنا وكيربي القيام ببعض المهمات الميدانية ليس من أجل القبض على جاسوس أو اثنين بل من أجل التحسس بما تحتاجه طبيعة العمل.

أضاف العقيد بأن السؤال الأول المطروح هو: ما هي المعلومات التي تحتاج إليها الالمان عنا في قيادة ايتوزا ولا يستطيعون بلوغها إلاَّ بتجاوزهم ضوابطنا الأمنية؟ وبوصفنا خبراء في مكافحة الجاسوسية افترضنا بأن الالمان يبذلون قصارى جهدهم لمعرفة متى وأين سنوجه ضربتنا، وبأن أول ما علينا فعله التعرف إلى نقاط الضعف التي سيركز الالمان محاولاتهم للنفاذ منها إلى جهاز مكافحة الجاسوسية عندنا.

استحوذت الفكرة على مشاعر فرانك فخرج على غير عادته برأي جيد: ان نسرق الخزنة من مكتب ج ـ ٣. أخذ رأيه هذا يزداد جاذبية كلما ازداد تفكيرنا به وتقليبنا له ومساء الجمعة قررنا سرقة الخزنة. قضينا طيلة عطلة الاسبوع في التخطيط للعملية وصباح الاثنين كنا أمام مدخل القيادة في شاحنة كبيرة ومقفلة سرقناها من المرآب المشترك (ليس من اللائق التقدم بطلب رسمي للحصول على الشاحنة). خرج من الشاحنة رقيبان في الشرطة العسكرية (بدلتاهما مسروقتان أيضاً) وخلفهما رجلان بحجم الغوريلا يجرّان عربة لنقل قطع الاثاث الثقيلة الوزن.

لم نلق أي صعوبة على الاطلاق في اجتياز المدخل الأساسي ونحن في بدلتين مدينتين ومزودين ببطاقتين مزوّرتين لدخول المبنى. مررنا بحراس المدخل الذين أدّوا لنا التحية وتوجهنا إلى المصعد

فالطابع الرابع. في الساعة الواحدة تماماً أي في موعد وجبة الظهر دخلنا المكتب «الهدف» وحيينا السكرتيرة، وكانت بمفردها فيه، وسألناها: «هل لك يا آنسة أن ترشدينا إلى الخزنة التي يريد العقيد آدامز نقلها إلى بناية نورفُك؟» أشارت إليها فوضعناها على العربة فيما عادت السكرتيرة إلى المجلة التي تقرأها. (أتذكرون كيف دخل مراسل صحيفة «دايلي اكسبرس» إلى المنطقة المحرمة في مطار هيثرو بعد تفجير طائرة بان اميركان في كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٨٩؟) وكذلك لم تعترضنا أي صعوبة إلّا عند بلوغنا الباب الرئيسي. فتح الحراس لنا الباب وفيما كنا نحمّل الخزنة في الشاحنة هرول نحونا ملازم ثان في شرخ شبابه وعلى ذراعه شارة الشرطة العسكرية.

قال: «عفواً سيدي انما هل معكما استمارة رقم ٥٢٠٠ لعملية النقل هذه؟»

قلت له: «آسف أيها الملازم، فنقل هذه الخزنة ليس عملية عادية. ذلك ان الجنرال آرنولد أمر بأن تكون هذه الخزنة في مكتبه في مبنى نورفك قبل الساعة الثانية وها قد تجاوزت الساعة الآن الواحدة. . .» ومضينا في مثل هذا الكلام. ثم تحولنا تارة إلى اللطف وطوراً إلى التهديد ولم نحصل من الملازم المسكين الذي اعتراه الرعب إلّا على: «نعم سيدي، إنني أفهم تماماً ولكن الأوامر تقضي بألا نسمح بخروج أي شيء من المبنى دون اذن على استمارة ٥٢٠٠ موقعة وممهورة بتوقيع وخاتم مكتب نائب القائد العام».

أخرج فرانك دفتراً صغيراً من جيبه ودوّن فيه اسم الملازم ـ وما زلت أذكره تماماً، انه ألبرت مولّلينز. ومع اننا أرهبناه لم يتزحزح عن موقفه بعد اعطائنا اسمه. وفي هذا الوقت كنا قد استقلينا الشاحنة ولذنا بالفرار. وبعد الغذاء اتخذنا الترتيبات اللازمة لاعادة الخزنة إلى مكتب ج ـ ٣ ثم جلست لوضع تقرير عن الحادث ملأته اطراءً على الملازم مولّلينز الشاب. ونظراً لما قد يترتب على القضية من ذيول فكّرنا بأنه من الأفضل تسليم التقرير باليد فتوجهنا إلى مكتب قائد الشرطة العسكرية، العقيد براند في الطابق الأول من المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفنور. اكتشفنا ان العقيد براند، رغم سمو مركزه في الشرطة العسكرية، رجل ودود تأثر إيجاباً بأوراقنا الثبوتية الصادرة عن جهاز مكافحة الجاسوسية.

أخبرنا العقيد بما حدث وأدخلنا في تقريرنا الشفهي بعض المضحكات ابتسم لدى سماعه القسم الأول من الحكاية ولما وصفنا له كيف أصرَّ الملازم مولّلينز على موقفه ارتفعت قهقهته عالية وكان لا يزال يضحك عندما رفع سماعة الهاتف ليقول للسكرتيرة: «دعي الملازم مولّلينز يدخل».

كان الملازم جالساً في الردهة بانتظار مقابلة العقيد ليروي له الحكاية على طريقته، ولم يكن على علم بأننا سبقناه إلى ذلك. فتح الباب ودخل ولما رآنا جالسين هناك شحب لونه حتى البياض ذلك انه لم يلاحظ اننا جميعاً مبتسمين. قال له العقيد: هدّىء من روعك يا آل. فقد علمت بأنه لا يزال أمامنا فرصة لكسب هذه الحرب طالما بقيت حراسة مقر قيادة ايتوزا بين يديك. إجلس».

بدا الارتياح على وجه الشاب المسكين وتحول إلى ابتهاج عندما أخبره العقيد بأنني اقترحت التنويه به. وأعدنا سرد وقائع الحكاية ضاحكين وإنني على يقين من أن آل مولّلينز يقصها على أحفاده. بالطبع كان الناتج النهائي لحكايتنا وضع تقرير «يغطي غباوة جمع من البلهاء». ولما كنت على دراية وأعرف من أين تؤكل الكتف لم ينطوِ تقريري إلّا على التقريظ. وضع آلن كالڤرت على التقرير كلمة: «نهائي»، وأرسله رأساً إلى الجنرال ايزنهاور قائلاً لي: «رفيقك لاعب اللّعبة».

الـفصـل الخـامـس

الاستعداد لعملية اوفرلورد»

في أواخر العام ١٩٤٢ وفيما كانت مجموعة الجيش الحادي والعشرين تستعد للنزول على شواطىء شمال افريقيا، فُصلت إلى وحدة في قيادة المجموعة وعيِّنت نائباً لروجر سكسون، الرجل الذي اغتبط كثيراً عند مشاهدتنا، أنا وفرانك كيرنز نسوق «الجاسوس» الالماني إلى مدخل المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفنور. وبسبب قصة غرامية عارمة كنت في خضمها مع احدى سكريتيرات السفارة، فضّلت البقاء في لندن وأملت في ان يساعدني روجر في ذلك. ولكنه خذلني إذ وافق دون نقاش على وظيفتي الجديدة. رأيت ان عليَّ حمله على اتخاذ اجراء ما فأخترت إثارته بالتبجح بأنني قادر على اقصائه عن مركزه والحلول محلّه خلال شهر. ومع انه على يقين من انني لن أتمكن من ذلك أدى به قلقه على مركزه إلى التحرك. فادّعى القلق الشديد على صحتي وحالتي العقلية وأخبر آلن كالفرت عن قصتي العاطفية مع موظفة السفارة وخفض سنها من احدى وعشرين إلى ثماني عشرة سنة ليظهر فارق السن بيني وبينها مما يدل على مدى التشويش العقلي الذي أعاني منه واقترح ان أعود إلى الولايات المتحدة لقضاء شهر من الراحة كي استعيد صحتي العقلية. أثارت تلفيقات روجر سكسون قلقاً أصيلاً في نفس العقيد آلن كالفرت فوافق على نقلي إلى الولايات المتحدة على ان أقضي شهراً في مركز التدريب على اعمال الاستخبارات في معسكر ريتشي في ولاية ماريلاند حيث ألقي المحاضرات وأتلقى الدروس الخاصة بأعمال أركان الاستخبارات المتعلقة بغزونا المنتظر لشواطىء أوروبا عبر بحر المانش. (عملية اوفرلورد) . Overlord

لم يرق هذا الاجراء لروجر سكسون فراح يحاول بكل ما أوتي من وسائل اقناع العقيد كالفرت بأنني لست في الواقع على شفير الانهيار وبأن انتشالي وإنقاذي من بؤر لندن العاطفية يستدعيان قضاء شهرين من الاستشفاء في جبال اسكتلندا حيث أعلنت مدرسة مغاوير القوات الحليفة عن استعدادها لقبول عدد محدود من ضباط القيادة شرط اجتيازهم بنجاح فحص اللياقة البدنية. تقبل العقيد كالفرت حجج سكسون المقنعة، وعلى الأخص قوله بأنني لا أصلح للخدمة العسكرية، فوافق دون نقاش. أسدى لي روجر سكسون خدمة جليلة لم أدرك قيمتها إلاّ لاحقاً. فالدروس التي تلقيتها في المدرسة المذكورة شكّلت أحد أهم مراحل تعليمي. ذلك انها رفعت لياقتي البدنية إلى أعلى مستوياتها وحسنت من مهارتي بتدبير أموري كقدرتي مثلاً على تفادي المواد القاسية، والأهم من ذلك انها جعلتني أعمق استشفافاً لعقلية مكافحة الشرّ مما كان له أثره العميق في عملي في وكالة الاستعلامات المركزية التي انضممت إليها بعد الحرب، وعلّمتني أيضاً مبادىء الاستراتيجية الشخصية التي صارت أساسية في حياتي.

وصلت إلى لندن شخصاً مختلفاً وكان أول ما قمت به التخلي عن الاقامة في البيت برفقة فرانك كيرنز وجايمس ايخلبرغر وحل مكاني رائد ما استقال من منصبه في مكتب الاستقصاءات الاتحادي «لخلاف في الرأي» مع مدير المكتب ج. ادغار هوفر، يقضي كل أوقات فراغه بتنظيف مسدساته وبالتدريب على سحبها بسرعة أمام المرآة. ورأيت في فرانك رجلاً آخر أيضاً فقد استقر في مهمته الجديدة كرئيس لفريق جهاز مكافحة التجسس في لندن ويقضي عمله بمراقبة الوحدة الأمنية التي تعمل كشرطة سرية لدى القائد العسكري في لندن. في أوائل العام ١٩٤٤ عاد إلى لندن الجنرال ايزنهاور بعد

حملة موفقة في شمال افريقيا ليصبح القائد الأعلى للقوات الهجومية الحليفة المسؤول عن «عملية اوفرلورد»: وهي خطة غزو أوروبا التي يحتلها النازيون. وأبدى فرانك مقدرته المميزة بأن استطاع اختراق سرية موعد وصول قطار الجنرال ايزنهاور إلى محطة بريمروز في لندن، منتصف ليل ١٥ كانون الثاني (يناير) وراقب تقارير الارصاد الجوية التي انبأت بأن الضباب الكثيف سيلف المنطقة في تلك الليلة فقام مع وحدته باستكشاف المحطة وجوارها أثناء النهار للتأكد من سلامتها الأمنية عند وصول الجنرال ايزنهاور وحاشيته.

ثم تصادق فرانك مع كاي صمرسبي، سائقة سيارة ايزنهاور ومساعدته الشخصية، واستمرت علاقته بها حتى انتهت من وضع كتاب بعنوان: «ايزنهاور كان رئيسي». (العنوان الأصلي «اربع سنوات تحت ايزنهاور» رفض من قبل دار النشر على انه عديم الذوق)*. وتعرّف فرانك عبر كاي إلى فتاة بريطانية جذابة جداً اسمها غوين صارت فيما بعد زوجته.

لم يمضِ وقت طويل حتى تزوجت أنا بدوري. أخذت بعد عودتي من مدرسة المغاوير ارتدي البزة العسكرية برتبة ملازم أول مما حرمني دخول نادي الضباط في شارع اودلي الجنوبي. أدخل التفكير بالزواج تعديلاً جديداً في حياتي فقد نفّضت عني «الشعور» بالحاجة إلى ما اسماه فرانك «كل المزينات والزركشات» التي تشكل جزءاً من اللُغزية المحيطة برجال جهاز مكافحة الجاسوسية. كما أدى الخلود إلى حياة أكثر استقراراً إلى ما أظنه حتمية لقائي بالآنسة لورين ادي، ابنة طبيب شهير بجراحة الدماغ والأعصاب في شارع هارلي، لقاء تبعته (بحتمية أيضاً) علاقة غرامية أوصلتنا إلى مذبح الكنيسة لا إلى العديد من حفلات الخطوبة الزائفة. وهكذا تزوجنا ـ وأُخذت لنا الصور لتنشر في المجلات الراقية ـ في كنيسة مريم في شارع غرايت پورتلند وخلدنا إلى حياة عائلية هادئة في ضاحية لندن. «كويلند الجديد»! لم يحملِ رؤسائي هذا المفهوم على محمل الجد في بادىء الأمر ولكن العقيد كالڤرت قرر في النهاية تكليفي بعمل تُستغلّ فيه مواهبي العقلية بدلاً من ميلي إلى المغامرة. وكان القرار وضعي في غرفة اللعبة! وكان ذلك ما ابتغيته.

انشئت «غرفة اللعبة» ـ «القيادة العليا الالمانية»، حسب تسمية المثرثرين لها ـ في المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفنور لتكون «شبه هدية بعيد الميلاد» للجنرال ايزنهاور لدى عودته من الجزائر في أوائل كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٤، ليبدأ منها أعداد عملية «أوفرلورد». ولئن لم تلقَ الغرفة اهتماماً يذكر من قبل الجنرال (وما كنت على علم آنذاك بأنه يطلع فيها على الاتصالات الدائرة بين القيادات الالمانية التي تصل بعد فكّ رموزها المسماة «اشارات الأحجية»)، فقد حصّلت لي تنويهاً او اثنين ووسام جوقة الاستحقاق. كان في الغرفة تقرير لم يتمكن المخططون عند الجنرال ايزنهاور من تجاهله طويلاً علماً بأنه بقي منسياً مدة طويلة في الأدراج في مبنى نورفوك. فقد أشار بشكل مقنع إلى الاحتمال بأن يكون الألمان قد حولوا اهتمامهم عن استراتيجيتهم التي قد بدأنا نفهمها نحو تطوير جيل جديد كلياً من الاسلحة تتركز في معظمها على الصواريخ. وعلى الرغم من ان المسؤولين داخل «غرفة اللعبة» لم يكونوا على علم بالتقدم الذي أحرزناه في تطوير القنبلة الذرية ـ أو لعله بسبب جهلهم لذلك ـ جاء تقريرهم بما تقشعر له الأبدان. فقد أشاروا ببراءتهم إلى احتمال وجود سلاح نووي لدى القيادة العليا الالمانية وان هتلر لن يتوانى عن اصدار الأمر باستعماله إذا ما شعر بأن الحرب انقلبت عكس مصلحته.

---

* تجدر الاشارة هنا إلى أن الظرف «تحت» في العنوان المرفوض يعني بالانكليزية أيضاً «بأمر» أو «بخدمة».

ومع علمي بوجود «مشروع منهاتن» (اسم برنامج الأبحاث الخاصة بتطوير وصنع القنبلة الذرية) وبأنه يتعلق بسلاح علمي متطور، لم أكن حائزاً على المرتبة الأمنية اللازمة للوصول إلى تفاصيله. وهكذا تجاوزني النقاش بين ٢٠ ساحة غروسفنور وبين مبنى نورفك. ولكن العلماء في لوس الاموس، في ولاية نيو مكسيكو، حيث قيادة مشروع منهاتن كانوا على بيّنة تامة بما يجري. وقد وصل إلى لندن أحدهم المقدم بوريس پاش إبّان بلوغ الزوبعة وسط الفنجان أوجها وذروتها بشأنه تقرير «غرفة اللعبة».

هكذا تعرّفت ببوريس پاش الذي فتّح لي عينيّ على حقيقة الحرب ـ بشكل خاص على حقيقة انه على الرغم من التفوق الظاهري في قوة المانيا العسكرية تبقى المشكلة الأساسية ليس كيف نربح الحرب بل ماذا سنفعل بالقنبلة الذرية بعد كسب الحرب. فاحتمال أو امكانية امتلاك الالمان للقنبلة الذرية او اقترابهم من انجازها، أقلق استراتيجيتنا. ولكن بدأ يخطر ببالي بعد بضعة أسابيع من العمل مع العقيد پاش ان قلقنا لم يكن من احتمال استعمال الالمان للقنبلة بقدر ما كان من احتمال بلوغ الروس قبلنا أسرار الأبحاث الالمانية بعد انتهاء الحرب.

بدأ عملي مع العقيد پاش في اجتماع لما يسمى لجنة افضليات الاستعلامات المشتركة عقد بعد ظهر يوم شديد الحر في غرفة واسعة جداً في وزارة الحرب البريطانية سقفها بالغ الارتفاع، وفيها طاولة كبيرة تتسع لعشرين شخصاً. جلس عند أحد جانبي الطاولة أربعة أميركيين ـ پاش وأنا وممثل عن سفارتنا في لندن وضابط في ملحقية البحرية في السفارة ببزته العسكرية ـ واحتل المقاعد الأخرى الباقية مندوبون عن شركات بريطانية كبرى وموظفون رفيعو المراكز في الحكومة وممثلون عن وزارة البحرية وعن وزارة الحربية وعن وزارة التموين وعن وزارة الخارجية، وكان خلف المندوبين البريطانيين مجموعات من المساعدين والسكرتيرات الذين ما انفكّوا يتهامسون مع المندوبين الجالسين إلى الطاولة فكان الكثير من الرواح والمجيء ومن تقليب الأوراق.

لست في معرض وضع النقاط على الحروف. ففيما كان البريطانيون يعرفون تماماً سبب وجودهم في الاجتماع كنا نحن الاميركيين سبب وجودنا فيه لم أدرك حقيقة ما كان يجري إلاّ عندما جئت لاعداد التقرير الذي وجب رفعه إلى رئيسي آنذاك العقيد آلن كالفرت: خلال السنتين الماضيتين كان البريطانيون يفكّرون بالأهداف التي سيتوجهون إليها يوم النصر في أوروبا، وراحوا يفترضون، حتى في أحلك ساعاتهم، بأن الحلفاء سيربحون الحرب. إضافة إلى ذلك فإن الاهداف التي حددتها اللجان البريطانية لم تكن فقط أهدافاً عسكرية، بل عسكرية وتجارية، أو حتى تجارية كلياً. فقد أدركوا منذ زمن بعيد ان الأبحاث التي يجريها الالمان تسبق بأشواط أبحاث الأميركيين والبريطانيين في مجالات الصواريخ والمتفجرات والمحركات النفاثة والكيمياء وصناعة المعادن والتصوير الفوتوغرافي ومختلف أوجه الهندسة. ولكن يبدو انهم لم يقيموا لذلك التفوق أي وزن على الاطلاق نظراً لاقتناعهم بأن الفوز في تلك الحرب مؤكد لجانبنا، وسيكون ما يمكننا الحصول عليه من الامكانات العلمية الالمانية «العنصر الأثمن من عناصر تعويضات الحرب» التي قد يتسنى لنا الحصول عليها من العدو المهزوم.

بتّ أدرك الآن أن معظم كبار ضباطنا كانوا على بيّنة من المعلومات التي جمعتها خلال أبحاثي في ذلك الاسبوع، علماً بأنها كانت جديدة عليَّ آنذاك. ولعل التقرير الذي رفعته عنها في حينه هو الأول الذي عرض الموضوع في السياق التاريخي الـذي كانوا بحاجة إليه. وعلمت ان الأركان الامبراطورية العامة (البريطانية) انشأت «لجنة أبحاث وتطوير محدودة» لوضع مخطط بغية وضع اليد على منشآت

الالمان الصناعية والعلمية وان اللجنة نسّقت مخططها ليتماشى مع عملية «اوفرلورد» دون تحسيس مخططي «اوفرلورد» بذلك، حسب ما قاله لي لاحقاً أعضاء في قيادتنا. وأقام البريطانيون أيضاً تسهيلات لتدريب المحققين ورجال الكوماندوس الذين أسندت إليهم مهمة تتبع كبار العلماء الالمان والقبض عليهم، بمعزل عن نشاط جهاز مكافحة التجسس (الاميركي) وشرطة أمن الميدان البريطانية. وبعد أن أخذت أرافق بوريس باش في جولاته الميدانية علمت من أصدقائي ـ في مكتب الخدمات الاستراتيجية ومختلف دوائر الاستخبارات البريطانية الذين كانوا يعملون معاً طوراً ويتنافسون تارة ـ بأن البريطانيين ينظمون فرقة اغارة خاصة ليسبقوا نظرائهم السوفيات في بلوغ منشآت الأبحاث الالمانية ووضع اليد على وثائقها التي نريدها إما لابعادها عن أيدي السوفيات أو لاستعمالها من قبلنا.

أعددت تقريري بمساعدة هامة جداً قدّمها لي نات سامولز، وهو محام مختص بالقانون الدولي، أسندت إليه مهمة تسجيل أرقام سيارات الجيب الخاصة بجهاز مكافحة التجسس تحت مراقبة النقيب دويل المتيقظة. سبق لي أن اعتدت الحصول على تقدير لاعمال لم أقم بها أنا، وعدم الحصول على التقدير لاعمال قمت بها فعلاً. أما التقرير الذي مكّنني نات دويل من كتابته فكان العمل الأول الذي لم أحصل فيه على أي تقدير على شيء لم أفعله. ومع ان التقرير لا يحمل توقيعاً لم يبقَ أحد من كبار ضباط ايتوزا الذين يستطيعون الرؤية إلى أبعد من أنوفهم. وغاب التقرير عن نظري ولم أشاهده بعد رفعه إلى مرجعه إلاّ في ملفات أيزنهاور الشخصية عندما كان البروفسور وليَم بوينغ يقوم بأبحاثه لوضع كتابه الممتاز بعنوان «ايزنهاور الرئيس».

عفا الله عما مضى. غير أن ذلك الاختبار علّمني الكثير لمصلحتي الشخصية ووفّر لي أبعاداً جديدة وثمينة. إنني أذكر بشكل خاص نقطة اعتلام برزت خلال حديث جرى بيني وبين نات صامويلز من جهة وبين موظف بريطاني رفيع المستوى من جهة أخرى. فبعد احتسائنا كمية من الكحول قال لنا الموظف ما مختصره: «عندما تفكران بهذه الخبيصة تدركان ان لها نوعاً من المعنى الشرير. ها نحن مشرفون على الدخول في معركة مع أفضل ما شهده العالم من الجيوش من حيث التدريب والانضباط والعتاد، يتقارع فيها ايزنهاور ومونتغومري وپاتن وغيرهم من كبار قوادنا مع قواد شرفاء ومخلصون، ومع ذلك نستطيع الافتراض باطمئنان إلى انه مقدر لنا ان نربح الحرب. أتعرفان ماذا ينتظرنا؟

هناك هتلر، بالطبع. ولكن صديقنا البريطاني كان يفكر كيف أن شخصاً مثل هتلر قد ارتقى إلى مركز يتمتع بتلك القوة التي لا تصدق في بلد متمدّن مثل المانيا. وتساءل: «مَن سيستفيد في النهاية عندما تضع هذه الحرب أوزارها، مَن سيكون فوق؟ ـ ليس فقط من جهتنا بل ومن الجهة الثانية كذلك. ألقيا عليهم نظرية جيدة ثم اسألا نفسيكما السؤال التالي: هل سيكونون بحال أفضل مما كانوا عليها قبل الحرب أم بحال أسوأ؟ هل كانت الحرب بالنسبة إليهم ربحاً واضحاً أم خسارة واضحة؟ لقد كانت الحرب بالنسبة لي شخصياً ربحاً واضحاً. وكانت بالنسبة لجميع الآخرين تقريباً في مركز قيادتنا، ولكنني أشكك فيما إذا كان صاحبنا البريطاني يفكر بتلك الصغائر. وفيما كنت عائداً إلى البيت برفقة نات مشياً على الاقدام قال لي ان ذلك الرجل يحاول تصوير الحقائق بشكل دراماتيكي. ثم أردف: «سيكون هناك دائماً لاعبون ولكن لن يستطيع أي منهم الاتيان بأي حركة على رقعة اللعب إلاّ عندما يقدم لهم شخص ما نوتة الموسيقى ويجمع أفراد الأوركسترا ويستأجر القاعة. إليك النوعين من الناس الذين يجعلون الأحداث تحصل في العالم».

أما بالنسبة لي فكان السؤال الهام في ذلك الوقت كيف أتعاطى في المستقبل مع منظّمي الاوركسترا عوضاً عن التعاطي مع العازفين وكيف أستطيع التوفيق بين ما تعلّمته من الجنرال لوتن، قائد مدرسة المغاوير، وبين ما تعلّمته لتوّي من نات. لم تكن الحرب العالمية الثانية، في نهاية المطاف، حقبة تاريخية منفردة لها بدايتها ووسطها ونهايتها، بل انها جزء من عملية طويلة تنطوي على خبيصة هائلة من العِقد الاقتصادية والسياسية والعسكرية تجعل أبطالها الآنيين يبدون تافهين بالمقارنة معها. فإذا وضعنا فارق السن جانباً، فإن إدراك ذلك هو الذي جعل من أيزنهاور جنرالاً ومني نقيباً.

الفصل السادس

جهاز مكافحة التجسس

ابتعد بوريس پاش عن المسرح قبل عدة أشهر من موعد انزال الجيوش الحليفة إلى شواطىء أوروبا فذهب أولاً إلى لوس الاموس ثم عاد إلى لندن بمهمة سرية فوق العادة لم يكن فيها بحاجة إلى مساعدتي فعدت للعمل مع رئيسيَّ العاديين آلن كالڤرت وهاورد وِلسُن اللذين اكتفيا بتكليفي بمهمات تتناسب ومواهبي ومزاجي الفني. انهما، كلٌّ على طريقته، رجلان خارقان وانني مدين لهما أكثر بكثير مما أفدتهما - علماً بأنني خدمتهما بكل ما أوتيت من نشاط. فقد كتبت أوراق التخطيط للعقيد كالڤرت وقمت بين حين وآخر «بتحقيقات خاصّة» - أي تحقيقات تخرج نوعاً ما عن الأساليب المألوفة - بتكليف من العقيد وِلسُن.

كانت الحرب بالنسبة للعقيد آلن كالڤرت أكثر بقليل من تسلية. فمع العلم بأنه أخلص جداً لعمله وأتقنه تماماً فقد بقي في عقله وروحه ما كان عليه في الحياة المدنية أي أحد أثرياء النفط من ولاية اوكلاهوما. اعتبر الحرب حقبة «انتقالية» نظر إليها بجدية طالما هو فيها ولكن كان اهتمامه الأكبر الانتهاء منها والعودة إلى حياته الطبيعية. وكغيره من كبار الضباط في الرقم ٢٠ ساحة غروسڤنور اعتبر بأننا سنخرج منها منتصرين.

أما هاوَرد وِلسن فلا يقل «انتقالية» في نظرته عن آلن كالڤرت وهو محامٍ من مدينة كينغزپورت في ولاية تنسي يتحلّى بجميع الخصال التي نقدّرها، نحن أهل الجنوب: الكرامة المقرونة بالمرح وبروح النكتة على غرار الأديب مارك تواين. ففي تصرفاته الشخصية يلتزم التزاماً صارماً بالانضباطية ولكنه يتساهل بالقدر المعقول مع ذلك النوع من الناس الذين يبدون ميلاً نحو النشاطات الفكرية كما انه من ذوي العقول التي تهتم بالرأي السديد أكثر من اهتمامها بالافكار الرائعة، يترك هذه الأخيرة لأشخاص مثلي ومثل فرانك كيرنز وجايمس ايخلبرغر. وفيما أكتب كل هذا، بعد نيف وأربعين سنة من حدوثه، لا شك في أن هاورد وِلسن، المعروف تحبّباً باسم القاضي وِلسن الختيار، هو الآن في كينغزپورت بولاية تنسي منشغل مع السيدات يحاولون جمع الأموال للأعمال الخيرية. عمل هاورد في مراحل علاقاتنا الأولى مع كل من ثيودور روزفلت ومع الشيخ سپاركمن ومع الجنرال دونوڤان والأعضاء الآخرين في «هيكلنا». وعندما أخذ فرانك كيرنز وزوجته يقضيان أكثر أوقاتها مع شلة تشلسي حلَّ وِلسن محل كيرنز كأفضل صديق لي - وهي علاقة نمت أكثر فأكثر بعد استلامه رسالة من زوجته بدأتها بعبارة: «عزيزي جون» (طلب الطلاق) انتقل على أثرها للاقامة في بيتنا بضاحية لندن.

عندما أفكر بالظاهرة الحكومية المعروفة بـ «بناء الامبراطورية» - الجديدة عندي آنذاك - يكون في ذهني هاورد وِلسن. ذلك انه في أي هيئة حديثة وكبيرة، سواء كانت مصنعاً أم جيشاً، هناك فريق يقرر ما يجب عمله وفريق آخر ينفّذ - أو اولئك الذين يرشدون الرئيس إلى الأهداف وإلى وسائل بلوغها وأولئك الذين يقومون بتنفيذ العمل المطلوب. يعرف الفريق الأول بأنه «الاركان» ومهمته ما يسمى «وضع السياسة» أما الفريق الثاني فيسمّى «الخط» ويقوم أفراده ما نسميه نحن الاختصاصيين بمثل هذه القضايا: «العمليات». ضباط الاركان يخرجون بالحلول؛ أما ضباط الخط فيطبقونها - ولا داعي للقول بأن على هؤلاء تقع الملامة والعقاب في حال الفشل. من البديهي فيما بين مسؤولي مقر القيادة ان الفريق الأول يتمتع بالسلطة الخالية من المسؤولية (لا أحد يلقي باللوم عليهم إذا ما قصرت الحلول التي

خرجوا بها عن حل أي شيء شرط أن تكون تلك الحلول قد «صيغت صياغة جيدة» والعكس بالعكس للفريق الآخر. كان هاورد وِلسن من أفراد «الخط» فيما كان آلن كالفرت في «أركان» فريق ج - ٢ بقيادة العقيد برايان كونراد. ولكن العلاقات داخل جهاز مكافحة الجاسوسية خَلَت من قضايا السلطة والمسؤولية إلّا عند مجيء ضباط ممتهنين مثل ابن الكذا وكذا روجر سكسن يبحثون عن حالات يستغلّونها فيثيرون تلك القضايا.

المشاكل والحلول ومَن هو المسؤول عن هذه ومن المسؤول عن: تلك، هذا هو جوهر القيادة العامة في أي منظومة، وتصرف العضو الطموح في المنظومة سيتأثر بل سيسترشد بهذه الحقيقة. فإن أنت أسندت مسؤولية حلّ مشكل ما إلى فرد في المنظومة لا يثق باستقراره فيها - وهل ثمة عضو في منظومة كبيرة يشعر بتلك الثقة؟ - لن تكون أفكاره الأولى موجهة نحو البحث عن كيفية حل المشكل. أفكاره هذه تأتي في المرتبة الثانية بكل تأكيد. فالسؤال الأول الذي يخطر بباله هو: «كيف أستطيع أن أجعل من هذا الأمر التافه الذي اخترعه لي رئيسي ليشغل وقتي به، مشكلاً ذا أهمية بالغة؟ - فمن البديهي أن المرء ينال تقديراً أكبر لحله مشكلاً كبيراً مما يحصل عليه لقاء حله مشكلاً صغيراً.

وهكذا يمكنك ان تتصور ما كنا نمر به في جهاز مكافحة الجاسوسية - فليس بوسعك أن تتوقع من جواسيس يعملون ضدك ان يفصحوا عن هوياتهم. فكّر إذاً بامكانات تضخيم المشاكل التي لا تستطيع رؤيتها! الوقائع والحقائق قابلة للقياس، أما التصور والخيال فلا حدود لهما. نحن نشاهد بالعين أي جواسيس (وكان فرانك يجمع الملاحظات لتأليف كتاب بعد الحرب سيكون عنوانه : «لم نقبض على أي جاسوس»)، ولكن ذلك لا يعني انه لم يكن هناك جواسيس. كل ما يعنيه ان البريطانيين المحتالين عرفوا كيف يتحاشون يقظتنا أو انهم على علم بالجواسيس ولم يخبرونا بذلك.

بحثت في أحد الأيام مع هاورد وِلسن في كل ذلك مشدّداً على عدم اتصال سلطات الأمن البريطانية بنا، خصوصاً من قبل الفرع الخاص في سكوتلنديارد (لم نكن نعلم آنذاك بوجود جهاز الأمن العسكري - ٥ عند البريطانيين) وأشرت إلى انهم لما تمنعوا عن مساعدتنا في أمر صغير كاغتيال رجل يقف بين ضابط أميركي وبين صديقته فليس لنا بالتالي أن نتوقع منهم المساعدة في قضية كبيرة كالقبض على جواسيس ألمان.

ثم حزرت الجواب. تُرى لماذا انفعل الفرع الخاص في سكوتلند يارد - واغتبط روجر سكسُن - عندما قمنا أنا وفرانك بتمثيليتنا في ساحة غروسفنور مع «الجاسوس» الالماني الذي أرشدتنا إليه صديقة فرانك؟ إن الجواب الوحيد المقنع، على ضوء امتناع أصدقائنا البريطانيين عن التعاون معنا، هو انهم قبضوا على جميع الجواسيس الالماني في بريطانيا وأنهم لا يريدون ان تتدخل جماعة من الهواة في طريقة استعمالهم للجواسيس وسيلة لارسال معلومات مغلوطة إلى برلين. سألت هاورد وِلسن عما إذا كان يظن بأن الأمر كذلك فأجاب بالايجاب وأضاف بأن علينا أن نحصر عملنا بالشؤون التي تخص الأميركيين وألّا يغيب عن بالنا بأننا ضيوف في بلد شعب قضى بضع سنوات في الحرب ولديه حساسية تجاه حفنة من رعاة البقر القادمين إليهم دون التريث لاستيعاب الحساسيات العديدة في البلد. وأردف قائلاً: إن ما تعوديت عليه من النظر «واقعياً» إلى مشكلة كسب الحرب هي بحد ذاتها عادة غير واقعية. وأوضح ان المشكلة الأميركية الحقّة لم تكن كيفية كسب الحرب بل كيف نحقق ذلك مع هذا النوع من «الامبراطورية» بشكل يفيد منه الجميع. كدت ألطم وجهي غضباً من نفسي لعدم استطاعتي إدراك تلك النقطة من دون مساعدة أبي الروحي الأني.

إذاً إنه بناء الامبراطورية؛ وقد ساهم فيه جهاز مكافحة التجسس في مسرح العمليات الأوروبية مساهمة متواضعة انما فقط بمقدار الحصول على الموافقة لضابطين وأحد عشر عميلاً من الجهاز لكل فرقة عسكرية. ولكننا شرعنا مذاك بالعمل الجدي. وبدأ هاورد ونائبه الذي تعيّن حديثاً وهو رجل بشوش مرح اسمه كلود غوزا، يبعثان بالرسائل يطلبان فيها تزويدنا بالمزيد والمزيد من الرجال من معسكر ريتشي في ولاية مريلاند حيث يجري تدريب الجنود والضباط على القيام بمختلف أعمال جمع المعلومات والاستطلاع فاستوعبنا كل الذين استطاعوا ارسالهم لنا فاسترسلنا في ذلك. ثم خطر لهاورد أو لكلود، لم أعد أذكر لمن منهما، بأنه يوجد في ايسلندا عدة مئات من رجال جهاز مكافحة الجاسوسية الذين يتمنّون أن يُنقلوا إلى بريطانيا الجميلة. وهكذا طُيِّرت برقيات مستعجلة أدت إلى نقل عدد من رجال الجهاز من أيسلندا إلى بريطانيا في زمر تتألف الواحدة منها من ثمانية إلى عشرين رجلاً وقد عجبنا لما كانوا يفعلون في ايسلندا.

كنا نعلم ما العمل المتوقع من وحدات جهازنا القيام به عندما تصل إلى أوروبا فرق الجيش التي كانوا ملحقين بها. وتشرع بمقاتلة الالمان. حددت لنا أوامرنا ان علينا «تأمين المناخات» المحيطة بقواتنا المقاتلة في تقدمها وتوغلها في أوروبا وبأن علينا عمل كل ما في وسعنا للتأكد من عدم وجود جواسيس المان بين السكان المدنيين يستطيعون توجيه رسائل لاسلكية إلى الالمان. ولكن وعلى ضوء ما راقبناه من الحرب حتى ذلك التاريخ، فهل كان لتلك من معنى؟

لم يقم المستقبل الذي خططته لنفسي ولزملائي في جهاز مكافحة التجسس على مفاهيم القيادة لما ينبغي لوحدات المكافحة الاسهام به في المجهود الحربي بقدر ما قام على حقائق الوضع التي اتضحت لي من سياق عملي مع بوريس باش. أما تلك الحقائق فهي:

أولاً - إنه عندما تندفع القوات الحليفة داخل أوروبا لن يكون هناك أي استخبارات المانية لنجابهها. فتسعون بالمئة من الفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين والالمان الذين جندتهم الاستخبارات الالمانية للعمل وراء الخطوط الحليفة بصفة جواسيس ومخبرين سيتسابقون على الانضمام إلى الفئة الرابحة في الحرب. أما العشرة بالمئة من الذين تمنعوا عن ذلك فسيكون الاهتمام بهم الغباء بعينه. فإذا كنا لنأخذ الأوامر السارية المفعول على حرفيتها سينتهي بنا الأمر إلى الصيرورة نوعاً من مؤسسة لرعاية المهجرين. وعليه، فما ان تنزل قواتنا على شواطىء مقاطعة نورمندي الفرنسية حتى نرمي على عاتق الشرطة العسكرية مسؤولية مهمة اعتقال ليس الجواسيس الحقيقيين الذين سيسلّمون أنفسهم بل كذلك جماعات السوق السوداء والناس العاديين الذين سيدعون بأنهم جواسيس ليستفيدوا من الاقامة في مراكز التحقيق المريحة بدلاً من معسكرات اسرى الحرب البائسة. وعلينا القيام بأعمال تتناسب مع المهارات التي حملتنا إلى جهاز مكافحة التجسس. حقاً انها «تأمين المناخات» السليمة.

ثانياً - علينا الحصول على حصة مما سيصبح دون شك المهمة الرئيسية لمجهود الاستخبارات الاجمالي: ملاحقة الالمان والقبض عليهم سواء كانوا مدنيين أم عسكريين الذين (١) قد يكونون مفيدين لنا بعد الحرب أي العلماء الذين قدّموا لالمانيا تفوقها التقني ورجال الاستخبارات الذين تجسسوا على السوفيات أو (٢) النازيين الاصوليين الذين يحاولون الهرب إلى أمكنة أخرى في العالم حيث يتمكنون من انعاش حركتهم من جديد. لم يكن أي من هذين التصنيفين وارداً على قائمة «التوقيت الآلي» انهما لم يكونا، حسب معلوماتي، موضوع اهتمام أي هيئة استعلامات أخرى.

ثالثاً ـ وأخيراً هناك الواقع البديهي وهو أن رؤساءنا المباشرين ـ كالڤرت وولسن وغيرهما ـ كلهم تواقّون لانتهاء الحرب والعودة إلى الوطن، وعليه سيوافقون مع أي تجديدات اجرائية تحول عمل جهاز مكافحة التجسس إلى عمل روتيني يسهم في تسهيل حياتهم في الفترة المتبقية من الحرب. كان العقيد كالڤرت كله آذان عندما عرضت عليه تلك «الحقائق» فأخذها فوراً إلى العقيد برايان كونراد في قيادة ج ـ ٢ وبعد اسبوع من العمل مع هيئة التخطيط صدرت أوامر جديدة اسندت إلى وحدات جهاز مكافحة التجسس مهمات أمنية بسيطة وسمحت بانشاء وحدات خاصة تقوم بأعمال «انتقالية» أي تلك التي تساعد في تحويل المانيا الهتلرية إلى دولة تكون «مأمونة للديمقراطية». (استعملنا هذه العبارة فعلاً).

هنا، أُحيل القُرّاء الذين يظنون بأنني أحاول إعطاء نفسي تقديراً يفوق ما استحق (خلافاً لما تعلمته في مدرسة المغاوير) أحيلهم على البراءة المرفقة بوسام جوقة الشرف التي تنص صراحة على انني نلته تقديراً «لإسهامي في وضع خطط مكافحة التجسس قبل عملية اوڤرلورد»، وعلى التاريخ الرسمي للحرب العالمية الثانية الذي يفصِّل ذلك التخطيط تفصيلاً دقيقاً. أما ما لم أحصل على تقدير من أجله فهو إسهامي في تأليف فريق «انتقالي» خاص بنا مؤلف من أحد عشر عنصراً تمَّ اختيارهم خصيصاً من بين عملاء مكافحة التجسس للخدمة بقيادة هارولد وِلسُن وبأوامر خاصة كانت مطّاطة ومثقلة بالتعابير العسكرية الروتينية إلى درجة انها اشتملت على كل شيء ـ إنما على أساس مؤقت ـ اعتبرنا انها يجب ان تشتمل عليه.

ذهبت إلى أكثر من ذلك إذ جندت، بموافقة هارولد وِلسن بالطبع عدداً من عملاء جهاز مكافحة التجسس الوافدين على بريطانيا من معسكر ريتشي للتدريب المخابراتي في ولاية ماريلند. فقد كان معي نات ساموِلز الذي ارشدني إلى مواطنه من شيكاغو هنري راغو الشاعر المعروف واستاذ من اساتذة الفلسفة في جامعة نوتردام صار لاحقاً رئيس تحرير مجلة «شعر» الراقية. وكان هناك أيضاً بعض الاكاديميين الذين تعلموا وعلّموا خارج الولايات المتحدة، ومراسل أجنبي أو أكثر لم تسعفهم مستنداتهم في الإفلات من التجنيد الاجباري، ورجل الماني المولد وأميركي الجنسية يتقن اللغتين صار فيما بعد النجم الساطع عند الحاجة بين محققينا. وضمت مجموعتنا أيضاً أفراداً «عرقيين» من الغرب الأوسط (الأميركي) مثل انطوني ڤايڤادا وهو ليتواني الاصل وأميركي الجنسية ومحلل سياسي يتقن الفرنسية والالمانية فضلاً عن مختلف لغات دول أوروبا الشرقية. أضفت على المجموعة كذلك رجلين من تكساس هما تشارلي بوكّر وجون باريش مساعد استاذ اللغة الفرنسية في جامعة تكساس. وعلى الرغم من انهما تعلما الفرنسية من الكتب المدرسية فقد كانت طلاقتهما بنطقها تفي بحاجاتنا، هذا فضلاً عن انهما يكملان حكمتي القروية التي جعلتنا نميز بين الصحيح والمزيّف. ثم جاءنا هاورد وِلسُن بجول نولين وهو كندي فرنسي صار حلّال المشاكل في وحدتنا وكذلك بالنقيب دويل الذين احتفظ لسبب أجهله بـ نات صمويلز يدهن سيارات الجيب في لندن. وكان دويل الرجل المثالي عندنا: فهو لا يدخن ولا يشرب الكحول ولا يطارد النساء.

ومنذ ذلك الوقت وحتى مرور شهر على الانزال في أوروبا، أي موعد نقلنا إلى فرنسا، قضينا الوقت في التعارف على بعضنا البعض وفي تبادل الأفكار عما سنفعله عندما نصل القارة الأوروبية. أما أنا فملأت أوقات فراغي بتجديد تعارفي بأصدقائي القدامى في مكتب الخدمات الاستراتيجية وهو المؤسسة التي كنت آمل الالتحاق بها في نهاية المطاف.

ومن خلال زياراتي إلى قيادة المكتب بلغني ان منظمة الأمن البريطانية المعروفة بإشارة إم آي ٥ (ربما تعني «الاستخبارات العسكرية ـ ٥) كانت قد أطبقت فعلاً على كل الجواسيس الالمان ليس فقط في بريطانيا نفسها بل وكذلك في أيسلندا وغرينلند وشبيتزبرغن وجزيرة جان مايان حيث كانت مهمتهم ارسال تقارير عن حال الطقس وهي معلومات حيوية جداً لسلاح الجو الالماني في غاراته على الاهداف البريطانية. وقد جعل الانجاز البريطاني هذا وجود جهاز مكافحة التجسس الأميركي في تلك المناطق غير ذي شأن فلم يعد ثمة مجال للعجب من أن فرق مكافحة التجسس الأميركية وقائدها شعروا ليس فقط ببرودة الأجواء هناك بل وبجو من عدم المحبة والتقدير. من هنا إذاً السهولة التي استطعنا بها سحبهم إلى بريطانيا. وبعد ان قبض جهاز الأمن العسكري البريطاني على الجواسيس حوّلهم إلى خدمته، وجعلهم يرسلون إلى الاستخبارات الالمانية معلومات خاطئة ترشدهم إلى أماكن مغلوطة يُغير عليها سلاح الطيران الالماني في بريطانيا.

الأهم من ذلك انني علمت بعد أن حصلت على التصريح السري فوق العادة الذي صار يحق لي بموجبه الاطلاع على تفاصيل «عملية اوفرلورد» ان ثمة أربعين أو خمسين ضابطاً من كبار الضباط انشغلوا بتخطيط جميع تفاصيل الفترة المتبقية من الحرب وأنهم يمارسون «لعبات الحرب» التي أخذت في الحسبان عناصر لم تخطر لي ببال. وباعتباري لاعب پوكر اطلع على كل ما كتب حتى ذلك التاريخ عن نظرية اللعب والسجال أدركت ان وراء تلك الالعاب خبرة واختصاصاً رفيعي المستوى. وتسنى لي الاجتماع بما يكفي من الضباط المنخرطين في تلك الالعاب لأرى بنفسي انهم على بيّنة تامة مما يفعلون.

الـفـصــل الـســابــع

الطريق إلى باريس * الدخول إلى باريس

ما هو القاسم المشترك بين هنري كيسينجر وويلبور ايڤلند وج.د. سالينغر ووليَم سارويان وجون غلينون وجايمس ايخلبرغر ومايلز كوپلند؟ هل كونهم جميعاً من أشد الرجال ذكاءً؟ أجل، هذا واحد من القواسم المشتركة. ولكن القاسم الذي كان يجول بخاطري هو اننا جميعاً ذهبنا إلى أوروبا بعد يوم انزال الجيوش فيها وبصفتنا عملاء في جهاز مكافحة التجسس على أن يكون لكل منا دوره في اسقاط هتلر، حسبما جاء في مذكرات سپايك ميليغن عن الحرب، وقد نُشرت بعدها بزهاء ثلاثين سنة. على كل حال أذكر انني وصلت أوروبا في المجموعة التي ضمّت غلينون وسالينغر وكان ذلك قرابة الأول من شهر آب (اغسطس) ١٩٤٤، ولست أدري متى وصلها الآخرون الذين ذكرت.

بعد ليلة لطيفة ومثيرة رقدنا في آخرها في أكياس النوم العسكرية على شاطىء نورماندي الرملي يلفحنا نسيم عاطر وتطل علينا النجوم البراقة من سماء نقية، ويشنف آذاننا هدير الطائرات المستمر ودوي المدافع الآتي من بعيد، انطلقت بنا قافلة من ناقلات الجند وسيارات الجيب فحططنا رحالنا في مباني ثكنة فرنسية مهجورة في ڤالون على بعد كيلومترات قليلة من بلدة كاين وأكثر من مئة كيلومتر من باريس. هنا في الثكنة أخرجنا النرد وورق اللعب من جعباتنا وخلّصت بعض البلهاء من قرابة ٥٠٠ دولار خلال أيام قليلة وخسرت في بعض الأحيان فقط لتفادي سأم استمرار اللعب حسب الأصول.

عندما عدنا إلى ثكنتنا أنا وهاورد ولسن وجون پاريش عصر أحد قبيل موعد الكوكتيل رأينا عملاءنا الاثني عشر في جهاز مكافحة الجاسوسية وقد تحلّقوا حول شاب يتكلم بسرعة ولم يحلق ذقنه منذ بضعة أيام وفي اسمال بدلة ضابط الماني، استحوذ على انتباههم بما افترضنا انه قصة يرويها عن احدى مغامراته الشخصية الحديثة.

وما أن رآنا أحد عملائنا (ربما كان جول نـولن) حتى قفز واقفاً على قدميه ليقول لنا: «إن أضخم غنيمة في مكافحة الجاسوسية خلال هذه الحرب» قد سقطت في أحضاننا. بدا الرجل أقرب إلى مهرج في أحد مرابع سوهو الليلية منه إلى ضابط الماني. ولكنه كان في الواقع ملازماً في الاستخبارات الالمانية، ضالعاً في محاولة اغتيال هتلر، ونجا من الاعتقال بأعجوبة استحوذ بسردها على اهتمام رجالنا.

هل قلت آنفاً كوكتيل؟ أجل هكذا كانت حياتنا في وحدتنا المرافقة للقيادة. والحقيقة هي ان امسياتنا في وحدات جهاز مكافحة الجاسوسية في أوروبا تختلف إلى حد ما عن حياة باقي المجندين العاديين فقد استقدمنا الطهاة المهرة الذين يعرفون كيف ومن أين يحصلون على اللحوم والخضار الطازجة.

في شخصية هذا الضابط الالماني، واسمه هيرمن رِدكي نوع من السحر. فهو، وان كان يتكلم بثقة المهرج المسرحي، متواضع جداً يتقن الانكليزية اتقاناً تاماً ذلك انه نشأ في منهاتن في نيويورك حيث كان أبوه (حسب قوله) موظفاً في شركة المانية اميركية للنقل البحري. وهو بطبيعته قصّاص من الدرجة الأولى ينقل معلوماته إلى المستمع بشكل حكايات تشبه تلك التي تحكى حول نار المخيم في المهرجانات الكشفية. أما في سرد التفاصيل الدّالة على الذكاء فيتوقف عندها بما يكاد يشبه الهوس بها حتى أصغرها. ففي منتصف حكاية او نكتة ما عن أحد كبار الضباط الالمان مثلاً ـ كخلاف بينه وبين زملائه

أو بعض صفاته الشخصية، أو اسلوبه في لعب البوكر وغير ذلك ـ تراه يتوقف ليسترسل في ذكر سن الضابط ووضعه العائلي وطول قامته ووزنه ولون شعره وعينيه.

لم نتمكن من سبر غوره ولكننا وجدنا انا وهاورد وِلسن ان حكايته متماسكة جداً ومنطبقة تماماً مع صورة الوضع العام في ذهننا آنذاك لأن تكون كلها ملفقة. وعليه قضينا اليوم بأكمله نحاول استشفاف غاية مكيافيلية أو عمالة مشتركة دفعت به للمجيء إلينا. وعندما طلبنا إليه البوح بالحقيقة طلب منا مواجهته بضابط جهاز مكافحة التجسس النقيب مارتن وِس الذي علم عنه بطريقة ما انه موسوعة متحركة عن استخبارات القيادة العليا الالمانية.

ولعل ذكر الضابط الالماني لاسم النقيب الأميركي وِس كان سبب اهتمام البروفسور جون باريش الذي قال لهاورد في اليوم التالي: «لكي نصدق أن هذا الرجل يقول الحقيقة، علينا أن نصدق ان مارتي وِس أصاب الهدف في وصفه تفاصيل لعبات الحرب التي يمارسها جميع ضباط القيادة العليا الالمانية. فهل تقول بشكل فوري ان هذا الصعلوك حصل على معلوماته من مشاهداته الشخصية أم من قراءته ملف مارتن وِس؟

كان الجواب واضحاً، أكده مارتن بنفسه عند وصوله إلى معسكرنا بعد ظهر اليوم نفسه، إذ بادر أسيرنا بالقول:

- «مرحبا يا هِرمْ»،
- «مرحباً يا مارتي»، أجاب هرمن ببعض الكآبة وان كان قد بدأ يهدأ روعه قليلاً.

قال مارتن: «لقد كنت فتى شقياً».
أجاب هرمن: «أعلم ذلك يا مارتن».

انتهى الأمر، ولاحظنا عند ذاك ان الجنديين الذين وصلا في سيارة الجيب مع مارتي ينتميان إلى الشرطة العسكرية. توجه مارتي إليهما قائلاً: بأن القوة ليست ضرورية وبأن هِرْم سيأتي طوعاً. أما هِرْم ردمن وليس ردكي ـ فكان ترجماناً باللغتين مع الجيش السابع، سبق له ان اشتغل بأمرة مارتي.

والآن ما هو الدرس؟ لقد كان الدرس الأهم آنذاك كامناً في اجوبة هِرْم عن أسئلة وجهها سام إليه. فقد كانت فرق جهاز مكافحة التجسس الأميركية حتى قدوم هِرْم إلى معسكرنا تتصور بأننا نحارب المانيا النازية. وكان الرجال يؤمنون باستحالة محاولة العدو المهزوم الانضمام إلينا في حرب ضد «عدو مشترك» هو روسيا السوفياتية. أما أنا وبفضل عملي مع العقيد پاش في لندن، فلم يستحوذ على مثل ذلك الوهم، وبتّ الآن أدرك ان ما سمعه زملائي من هرمن كان الاشارة إليَّ التي تلقوها عن أن كبار قادتنا ينظرون إلى أبعد من المانيا النازية، إلى الروس الذين تعلمنا ان نتكلم عنهم بعطف ونسميهم: «حلفاءنا الحمر الأبطال». فمن هِرْم العائد لتوّه من مقر القيادة علمنا أن رؤساءنا في واشنطن ولندن يصدقون بأن هناك فعلاً حركة مناهضة للنازية وربما على نطاق واسع في الجيش الالماني، قد تكون ذات فائدة بعد انتهاء الحرب.

هارولد وِلسن وغيره من الذين لم يهمهم سوى انتهاء الحرب والعودة إلى حياتهم الطبيعية فلم تثرهم تلك الحقائق إلاّ قليلاً بل ربما أزعجتهم بعض الشيء. أما بالنسبة إلينا نحن الذين نظروا إلى المستقبل من منظار الاستخبارات لفترة ما بعد الحرب، فقد فَتحت أمامنا آفاقاً جديدة.

اضطررت، بعد الكثير من التردد، إلى وضع حد لقصة اعتمدتها لسنوات عديدة هي خرافة كوني أول اميركي دخل باريس فور تحريرها من الالمان صحيح انني لا ادّعي فخر القيام بعمل لم أقم به

فعلاً إلاّ عندما أتيقن من أن أمري لن ينفضح. أما في تلك الحال فقد كان هناك الكثير من ابواق الدعاية المناهضة لي، من الذين يعرفون الحكاية على حقيقتها، ولعل واحداً منهم أو أكثر من بين قرابة المليون شخص الذين سيقع هذا الكتاب بين أيديهم يكنّ لي من العداء ما يجعله يوجه رسالة إلى رئيس تحرير الصحيفة التي نشرت مراجعة لهذا الكتاب أثنت فيها عليه.

أما بشأن التفاصيل فلست على دراية بكامل الحكاية لأنني لم أكن أعرف إلاّ القليل مما يجري حولي وآخذ الأمور كما تصادفني دون تدوين ملاحظات وحفظها. كما أن ما أعرفه الآن مستقىً من مراجعتي للتقارير القديمة التي وضعت عن الأحداث بعد وقوعها ببعض الوقت، وإلى محادثاتي مع اصدقائي القدامى أمثال لاري كولينز ودومنيك لاپيار اللذين ألفا ذلك الكتاب الرائع «هل باريس تحترق؟» أما من حيث التواريخ فكل ما استطعت التثبت منه هو انني وصلت باريس قبل يوم واحد من دخول ارنست (پاپا) همينغواي إليها. ولا بد أن قرّائي القدماء ما زالوا يذكرون انه ادّعى لفترة من الزمن بأنه أول أميركي وصل باريس في شهر آب (اغسطس) عام ١٩٤٤ - وهو يعني بالطبع انه كان أول شخص من بين المشاهير أدّى دوراً بارزاً في تحرير المدينة. ولا ريب في انه كان على علم بأن مكتب الخدمات الاستراتيجية استطاع تسريب قرابة الاثني عشر عميلاً من عملائه إليها قبل أن تغادرها الجيوش الالمانية.

لنبدأ من البداية. ففي اليوم التالي من إرسالنا هرمن إلى لندن لالتقاط أنفاسه واستعادة عافيته النفسية وصل إلى معسكرنا مُقدَّم في الجيش اسمه غروڤر آدامز ينتمي إلى الاسرة الشهيرة في بوسطن، حاملاً ظرفاً مختوماً كبيراً ورسالة خاصة من رئيسه غوردن شين الذي رُقّي في حينه إلى رتبة عميد وكان أنذاك لا يزال في مقر قيادة جهاز مكافحة التجسس في واشنطن. لم يطل به الوقت حتى طلبني المقدم وقال لي: «إن الجنرال شين يقدرك تقديراً رفيعاً ويرى بأنك العميل المناسب للقيام بخدمة صغيرة له نصفها رسمي ونصفها الآخر شخصي. أما النصف الرسمي منها فقد يأتيك بوسام آخر».

ما هي تلك «الخدمة الصغيرة؟» انها حَملُ الظرف إلى فندق «ماجيستيك» الواقع في جادة ڤيكتور هوغو المتفرعة عن جادة الشانزليزيه قرب ساحة النجمة في باريس وتسليمه إلى المقدم كورت شوماخر مساعد الجنرال ديتريخ فون خولتِتز قائد القوات الالمانية في باريس وضواحيها. أما النصف الرسمي من المهمة فكان استعمال شتى الوسائل لتأمين مكان في فندق «جورج الخامس» للجنرال غوردن شين وكبار ضباط ج - ٢ الذين سيأتون من واشنطن عندما تسقط باريس في أيدي الحلفاء. أضاف المقدم آدامز قائلاً: «انك تعرف هؤلاء الدنيويين فإن لم نسبقهم نحن إليه استقروا هم فيه. أما نحن الأشخاص المهمين حقاً في هذه الحرب فسيرسلوننا إلى نزل صغير».

ولكن الالمان كانوا يملأون باريس فكيف لي، بالله عليك، دخولها؟ أم هل انكم تتوقعون مني وأنا في بزة ضابط أميركي دخول فندق ماجستيك، مقر القيادة الادارية للجيش الالماني والتوجه إلى مسؤول الاستعلامات المهذب طالباً منه إرشادي إلى مكتب القائد العام؟ «آه» قال آدامس: «لقد سهلنا لك الأمور فلا داع لأن تطّلع على محتويات الظرف وليس مطلوب منك أن تعرف ان كورت شوماخر هو في الواقع من كبار ضباط الاستخبارات الالمانية. ولكن يجب أن تعرف بأن الضابط الذي سيرافقك إلى باريس هو نقيب في الاستخبارات الالمانية ولدينا جميع المسوغات لوضع ثقتنا به وهو يعرف كل المداخل والمخارج. انه النقيب ڤالتر غليم وستلتقي به في مدينة شارتر حيث تمّ الاتصال بينه وبين وحدة مكتب الخدمات الاستراتيجية. ومن هناك وصاعداً ستكون الأمور سهلة.

هكذا أذكر الحديث الذي جرى قبل نيف وأربعين عاماً. وكأي انسان صارت حياته في أفول لست أذكر طعام الفطور صباح اليوم انما لا زلت أذكر بوضوح حديث ذلك اليوم خصوصاً وانه يشكل محطة هامة في حياتي العملية. غير انني عندما قصصت الحكاية ثانية على غروفر آدامز بعد عدة سنوات من حدوثها وكنا قد أصبحنا صديقين وتشاركنا في بعض الأعمال، أنكرها أولاً ثم قال: «لعلّي قلت شيئاً من ذلك القبيل على سبيل المزاح. فكل ما أراده منك الجنرال غوردن آنذاك العثور على شوماخر أينما كان «حتى ولو استلزم ذلك ذهابك إلى فندق ماجستيك، للعثور عليه». قارنت ذكرياتي لذلك الحديث مع بعض الزملاء القدامى فقالوا انهم يتذكرون أن المحادثة جرت حسبما أوردتها.

المهم انني أعرف الآن ما فهمته آنذاك. وعليه وبعد أربع وعشرين ساعة وبعد تحاشي طرق القوافل العسكرية، والشرطة العسكرية التي تسهل السير، والمرور بالمدنيين المرحبين بجنودنا ومختلف أصناف الفوضى في حرب قاربت بلوغ نهايتها، أوقفنا سيارة الجيب أمام فندق ريفي لفّه الاهمال يقع في غابة متاخمة لمدينة شارتر وفيه شاهدت الملازم دان هنتر من مكتب الخدمات الاستراتيجية.

فرح دان كثيراً لرؤيتي وبادرني بالقول: «كلما عجّلتم في تخليصنا من هذا الرجل كلّما كانت الغاية أقرب منالاً. إنه يحمل أوراقاً ثبوتية هامة مدعومة من قبل الجنرال سيبرت ولديَّ تعليمات من قبل العقيد بروس تقضي بعدم التعرض الفضولي له». أما الجنرال ادوين سيبرت فهو قائد ج ـ ٢ في مجموعة الجيش الثاني، أي رئيسنا جميعاً، وأما العقيد دايفد بروس فهو رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية في أوروبا، وسبق لي أن تعرفت به في لندن. أردف دان قائلاً: «انه حسب ذوقي مفرط بالثقة بنفسه».

في غرفة هي عبارة عن مشرب (بار) وصالة للتسلية كان الغناء قد توقف، وأصغى بعض صغار ضباط مكتب الخدمات الاستراتيجية ورجال المقاومة الفرنسية، بإعجاب إلى شاب الماني أشقر الشعر ووسيم الوجه يتحدث بمزيج من الفرنسية الباريسية والانكليزية النيويوركية قائلاً: «اسمعوا، يا جماعة، ما هو أثمن حيوان في الدنيا (بالفرنسية) أنكم تعلمون! (بالانكليزية) احزروا! (بالفرنسية)». قلت في نفسي لقد بلغت حكاية التمساح الالمان. فقد كانت قيد التداول في مقر قيادة «ايتوزا» طيلة الشتاء المنصرم.

قال الالماني: «أتستسلمون؟ إذاً سأخبركم. أنه ذكر التمساح. إنه أثمن الكائنات الحية في العالم. فالانثى تضع ألف بيضة في السنة ويأتي الذكر فيلتهمها كلها باستثناء عشر بيضات أو اثنتي عشرة منها. فلولاه لكنا غارقين حتى الحقوين في بحر من التماسيح». أخذ هذا الالماني الذي من المفروض ان أدخل باريس برفقته، يقهقه على الحكاية بمفرده. أما المستمعون إليه بكل ذلك الاهتمام المقرون بالانزعاج بدلاً عن السرور فلم يفتر ثغر أي منهم عن ابتسامة باهتة.

لم أبتسم أنا أيضاً. لقد كان من السهل عليَّ أن أتصور ذلك الشاب وعلى خدّيه ندبات من جراء المبارزة بالسيف جالساً في مشرب للجعة في ميونيخ يصخب بصحبة فتيان نازيين. ولكنه مثل هرمن وكأنهما نسختان عن نفسيهما في هوليود يتكملان الانكليزية باللهجة الأميركية الدارجة التي لا تشوبها أي لكنة.

راقبت المشهد لبضع دقائق برفقة دان وكنّا واقفين في الجهة المقابلة في الغرفة. وهنا سألني دان: «ما رأيك؟»

قلت: «أود الذهاب إلى مكان أبكي فيه بمرارة. ولكن دعنا ننتهي من هذه القضية».

رافقني دان إلى الطاولة التي جلس إليها النقيب ڤالتر غْليمْ متحدثاً. لم ينتظر غْليم أن يعرّف دان عنا بل نظر إلينا نظرة يُفترض فيها أن تكون نظرة صداقة وقال: «آه، جاك ارمسترونغ، الشاب الأميركي بكليته!»

ـ قلت: «فرصة سعيدة».

أجابني «لسان حالي»: هل سنحمل هذه المغامرة الصغيرة على محمل الجدية؟ أعني هل تتوقع مني جدياً أن أرافقك إلى باريس؟

كانت فكرة دخول باريس أثناء وجود الالمان فيها مجرد وهم خطر بمخيّلتي، ولكن رأيت نفسي عندها أحمل الموضوع فجأة على محمل الجدية فأجبته: «هذه هي الفكرة بشكل عام».

قال: «لا بد أن هناك مجنوناً». وتحول إذ ذاك النقيب غْليم إلى كل جديته فقال: «المكان يعج بالالمان. أعني أنني الماني وأعلم ما أقول. أفلم تدرك مغزى حكايتي عن التمساح؟

الحقيقة انني لم أدركه ولكن دان أدركه فأمسك بي من ذراعي وسرنا مبتعدين عنه ثم قال: «أظن انه من الأفضل لنا أن نتحدث قليلاً».

أطلعني دان أثناء تناولنا طعام العشاء على الوضع العام في مكتب الخدمات الاستراتيجية وفي جهاز مكافحة التجسس وعلى الصورة العامة التي تكونت في ذهنه على أثر وصول النقيب الالماني. فقال: إن رؤساءنا اعتبروا باريس حينذاك عبئاً علينا. فقد سبق للجنرال ايزنهاور أن سأل مستشاريه اللوجستيين: «ماذا ستفعل بها بعد الاستيلاء عليها؟» فأجابوه بأنه إذا أراد عدم تحمل مسؤولية تجويع شعب أجمل مدينة وأكثرها قابلية للانفجار في العالم، عليه أن يكون مستعداً لامدادها يومياً بأربعة آلاف طن من الغذاء والدواء والوقود، أي ثلاثة أضعاف ما يلزم الجيش الأميركي في زحفه نحو الحدود الالمانية. إضافة إلى ذلك فإن القيام بهجوم مباشر على باريس سيجمّد عدة فرق من الجيش في حرب شوارع تدوم طويلاً ينتج عنها خراب المدينة وتحويلها إلى جبال من الركام على غرار ما شاهدنا أثناء مرورنا بـ«سان لو» وبـ«كاين».

وفضلاً عن ذلك اعتبر كبار محلّلي الاستخبارات الاميركية ان احتلال باريس قبل أن يصبح ذلك ضرورة استراتيجية سيضع الجنرال شارل ديغول (احدى المزعجات البروتوكولية، حسب قول دان) قبل الأوان في موضع المسؤولية داخل البلاد. عندئذٍ يصبح بين أيدينا حكومة ديغولية تشكل ازعاجاً شديداً لنا بعد الحرب. ولم نكن قد أدركنا آنذاك ان الحكومة التي يستطيع ديغول تأليفها هي بالضبط الحكومة التي كنا بحاجة لوجودها في فرنسا.

على كل حال، هكذا كان التفكير السائد قبل وصولي إلى شارتر، ومن مصادر عليمة عرف دان انه من المستحسن اتخاذ الترتيبات لاقامة وحدته في شارتر اقامة مريحة لاحتمال بقائها فيها شهراً آخر على الأقل. قبِل دان (وهو الذي يحب التنزه في الشوارع الواسعة الجميلة ويتطلّع إلى بلوغ باريس بلهفة صبي ينتظر حلول عيد الميلاد) بهذا الواقع صاغراً وأرسل فريقاً من المستطلعين لشراء الخمور الفاخرة والمكونات اللازمة لطبخ أطباق الذواقة وغير ذلك من الأطايب اللازمة لمجموعته لقضاء الصيف كله.

وفجأة تغير كل شيء وراح دان يتساءل عما إذا كان لمهمتي، أياً كانت، أي علاقة بالسيناريو الجديد. غير أن ڤالتر غْليم ألقى بعض الضوء على الوضع: بدا ان رأي الالمان قد تبدّل. اعتبرت القيادة العليا الالمانية انها ستبقي قواتها في باريس طالما أدّى ذلك إلى تجميد قواتنا حول المدينة في محاولة

لاحتلالها، وأفرحها التفكير بأننا سنتحمل أمام التاريخ مسؤولية تهديمها في حرب الشوارع فيها. ولكنها قررت لدى ادراكها بأننا تخلينا عن خطة احتلالها وبأننا سنتجاوزها، قررت ـ بل قرر هتلر ـ تدميرها لنحتلها أطلالاً وركاماً متفحّماً.

ولكن جاءت المفاجأة إذ علمنا أن الأوغاد البريطانيين لم يكتفوا بالقبض على كل الجواسيس الالمان في بريطانيا وتحويلهم إلى خدمتهم بل استوظفوا أيضاً نسبة كبيرة من ضباط وعملاء المخابرات الالمانية ليس فقط العاملين منهم في فرنسا بل وكذلك في مركز قيادتهم العليا. إضافة إلى ذلك قاموا بعملهم هذا مزدرين بنا ازدراء المهنيين بالهواة: ذلك أنهم أدركوا بأن دوافع الجاسوس آنية واتجاهها يميل نحو الفريق الذي يبدو رابحاً. كما أنهم لم يثقوا ولم يقتنعوا مطلقاً بهذه «الجاسوسية المفاجئة» التي انشئت قبيل بدء تحول الحرب إلى مصلحتنا. وكان قد بات واضحاً إلاّ للذين أعماهم تعصبهم أن ميزان القوى يميل باتجاهنا.

وبدا ذلك واضحاً بشكل خاص للقائد الالماني في باريس الجنرال فون خولتيتز الذي تسلم أوامر من هتلر مباشرة بوجوب تدمير باريس في آتون من نار ومتفجرات. ولكن فون خولتيتز الذي رأى ان اسمه سينزل في التاريخ على انه أشد جنوناً من هتلر نفسه، أحجم عن تنفيذ الأوامر. ولما ظهر تردده اندفع العملاء البريطانيون بين ضباطه، ومعظمهم من أصحاب الرتب العالية في الاستخبارات الالمانية، يؤيدون موقفه ويستخدمونه رأس حربة في حركة مناهضة للقيادة العليا الالمانية.

عند بزوغ شمس يوم الاثنين في ٢١ آب (اغسطس) ١٩٤٤ جاءتنا الأوامر من قيادة فريقنا بوجوب التحرك الفوري نحو رامبويي الواقعة على بعد ٥٥ كيلومتراً عن باريس حيث سنلتقي بالمقدم كنيث داونز (رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية في مجموعة الجيش الثاني عشر) اضافة إلى تشكيلة من وحدات المكتب ومعها مما معها من أمر مهمة «بإحكام القبضة على المدينة لجهة الاستخبارات». وكان على وحدة دان أن تتحرك قبل حلول الظهر.

ولما كنا قد وصلنا أنا وڤالتر ونحن على أتم الاستعداد للمسير تيسر لنا بعض الوقت لتناول طعام الفطور ببعض الراحة.

كان ڤالتر في ذلك الصباح شخصاً مختلفاً كلياً، هادىء الطبع بل حتى واجماً متأنقاً في بزة عسكرية لا شارات عليها قد تكون لضابط من أي رتبة في جيش أي دولة وعليه امارات جديّة العمل ـ ولكنه خلافاً لما كان عليه في الليلة السابقة اعتمد البرودة وحتى الانكماش وان كان دون تخلٍ عن مودة. سألته لماذا تصرّف كالأهبل في الليلة السابقة، فأجاب: «ما أرتحت لأصدقائك ولا هم ارتاحوا لي وبكل تأكيد لم أكن على استعداد للاجابة على أي من أسئلتهم.

لم يكن التحادث سهلاً خلال رحلتنا إلى رامبويي بسبب ضجيج القافلة على طريق خرّبتها الدبابات والمجنزرات وشاحنات المعدات الثقيلة، إلاّ ان ڤالتر استطاع أن يُسمعني بأنه من الأفضل اغتنام أول فرصة للتحدث فيها بيننا بعيداً عن الباقين، وأن يقول لي: «لا أظن بأن الجنرال شين أراد منك حقاً الذهاب إلى باريس. تذكر بأنه لا بد اختارك لأنه يعتبر انك تقدم على أخذ المبادرة. أما الآن فقد تغير الوضع كلياً».

سنحت لنا فرصة التحدث بعد ذلك بقرابة ساعة من الزمن عندما توقّفت قافلتنا افساحاً في المجال لمرور الفرقة الفرنسية الثانية. شرح لي ڤالتر ان ضابط الاستخبارات الالمانية الذي عليّ مقابلته في باريس كورت شوماخر هو صديق قديم للجنرال غوردن شين وقد سبق لهما قضاء عطلة فصل الصيف

بكاملها معاً وهما دون العشرين من العمر يعمل والدهما كملحقين عسكريين في احدى عواصم الشرق الاقصى.

ما أن مضى علينا في الحديث وقت قصير حتى انضم الينا دان فأوجزت له مّا دار بيننا وأوضحت لڤالتر انني منذ الآن فصاعداً سأبقي دان على اطلاع تام بكل شيء. كانت نتيجة الحديث تفاهماً على انني لن انحرف كثيراً عن الأوامر مهما كانت الظروف إلّا إذا أردت اقتحام باريس بمفردي، وأنه من الأفضل ان اترك لڤالتر مهمة نقل رسالة الجنرال شين إلى شوماخر. وبطريقة لم نكن قد حددناها بعد، أذهب إلى باريس «بأسرع ما يمكن». وشمل تفاهمنا أيضاً ان يغادر ڤالتر القافلة في سان كلود ويجد طريقه إلى بيت آمن يلتقي فيه بكورت شوماخر حسب خطة بديلة أعدت منذ مدة. عندئذٍ وبحضور دان سلمت الظرف المختوم لڤالتر.

في مكان ما ونحن في الطريق بين شارتر ورامبويي تهنا عن القافلة فاضطررنا للبحث قليلاً عن فندق «غراند ڤينور» حيث من المقرر أن تلتقي وحدات مكتب الخدمات الاستراتيجية. وعندما عثرنا على الفندق وجدنا أن حفلة كوكتيل جارية فيه حيث المقدم كنيث داونز رئيس وحدات مكتب الخدمات الاستراتيجية التابعة لمجموعة الجيش الثاني عشر يتبادل الحكايات مع جوني اوكس (من صحيفة نيويورك تايمز) وبن ولْز (ابن مساعد وزير الخارجية سمنر ولْز) وفرانك هوكمب (رائد في المارينز ربي في باريس مثل دان هنز) وآخرين من نجوم مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين أخذت أنظر إليهم وقد استحوذت بي البهجة كطالب صغير محاط بشباب في حفلة تخرجهم من الجامعة. ارتعشت عظامي فرحاً. وكان ڤالتر واقفاً إلى جانبي ولم يسترع انتباه أحد نظراً لوجود أشخاص كثيرين يرتدون بزّات عسكرية مختلفة ونظراً لأنه يتكلم الانكليزية كأي واحد منا.

عند الساعة التاسعة دعينا إلى عشاء فاخر يختلف كثيراً عما نتناوله عادة في نادي الضباط. وأثناء تناولنا الطعام دخل علينا الأديب ارنست همينغواي (پاپا) دخولاً مسرحياً يتبعه عدد من الفرنسيين بضجيجهم حسبناهم من رجال المقاومة السرية. ثم دخل رئيسنا جميعاً العقيد دايڤد بروس قائد مكتب الخدمات الاستراتيجية في أوروبا كلها.

بدا لي لبعض الوقت انه لا يمكن الوصول إلى العقيد بروس. وتوقفنا جميعاً عن الطعام وانتصبنا واقفين وتوجهنا للترحيب بضيوفنا المفاجئين. لم تمض ثوانٍ قليلة حتى شاهدني. نظر إليَّ نظرة ود مقرونة بالدهشة ثم ناداني جانباً وسألني: «ماذا تفعل هنا بحق الشياطين؟» قدمت ڤالتر إليه ثم اخبرته عن الظرف المطلوب مني أخذه إلى فندق ماجستيك. دهش للأمر ووقف فاتحاً فاه ينتظر تفسيراً.

أوضحت له ان التعليمات تقضي بألّا يرى الظرف أحد قبل أن يصبح بين يدي الضابط الالماني الذي يجب أن يصل إليه. العقيد بروس شهم واثق من مركزه رسمياً واجتماعياً ولم ينخرط قط في المنافسات الداخلية في القيادة العليا. اكتفى بابتسامة وقال: «أيها النقيب، القرار عائد لك فافعل ما يمليه ضميرك. أما أنا فلن أطلب إليك أن تعصا الأوامر». وهنا أخبرته بأن الأوامر صادرة عن الجنرال شين فابتسم وقال: «امض في مهمتك، يا بني، وسيكون كل شيء على ما يرام. ولكن لعله من الأفضل ان تخرج من هذا المكان قبل أن تتحرك قافلة الغجر هذه بعد غد». ثم صافح ڤالتر وقال: «أتمنى لكما حظاً سعيداً»، وابتعد عنا وهو يبتسم ويهز رأسه.

استمرت الحفلة الليل بطوله تقريباً ووددت لو استطعت البقاء لمشاهدة وصلة همينغواي ـ أو قُل لمشاهدة نجوم مكتب الخدمات الاستراتيجية، بعضهم يُسر بها والبعض الآخر يمل منها. وكنت في ذلك

الحين وما زلت من محبّذي بابا همينغواي. وأكدت لي لقاءاتي معه بعد سنوات عديدة وحتى وفاته انطباعي الأول عنه وهو «انه شخصية محببة رغماً عن نفسه». ولكن كان عندي في تلك الأمسية والتر غليم ووجوب التخطيط للقائنا بعد ان نفترق. خطر لي فجأة اننا على الرغم من الفترة القصيرة التي قضيناها نتبادل الثقة واحدنا بالآخر اثناء رحلتنا إلى هذا المكان، لم نعر أي اهتمام لما يجب أن نقوم به بعد افتراقنا في سان كلود. فغادرنا الغرفة وصخب الحفلة وجلسنا وحدنا على الشرفة نعدّ خططنا ومعنا اقداح الكونياك وفناجين القهوة.

لم يمضِ على خلوتنا هذه إلّا بضع دقائق حتى انضم إلينا كِن داونز منسّق عمليات دخول عملاء مكتب الخدمات الاستراتيجية إلى باريس. وحدث انه اثناء الحفلة وصل إلى فندق «غراند ڤينور» ضابط فرنسي من عملاء الاستخبارات العسكرية البريطانية «أم آي ٦» يحمل أخباراً مفادها أن القائد الالماني لمنطقة باريس الجنرال فون خولتيتز قد قرر تنفيذ اوامر هتلر بنسف باريس برّمتها، وان فون خولتيتز، خلافاً لمعلوماتنا السابقة بات على وشك التنفيذ. وكان كِن داونز قد أمر الضابط الفرنسي بالعودة سريعاً إلى باريس لمساندة تحرك أميركي نحو باريس تتقدّمه مجموعة الجيش الثاني عشر بقيادة الجنرال برادلي وقال كِن: «سنكون بحاجة إلى كل عناصر الاستخبارات التي يمكننا الحصول عليها»، وتوجه إليّ بالكلام قائلاً: «ربما باستطاعتك مساعدتنا».

دلّنا ما قاله كِن داونز على انه ليس على علم بمهمتنا، غير ان ذلك لم يكن ذا شأن بالنسبة إلينا. فقد عرض علينا أن ينقلنا إلى باريس بحيث ندخلها قبل الوحدات الأخرى من مكتب الخدمات الاستراتيجية مع ضابط من المكتب هو جاك موفينكل وهو من عمري تقريباً له ميول متقاربة من ميولي وسبق لي أن التقيته عدة مرات على طاولات البوكر في لندن كما انه الرجل الذي أفضله على الأخرين من رجال المكتب لمرافقتي لدخول باريس أثناء وجود الالمان فيها. لم يوافق ڤالتر وقال: «هذا الرجل راعي بقر. إذهب معه. أما أنا فسأبقى على اتفاقنا السابق وسأنفصل عنكم في سان كلود».

لست أذكر بالضبط ماذا حدث بين ذلك الوقت ولحظة استفاقتي لأجد نفسي مع سائق سيارتي الهندي الأحمر تشارلي هاتشت ضمن قافلة جاك الهادرة في شارع ايطاليا المفضي إلى قلب باريس. كل ما أعرفه انني لم أكن أول أميركي دخل باريس حتى ولو استثنيت زهاء المئة عميل من عناصر مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين دخلوها قبل قرابة الشهر تمهيداً لاحتفالات يوم التحرير. غير انه باستطاعتي القول المؤكد اننا أنا وجاك وتشارلي كنا الأميركيين الأوائل الذين دخلوها دون أن يكون لهم مهمة محددة فيها. كانت نصيحة ڤالتر لنا هي الانزواء قليلاً في بادىء الأمر إلى أن يكون الأميركيون الأخرون قد اخذوا يُشاهدون في المدينة بشكل مألوف لدى الناس، ثم الخروج وكأنني كنت فيها طول الوقت. وعليه انضم جاك وسيارات الجيب الثلاث المرافقة إلى قافلة من الدبابات الفرنسية المتجهة إلى شارع ريڤولي. انعطفنا أنا وتشارلي إلى شارع جانبي ومنه إلى فندق ريتز فيما كان القتال لا يزال دائراً في ساحة الكونكورد. وبينما كان جاك يقتحم فندق موريس حيث ينتظر الجنرال فون خولتيتز سنوح الفرصة للاستسلام كنت أنا وتشارلي نشرب الشمپانيا ونأكل الكاڤيار في مقصف فندق ريتز برفقة مديره الذي أخذته الدهشة. وفيما كنت في قيلولتي بعد الغداء الكحولي الذي تناولته انضم كِن داونز إلى جاك وأخذا يقيمان مركز القيادة لارسال البرقيات إلى الجنرال برادلي ترشده إلى أنسب الطرق لدخول المدينة بحيث لا يثير إلّا الحد الأدنى الممكن من حساسية الفرنسيين. وكان الأهم من ذلك انه استطاع الالتقاء بالقوات الفرنسية التي اقتحمت فندق موريس لاعتقال القائد الالماني الجنرال فون خولتيتز وتقبّل استسلامه.

أما باقي تلك الأيام التاريخية الأربع المثيرة ابتداء من صباح الاربعاء في ٢٣ آب (اغسطس) حتى السبت في ٢٦ منه فتتمثل في ذاكرتي عقداً حبيباته صور صغيرة كل منها واضح تمام الوضوح انما بغياب تتاليها زمنياً. وفي سهرة طويلة، بعد قرابة الخمسة عشر عاماً من انتهاء الحرب، قضيناها أنا وپاپا همنغواي نستعيد ذكرياتنا، أصرَّ هو على روايته انه ورفاقه من المقاومة الفرنسية سبقوني أنا وزملائي من مكتب الخدمات الاستراتيجية بدخول باريس. أما روايتي عن أحداث الأيام الأولى لتحريرها فمدعومة بشهادات مسؤولي المكتب الذين راجعت معهم وقائعها وبشهادة أهم منها وهي شهادة ڤالتر غليم وهو الآن مصرفي متقاعد يقيم في جبال الالب النمساوية. ولكن ڤالتر أيّد پاپا في واحد من التفاصيل وهو قصة رواها أمام لاري كولينز الذي ضمنها كتابه «هل باريس تحترق؟»

يبدو انه في العشرين أو الحادي والعشرين من آب (اغسطس) ـ أي قبل يوم واحد من وصولنا انا ودان وڤالتر إلى رامبويي ـ أمضى همينغواي بعد ظهر يوم وليلته في فندق غراند ڤينور وبذلك يكون قد سبقنا ببضع ساعات وفي تلك الأثناء خرج من مخبأ في غابة السنديان الدهرية المجاورة عدد من الضباط والجنود الالمان واستسلموا. جرّدهم پاپا من سراويلهم وأرسلهم إلى المطبخ لتقشير البصل والبطاطا التي كانت من مكونات الطبق الرئيسي في وليمة العشاء التي وصفتها آنفاً.

لم يخبرني ڤالتر بذلك الحادث في حينه ولكنه اليوم وبعد أربعين سنة من وقوعه قال انه شعر بالارتباك آنذاك من رؤية رفاق له وقد تعرّوا من ملابسهم من الحقوين نزولاً وفرض عليهم القيام بأعمال يدوية من ذلك المستوى وارتداء ملابس سقاة الفندق المزينة، انما فقط من الحقوين وصاعداً، ليخدموا في غرفة الطعام. وأضاف ڤالتر انه كان يتوقع من همينغواي عندما دخل الغرفة بضجته وضجيجه ومعه رفاقه الفرنسيون، أن يخلق من ذلك الوضع مشهداً، ولكنه لم يفعل. وباعتقادي ان پاپا بنزعته إلى خلق المشاهد لم يكن يتوانى عن ذلك.

وذكرني تشارلي هاتش بأن ممرضة برتبة نقيب اسمها غريتا پلوملي تابعة لمكتب الخدمات الاستراتيجية رافقتنا في رحلتنا إلى باريس وكانت طيلة الرحلة ممسكة بأعضائه التناسلية تشد عليها كلما سمعت طلقاً نارياً. أضاف تشارلي بأنها تزوجت من طبيب نفساني يعمل في وكالة الاستخبارات المركزية ثم وقعت بغرام احدى السكرتيرات فطردت من عملها عندما تشددت سلطات الأمن بمطاردة أصحاب الشذوذ والشيوعيين وانتقلت إلى باريس للاقامة مع السكرتيرة في مكان ما من الضفة الشمالية على طريقة جرترود ستاين وأليس توكلاس.

ولئن كانت حياتي في الفترة التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية بعيدة كل البعد عن الهدوء والرتابة، فلعلها لم تكن مهمة بالنسبة لهذه السيرة الذاتية؟ يرتابني الشك في ذلك عند استعادة احداثها في ذاكرتي، ولكن هاكم خلاصة لها مهما كانت قيمته.

أمّنت للجنرال غوردن شين وحاشيته من ج ـ ٢ اقامة مريحة في فندق جورج الخامس. وبعد أن تصادقت مع مدير فندق ريتز جان ـ پول واسونڤيل فحملته على مطالبة صديقه وزميله مدير فندق جورج الخامس الاحتفاظ بطابق كامل من الفندق «للمبعوثين الخاصين من قبل البيت الأبيض» المتوقع وصولهم إلى باريس في ٢٦ آب (اغسطس) لحضور احتفالات وصول الجنرال شارل ديغول.

في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، وكان قد أمن لنفسه اقامة في فندق ريتز، دخل پاپا همينغواي الفندق مع زمرة من رفاقه الطيبين وطلب تماماً كما سبق له ان قال لي: «آه كأساً مزدوجة من المارتيني». ثم دخلت باريس قوات الجنرال ليكليرك وتلتها فرقة المشاة الأميركية الرابعة وأخيراً، في ٢٧

منه أقيمت احتفالات دخول الجنرال ديغول المظفر عبر جادة الشانزليزيه على أصوات هتاف الجماهير المبتهجة وتصفيقها.

ولما كنت «أميركياً صرفاً» (حسب ما رأى الفرنسيين بي) وأتقن التكلم بالفرنسية صرت أحد أفراد المجتمع الباريسي الراقي الذي كان يضم في ما ضم في تلك الأيام، اشخاصاً مثل دانيال داريو وفرنسوا روزاي وبيار فريتي وساشا غيتري وموريس شوڤاليه.

انتهى بي المطاف إلى جناح مريح في الطابق الثاني من فندق صغير يقع عند المستديرة القائمة في منتصف جادة شانزليزيه بين ساحة النجمة وساحة الكونكورد، قبالة مكاتب صحيفة «لوفيغارو» وفوق المحل الذي صار يُعرف باسم «لو دراغستور» حيث يهرول السياح الاميركيون لشراء اقراص الالكاسالزر والاسبيرين بعد تصريف نقودهم في مكتب «اميركان اكسبريس» القريب منا.

وفيما كنت أنهي ما أسميته «فترتي الباريسية» انسحبت من جهاز مكافحة التجسس للانضمام إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية استعداداً إلى المهنة التي اعددتها لنفسي لعصر ما بعد الحرب. وينبغي عليَّ القول، خدمة للتاريخ، ان اهتماماتي في تلك الفترة انحصرت بالعلماء وبرجال المخابرات الالمان الذين قد تكون لهم بعد الحرب من فائدة لنا في مواجهة أي اعداء جدد قد يظهرون كنتيجة من نتائج الحرب.

وأما أصدقائي في فترة الحرب فقد أسعدهم انتهاؤها ونسيانها باستثناء واحد أو اثنين منهم. وأما بشأن فترة ما بعد الحرب من حياتي فقد عاد إليها ثم خرج منها فرانك جايمس، وعاد إليها نات صمويلز بعد سنوات عديدة وقد صار في منصب مساعد وزير الخارجية في ادارة الرئيس نيكسون. أما الشخصان صاحبا الفضل عليَّ ومعبودَيّ آلن كالفرت وهاورد ولسن «فقد عادا إلى جذورهما» حسبما كتب لي هاورد في احدى رسائله بعد عدة سنوات من آخر لقاء لنا.

الفصل الثامن

باريس والألمان

و «العثور» على راينارد غيهلن

انقضى قرابة الاسبوع على الاستعراض المظفر الذي قاده الجنرال ديغول في جادة الشانزليزيه قبل بدء وصول الضباط الأميركيين الكبار إلى باريس. نزل العقيد كالڤرت هاينز في فندق جورج الخامس وتبعه الرائد روجر سكسن، وأصر العقيد هاورد وِلسن على الاقامة مع رجال جهاز مكافحة الجاسوسية في فندق يخص شركة كوك السياحية كنا قد أمّناه لهم في جادة ڤيكتور هوغو حيث تركّزت قيادة «ابتوزا» بعد أن أخلاه الألمان. وجاء برفقته مسؤول كبير وجديد في المجموعة العقيد أورڤال راپ مراقباً على النقيب دويل المشرف على دهان سيارات الجيب ومجموعته، وكلود غوزا وفرانك كيرنز وكامل فصيل باريس من جهاز مكافحة الجاسوسية المؤلف من زهاء ثلاثين عميلاً خاصاً وعميلاً عادياً إضافة إلى قرابة العشرة عملاء من العابرين إلى مراكز أخرى. لم يكن الفندق بفخامة الريتز بل كان نظيفاً ومريحاً وتأمّن فيه للشباب قاعة طعام خاصة بهم مجهزة تجهيزاً تاماً ولهم أيضاً طهاتهم وسقاتهم، أي أن الاقامة فيه أنيسة ومريحة. درجت على تناول بعض وجبات الطعام فيه كلما ابتغيت الابتعاد عن «الجو اللطيف» الذي فرضه عليَّ وجود جايمس ايخلبرغر وهنري راغو في جناحهما القريب من جناحي في الفندق. ولا داعٍ للتأكيد هنا بأن أياً منهما لم تكن لديه الرغبة في أن يشاهده أحد في جادة ڤيكتور هوغو.

وما أن وصل هاورد وِلسن إلى باريس حتى شرع بتوزيع المهام على المسؤولين معه، دون أن يسمح لنفسه بدقيقة واحدة للاستمتاع بالشعور بروح المرح السائدة ولا حتى لتقبيل ثغر فتاة فرنسية واحدة. كان على فرانك كيرنز قيادة مجموعة للتحقيق في أي قضية تستوجب ذلك داخل مقر القيادة، وتألفت فرق ضمَّ كل منها ثمانية إلى عشرة عملاء مهمتها اجراء مسح أمني لجميع الوحدات العاملة في باريس وجوارها. وكان عليَّ وعلى جون باريش تمثيل جهاز مكافحة الجاسوسية ومكتب الخدمات الاستراتيجية في «التعاونية» (التي صارت تعرف في النهاية باسم «كوب») وهي عبارة عن مركز يُحال إليه كل الذين يلقي القبض عليهم عملاء جهاز مكافحة التجسس ومكتب الخدمات الاستراتيجية ورجال الحكومة العسكرية، والمطلوبون من قبل واحدة أو أكثر من تلك الهيئات. و «التعاونية» هذه أقيمت في قصر خاص بآل روتشيلد، وقد نهبت جميع محتوياته، قائم في جادة فوش بالقرب من ساحة النجمة (اتوال). وفيها تقرر توجيه الموقوفين كل إلى الجهة الصالحة للنظر في أمره.

عند وصولنا إلى «التعاونية» وجدنا الملازم ثاني دان هنتر برفقة رائد فرنسي اسمه لوبوتيليه يعملان في مجموعة من الأسرى جاء بهم رجال المقاومة السرية الفرنسية أو أنقذهم من بين براثن المقاومة رجال الشرطة العسكرية في الجيش الأميركي الخامس بقيادة الجنرال هودجس. أوضح لنا دان ان الشيوعيين في المقاومة يوجهون اتهامات التعاون مع الالمان إلى خصومهم خصوصاً إذا كان هؤلاء من الأثرياء الذين يملكون منازلَ أنيقة يحلو نهبها.

قضت الأوامر الصادرة إلى دان بالتحري عن الفرنسيين المؤيدين للنازية الذين قد يتعاونون مع مجموعات من المتصلّبين في المانيا. وعلى الرغم من عدم وضوح الأمر في ذاكرتي أعتقد بأن دان استطاع العثور على بعض منهم. وكان قد دَسَّ بين الأسرى أربعة أو خمسة من العملاء الخسيسين الذين ساعدوه في عمله الشاق هذا. ولكنه بذل مجهوداً أكبر في تحري أوضاع بعض الفرنسيين والفرنسيات الذين اعتبر بأنهم قد يفيدونه في عمله بعد الحرب. ففي تلك الحقبة وقبل أن يخطر بباله أن وكالة

الاستخبارات المركزية ستبصر النور في يوم من الأيام، أخذ يخطّط للاقامة في باريس ليكون على رأس أي منظمة للاستخبارات قد تقوم من بين رماد مكتب الخدمات الاستراتيجية. ومن أجل ذلك كان لا بد له من تنمية صداقات لها تأثيرها.

عثرنا بين سجنائنا الفرنسيين على شخصيات مرموقة تعاون بعضهم مع الالمان فعلاً، على مستوى علاقات اجتماعية أو حتى على مستوى صفقات تجارية مربحة وكان أكثرهم من اليمينيين الأثرياء الذين أراد رجال المقاومة الفرنسية إما إذلالهم أو نهب بيوتهم. ودأب دان على مراجعة سجلاته يومياً بغية العثور على سجناء يفيدونه بعد اطلاق سراحهم. وكلّما اشتبه بأحدهم نزل إلى ساحة المعتقل وتقدّم من الشخص المعني وسأله أو سألها بلهجة المستهجن قائلاً: «أرجو المعذرة، ولكن ألستِ البارونة فلانة؟» وعندما تجيبه بالايجاب يقول: «يا للعار! سأخرجك من هذا المكان فوراً!» ويخرجها فعلاً. وكان كل ما عليه فعله أن يذهب إلى الرائد لوبوتييه ويشهد بالموقوف شهادة طيبة وينتهي الأمر.

على الرغم من أن «التعاونية» في عهدة دان يساعده فيها رائد ونقيبان بقي هو ملازماً ثانياً، طبعاً بسبب هفوة إدارية. فقبضته على العمل وإدراكه العميق لسبب تعيينه فيه ولتطابقه مع المهمات التي تكلّف بها الآخرون عوامل تستأهل رتبة عقيد. وجملة من الأسباب صارت «التعاونية» بالنسبة لأشخاص مثلي ومثل دان نقطة مراقبة ممتازة. أما السبب الأهم فكان دان بنفسه.

في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) وقبل اسبوعين من الهجوم الالماني المعاكس في منطقة الاردين أرسلني العقيد كالفرت بمهمة خاصة في مركز التدريب للاستخبارات في معسكر ريتشي، ولاية ماريلند حيث بقيت حتى قبيل عيد الميلاد. لما عدت إلى باريس كانت معسكرات اسرى الحرب التي أقيمت حول باريس مكتظّة بالأسرى، وكان عدد من الضباط الالمان الذين يحاولون تحاشي احتجازهم في المعسكرات ويعرفون بوجود «التعاونية» يتقدمون طوعاً من أبوابها. إلاّ أن دان أخذ يحوّل من منهم لا يتكلم إلاّ الالمانية إلى الشرطة العسكرية ويحتفظ بالذين يتكلمون الانكليزية او الفرنسية ويرغبون بالادلاء بمعلومات، يحتفظ بهم «كمحتجزين من صنف خاص» ولا يدون اسماءهم في تقاريره اليومية، فيستبقيهم المدة الكافية ليحصل منهم على كامل معلوماتهم عن المحور (المانيا ـ ايطاليا ـ اليابان).

جاءنا كل الضباط الالمان باللباس المدني وهذا بذاته يدلّ على انهم أدرى من زملائهم الآخرين بطريقة تحاشي الوقوع في الأسر العادي أو أن لديهم أسباباً أخرى للتخفّي، أو للسببين معاً.

أخذ دان على عاتقة امر استجوابهم فيما أخذت أنا دور المستمع. وكانت الفئة الأولى من المعلومات التي استقيناها منهم أنهم يعرفون أكثر منا على أي نحو ستنتهي الحرب. لست متأكداً تماماً من ان الرائد في الاستخبارات الكندية مِلتون شولمان قد تحدث مع أي منهم أم لا، ولكن ما قالوه لنا ينطبق تماماً مع ما أورده ذلك الناقد السينمائي والمسرحي الحاذق البصر والبصيرة في كتابه «هزيمة في الغرب». لقد أجمع الضباط الالمان الذين راحوا يفرون من ساحات الحرب بالعشرات ـ حتى بعد الهجوم على الاردين ورغم ما بعثه من أمل في نفوس بعضهم في أحلك أيامهم ـ على أن الجيش الأقوى والأحسن عدّة الذي عرفه العالم كان محكوماً عليه بالهزيمة منذ البداية، وان لا سبيل له لالحاق الهزيمة بقوات عدتها وعديدها جيوش من المدنيين.

هل يقصرُ جيش مثله عن الظفر رغم انضباطه وتدريبه المثاليين وقد قال عنهما مارتِن وِس وغيره من خبراء غرفة اللعبة بأنهما سيجعلانه يتفوق على جيوشنا القليلة الخبرة؟ ان تدريبهم وانضباطهم بالذات سبب تقصيرهم عن احراز الظفر. فالضباط الالمان الذين جاءوا «التعاونية» يمثلون أقلية ضئيلة

من بين الذين أدركوا حقيقة الواقع ادراكاً صحيحاً. أما الآخرون فأطاعوا الأوامر طاعة عمياء دون طرح أي اسئلة «حتى ولو كان تجاهلها هو السبيل الوحيد للخلاص»، حسب ما جاء في كتاب ملتون شولمان. إن مجرد التفكير بالمنحى الذي ربما اتخذته الحرب لو خاضوها من دون هتلر لأمر مرعب بحد ذاته، وذلك ما كان مستحيلاً حسب قول ضيوفنا في «التعاونية».

إذاً، بماذا اختلف ضيوفنا عن غيرهم من الضباط الالمان؟ حسبنا في بداية المطاف بأنهم مناهضون للنازية وبأنه ليس بينهم من هُم في فرق أس. أس. أو على الأقل ان من منهم فيها حاولوا اخفاء ذلك. فتبين لنا سريعاً خطأ حسابنا ذلك أن زهاء ثلثهم، حسبما أذكر، كانوا فعلاً من أعضاء أس. أس. ولم يترددوا عن الاعتراف بذلك بل تجاهلوا كلياً احتمال اعتبارنا لهم كمجرمي حرب بسبب انتمائهم إلى منظمة ارتكبت بعضاً من أشنع الجرائم في التاريخ ولأننا بالتالي قد نضعهم في فئة منفردة.

من نواحي الانضباط العسكري الالماني استرعى اهتمامنا بشكل خاص - نحن رجال المخابرات - جهل كل ضابط تقريباً من الضباط الالمان الذين استجوبناهم لما يجري في قطاعات غيره من الضباط (وضعت باسم العقيد كالفرت تقريراً خاصاً بهذا الصدد رفعه هو إلى المراجع المختصة). إن ما استقيناه من معلومات من زميلنا في جهاز مكافحة التجسس الملازم ثاني سامي وانتراوب الذي يتقن الالمانية (ألبسناه بدلة عريف وطلبنا إليه «التظاهر بمظهر البلاهة» - كمن يطلب إلى دانيال داريو «التظاهر بمظهر الدمامة») كاد أن يكون غير قابل للتصديق. فقد أخبرنا بأن ضيوفنا سهروا ساعات طويلة بعد إطفاء أنوار «التعاونية» يتبادلون بذهول المعلومات عما كان يجري في قطاعات بعضهم البعض.

لم يكن «موقوفونا الخاصون» مصدر معلوماتنا الوحيد. فهناك أيضاً الأسرى العاديون الذين قبض عليهم على عجل رجال جهاز مكافحة التجسس دون أن يتسنى لهم الوقت لمعرفة ما إذا كان لأمرهم أهمية عندنا بل لأنهم شعروا بأنهم قد يكونون مفيدين لنا بشكل ما. وكان هناك أيضاً أسرى أدركت وحدات المكافحة أهميتهم ولكنها احتفظت بهم لإبعادهم عن صائدي النازيين الذين باتوا يشكّلون مشكلة حقيقية. ولما بدا النصر قريب المنال أصدرت القيادة العليا للقوات الحليفة في أوروبا أمراً بانشاء وحدة خاصة في جهاز مكافحة الجاسوسية مهمتها التدقيق في هويات جميع أسرى الحرب في سجلات القرى والمدن التي سقطت بأيدينا والبحث فيها عن أشخاص مُشبته بأنهم مجرمو حرب. فكان أن أخذ العملاء يجمعون «مجرمي الحرب» كيفما اتفق، ذلك أن رجال جهاز مكافحة الجاسوسية، باستثناء القلة الضئيلة منهم مدنيون في قرارة نفوسهم همهم الأكبر انهاء مهمتهم والعودة إلى الحياة المدنية. وهكذا كاد أن يكونوا بكليتهم تقريباً غير متعاطفين مع مخططات المسؤولين بعيدي النظر في قياداتنا المختلفة ومطالبة هؤلاء لهم بتوجيه بعض الاهتمام بالأسرى الذين قد تكون لهم أهميتهم لدى منظمات المخابرات. وعلى الرغم من انه ترتب عليهم طاعة الأوامر كغيرهم في القوات العسكرية، لم تكن عواطفهم منسجمة تماماً مع ما طلب إليهم القيام به.

اعتمدنا على بعض وحدات جهاز مكافحة الجاسوسية التي كان الضباط المسؤولون عنها قد قرروا، مثلي ومثل دان، احتراف العمل المخابراتي. وما أن حلّ ربيع العام ١٩٤٥ حتى كنا قد نظمنا طريقتنا في استعمال تلك الوحدات بطريقة جعلتها جهازاً لمكافحة الجاسوسية ضمن جهاز المكافحة الأساسي، أي انها صارت «الذنب الذي يهز الكلب» باعتبار انها أخذت تقوم بالمهام المناطة به بينما

تحول «الكلب» إلى مطاردة مجرمي الحرب. وقد كان ثمة ما يسوغ موقف رجال الجهاز الأساسي باعتبار أن جهاز مخابرات العدو قد انفرط عقده ولم يبق هناك، حسب التعريف الحرفي، جاسوسية يكافحونها.

وأثناء انتزاعنا الكثير من المعلومات من مختلف أصناف وأنواع الأسرى والضباط الذين أتونا بهم كان دان على صلة مستمرة، اجتماعياً ومهنياً، بكل من جوني اوكسْ وبن وِلْزْ وفران هوكومب وغيرهم في مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين جعلوا مكتبهم في جادة سوشيه مع الاستخبارات الفرنسية. ومن هؤلاء وكذلك من «الموالين» لجهاز مكافحة التجسس تبيّن لنا أن البحث الأهم بالنسبة إلينا يتضمن أربع فئات:

تضمنت **الفئة الأولى** افراد «الاوكسترا السوداء» وهم الضباط الالمان الضالعون بطريقة أو بأخرى مع الأميرال كاناريس في نشاطاته المناهضة لهتلر وخصوصاً في محاولة اغتياله في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٤. وكان آلن دالس المقيم في سويسرا آنذاك قد أقام ما أسماه «علاقة مبدئية» مع بقايا «منظمة مقاومة المانيا» انبثقت من جهاز الاستخبارات الالمانية. ولكننا كنّا على علم مثل دالس بوجود زهاء مئة ضابط أو أكثر إما مختبئون أو أن أمرهم لم ينكشف بعد في معسكرات الأسرى.

وضمت **الفئة الثانية** ضباط استخبارات، وأكثرهم من النازيين، المختصين بالشؤون السوفياتية. وكانت الاستخبارات البريطانية قد علمت بوجود «مخطط» تعاون الماني أميركي ضد السوفيات وضعه الجنرال راينهارد غيهلن، قائد «شعبة مخابرات شرقي أوروبا» وهي وحدة تحليل تقارير الاستخبارات التي تغطي الجبهة الشرقية. وقد اشتدت رغبتنا في سبق الروس إلى القبض على الجنرال غيهلن وعلى الضباط المتّصلين بالمخطط (هذا إذا كان هناك مخطط).

ثالثاً ـ كان هناك عدد من العلماء الالمان الذين كشفتهم اللجان التي حضرنا اجتماعاتها في لندن أنا وبوريس پاش بصفتنا مسؤولين عن التفوقية العلمية والتقنية المفروض ان الالمان يتمتعون بها. وكان همّنا ان نقبض عليهم قبل السوفيات وأظن بأن هؤلاء هم الذين وضعهم الجنرال غوردن شين نصب عينيه.

رابعاً ـ وأخيراً كان هناك النازيون الضالّون الذين سعينا للقبض عليهم ليس لكونهم مجرمي حرب بقدر كونهم يملكون القدرة على الهرب من الحرب والاقامة في اسبانيا أو في جمهورية ارلندا أو في اميركا الجنوبية أو الشرق الأوسط حيث يخلقون خلايا في البنى السياسية المحلية بغرض انشاء حركات نازية سريّة لتقوم يوماً وتحاول السيطرة على العالم. (حمل بعض زملائنا في دائرة ج ـ ٢ في القيادة العليا الحليفة على محمل الجد الاشاعة التي سرت بأن انتحار هتلر خبر كاذب وبأنه وسكرتير الحزب النازي مارتن بورمَن قد فرّا إلى الارجنتين).

إذاً نحن نبحث عن راينهارد غيهلن، ذلك النازي النحيل القذر حائك المكائد والمؤامرات الذي قال فيه آلن دالس: «إنه ليس ذاك الرجل الذي أقبل به في نادٍ أنتمي إليه». لم يسبق لنا أن سمعنا به إلّا عندما جاء إلى «التعاونية» ضابط برتبة نقيب ينتمي إلى مجموعة الجيش الأميركي الثاني عشر طالباً «نشرة معلومات شاملة» قد تؤدي إلى العثور على غيهلن. ويبدو أن غيهلن قد جمع كل المعلومات المخابراتية المتعلقة بالسوفيات، وان رئيس النقيب المذكور، أي الجنرال سيبرت جاهد في السعي للعثور عليه. وكنا نحن على استعداد لبذل أي مجهود لتأمين ما يرغب الجنرال سيبرت في الحصول عليه.

كان الجنرال سيبرت تجسيداً للبطولة في أعين جميع الضباط الأميركيين للإمكانات التي يتيحها احتراف العمل في حقل المخابرات. اعتُبر الجنرال على وجه العموم بأنه الأبعد نظراً بين رجال جميع

وحدات ج ـ ٢، وحظي بعداء مرير من قبل اليساريين في واشنطن الذين استنكروا أي اشارة إلى اننا سنحول اهتمامنا إلى السوفيات فور انتهائنا من الالمان. وعندما وصلت إلى واشنطن تقارير تقول بأن سوء الاستخبارات سبّب الخسائر التي لحقت بالأميركيين في معركة الآردين قام اليساريون في الكونغرس وفي الادارة يستحثون وزارة الحربية لإجراء تحقيق وإلقاء المسؤولية على سيبرت شخصياً. فانضوينا فوراً تحت لوائه وأمّنا له تأييد مجموعات ج ـ ٢ في كل الفرق والأولوية والجيش التي استطاعت أن تبين ان الاستخبارات أشارت بوضوح إلى الهجوم الالماني المتوقع وان تقاريرها بقيت دون قراءة في سلّة البريد الوارد في مجموعة ج ـ ٣.

كما تم تجاهل نشرات المعلومات الشاملة عن الجنرال غيهلن التي بعث بها الجنرال سيبرت. ولما استسلم الجنرال غيهلن إلى وحدة من وحداتنا التابعة لجهاز مكافحة الجاسوسية في موقع مينرباخ، استقبله آمر الوحدة استقبالاً بارداً هذا علماً بأن غيهلن كان على أحرّ من الجمر للاتصال بسيبرت بقدر ما كان سيبرت مهتماً بالعثور عليه. أما آمر الوحدة المذكورة النقيب ماريون بورتر فهو ضابط كفوء جداً انما متمهل بتصرفاته ينتظر بفارغ الصبر انتهاء الحرب ولا يولي بالتالي أي اهتمام «للقيم الاستخباراتية» التي قد تكون مفيدة في حال قيام نزاع في المستقبل. ويبدو ان منظر غيهلن وتصرفاته لم ترق له. وعندما قدم غيهلن له نفسه على انه الضابط الالماني الأعلى الذي نسق جميع عمليات الاستخبارات ضدّ الروس أجابه بورتر بقوله: «تشرفنا. سنرسلك إلى الروس لتقول لهم ما تعرفه عنهم».

ولكن خطر ببال ماريون، وهو ليس بالغبي، بأن لا ضرر من تغطية نفسه فاتصل بزميل سابق له في وحدة مكافحة الجاسوسية في باريس وسأله: «من هو هذا الرجل المدعو غيهلن، وماذا يريد؟» نقل ضابط جهاز مكافحة الجاسوسية في باريس فحوى المخابرة إلى العقيد ولِسُن الذي أرسل برقية مستعجلة بخصوصها إلى الجنرال سيبرت في كرونبرغ. وفي ساعة متأخرة من الليلة عينها وصل اثنان من جهاز مكافحة التجسس وأخرجا الجنرال غيهلن من معسكر أسرى الحرب الذي احتجزه فيه النقيب ماريون بورتر حفاظاً على سلامته. وفي صباح اليوم التالي كان الجنرال غيهلن وأحد مساعديه، وقد نسيت اسمه، يتناولان وجبة فطور دافىء ويحقق معهما الخبيران الوحيدان بالشؤون السوفياتية في هيئة أركان الجنرال سيبرت. ولما أضفنا أسماءنا إلى قائمة تزداد طولاً بأسماء الذين ادعوا الفضل بالعثور على الجنرال غيهلن، كان في ذهننا ذلك التسلسل الخاطف للأحداث التي أدت إليه. وفيما بعد تحول الجنرال النازي المراوغ إلى المحور الأهم في نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية داخل الاتحاد السوفياتي.

تتبعنا عن كثب، نحن الذين رأينا ان مستقبلنا هو في احتراف العمل المخابراتي بعد الحرب، تلك التطورات، لأن استراق سامي واينتراوب السمع والتنصّت على مداولات ضيوفنا الالمان في الطابق الثالث من قصر آل روتشيلد بعد اطفاء الأنوار بيّن له أنهم تكلموا عنه كثيراً، فاقتنع، وأقنعنا، بأن الجنرال غيهلن هو على الأرجح مصدر معلومات واسعة عن السوفيات. والأهم من ذلك ان أقوال ضيوفنا فيما بينهم دلّت على ان الذين أدلوا بها رأوا في الجنرال غيهلن الشخصية التي يلتفّ حولها المان غيرهم ومثلهم يتوقعون قيام تعاون الماني أميركي في المستقبل.

لخص سامي واينتراوب كل ما استرق سمعه في تقرير لا يختلف عن كل تقاريره من حيث الوضوح والترتيب البديعين. طلب دان إلى النقيب الذي جاء بنشرة المعلومات الشاملة عن غيهلن أن يحمل التقرير ويوصله إلى الجنرال سيبرت. وبعد أيام قليلة توجه سامي إلى كرونبرغ للاشتراك في

استجواب الجنرال غيهلن، ولم ألمحه البتة إلاّ بعد مضي عدة أشهر عندما التقينا في أحد ممرات المبنى ل في وكالة الاستخبارات المركزية في واشنطن وكان آنذاك في جولة لتلقي الارشادات استعداداً لمهمة جديدة في المانيا.

كانت الفئة الثالثة من الالمان الذين طلب إلى «الموالين» من رجال جهاز مكافحة الجاسوسية إلقاء القبض عليهم الفئة الأكثر حساسية. إنها فئة العلماء الذين أراد علماؤنا الحصول منهم على المعلومات عن التطور التقني في المانيا، وخصوصاً بشأن الصواريخ، كما كان السوفيات أيضاً جادّين في البحث عنهم. وفي تلك الأثناء أخذ المجهود الاستخباراتي الأميركي في أوروبا يتعرض لنيران النقد الحامية وللاتهام بأن مسؤوليه «يقدمون الوسيلة المصلحية على المبادىء». وشعرنا بألسنة النيران تقترب عندما دُعي صديقي القديم موسى دكتر ـ وهو من ولاية آلاباما مثلي وأسود يتكلم عدة لغات ويحمل شهادة دكتوراه ـ إلى مكتب نائب قائد «ايتوزا» في فندق ماجستيك ليشرح الأسباب التي حملته على الاستعانة بالنازيين الذين كانوا يعملون لدى الجنرال فون خولتيتز لمساعدة الفريق الفرنسي الأميركي على تعجيل اعادة المنافع والخدمات العامة في باريس إلى العمل المنتظم.

وكان موسى قد اجتذب للعمل معه المدعو «بوبي» بندر (عميل في الاستخبارات الالمانية) وراوول نوردلِنغ (قنصل السويد العام في باريس، تاجر في السوق السوداء استطاع انقاذ الكثيرين من رجال المقاومة الفرنسية من السجون الالمانية وتخليصهم من الموت على يد ر جال الغستابو) وغيرهم من ذوي الصلة بالنازيين والواردة أسماؤهم في «لوائح التوقيف الفوري». وكلهم اشتركوا بمساعدة موسى في العثور على العلماء الالمان الذين تعاونوا مع علماء فرنسيين في مختلف المختبرات والمصانع الاختبارية في ضواحي باريس. قضت الأوامر الصادرة إليه بالتعاون مع الديغوليين وهم مقاتلون لا مهندسين، من أجل اعادة المرافق البلدية في باريس إلى العمل بأقل اعتماد ممكن على رجال الغستابو والمخابرات والشرطة الالمان المندسّين بينهم. أما ذنبه فكان التسامح الذي أبداه مع الفرنسيين من ذوي المواهب التي لم يتمكن من الاستغناء عنها كالكهربائيين والسبّاكين والنجارين الذين سبق لهم العمل مع الالمان. ولا شك في أنه نصح بعضهم بالفرار إلى سويسرا ومنهم بندر ونوردلينغ وأخوه. لم يتمكن نائب القائد من اثبات ذلك على موسى (ذلك ان قلبه لم يكن إلى جانب التحقيق) ولكن موسى لم ينكر الاتهام ولا هو أقرّ بصحته عندما وجهه إليه المحققون.

إن المعلومات التي حصلنا عليها عن العملية التي شملت المسرح الأوروبي بأكمله وعُرفت باسم «عملية مِشبك الورق» أو باسم «مؤامرة مشبك الورق» ـ والأمر هنا يتوقف على الجهة التي تنتمي إليها ـ جاءتنا تلك المعلومات من موسى وليس من زملائنا في جهاز مكافحة الجاسوسية. تتلخص عملية «المشبك» هذه بأن كل قيادة فيها مجموعة كبيرة من البطاقات الفهرسية سواءً كانت قيادة جيش أو فرقة أو لواء، عُيِّن فيها رقيب أول أقسم يمين المحافظة على السرية وأنيط به مراجعة البطاقات الفهرسية ووضع مشبك للورق على كل واحدة تحمل اسم أحد العلماء الالمان الذين قد يؤدي استجوابهم إلى إلقاء الضوء على تلك التفوقيّة التقنية الالمانية التي طالما شغلت بال قيادتنا في لندن. وبعد يوم النصر على المسرح الحربي في أوروبا راحت فرق مكافحة الجاسوسية تنزل على معسكرات اسرى الحرب وتسحب منها العلماء المختارين بتلك الطريقة رغم اعتراض المسؤولين في بعض تلك المعسكرات الذين كانوا على بيّنة من أن معظم العلماء المطلوبين هم نازيون. وتولّت الفرق المذكورة نقل العلماء إلى أمكنة إقامة مريحة حيث عوملوا معاملة خليقة بالشخصيات المرموقة.

أيّدت العملية تأييداً تاماً خصوصاً عندما أُعطيت الأفضلية فيها «للموالين» من أفراد جهاز مكافحة الجاسوسية. وخامرني الشك في بادىء الأمر أن تكون العملية المهمة التي أعدها الجنرال شين لي عندما رتّب لي الاتصال بڤالتر غليم الذي لم يكن قد اتصل بي كما توقعت منه أن يفعل. ولكن ماذا كانت ردّة الفعل على العملية؟ رفض جايمس ايخلبرغر وجِمْ غاردنر وغيرهما في وحدتنا في باريس، وكلهم متحلّون بالعقلية الجامعية الليبيرالية، رفضوا التعاطي معها. أما اليهود بيننا فانهمرت دموعهم عندما سمعوا بها. وبصفتي مسيحي مؤمن بالأناجيل ومصاب بداء «التشكيل المقلوب» ـ كما وصفني فرانك كيرنز في كل مرة غضب مني لاحتفاظي بروح الدعابة إبان الازمات ـ (دون ذكر تخلّفي الفطري طبعاً) لم أتمكن من وضع أي هدف لنفسي غير كسب الحرب والعمل من أجل عدم قيام حرب عالمية ثالثة. لا أريد هنا الادعاء بالترفع ولكني لم أر أي سبب بل لم أشعر بأي سبب للثأر من الالمان مهما كانت بشاعة الجرائم التي اقترفوها.

ولكن ونزولاً عند إصرار صديقي الممثل المجنون ستيرلينغ هايدن ذهبت لأتفرج على معتقل بوخنڤالد النازي. تضمنت مجموعة زوار المعتقل التي فرضها علينا ستيرلينغ كلاً من سامي واينتراوب وعميل خاص من جهاز مكافحة الجاسوسية اسمه إرڤنغ آرونسُن. لا ريب في أن مشاهدة المعتقل هزّتني بما فيه الكفاية وكان تأثيرها في نفسي أقوى بعشر مرات من تأثيراتي من الأفلام التي شاهدناها عن المحارق على شاشات التلفزيون. ولكن تأثير مشاهدتها برفقة سامي وإرڤنغ كان أقوى بمئة مرة. وافقت مع نات صمويلز وهو يهودي بمقدار سامي وإرڤنغ ان اذلالنا المبرمج للالمان في أعقاب الحرب العالمية الأولى كان سبب قيام هتلر، ولكنني رفضت الاشتراك في عملية تثير نفور وغضب نسبة مئوية مرتفعة من أقرب اصدقائي.

بعد مرور خمسة وأربعين عاماً على العملية اعترف طوم بووار من هيئة الاذاعة البريطانية في كتابه «مؤامرة مِشبك الأوراق» بأنه لربما لم نتمكن من الصعود إلى القمر لو أن «المؤامرة» فشلت، وأضاف بأنها كانت غير اخلاقية وجاءت نتيجة «فرض سلطوي» من قبل المؤسستين العسكريتين البريطانية والأميركية. وإذا كان سخط بووار عليها الآن بهذا المقدار فهل نستطيع أن نتصور مدى السخط عليها لخمس وأربعين سنة خلت ليس فقط بين اليهود من أفراد جهاز مكافحة التجسس ومكتب الخدمات الاستراتيجية بل كذلك بين كل الليبراليين منا؟

من الصعب جداً وصفي بأنني ليبيرالي، لا اليوم ولا في أيام شبابي ولكني أكاد أعتنق الرأي الذي أبداه اي. ام. فوستر عندما فر صديقنا المشترك كيم فيلبي إلى موسكو. قال: «إذا ما أُجبرت يوماً على الخيار بين صديقي أو بلدي أرجو أن تكون لي شجاعة اختيار صديقي». ولكن إبان عملية «مشبك الورق» لم يكن الخيار المطروح على ذلك النحو، أو على الأقل لم أره على ذلك النحو، وعليه قلت لهاورد وِلسُن انه لو طُلب مني الاشتراك به على أي حال لرفضت.

ننتقل الآن إلى الفئة الرابعة أي إلى النازيين الضالّين الذين يملكون القدرة والوسائل التي تمكنهم من الفرار إلى اسبانيا أو جمهورية ارلندا أو أميركا الجنوبية أو الشرق الأوسط. قلت في نفسي لعل هذه الفئة هي التي يفكر لي بها الجنرال غوردن شين، ولكن لم أكن لأتأكد من ذلك بغياب ڤالتر غليم. وفي تلك الفترة بالذات ظهر ڤالتر من جديد! ففي اليوم التالي لاستسلام اليابان في ٢٥ آب (اغسطس) ١٩٤٥ سمعت طرقاً خفيفاً على باب جناحي في الفندق في باريس. وفي الباب وقف ڤالتر ببدلة زرقاء مفصلة له خصيصاً وقبعة هومبورغ وشمسية ملفوفة باتقان وكأنه من طبقة كبار الانكليز متوجه إلى عمله

في شارع هوايتهول. ظنّ هنري لما فتح الباب بأنه أحد ضباط المخابرات العسكرية البريطانيين المملين وكاد يقول له إنني خارج الجناح. ولكن ڤالتر لم يعره أهمية وسار نحو كرسي جلس فيه بانتظار ان أنتهي مما كنت أعمل في الحمام.

دُهشت لثقته بنفسه. هاكم ضابط الماني باللباس المدني آتٍ في وضح النهار إلى شقة ضابط اميركي دون أي سرية أو تحفظ ظاهرين، فتلعثمت وخانتني الكلمات واختفت من ذهني كل الأسئلة التي أعددتها لأطرحها عليه منذ اليوم الأول لافتراقنا في سان كلود حتى الوقت الذي واجهت فيه وحدتنا في باريس قضية «مشبك الورق». وأمام ذهولي اتخذ هو المبادرة وبعد تبادل التحية بحرارة والسؤال عن سير أعمالي وممازحة هنري بأن الأوضاع في باريس أيام الالمان لم تكن بالسوء الذي يصورها به الفرنسيون سلّمني ظرفاً وقال: «أظن أنه يحتوي على مستقبلك» وانصرف دون ان نكون قد تبادلنا عشر كلمات.

أما هنري الذي أطل من النافذة ليشاهد رحيله فيما كنت أفتح الظرف فقال لي انه صعد في المقعد الخلفي من سيارة سيتروين فخمة يقودها سواق، وقد انصرفت بهدوء كما لو كان راكبها دبلوماسي ترك بطاقات في وزارة الخارجية الفرنسية. وأضاف: «أصدقاؤك ممتازون».

لا بد لي من الاعتراف بأن محتويات الظرف وهي عبارة عن اسماء دون أي ملاحظات لست وعشرين (٢٦) ضابطاً المانياً من رتبة ملازم ثانٍ إلى رتبة عقيد ليسوا من ضباط القوات العسكرية العادية بل من الـ SS لم تعن لي شيئاً حتى قابلتها بعد ظهر ذلك السبت بالملفات المركزية في فندق ماجيستك. ولم أدرك، بعد مقابلة الأسماء بمختلف القوائم بأسماء المطلوبين إلى أي فئة انتموا وتأكدي من أن أياً من الأسماء التي أعطيت لي موجود عليها، لم أدرك فوراً لماذا يأتي ضابط الماني قادر على التجول بحرية في باريس في سيارة يقودها سواق لزيارة ضابط أميركي في وضح النهار ويسلّمني مثل تلك القائمة. أمضيت بعض الساعات من التفكير للحصول على دليل.

أما أنتم الذين رأيتم نوراً في ذلك فيحقّ لكم المفاخرة بذكائكم الحادّ. وأما فيما يخصني فعندما أضاء النور طريقي لم يسعني إلاّ التلفظ بعبارة: «يا للبلاهة». وكنت قد قررت العودة إلى التمرين على عزف البوق والانضمام إلى فرق موسيقى الجاز. ولكن الفضول، إضافة إلى مقدار من الشعور بحب المغامرة الذي صار هوساً، جعلاني أقرر الاستمرار في مهنة المخابرات لسنة على الأقل.

الفصل التاسع

مجدّدا في واشنطن

مسرح اللعبة وصناعة القرار

عندما استعرض مجمل مراحل حياتي يتبينّ لي انها بدأت تأخذ معناها الحقيقي في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥ يوم التحقت بوحدة الخدمات الاستراتيجية وهي من بقايا مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي أخذ آنذاك يتحول تدريجياً إلى وكالة الاستخبارات المركزية التي ذاع صيتها. وبعد قضاء شهر في حرّ ورطوبة جو ولاية آلاباما، ونوم هادىء وفطور دسم لذيذ في القطار السريع الذي أقلّني إلى واشنطن، بلغت محطة يونيون حيث استقبلني نسيم الخريف العليل وسواق ببدلة رسمية قال لي إن الجنرال والسيدة لوتن، استاذي في مدرسة المغاوير في اسكتلندا يرغبان بأن أقيم معهما في مبنى واردمن پارك حتى عثوري على منزل أقيم فيه. فكانت رحلة بسيارة كاديلك حكومية أقلتني من محطة يونيون عبر واشنطن عن طريق شارع كاي وعبر منتزه رول كريك حيث أوراق الشجر أخذت تتحول إلى الأحمر والأصفر والبني ثم إلى جادة كونيتيكت.

وصلنا مبنى واردمن پارك. إنه أعلى نقطة في واشنطن، «يجعل المدينة بأكملها تحت يديك» حسب التعبير المحبّب عند السيدة لوتن، وفيه يُقدَّم الشاي بعد الظهر، كما في كونوت لندن، في البهو الكبير على أنغام رباعي وتري يعزف مقتطفات خفيفة من مختلف مقطوعات الأوپرا. في ذلك المبنى أقامت السيدة ايزنهاور أثناء وجود الجنرال في ساحات القتال. وأقام فيه أيضاً نائب الرئيس‌البن باركلي وكذلك رئيس المحكمة العليا إرل وارِن (ولا تزال السيدة وارن تقيم فيه حتى اليوم) ثم جاء جورج بوش وسپيرو اغنيو وپيرل ميستا المضيفة الممتازة التي (حسبما يقال) «تغري الضيوف بتعليق قطعة لحم في الشباك». أما جناح آل لوتن في الطابق السادس فقد أقامت فيه السيدة أيزنهاور ثم آل لوتن فآل بوش (جورج أولاً ثم زوجته باربرا وبعدها والدته) ثم نائب الرئيس اغنيو، وبعد ذلك بسنوات عديدة حللت فيها لثماني سنوات بهيجة. أما السيدة ميستا فكانت في جناح مزدوج فوق جناحي تماماً حيث كانت تقيم حفلاتها الشهيرة - إلى أن صرت أنا بعد سنوات عديدة أحيي أنا حفلاتي الخاصة.

كان آل لوتن يعدون الأيام التي تفصلهم عن العودة إلى ولاية كارولينا الجنوبية و«إلى العقل السليم» حسب قول السيد لوتن. ومع ذلك توافر لهم متسع من الوقت للحياة الاجتماعية فكان عندهم ضيوف على العشاء ليلياً، طبعاً حينما لا يكونون فيها مدعويين هم لتناول طعام العشاء عند الاصدقاء. أما ضيوفهم فكلهم من أصحاب المراكز المرموقة ينتمون إلى الظاهرة الحديثة العهد في واشنطن ظاهرة «المؤسسة». والحفلات التي أقاموها يعود جزء منها إلى شعورهم بالرضى عن مساعدتهم لصديق شاب في وضع قدميه على السلم، فدعوا إليها شخصيات عسكرية ودبلوماسية لها صلة بالتخطيط لوضع اسرة المخابرات على سكّة العمل في أيام السلم. شغل الجنرال وظيفة مستشار لدى دائرة الملحقين العسكريين. ومع انه لم يحمل عمله هذا على محمل الجد الصارم (ذلك انها اقتصرت على اجراء المقابلات للضباط المرشحين من رتبة جنرال الذين «يعرفون أي شوكة يستعملون في الولائم الدبلوماسية»، حسب وصف السيدة لوتن) فقد أتاحت له مجال الاتصال بأسرة المخابرات ومكّنته بالتالي من معرفة مَن بينهم له تأثير ومن منهم لا تأثير له.

مضى على وجودي في ضيافة آل لوتن اسبوعان فقط أدركت خلالهما أن عدداً قليلاً جداً من الأشخاص العاملين داخل أسرة المخابرات سيكون لهم أي تأثير يذكر في مستقبلها. وخطر لي انه إذا

كان الضيوف مؤشراً عمن سيكون له ذلك التأثير فسأواجه صعوبات كثيرة في عملي أو لا عَمَل معهم. لم أكن في المناسبات الرسمية التي جرت في واشنطن في تلك الأيام أكثر من ذبابة على الجدار فلا أفتح فمي إلّا لطرح سؤال خجول بين آن وآخر. ولكنني كنت كلّي آذاناً صاغية. وفي الحفلات التي أقامها آل لوتن وفيها كان النقاش حاداً حول توزيع الوظائف في مختلف المنظمات الناشئة طرحت سؤالاً. قلت: «لنفرض بأننا سنتخلى كلياً عن دوائر الاستخبارات واننا لن نتصارع مع أي منها مطلقاً. فماذا تخسر البلاد؟» لم أكن أنوي من وراء ذلك السؤال إلقاء ظلال الشك حول ضرورة وجود الاستخبارات بل قصدت فرض قيام تفكير جدّي بأهداف المنظمة التي ستنظّم دوائر الاستخبارات. هل نحن بحاجة إليها، وإذا كنا نحتاجها فلماذا؟ وبمعرفة الأجوبة الصحيحة فقط عن أسئلة كهذه يستطيع المنظّمون التأكد من أنهم يوفّقون التوفيق الصحيح بين الأهداف وسبل التوصل إليها.

قوبل سؤالي هذا بأدب وتهذيب فقط من قبل معظم الضيوف، إلّا أن واحداً منهم فقط هو الجنرال جون مغرودر حمله على محمل الجدّ فحكى قصة اجتماع عقده الرئيس ترومن مع رئيس الاستخبارات الجديدة آنذاك الأميرال سيدني سويرز. فعندما قال سويزر بأن وحدة الاستخبارات المركزية الجديدة التي كان ينشئها مهمتها الحيلولة دون حصول «بيرل هاربر» جديدة، اجابه ترومن: «لم تصلك بعد المعلومات السرية جداً، وإلّا لكنت علمت ان فكّ رموز الشيفرة قد أنبأنا مسبقاً بكل تفاصيل الهجوم على بيرل هاربور. إن الاستخبارات التي كان الرئيس روزفلت بحاجة إليها هي تلك التي تنبئه عما يجب ان يفعله بتلك المعلومات». الواقع ان الرئيس روزفلت كان على علم بمعلومات الاستخبارات وقرر السماح بحصول الهجوم على بيرل هاربور ليكون احدى وسائل اثارة الرأي العام الأميركي الذي كان لولاه غير مبالٍ بالحرب. ومضى الجنرال مغرودر قائلاً: انه أمضى الشهر السابق بطوله يتحدث عن الاستخبارات وتنظيمها في أعلى الدوائر وانه لم يسمع خلال محادثاته كلمة واحدة تشير إلى ان ما قاله ترومن قد بلغ مسامع أي من المخطّطين. ومن ناحية أخرى كان كبار المسؤولين في وزارات الخارجية والجيش والبحرية والطيران ناشطين في اختراع أخطار افتراضية تسوغ لكل منهم المطالبة بزيادة مخصصات وزارته من الميزانية العامة، وانطوت اختراعاتهم على مجموعة كاملة من التعابير والكليشيهات يدعمون بها حججهم. واستدار نحوي مجيباً عن سؤالي فقال: «لا أحد مطلقاً يتساءَل ما الذي يجب أن نخشاه، نحن الأميركيين، في عالم ما بعد الحرب».

بعد مغادرة الضيوف منزل آل لوتن أوضح لي الجنرال ان الجنرال مغرودر، وهو خريج كلية وِست پوينت العسكرية ومن أسرة قديمة محترمة من ولاية ڤرجينيا كان نائب الجنرال دونوڤان في مكتب الخدمات الاستراتيجية وانه على وشك الصيرورة رئيس الوحدة التي انضممت إليها حديثاً. وقال إن ذلك كان سبب دعوتهم له إلى العشاء. وتنبأ الجنرال وقرينته بأن مغرودر لن يبقى طويلاً في منصبه وبأنه من الأفضل أن أشاهد خروجه من منصبه لأنني سأتعلم منه شيئاً، وأضاف: «لن تتمكن من ادراك معنى الأحداث في واشنطن من دون معرفة كيف ينظر إليها أصحاب النفوذ من الرجال والنساء». ففي ألعاب واشنطن تأتي النتائج من تفسير الأحداث، سواء كانت صحيحة أم خاطئة، أكثر مما تأتي من الأحداث نفسها. وما كان الذين يتخذون القرارات الأكثر تأثيراً في حياتنا ليتبوأوا مراكزهم لو لم يتعودوا في مراحل حياتهم الأولى على رؤية الأحداث إلّا من المنظار الأكثر ملاءمة لمصالحهم. وإنه لمن المؤسف جداً ان الجنرال جون مغرودر رجل على مستوى من الاخلاص لوطنه أرفع من أن يسمح له بممارسة لعبة واشنطن. على كل حال قررت تلبية طلبه وزيارته في مكتبه قريباً، وهي دعوة وجهها لي عند مغادرته بيت لوتن.

وفيما كنت أقضي الأمسيات اتثقّف على أيدي صانعي القرار في واشنطن ويتركون في نفسي أعمق الأثر، جعلت أقضي الأيام في مختلف المباني المؤقتة التي أقيمت بالقرب من نصب لينكولن التذكاري والبحرة المرآة أمامه أقدّم الامتحانات النفسانية التي أشرت إليها سابقاً وأخضع لفحوص طبية وأتلقى دروساً في أصول الأمن وأعالج قضايا شخصية مثل العثور على شقة وشراء سيارة وأستغل مهارتي على أنني أحسن تدبير أموري وأعرف المداخل والمخارج لتفادي العراقيل التي يضعها الجيش في طريقي لاستقدام زوجتي لورين وابني مايلز الثالث وكان في الشهر الثامن عشر من عمره، من بريطانيا. وقد وصلا في اليوم عينه الذي ودعت فيه آل لوتن وانتقلنا إلى شقة لها حديقة في پاركفيرفاكس في ولاية ڤيرجينيا المتاخمة لواشنطن.

تضمنت مهمتي الأولى العمل مع سيدة لطيفة في الثلاثينات من عمرها تتقن الانكليزية والالمانية مسؤولة عن القسم المختص بالشؤون الالمانية في وحدة الخدمات الاستراتيجية المناط بها قضايا مكافحة الجاسوسية. سأوفر على القراء تفاصيل تلك الحقبة القصية واختصر بالقول ان اختياري لتلك المهمة يعود إلى أن أحداً من ذوي المراكز العليا قد رأى وهو يقلّب أوراق ملفي أنني طاردت التقنيين الالمان بناء على أوامر الجنرال شين، وأن القائمة بأسماء النازيين الستة والعشرين التي حصلت عليها من ڤالتر غليم قد سمّرتني إلى الدائرة الالمانية إلى حد كاد يستلزم اصدار قانون من قبل الكونغرس لانتقالي منها. وفي الواقع جاء ما يعادل القانون إذ نقلت من عمل إلى آخر فيما كانت وحدة الخدمات الاستراتيجية - وكالة الاستخبارات المركزية تحول اهتمامها عن مطاردة النازيين إلى مراقبة الشيوعيين.

لم أتوقّف طيلة تلك الفترة عن التفكير بأن التعليمات الصادرة إلى الوحدات العاملة على الأرض لا تحدد ما الذي يجب فعله بالنازيين الفارّين بعد إلقاء القبض عليهم. فالذين استطاعوا الافلات منّا منهمكون، لا ريب، بنشاطات ذات تأثير مشؤوم على السياسات المحلية، وهذا بالطبع ما يفعله أيضاً عملاء الشيوعيين في الأحزاب الشيوعية المحلية. وعليه ألا يجوز التفكير بأن يكون الالمان مفيدين لنا؟ لا شك في ان الفكرة تبعث على الحيرة، ولكن عندما طرحتها على الآخرين في القسم المختص بالشؤون الالمانية دبّ الرعب في نفوسهم وأصرّوا على أن مطاردة أعدائنا السابقين هي غاية بحد ذاتها وعلى ان السوفيات لم يتحولوا إلى «أعداء» حتى الآن.

على كل حال، ولأسباب لا علاقة لها بأخلاقية القضية قررت مبدئياً الابتعاد عنها وطلبت نقلي من القسم الالماني وفي السنة التي تلت ذلك تقلّبت في عدة وظائف أولاها العمل في مكتب اسمه «وحدة اعادة التأهيل والاحالة» تديره كاثي ماركوڤيتش وهي تشيكية حصلت على الجنسية الأميركية «تعطف عطفاً خاصاً»، حسب قولها، على أولئك الذين اشتغلوا «في براري التجسس الدولي الواسعة وهو أسوأ المجالات». تضمنت أعمالنا في المكتب المذكور باستقبال عملائنا الذين بعث بهم الجنرال دونوڤان إلى أقاصي المعمورة والترحيب بهم وتكريمهم. والواقع ان البعض منهم لفّه النسيان ولم نعثر عليهم إلّا من مراجعة القيود والسجلات وكانوا في أماكن نائية بعيدة عن كل ضروب المدينة حتى انهم لم يدروا بانتهاء الحرب إلّا بعد مرور عدة أشهر على استسلام المانيا ثم اليابان. لم يكن عملنا هذا مثيراً بحد ذاته ولكنه في الوقت نفسه شكّل معيناً من الحكايات التي استعملتها أثناء ولائم العشاء والحفلات الأخرى.

انتقلت من مكتب كاثي ماركوڤيتش إلى دائرة تدريب × ٢ حيث أتيحت لي فرصة ممارسة المنهجية بالمعنى الحقيقي لتلك الكلمة لا البديل المتفلسف لكلمة «طريقة». وترتب علينا استنباط الوسائل الصحيحة للقيام بأعمال لم يسبق أن قام بها أحد في السابق - مثل تطويع عملاء للتجسس على السوفيات على افتراض ان التجسس هو الوسيلة الأنسب للحصول على المعلومات التي نحتاج إليها.

استرعى التقرير الذي وضعته بهذا الشأن اهتمام جِم انغلِتَن الذي بات معروفاً على انه أمهر الخبراء بالوسائل التي يتبعها السوفيات في التجسس علينا. بعد ذلك عُيِّنت لمساعدة أحد أهم ضباط المخابرات ومن أفضل الرجال هو بيردي سيلفا الذي أسندت إليه مهمة وضع الرسوم البيانية لتنظيم القسم المختص بالمخابرات في × ٢ وكان آنذاك قيد التأسيس وسيصبح فيمابعد وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن عملي هذا بالغ الأهمية ولكنه دعم ادعائي بأنني أحد مؤسسي وكالة الاستخبارات المركزية (صرت فيها بعد أحد المئتي موظف الذي أدرجت أسماؤهم على لائحة الموظفين المحترفين عندما تحولت الوكالة إلى دائرة رسمية في تموز (يوليو) ١٩٤٧).

قضيت الشهر التالي بين يدي هاري روزِتسكي الذي الذي نما وترعرع في بروكلين ونال من جامعة هارفرد دكتوراه في علم أصول اللغة الالمانية. لم يكن هاري محلّلاً وكاتباً ممتازاً فقط بل وكذلك خطيباً ساحراً، جلبت له موهبته هذه من الأسى بمقدار ما منحته من الشهرة. ففي احدى محاضراته في صف من الصفوف التي كنت فيها وكان الموضوع «المشكلة السوفياتية»، ادعى طيلة ساعتين موقف المدافع عن النظام السوفياتي مثيراً بذلك أسئلة متعددة وجهها إليه الحاضرون ومنها: «ما قولك بانعدام حرية الرأي والكلام في الاتحاد السوفياتي؟» ولكنه ببراعته الفائقة بيّن لنا ان اسئلتنا لم تعد كونها كليشيهات حمقاء وان السوفيات أقل بلاهة بكثير مما نحسبهم. لقد تعمّد في تلك المحاضرة أن يوضح لنا ما كان علينا ادراكه وهو انه ليس من الجائز اطلاقاً لأي انسان الاستهتار بخصمه. غير ان واحدا على الأقل من الحضور توجه فوراً إلى العقيد غالواي، الذين عُيِّن حديثاً لرئاسة وحدتي × ٢ والاستخبارات السرية المندمجتين، متذمّراً من أن دي سيلفا «يتكلم تماماً مثلما يتلكم الروس».

ولكن دي سيلفا بعمله هذا أيقظنا جميعاً. فقبل الخطاب الذي ألقاه الرئيس ترومن في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧ المعروف باسم «شرعة ترومن» واتخذ فيه علناً موقفاً مناهضاً للتوسع السوفياتي لم يرد في التعليمات ولا في الخطط التي ترشدنا في مهماتنا أي ذكر للسوفيات. وبعد اسبوع واحد فقط على الخطاب أخذت تنهال علينا التوجيهات المختلفة بالحصول على معلومات عن نوايا السوفيات ليس لجهة ما إذا كانوا سيتحركون بل وبماذا قد يتحركون. وفي نيسان (ابريل) ١٩٤٧ قالت تقديرات البنتاغون ان باستطاعة السوفيات، من الناحية العسكرية الصرف. بلوغ شواطىء بحر المانش (فرنسا) إذا أرادوا ذلك. وقال الجنرال كلاي، كبير مندوبينا في برلين آنذاك، بأن حدسه ينبئه بأنهم على وشك القيام بذلك. كانت ردة فعل البنتاغون التنبؤ بغزو سوفياتي لأوروبا الغربية كما أن البيت الأبيض رأى الحرب مع الاتحاد السوفياتي وشيكة الوقوع.

لقد أبقى الروس بعد يوم النصر في أوروبا على كامل جنودهم تحت السلاح فيما كنا نحن نعجل بتسريح رجالنا. ولكن تراءى لنا، نحن رجال المخابرات الحديثي العهد بمهنتنا ان موقف ستالين دفاعي كلياً. فالاحتمال المنطقي هو أن تهاجم الولايات المتحدة القوية الاتحاد السوفياتي المنهوك القوى. وعلى الافتراض بأن السوفيات قد يعتبرون أن الهجوم القوي هو أفضل سبل الدفاع ردَدْنا بالقول إن قوتهم العسكرية لا تعني شيئاً طالما شعروا بأنهم قضموا قضمة أكبر مما يقدرون على هضمه. لم يكن بالنسبة إلينا سوى سيناريو مقبول واحد حتى لدى السوفيات الذين يعتريهم مرض الخوف والتشكيك هو ان ستالين سيعزز قبضته عسكرياً على الدول التي استولى عليها ويقف على أهبة الاستعداد. وعوضاً من الانشغال باحتمال وقوع هجوم عسكري، علينا الاهتمام بأن لدى القادة السوفيات اقتناعاً بقرب انهيار اقتصادنا وبأن الشيوعية ستتمكن، ببعض المساعدة السرية من الداخل، من اجتياح الغرب برمته.

على كل الحالات، ومهما كانت مسوّغات التأييد أو المعارضة، فإذا كان محلّلونا العسكريون يرغبون في تعداد الفرق العسكرية وفي تعليق الدبابيس على الخرائط فليكن لهم ما يريدون، لعل في ذلك ما يحول دون تسكّعهم في الطرقات. خلال تلك الفترة بالذات كان قد صدر قول عن كبير محلّلينا شيرمان كنت أنسخ نصه هنا من الملاحظات التي دونتها آنذاك بخطي السيىء. قال: «التحليل هو القدرة على استخلاص الوقائع وما له صلة بالموضوع من كل الفوضى والتشويش والكلام الرنان المثير للعواطف والباعث على التحيّز». وبالفعل ذلك ما كنا نحاول فعله فيما الذين من حولنا يتخلون عن عقلانيتهم بمن فيهم، حسب رأينا آنذاك، جورج كِنَن، السكرتير الأول في سفارتنا في موسكو، الذي خلت برقيته الشهيرة المؤلفة من ٦٠٠٠ كلمة عن النوايا السوفياتية (مقال «المستر×» في مجلة فورين افّيرز)، في ظاهرها من برودة التفكير التي حسبنا أنفسنا نتمتع بها. فخرجنا بتقديرات موجزها:

أولاً: لا مجال للتوفيق بيننا وبين القادة السوفيات على الوسائل الكفيلة بضمان الأمن القومي لكل من الفريقين حسب تفسير كل منهما لذلك التعبير. فعند نهاية الحرب كان الزعماء السوفيات قد التزموا إلى حد اللارجوع بسياسة اعتمدت على تدمير تأثير الولايات المتحدة الرأسمالي في العالم اعتماداً لم يعد بمقدورهم التخلي معه عنها حتى ولو رغبوا بذلك. ونظراً للمناخ السياسي الذي مكّنهم من بلوغ موقع السلطة ونظراً لقدرتهم على البقاء فيه فإن تخليهم عن تلك السياسة يعادل الانتحار الشخصي الفوري. وبالتالي لم تكن القضية ان السوفيات هم الأشرار واننا نحن الاخيار، بل القضية تكمن في المنحى الذي اتخذه الخلاف: التزامات لا رجوع عنها لدى أحد الفريقين جعلت من نفسها قوة لا تقاوم، تقابلها لدى الفريق الآخر التزامات لا رجوع عنها تجعله لا يتزحزح من مكانه.

ثانياً: لم يكن السوفيات يتخذون اجراءات جدية تمهيداً لشنّ حرب «ساخنة» علينا، تقليدية كانت أم ذرية ـ حتى ولو افترضنا انه إذا لم يكن لديهم قنبلة ذرية بعد، فهم على وشك الحصول عليها وبما ان القادة السوفيات ليسوا فقط واقعيين بل مصابون بداء التشكيك والارتياب، فهم يدركون بأنهم لا يمتلكون من القوة إلّا ما يكاد يسمح لهم بالحفاظ على الدول التي ضموها إلى فلكهم، وكذلك بأنهم، حتى ولو صار لديهم قنبلة ذرية، متخلّفون عنا جداً بمعرفة استخدامها بفعالية كبيرة.

ثالثاً: في جميع الحالات كان محللو الاستخبارات الذين يدرسون الشؤون السوفياتية بهدوء وتعمق («أن تفهم أوضاع السوفيات أجدى لنا من أن نكرههم» حسب قول هاري روزتسكي) كانوا وحدهم مقتنعين بأن السوفيات يرون ان لا وسيلة لتفادي نوع من الصراع معنا حتى النهاية واننا وإياهم في صراع متصاعد سواء أردنا ذلك أم لا. لقد أدرك لينين تماماً وكذلك ستالين من بعده ومثلهما أي شخص سيحل محل ستالين ان لا النظام السوفياتي ولا الاتحاد السوفياتي نفسه ولا الكتلة الشيوعية برمتها قادرة على البقاء في العالم نفسه الذي ينبض فيه النظام الرأسمالي. فإذا كان الغرب واقفاً على شفير الانهيار، كما حسب ستالين وجب إذاً الدفع به إلى الهاوية، وفي كل الحالات ينبغي على السوفيات «الفوز» علينا بطريقة ما.

رابعاً: إذا كان السوفيات غير قادرين على الفوز في حرب «ساخنة» فبأي وسيلة يستطيعون الحاق الهزيمة بنا؟ بالطريقة الوحيدة التي درج الدعائيون السوفيات بعد الحرب مباشرة على الترويج لها وكانت ما أسموه «المنافسة اللاعدائية» (وهي ما صفق لها من جانبنا أولئك الذين قال فيهم لينين: «البلهاء المفيدون»). ولكن هنا تكمن النقطة الهامة والخطر، حسبما رأيناهما: ليس بمقدور النظام السوفياتي أن ينافس بنجاح نظامنا الرأسمالي ان هو لعب لعبة المنافسة المنصفة حسب أصولها كما نفهم تلك

الأصول. لقد أدرك القادة ذلك ادراكاً تاماً. ففي عهد لينين وكذلك في عهد ستالين من بعده ورد الاعتراف ضمناً من خلال الفلسفات السوفياتية حول موضوع بقائهم في عالم «رأسمالي ـ امبريالي».

خامساً: استناداً إلى ما سبق يجب أن تكون نظرة السوفيات إلى المنافسة مغايرة تماماً لنظرتنا. فهي لا تعني انتاج مصنوعات أفضل بأسعار أدنى في أسواق يسهل وصول المصنوعات إليها. إنها تعني الحيلولة دون قدرتنا على فعل ذلك. فالكتابات السوفياتية حول الخلاف بين الشرق والغرب تنضح كلها بالفرضية الضمنية بأن استراتيجيتهم تقوم بكليّتها تقريباً ليس على كسب الاصدقاء أو الاراضي أو المواد الأولية لأنفسهم بل على حرماننا منها.

سادساً: إضافة إلى كل ذلك ففي أي صراع قد يدخله السوفيات ضدنا ستقوم استراتيجيتهم على مواطن الضعف الأميركية لا على مواطن القوة السوفياتية. وعلى وجه العموم استبعدت استراتيجيتهم عن رقعة اللعبة الدولية، كما نفهم اللعبة نحن، النظر الجدي بحرب شاملة (علماً بأنها اتكلت على التلويح بها تحقيقاً لكسب نفساني) ثم تحولت إلى التشديد على إحاطة العالم بحزام مجنون من الحروب الاقليمية مقرونة بخلق مختلف أنواع المشاكل في أي مكان في العالم، ليس ذلك بغرض تحسين قدرة السوفيات التنافسية بل من أجل تخفيض قدراتنا المختلفة. لقد كان الحرمان بمثابة قلب الجوهر في أممية لينين: حرماننا، نحن «الرأسماليين الاستغلاليين»، من المواد الأولية وأسواق التصريف وإبعادنا من ناحية ثانية عن القواعد العسكرية التي سنحتاج إليها إذا ما اضطررنا «للجوء إلى الخيار العسكري».

سابعاً: لقد ظن السوفيات (وكانوا على حق في ظنهم) بأن انتصارنا أو هزيمتنا في الحروب تحصل داخل الولايات المتحدة نفسها قبلها في ساحات القتال الفعلي. واستناداً إلى ذلك استشفينا ان استراتيجيتهم على رقعة اللعب الدولية ستكون متصلة صلة وثيقة ببرنامج لبث المعلومات المختلفة غايته «تحذيرنا حيال اي تشكيك بنواياهم قد يخامر أذهاننا من جهة وتشويه سمعة أي منا ويجرؤ على التحذير من تلك النوايا من جهة أخرى.

ثامناً: لا يسعني وأنا أدوّن هذه الأسطر إلّا استغلال ما في القاء نظرة على الماضي من اغراء بأن أعطي صفة التحليل لما كان خلال فترة ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠، مجرد افتراض يفتقر إلى البرهان. من هنا اعتبرنا ان المهمة الرئيسية لوكالة الاستخبارات الجديدة، ان لم تكن مهمتها الوحيدة، هي اختبارها. فعليه، وفيما كان رؤساؤنا والمدراء يعدون الرسوم البيانية ويحضرون الأنظمة لمختلف مكونات الوكالة الجديدة أخذنا نحن، على المستوى التنفيذي نستشرف بوضوح المفهوم الذي سنعمل بوحي منه. ومن مراجعة الوثائق والتقارير التي أعدّت في حينه يتبيّن ان الاعتراف بذلك المفهوم قد حصل ضمناً دون اعطائه الصفة الرسمية.

بأسف جديد، لم تتمكن وكالة الاستخبارات المركزية من الاستمرار في النهج الذي بدأت به. وبنظرة أخرى على الماضي رأينا ان بعض الأشياء قد تشوشت واعتراها الخلل:

أولاً: إن أي وكالة حكومية، كما سبق وقلت، تنظر دائماً دون استثناء إلى أي مشكلة من خلال الوسائل المتوافرة لها لحلّ تلك المشكلة. من هنا رأت الدوائر العسكرية في السوفيات مشكلة عسكرية. ولما كانت الوزارات والدوائر الحكومية ذات الموازنات الأضخم هي التي تتمتع بالقسط الأكبر من النفوذ، فما كادت آلتنا المخابراتية الشاملة تنطلق حتى تحوّل كل اهتمام الأجهزة، ومنها وكالة الاستخبارات المركزية، إلى احصاء الفرق العسكرية وتعداد الجنود وتعليق الدبابيس على الخرائط.

ثانياً: لم تكن وكالتنا أقوى حصانة من أي دائرة حكومية أخرى في مواجهة تلك النزعة، علماً بأن العدة التي تعتمدها للقيام بعملها هي عدة وكالة للاستخبارات السرية. وعلى الرغم من ان للبنتاغون ميزانية أضخم ونفوذاً أوسع مما لدى وكالة الاستخبارات المركزية الحديثة العهد، فقد كان لمكتبنا الصغير نسبياً، مكتب العمليات الخاصة (أي × ٢ والاستخبارات السرية معاً) ميزانية أكبر وتأثير أوسع داخل وكالة الاستخبارات المركزية من كل فروعها الأخرى مجتمعة. وانطلاقاً من ذلك الواقع أولينا اهتماماً أكبر لاستعمال الطرق السرية في الحصول على المعلومات مما سوغته النتائج. وخلال سنوات قليلة تعلمنا ان الزبائن المهتمين بالحصول على المعلومات لم يتمكنوا من التحقق إلاّ من صحة جزء يسير من المعلومات التي وفّرناها لهم، وبلغنا أيضاً ان خمسة بالمئة أو أقل من ذلك الجزء اليسير من معلوماتنا المستقاة من مصادرنا السرية تصل إلى البيت الأبيض.

وثالثاً والأهم أدركنا سريعاً بأن أفضل معلوماتنا ـ بل انها الأفضل من كل المعلومات التي تجمعها الأسرة المخابراتية بمجملها ـ لم تكن تحمل على محمل الجدية إلاّ إذا كانت، حسب وصف شِرين كِنت: «من النوع المثير للخوف والذعر»، وهذا يعني التقارير المنطوية على تحذيرات من اخطار صيغت صياغة مرعبة إلى درجة لا يجرؤ البيت الأبيض على تجاهلها. فإذا كان الزبائن يريدون مرعبات فعليها سيحصلون. غير أننا سرعان ما أكثرنا من اطلاق صرخات «الذئب، الذئب» فتوقف البيت الأبيض عن الاهتمام بأي معلومات نرفعها إليه ـ إلاّ بالطبع إذا كان هو أول من دبّ فيه الرعب منها وفي تلك الحال يطلب إلينا تقديم كل ما يمكننا تقديمه تسويغاً لذلك الرعب.

وكالة الاستخبارات المركزية الجديدة والعالم

تحبيذ التعاون مع الموساد

لم تكن خطبة «شرعة ترومن» التي ألقاها الرئيس ترومن في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧، قطعة أدبية بالمعنى الصحيح بل عبارة عن مقتطفات من آراء أعضاء احدى اللجان. غير انها تضمّنت جملة واحدة دلّت على ان في البيت الأبيض شخصاً ما، ربما كان ترومن بنفسه، أدرك وجهة نظرنا. جاء في تلك الجملة قوله: «أعتقد بأن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تكون تأييد الشعوب الحرّة التي تقاوم محاولات اخضاعها من قبل أقليات مسلّحة أو ضغوط خارجية». إذاً، أقليات مسلحة وضغوط خارجية عوضاً عن تدخل علني من قبل القوات العسكرية السوفياتية؟ ذلك هو بالضبط ما كنا نخشاه إلى درجة ظننا معها بأن رئيسنا آنذاك الجنرال ڤندنبرغ، لا بد قد دسّ كلمة أو اثنتين في تلك الخطبة. من الثابت إذاً ان الجنرال ڤندنبرغ قد قرأ فعلاً ما حررناه من آراء سديدة وحكم بليغة ليس فقط تلك الواردة في مذكرات هاري روزتسكي بل وكذلك في مواد تدريبنا وكراريس التعليمات والارشادات. مرّ بذهننا خاطر مفرح: لعل الأشهر العديدة التي قضيناها في إعادة توجيه منظمتنا من العمليات ضد الحركة النازية المتلاشية إلى التركيز على الخطر السوفياتي، لم تذهب سدىً.

لم ينقضِ ذلك التحول دون معاناة وعلى الأخص في قسم شؤون أوروبا الغربية حيث معظم أعضاء منظمتنا هم من المهجرين اليهود الالمان أمثال هنري كيسنجر. ففي واشنطن وعبر البحار كان هؤلاء مدركين تماماً معنى قَسَم التجنّس الذي أدّوه «بالتخلي مطلقاً وكلياً عن أي ولاء واخلاص لأي أمير أو متنفذ أو دولة أو سيادة غريبة. . .» كما كانوا أيضاً يستنكرون أي ايماء بأنهم «بصفتهم يهود» يحق لهم «بوطن قومي خاص بهم». فبالنسبة إليهم يعني هذا الكلام ان كونهم يهوداً اميركيين مرادف لاعتبارهم ليسوا أميركيين حقيقيين، وأن اميركا ليست بلدهم الأوحد مثلما هي البلد الأوحد للأميركيين غير اليهود. لذلك الكلام رنّة تشبه كثيراً تلك الرنّة التي هربوا من سماعها قبل سنوات قليلة، أي ان اليهود الالمان ليسوا المانا حقيقيين وانهم بالتالي محلّلين لأوباش النازيين.

إن تقيّدهم بذلك القَسَم لم يخفّف من حساسيتهم حيال قضية إقامة دولة عبرية في فلسطين خصوصاً كلما سمعوا مناهضي الساميّة من الأميركيين يؤيدون الصهيونيين بالمطالبة بإقامتها علّها تحول اللاجئين اليهود من أوروبا عن الهجرة إلى الولايات المتحدة. وكانوا أيضاً على إدراك حاد من النقاش حول الموضوع، خارج الأسرة المخابراتية، قد انحدر إلى أدنى المستويات ذلك ان السياسيين المناهضين للسامية في سرهم يتفوهون بما يظنونه يرضي الناخبين اليهود ويتهمون الدبلوماسيين المحترفين في وزارة الخارجية بأنهم مناهضون للسامية ومؤيدون للعرب.

سمعت هذه المناقشات طيلة السنوات الأربعين الماضية. لم ترق لي في بدايتها ولا تروق لي الآن. غير ان باستطاعتي قول ما يلي: خلال الأربعين سنة هذه قابلت العديد من رجال الكونغرس المناهضين للسامية في سرّهم والمدّعين بتأييهم لاسرائيل في العَلَن، غير اني ما زلت بانتظار ان أقابل دبلوماسياً أميركياً محترفاً واحداً مناهضاً للسامية مناهضة مهما كانت طفيفة أو مؤيداً للعرب، حتى من بين اولئك الذين يُسمّون «عروبيون»، (خبراء بالشؤون العربية) من الذين قضوا في الشرق الأوسط معظم سني

حياتهم المهنية. في العام ١٩٤٧ كان الموقف السائد بين الدبلوماسيين المحترفين الموجودين في مناصبهم لإدراكهم المهني بالتزامات الولايات المتحدة الأخلاقية وبحاجاتها الآنية، بأن علينا دعم قيام اسرائيل دون ان نخدع أنفسنا بالتفكير بأن في ذلك منافع لنا.

أما في البنتاغون فالحكاية تختلف، ذلك انه لما كان المخططون العسكريون والمحلّلون المخابراتيون يرون أن الخطر السوفياتي انما هو في جوهره خطر عسكري، ولما كانوا يتوقعون نشوب حرب عالمية ثالثة تتقاتل فيها الجيوش والأساطيل البحرية وأسلحة الطيران رأوا في قيام دولة عبرية انها قد تصبح «أعظم حليف متوقَّع لنا في الشرق الأوسط» متنبئين ـ نبوءة جاءت صحيحة ـ بأن جيشها سيكون أفضل جيوش العالم، بل ربما أفضل من جيشنا.

أما الدبلوماسيون والمحللون المخابراتيون الذين رأوا ان حرب المستقبل ستكون حرباً غير مُعلنة ومزيجاً غير تقليدي من الحروب الاقليمية كحرب العصابات وغارات «المقاتلين من أجل الحرية» والأعمال الارهابية وما شابه ذلك فرأوا أيضاً ان الدولة العبرية ستشكل عبئاً ثقيلاً حمله، ولكن ذلك لم يعنِ انهم عارضوا قيامها أو دعمنا لها. وقد انصبّ اهتمامهم الأوحد على اصرار ادارة ترومن على جهلها المستعصي للمشاكل وعلى نظرتها السطحية إلى الفكرة وأسفوا لرؤية مسؤولينا المنتخبين يصوتون إلى جانب سياسات يعرفون تماماً بأنها مضرّة بالمصالح الأميركية فقط لخوفهم من «اللوبي اليهودي القوي».

وأما رأيي الشخصي؟ أقول بكل صراحة انه لم يكن لي في الحقيقة أي رأي في الموضوع. ولكني في السنوات الأخيرة حبَّذت قيام تعاون وثيق ومفيد للطرفين مع الموساد وهو ثاني أفضل جهاز للمخابرات في العالم بعد الجهاز السوفياتي ك ج ب، ومتفوق جداً على قسم العمليات الخاصة في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. ولكني تحاشيت الانخراط في تلك الورطة في العام ١٩٤٧ وكانت وكالة الاستخبارات المركزية ضالعة فيها. لقد تعاطفت مع الفريقين طالما شعرت بأن حججهما أصيلة ومخلصة. ولكنني كمعظم زملائي المحترفين رأيت ان واقع الخلاف كناية عن تسلية خطرة على رقعة اللعبة العالمية واستهجنت دخول السياسيين فيها منجذبين بالسوانح التي توفرها لهم عوضاً عن الاهتمام بما تنطوي عليه من حق أو باطل.

بكلام آخر، لم أوافق ولم أعارض مواقف أيٍّ من الجانبين لأنها لم ترق لي. برأيي، ثمة مجال للكذب وللسرقة وللاغتيالات ولكل أصناف المكر في الحروب غير المعلنة على رقعة اللعبة الدولية، تماماً كما للقتل والتدمير مكان في الحروب المعلنة كتلك التي مررنا بها أخيراً (الحرب العالمية الثانية) ولكن عندما يتعلّق الأمر بالسياسات الداخلية في الولايات المتحدة أكاد أصبح اخلاقياً بعاطفتي.

أقول كل ذلك توضيحاً للسعي الحثيث المفاجيء الذي شرعت به في العام ١٩٤٧ في محاولة لنقلي إلى الخارج. ففي الدرجة الأولى أردت الابتعاد عن سوء التفاهم والخلافات التي أخذت تطفو على وجه الماء بين أصدقائي المقربين. ولكن وعلى الصعيد الاستغلالي الشخصي قصدت بأي ثمن الخروج من واشنطن حيث أخذت «السياسة الخارجية في الداخل» تطغى فجأة على الدوائر الحكومية المعنية «بسياستنا الخارجية في الخارج». فلم يقم جدل حاد وبعيد عن العقلانية حول موضوع فلسطين فقط، بل قام أيضاً جدل مماثل ولو أقل علانية منه، بشأن العلماء ورجال المخابرات الالمان، ومنهم نازيون كثر، الذين درجنا على تهريبهم إلى الولايات المتحدة وإنقاذهم من قضاة التحقيق في محكمة نورنبرغ. لقد كنت، كما أوضحت سابقاً، مع تلك النشاطات قلباً وقالباً، ولكنني سئمت فيما بعد من سماع المناقشات المستعرة التي أثارها ذلك الموضوع.

وثمة شيء آخر: لم أحاول الهرب من الخلاف العربي اليهودي كما تصوّر وقال بعض زملائي من اليهود. فبصرف النظر عن الحساسية التي يثيرها هذا الموضوع في نفسي، لم أعتبره أقرب نقاط الالتهاب لاشعال نار الحرب العالمية الثالثة. لقد تبنى محلّلو المخابرات في البنتاغون نظرية مفادها انه عندما يبدأ العرب والدولة العبرية الجديدة بالتقاتل سيهرع السوفيات لمساندة العرب، وستنبري الولايات المتحدة لمساعدة اليهود ولا يلبث الخلاف في تصاعد حتى تشتعل نار حرب عالمية. أما أنا فلم أنظر إلى القضية من تلك الزاوية ذلك ان تقديري لسياسة الاتحاد السوفياتي الناتج عن قراءتي للمقاطع المترجمة إلى الانكليزية أو الفرنسية من «مجموعة أعمال لينين» المؤلفة من عشرين مجلداً، دلّني على أن ستالين لن يحاول الاستيلاء على ما تبقى من أوروبا الحرة بالوسائل العسكرية بل سيسعى بمختلف الطرق لحرمانها من بلوغ المواد الأولية الافريقية فتتحول بالتالي إلى الاعتماد على البدائل من الاتحاد السوفياتي.

أما مساندة العرب إلى الحد الذي يجعلهم يخوضون حرباً عالمية ثالثة فأمر رأيته مستبعداً كلياً عن نهج الاستراتيجية السوفياتية الناشئة حديثاً. واعتبرت بأن السوفيات سيقدمون لبعض الدول العربية المساعدات اللازمة لكي يخوضوا حربهم بأنفسهم ـ أو بالأحرى ما يكفي لخلق أقصى ما يمكن خلقه من المشاكل لكل ذوي العلاقة بالموضوع بما فيهم العرب أنفسهم ـ ولكنهم لم ولن يذهبوا إلى أبعد من ذلك في خدمة أي مصلحة عربية. والنهج عينه ينطبق على أي مساعدة، مهما كان نوعها، يقدمونها إلى مختلف المجموعات الثورية في افريقيا التي يهتم بها السوفيات أكثر بكثير من اهتمامهم بالعرب لأن أنظارهم موجهة إلى دول أوروبا الغربية.

لم يكن كل ذلك في حينه سوى مجرد نظريات هشة لم تجد من يعتمدها في مكتب العمليات الخاصة فاستحوذت على حاسة لاعب البوكر من تفكيري بحيث راهنت بمستقبلي المهني عليها.

وعليه شرعت أبحث عن منصب في الخارج بدءاً من افريقيا. ولما كنت أتكلم الفرنسية عرض عليَّ الخيار بين ليوبولدفيل وكوناكري وأبيدجان وكلها «مراكز مشقّة» لم يتقدم لها أحد فرفضتها بسبب تفكيري بعائلتي. ثم جاءني عرضان استهوياني: ريو دي جنايرو وستوكهولم، ولكن زوجتي لورين رفضتهما بسبب اهتمامها بي، واعتبرت أن عملي في أي منهما هدر لمواهبي حسب فهمها لها.

ثم جاء الفرج: دُعيت إلى مكتب ستيفن پنروز (ستيف) الخبير العتيق بشؤون الشرق الأوسط الذي حل محل جيمي مورفي في رئاسة مكتب الخدمات الخاصة. قال ستيف ان خدماتي «الجليلة في معالجة موضوع النازيين الهاربين قد لقيت التقدير» (بعد طول انتظار). ولما كنت ضعيف الشخصية ويستهويني التقدير على أعمال لم أقم بها احمرَّ وجهي تواضعاً ـ بدلاً من الاجابة بصدق ـ وقلت له: «طيب يا ريِّس» ووافقت على انني أتمتع بما يحتاج إليه العمل المخابراتي الذي يخولني العمل في أوروبا وأضفت بأنني أشعر أن واجبي الوطني يدعوني إلى القبول بالعمل فيها إذا ما دعيت إلى ذلك.

لم تكن أوروبا واردة. وفيما كان دمي يتجمد في عروقي أخبرني ستيف بأن التقارير الواردة حديثاً من صديقي القديم ڤالترغليم بيَّنت ان بقايا «الحركة النازية» يتجمعون في أميركا الجنوبية وفي الشرق الأوسط وان التحرك النازي باتجاه الشرق الأوسط يثير جملة مشاكل معقّدة تستلزم اهتمام ضابط استخبارات قادر على العمل بتجرد كلّي.

كنت حتى تلك الجلسة مصمّماً على أن الشرق الأوسط هو آخر مكان أسعى للحصول على عمل فيه. ولكن ستيف أراني تقريراً أثار اهتمامي جداً. أعدّ التقرير الرائد نيكولاس اندرونوفيتش مساعد الملحق العسكري المعين في القدس وقوامه مقابلة مع ناصر الدين النشاشيبي وهو فلسطيني صار أحد

أقرب أصدقائي. ورَدت في التقرير النقطة التالية: تواجه الحكومات من وقت إلى آخر معضلات لا حلول لها تماماً مثل محاولة العثور على الجذر التربيعي لناقص واحد (‎√-1‎). وعندما تبين ان المعضلة هي من هذا النوع يجب أن يتبين كذلك بأنها تستعصي على كل الحلول وعلى المخططين عندئذٍ التخلي عن أي محاولة للعثور على حلّ لها وتحويل اهتمامهم إلى كيفية تقليل النتائج الضارة التي تنجم عن استحالة الحلول.

والخلاف حول فلسطين واحد من تلك المعضلات:

(١) ـ الدولة العبرية ستقوم سواء قبل بذلك العرب أو البريطانيون أو أي كان ام لم يقبلوا به.

(٢) ـ الحكومة الأميركية ستقدم لتلك الدولة أي مساعدة تحتاج إليها لجعلها قابلة للحياة اقتصادياً وقادرة على الحفاظ على أمنها عسكرياً.

(٣) ـ لا سبيل إلى وقف تصعيد المعارضة العربية لقيام الدولة العبرية ولدعم الأميركيين لها. لذلك ينبغي على الدوائر الحكومية الأميركية تأجيل أي محاولة لإحلال السلام بين الفريقين والتركيز على تطوير الاحتياطات لمواجهة الأخطار التي ستتعرض لها المصالح الأميركية بكل تأكيد.

أما (نصري) النشاشيبي فله رأي خاص وهو أن العرب الذين سيقاتلوننا، وعلى الأخص الفلسطينيون منهم، لن يكونوا قوماً أشراراً لا بمقاييسهم الأخلاقية ولا بمقاييسنا نحن. وعليه لا حقّ لنا نحن الأميركيين بلومهم على مقاومتهم لنا بأكثر مما نُلام نحن على مقاتلتنا أي فريق يسعى لطردنا من ديارنا. وهكذا فإن مقاتلتنا لهم لن يكون لها أرضية أخلاقية تقف عليها. وعلينا مواجهة الواقع بأن أكثر ما سنفعله للتعايش سيكون حكماً «لا أخلاقياً إن من حيث جوهره أو من حيث تفسيره».

وأما ستيف پنروز وهو سليل أسرة تبشيرية تنتمي إلى الكنيسة المشيخيّة، فقد ترعرع في لبنان، فلم يفرح لهذه النقطة الأخيرة. وكم كان بودي لو أستطيع اتخاذ الموقف عينه. ولكنني اعتبرت الموضوع تحدياً خاصاً جداً للمنظمة التي انتميت إليها حديثاً. ولما كنت من مؤيدي القول بأن «بلدي يأتي أولاً، سواء كان على حق أم على ضلال»، لمعت في ذهني فكرة الاشتراك في بعض العمل المستتر الذي سوّغته لي خدمة المصلحة الوطنية (الأميركية). أما كون العمل سيجري في الخفاء فبدا لي واضحاً تماماً عندما رأيت البيت الأبيض ونظارة الخارجية قد باشرا بوضع مختلف أنواع المخططات للسلم التي لم يرَ فيها الدبلوماسيون المحترفون المعايشون للشكل أي منطق. ولكن المحاولات الساذجة لحمل العرب على التوقف عن مقاومة انشاء دولة عبرية تشكّل الغطاء الأمثل لأي من الوسائل الخفية التي لمعت في مخيلتي. وكانت حجج ستيف مقنعة فبدأت أقتنع. وفي تلك الأثناء جاء حدثان داخل مكتب الخدمات الاستراتيجية نفسه فحدّداً القرار.

الحدث الأول: إن الضابط الذي عُين للعمل في دمشق وهو نقيب في المارينز عرف بشدّة بأسه ونال الوسام تلو الوسام لشجاعته، قد سقط في امتحان (جهاز) كشف الكذب لجهة اللواط. وأصرَّ النقيب على انه جرَّب اللواط مرة واحدة بالافتعال بطيار بريطاني ولم تعجبه التجربة فكانت مرة وحيدة لم تتكرر ومع ذلك حرم من العمل فشغر مركز العمل المقرر في دمشق.

أما الحدث الثاني: فكان مقتل دان دِنّت رئيس مركز الخدمات الاستراتيجية ـ وحدة الخدمات الخاصة في بيروت في حادث سقوط طائرة في جبال اثيوبيا. ولما كانت الطائرة تحمل معدات اتصالات عسكرية حسّاسة تحتم إرسال فريق من ضباط أقوياء البنية ويتمتعون بروح المغامرة لمواجهة أخطار

القيام بحملة في أكثر مناطق العالم وعورة وتعرضاً لغارات العصابات، أو انهم أغبياء إلى حد لا يقدِّرون معه خطورة المهمة. ولما كنت أتمتع بالصفتين معاً تشوقت إلى المشاركة في الحملة وتقدّمت بطلب إلى نك مايكِلْسون، وهو أميركي من أصل لبناني في قسم الشرق الأدنى وافريقيا. تأخرت يوماً واحداً عن الوصول إليه من أجل البحث في الطلب، فاغتنم مناسبة زيارتي ليقترح عليَّ العمل في دمشق. أجبته بأنني سأفكر في الأمر.

وهنا دخل المسرح ارشيبالد روزفلت، حفيد الرئيس الأسبق ثيودور روزفلت، احدى أكبر الشخصيات في نظري. كان آرتشي على وشك الدخول لاجراء مقابلة لوظيفة في بيروت يكون فيها فعلاً منسّق كل أعمال وأنشطة الاستخبارات في البلدان العربية من المغرب إلى العراق. وكان آرتشي قد خرج لتوه من امتحان في وزارة الخارجية حيث سئل: «هل تتكلم لغات أجنبية؟» فأجاب فوراً العربية والفارسية والكردية والروسية والأرمنية والأردوية والتركية وبصفة لهجات تركمانية. وعندما سأل أحد أفراد اللجنة الفاحصة: «ألا تتكلم الفرنسية او الاسبانية أو الالمانية؟» أجاب بجزع: «يا إلهي، هل تحسبون لها حساباً؟»

إن السلك الخارجي الذي لا تعتبر فيه تلك اللغات أمراً مفروغاً منه لم يكن خليقاً بآرتشي، لذلك خرج من وزارة الخارجية وتوجه فوراً إلى مبنى مكتب الخدمات الاستراتيجية حيث طلب عملاً قائلاً لهم: إن أهم مؤهلاته كونه عاد لتوه من منصب مساعد الملحق العسكري في العراق ثم في ايران حيث قضى قرابة الشهر في اذربيجان يراقب السوفيات في محاولاتهم الرامية لإخضاع تلك المنطقة المستعصية، دون أن يذكر ان من مؤهلاته معرفته لغات الشرق الأوسط.

عينه نِك على الفور ثم دعاني وجدد عرضه السابق. لم أقبل به على الفور بل وافقت على دعوة آرتشي للعشاء عندنا للبحث في الاحتمالات. كان العشاء ناجحاً كلياً وشعرنا خلاله وأثناء السهرة وكأننا أنا وآرتشي نعرف بعضنا منذ سنوات عديدة كما أذهل آرتشي لورين بمعرفته للغات وحضارات الشرق الأوسط وأدهشته لورين بدورها بمعرفتها بآثاره ومعالمه. والأهم من ذلك ان آرتشي وافق على آرائي بشأن الاستراتيجية السوفياتية وذهب إلى القول بأنه فيما يعتقد السوفيات بأن ساحة القتال الخفي الفضلى لخدمة أغراضهم ستكون افريقيا، يجب أن ندرك الساحة المثلى لخدمة أغراضنا هي آسيا الوسطى.

صباح اليوم التالي تكلّمت مع نِك مايكِلْسون هاتفياً وقبلت عرضه. وانتحيت زاوية هادئة في غرفة المطالعة في القسم أقضي فيها نهاري في قراءة كل المواد ذات الصلة بمهمتي المقبلة، فاكتشفت ان ثمة مفاجآت مذهلة بانتظاري. ها أنا في غرفة المطالعة في قسم الشرق الأدنى وافريقيا أجمع المعلومات اللازمة لمهمة سأقوم بها في المنطقة التي قضيت سنوات عديدة أحاول تجنبها، وأعد نفسي للقيام بالعمل الذي كان آخر ما يساور رغباتي، وإذ بي خلال الساعة الأولى من القراءة اكتشف بأن دمشق مدينة جميلة مناخها معتدل وساحرة بكل معنى الكلمة. إنها واحة كبيرة تقع بين جبال لبنان وبين حافة الصحراء السورية. «طقسها شبيه جداً بطقس مدينة فينكس بولاية أريزونا» ومنطقة المجاري فيها مبنية على مقربة من مجرى نهر بردى مما يجعل النظافة فيها «قريبة منها في مدينة متوسطة من مدنكم بولاية كولورادو». ومن خلال الصور المقتطعة من مجلة «ناشنال جيوغرافِك» تظهر على انها شبيهة جداً بمدينة متوسطة في ولاية كولورادو. أما صور المنازل التي يقيم فيها الدبلوماسيون فتظهرها شبيهة جداً بمنازل أثرياء جنوب كاليفورنيا.

وهكذا وفي صبيحة يوم بديع طقسه من أيام أيلول (سبتمبر) أخذت لورين إلى آلاباما حيث يقيم قاض اتحادي عتيق صديق أسرتنا منذ سنوات عديدة ليساعدها في الحصول على الجنسية الأميركية في غضون أسابيع قليلة بدلاً من الانتظار سنتين وركبت الطائرة برفقة آرتشي إلى بيروت مروراً بنيو فاوند لاند وبريطانية ومالطا. قضينا كل وقتنا في الطائرة بالكلام وتجاذب الأحاديث وشعرت بأنني بدأت أغوص في كنه شخصية آرتشي الذي بدا وكأنه سرّ غامض لدى اصدقائنا المشتركين في قسم الشرق الأدنى وافريقيا. انه مزيج عجيب من التناقضات: ارستقراطي خال من كل تكلّف، ومثقف لامع لا يطيق المفكرين، وعَمَلاني بارع رأسه بين الغيوم، واستاذ شارد الذهن لا يفوته أي حيلة وطفل بريء يصفح عن كل الآثمين، وشخص أحبَّ جميع الناس وأحبّه الجميع دون استثناء ـ وهذه صفة لازالت ترافقه حتى اليوم، بعد أربعين عاماً على تعارفنا. وبدا لي انه قدّر مواهبي إلى حد جعله يؤكد بأنني سأتعلم العربية خلال بضعة أشهر فيما يقضي الدبلوماسيون العاديون سنوات يتعلمونها في مدرسة تشارلي فرغسون الصغيرة في بيروت، هذا إن اتقنوها. تبين انه كان على حق في ظنه ذلك انني بعد قضاء سنة واحدة في دمشق استطعت بمساعدة الرجل الثاني في وكالة الاستخبارات المركزية هناك تأليف أول معجم بالعربية الدارجة.

قضيت ليلة واحدة برفقة آرتشي في بيروت مع بعض موظفي المفوضية الأميركية فيها (قبل رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي إلى مستوى سفارة) ثم توجهت إلى دمشق في سيارة المفوضية. استقبلني مسؤولو المفوضية الأميركية في دمشق استقبالاً حاراً سبق ان قيل لي بألا أتوقعه، وبمثله قابلني طاقم المفوضية البريطانية. وخلال أيام قليلة تعلمت درسين عن السلكين الدبلوماسيين الأميركي والبريطاني، وهما درسان أقدمهما لمصلحة الشباب والشابات الذين يفكرون باتخاذ السلك الدبلوماسي مهنة لهم.

الدرس الأول: إن حياة الدبلوماسيين وعيالهم والموظفين أكثر هناء بكثير في المناطق المسماة «مراكز الخدمة الصعبة» منها في مراكز مثل لندن أو واشنطن أو باريس حيث العمل الشاق لا ينقطع.

ففي دمشق أقامت أسرتي المؤلفة من أربعة أشخاص في منزل فخم ـ لولا التمديدات المائية ـ مؤلف من سبع غرف يضاهي منازل الأحياء الراقية في لندن أو في واشنطن. وكان عندنا أربعة خدام ـ الطاهي والسائق وخادمة ومربية ترعى الأطفال ـ وخلال صبحيات تناول القهوة تتجاذب زوجتي أطراف الحديث مع الكثيرات من زوجات الدبلوماسيين اللواتي لم يسبق لهن ان شاهدن في حياتهن خداماً في البيوت واللواتي عندما يكنّ داخل بلادهن يقضين وقتهن بغسل الأطباق وتنظيف أرض المنزل وغسل حفاظات الأطفال وغير ذلك. فالخدمة في «المراكز الصعبة» تسكر وتدير الرأس. ينزع الدبلوماسي الشاب إلى نسيان ان الامتيازات والاحترام التي يتمتع بها تعود في معظمها إلى كونه موظفاً في السلك الدبلوماسي الأميركي أو البريطاني أكثر مما تنبع من جاذبية شخصيته. وإن الكثيرين من الأثرياء والوجهاء المحليين وكذلك المراسلين والزوار القادمين من بلدة قد لا يمنحونه دقيقة واحدة من وقتهم لو انه اتخذ لنفسه مهنة هو مؤهل لها.

أما الدرس الثاني: فهو أن نسبة عالية جداً من الذين ينضمون إلى السلك الدبلوماسي آملين بالحصول على وظيفة في لندن أو باريس أو روما أو استوكهولم أو ريو دي جنايرو هم في غالب الأحيان من الأشخاص المتعجرفين تنقصهم الثقة بالنفس يتمكسون بالشكليات البروتوكولية، قلّما تراهم في خط المجابهة. إن أكثر الدبلوماسيين الذين يعملون في كوناكري أو عدن أو دبي أو دمشق مثلاً هم غالباً من الشباب الذين يبشرون بالنجاح اختيارهم لمناصبهم مخطّطو التوظيف اختياراً دقيقاً او أنهم هم

الذين طلبوا تعيينهم في مراكز كهذه لاهتمامهم الشخصي في قضايا وتحديات رقعة اللعبة الدولية. على كل حال كان جميع زملائي في المفوضية ممتازين إن على الصعيد المهني أو على الصعيد الانساني، وعليه فقولي بأنني أحببتهم جميعاً لا يفي حقهم. لم أتمالك التخلّي عما تدربت عليه في وكالة الاستخبارات المركزية فجعلت لكل منهم ملفاً ولكن لست أخشى مغالطة أحد من رؤسائي في واشنطن إن قلت انه لم يكن في أي من الملفات ما يعرِّض أياً منهم للإرباك إذا ما دعت الحاجة «لتأمين التعاون» حسب قول نِك. وهناك أيضاً قضية ثانوية كدت أنساها. فقد استطاع مخبر تعاملت معه وهو مع الشعبة الثانية في دمشق التقاط صورة للمسؤول عن الشيفرة في مفوضيتنا يرقص والخد على الخد مع مسؤول الشيفرة في المفوضية البريطانية في أحد مرابع الليل. ولأسباب تتجاوز مجال هذا الكتاب لم أجعل منها قضية.

ينبغي أن أخبركم عن صديق خاص من بين موظفي المفوضية المحليين. إنه يوسف دبوس أو «القذر الدوار» حسب تسمية القائم بأعمال المفوضية. إنه قذر كيفما نظر المرء إليه. ولكن على الرغم من ادراكه لنقائصه، كان ينهش صدره الطموح لتحصيل المال. فأخذ يخطط لمستقبله مقارناً بين حسناته وسيئاته.

قامته أشبه بثمرة الاجاص ووجهه يتلاءم معها. وسنه الأمامي الملّبس ذهباً يطل عليك من ابتسامة فيقلب القصد منها رأساً على عقب. مكره شبيه بمكر البهائم الغريزي لا يقاس بالفطنة اللازمة للتعامل التجاري في سوريا. انتهى يوسف إلى الاستنتاج بأنه لا يتمتع بما في طوقه تقديمه للآمنين. ولما أعياه الحساب قرر اللجوء إلى الشرف! لم يسبقه أحد إلى ذلك في مجال الأعمال حيث الغش والتلاعب معيار النجاح. وعليه اقترض مئة دولار من احد المصارف وسددها في الوقت المحدد ثم اقترض ٥٠٠ دولار وبعدها ١٠٠٠ دولار وسدّدها أيضاً في موعد استحقاقها دون أن يفوته اعلام مدير المصرف بما تكبده من مشقة من أجل التقيد بالمواعيد. وراح بعد ذلك يقطع وعوداً مستغربة لاصدقائه، والأغرب منها وفاؤه بها!

تصرفاته تلك باتت حديث دمشق وصار أصدقاؤه فيها يسمونه «يوسف الأمين»، والأميركيون والبريطانيون يدعونه «يوسف الشريف». وسرعان ما أخذت الشركات الأوروبية تتصل به في سعيها لتأمين مندوبين لمبيعاتها في سوريا، وهي واثقة من ان ما لا يمكنه تحقيقه لها في مجال المبيعات يعوضه بتخفيض بدلات عمولة الوسطاء. (قال أحد الساخرين بيننا: «يظنون كلهم ان باستطاعتهم خداعه!») وراح رجال الأعمال يطلبون إليه قبول عضوية مجالس ادارة شركات جديدة يؤسسونها لعلمهم بأن ظهور اسمه على مطبوعاتها سيترك انطباعاً طيباً في نفوس المساهمين المرتَقبين. كما حاولت المصارف اغراؤه بعرض القروض عليه بفوائد مخفضة. ودعته ادارة مدرسة الصبيان الأميركية التابعة للإرسالية المشيخيّة للتحدث إلى طلابها في مواضيع مثل «النزاهة أفضل السبل» و«الله يتوقع منكم الحقيقة».

هكذا ودون مجهود كبير صعد يوسف دوسات سلم النجاح في عالم الأعمال (قال لي مرة: «لست أبلهاً بل مجرد غبي») وانتهى به المقام في مكان ما في جنوب فرنسا حيث يعيش في بحبوحة واسعة من مدخول العمل الوحيد غير النزيه الذي ارتكبه في حياته، حسبما روى لي مرة عندما التقينا على متن يخت عدنان الخاشقجي نحتسي الشمبانيا. فقد سحب كل رصيده من بنك انترا في بيروت واستدان ما أمكنه من المصرف المذكور ثم راح يروج الاشاعات التي أدت إلى افلاس المصرف (علمت لاحقاً من پول پاركر، نائب رئيس بنك أوف اميركا، الذي دعاه انترا لمعالجة أوضاعه أن يوسف تقاضى مبلغاً ضخماً بدل اتعاب استشارية فقط للافصاح عن خفايا عَملته).

الخطوة الأولى التي خطاها يوسف صعوداً كانت حصوله على وظيفة في المفوضية الأميركية لدى مكتب الضابط الاداري حيث راح يعرض نزاهته المعروفة نيابة عنا. فهو الذي ساعدنا في العثور على الأرض التي تقوم عليها السفارة الأميركية حالياً في دمشق وأمن شراءها كما ساعد المفوضية في جميع المعاملات التجارية والقانونية مع التجار السوريين والحكومة السورية. فكان وجوده فقط مبعثاً للطمأنينة لدى الفريقين ولم يخيّب آمالنا مرة واحدة، كما كان، حسبما يحلو له القول: «نافذة التفاهم» التي أمكن عبرها لموظفين اميركيين شباب تنقصهم خبرة التفاهم مع أناس ينتمون إلى احدى أعرق حضارات العالم.

وجد زملائي في مفوضيتنا في دمشق في العام ١٩٤٧ ان تلك النافذة مغشاة بعض الشيء. فالحضارة السورية العريقة موضوع شيّق في كتب التاريخ في الجامعة. ولكنهم جاءوا إلى الشرق الأوسط مقتنعين بأن جميع الناس هم، في أعماق نفوسهم، شبيهون بالأميركيين، يؤمنون في قرارة ضمائرهم بالأخلاقية البروتستنتية وان كانوا لا يعرفون ما هي. ولكن وكالة الاستخبارات المركزية علّمتني أشياء أخرى، وان كان ساداتنا القدّيسون في واشنطن قد رأوا انه قبل ان تتمكن الحكومة الأميركية من رسم سياسة بناءة تتعامل بها مع الحكومة السورية ينبغي تعليم الشعب السوري أصول الديموقراطية حسب الأسلوب الأميركي. وهنا تبادرت إلى ذهني السوانح المتاحة في كوني المعلم خصوصاً إذا كان يوسف بجانبي يقدم لي المساعدة في المهمة. ولكن رأيت أن عليَّ ان أتعرف إلى نوع الصورة التي رسمتها التخيلات والأوهام في واشنطن عن المزاج السوري.

تبين لي من مراجعتي ملفات المفوضية ان المراسلات الخاصة بالعلاقة السورية الأميركية تحصل مع وحدة في وزارة الخارجية مهمتها التأكد من أن شعوب أقاصي الكرة تتفهم وتدرك ما للحريات الأميركية من أفضليات على «الاستعباد الشيوعي». وبدا ان وزير الخارجية وكبار مساعديه اعتبروا ان الولايات المتحدة على خلاف يكاد يكون كلياً مع الدول العربية وان المسؤولية في ذلك تقع كلها تقريباً على القيادات المضلِّلة فيها ـ ليس عندنا بالطبع. وتمكنوا أيضاً بنظريتهم القائلة بأن العرب سيكونون حلفاءنا الطبيعيين لو قُيِّضت لهم قيادة أكثر فعالية وتنوّراً. ذلك انه ليس ما يخشونه منا بل لهم كل ما يخشونه من السوفيات، وبالتالي فإنه لمن المغاير لطبيعة الأمور ألاّ يرحّبوا بعروضنا لحمايتهم. شركاتنا النفطية ستجعلهم أثرياء وسيكونون أكبر المستفيدين من «حل ودي للقضية الفلسطينية» الذي لا يقوى عليه غيرنا أحد. وعليه اعتبر المخططون عندنا أن رفض القادة العرب لرؤية الأمور من خلال ذلك المنظار سبباً كافياً بحد ذاته يسوِّغ لنا الاطاحة بهم ـ أو بالأحرى تمكين شعوبهم من الاطاحة بهم. لقد تملكت منا نظرية بأنه إذا وُجدت في أي مكان من الدنيا قيادات تستفيد من تدخلنا في شؤونها الداخلية فتلك القيادات هي القيادات العربية.

شرحت ذلك كله ليوسف الذي أبدى اعجابه، وذهب في حلم بهيج عندما اخبرته بأن وزارة الخارجية، عبر وكالة المعلومات الأميركية قد أمرتنا بوضع «مشروع استرشادي» نخلق عبره وضعاً مناسباً في واحدة من الدول العربية بحيث إذا ما كتب له النجاح نحاول تطبيقه في غيرها. كان العراق أول الاغراءات، لأنه من جميع نواحيه دولة بوليسية ذا حكومة مكروهة. ولكنه من ناحية أخرى احدى الدول التي يستحيل على جهاز جيّد التدريب على الحركات السياسية، ناهيك عن جهاز طري العود مثلنا، ان يتزحزح دون علم وموافقة البريطانيين. أما السعودية فليست مؤهلة للديمقراطية بعد وأما لبنان والاردن ومصر فقد استبعدت لأسباب أخرى.

بعد ذلك الشرح كله قلت له: «إذاً ستكون سوريا مشروعنا». هزَّ يوسف برأسه بوقار دون أن يتمكن من اخفاء فرحه. وأضفت قائلاً: «إن سوريا في وضع اقتصادي جيد وشعبها لم تروضه سنوات الاحتلالين العثماني والفرنسي وظروف اجراء انتخابات ديمقراطية ظروف مثالية. ومن المؤكد ان الزعماء الأذكياء والتعاونيين سيفوزون فيها». إذاً ستكون «انتخابات حرة» - يرافقها بالطبع ترتيبات من قبل المفوضية تضمن بأنها لن تكون حرة فقط بل تضمن بأن تأتي نتائجها كما نريدها أن تكون. سأوفر على القراء عناء التفاصيل فأقول بأن الانتخابات من حيث كونها وسيلة لادخال وكالة الاستخبارات المركزية إلى سوريا كانت ممتازة. ولكن نتائجها لم تكن كما اشتهتها واشنطن. ففي حمص كان الاقتراع مثالاً للهدوء إنما فقط لأن كبار الملاكين أوضحوا للفلاحين بأن عليهم عدم الاكتراث «بالكلام الفارغ عن الشيوعية والامبريالية» الوارد في الملصقات في ساحات المدينة والاقتراع حسب ارشاداتهم. وفي مختلف المناطق الأخرى كانت الانتخابات «الحرة» مناسبة للسوريين الذين تربوا على اعتبار الحكومة عقبة فرضها الأجانب عليهم للحيلولة دون ممارستهم نزعتهم للفوضى والرشوة. وشهدت الانتخابات أيضاً معارك بالأسلحة النارية وبقبضات الأيدي قُتل وجُرح خلالها العشرات. ورأى المقترع البسيط العادي في الانتخابات فرصة للحصول على مقابل نقدي مقابل إدلائه بصوته أو لدعم أحد أقربائه للوصول إلى وظيفة تدرّ عليه وعلى عائلته بعض المدخول.

على كل حال شهدت نشاطات المفوضية في سوريا في أواخر الخمسينات ولادة نوع التقارير الذي يرد من وكالة الاستخبارات المركزية ومهاراتها في «التدخل في الشؤون الداخلية لدول ذات سيادة». ولكن تلك النشاطات لم تصل مطلقاً إلى مهارة تلك الدول ذات السيادة التي تتدخل بشؤوننا نحن الداخلية. غير ان تقارير وكالة الاستخبارات المركزية ما زالت متوافرة لأي رئيس قادر على التجرد عن «السياسة الخارجية في الداخل» وإيجاد الوقت الكافي له لقراءتها.

أما في يختص بمستقبل وكالة الاستخبارات المركزية في الحرب الباردة وما يُسمى «المجابهة من النوع الثالث» فالرجاء متابعة القراءة.

الفصل الحادي عشر

تجربة في سوريا

١٩٤٧ - ١٩٥٠

خلال الأيام الثلاثة التي استغرقتها رحلتنا بالطائرة من واشنطن إلى بيروت رسم لي آرتشي صورة كاملة عن ستيف ميد الذي كان له بين الفينة والفينة وعلى مدى أربعين عاماً أثر هام في حياتنا. كان آرتشي قد التقى ستيف عندما كان الأول مساعداً للملحق العسكري في طهران والثاني يرتدي ملابس قَبَلي كردي ويقوم بمهمة فرار ومراوغة لمكتب الخدمات الاستراتيجية. وبعد ذلك وجد آرتشي مع ستيف وبعض رجال قبيلة قشقاي يطاردون عبر صحراء دشتي لوت فصيلاً من مغامري فرقة أس. أس. الالمان وبحوزتهم رهائن من أفراد إرسالية أميركية يحاولون الهرب بهم إلى بوشيرا. وكان ستيف قد عُين مساعداً للملحق العسكري في بيروت لأن الملحق العسكري فيها ضابط تقدمت به سنه وبات على عتبة الإحالة على التقاعد، وهو بالتالي بحاجة إلى مساعد قدير يعاونه على معالجة حالات صعبة يُحتمل بروزها من وقت إلى آخر في مركز كبيروت. ومن مراجعة ملف ستيف رقم ٢٠١ تبين انه المساعد القدير الأمثل للرجل المهذب والأخرق من فرجينيا الذي اختاره الجنرال لوتن لذلك المنصب. قال آرتشي ان نِك قد زوده «بتعليمات صارمة» لإبعادي عن ستيف استناداً إلى رأي يقول إننا باجتماعنا نشكل وضعاً حيث يؤلف واحد زائد واحد أكثر من اثنين. وأضاف آرتشي بأن «نِك يحمل ذلك على محمل الجد. فعندما قال بأنه يريد منك التمهل والتروي خلال الأشهر الستة الأولى كان يعني ذلك. إنك تعلم، دون ريب، انه ليس هناك ما يدعوك لإقامة الدنيا وإقعادها فوراً».

كانت لآرتشي دواعيه الخاصة للاستئثار بستيف لأنه ينوي فتح أقنية على الاتحاد السوفياتي. من هنا اعتبر بأن ستيف له قيمته في العمل مع المهاجرين لأنه هو الآخر يتكلم معظم لغاتهم. أما أنا فاعتبرت، دون الافصاح عن رأيي آنذاك، بأن أتجاهل نِك وآرتشي معاً. فإذا كان ستيف حقاً كما وصفه لي آرتشي، فقد احتاج إليه في بعض الأعمال التي قررت القيام بها بنفسي غير اني وجدت عند وصولي دمشق بأن فيها الكثير من الأشخاص الجديرين باهتمامي. فهناك عميل الاستخبارات العسكرية البريطاني وهو محترف ذو خبرة واسعة استقبلني بمختلف أنواع المشاريع (منها زرع أجهزة تنصت داخل مبنى السفارة السوفياتية الجديد) الجامعة بين المال الأميركي والدهاء البريطاني. وهناك أيضاً السفير السوفياتي دانيال سولود وله ماضٍ في الاستخبارات السوفياتية (ك. ج. ب) ودبلوماسي من الطراز الأول يكاد يضاهي مهارة سفيرنا في بغداد جورج رادزوَرث وسفيرنا في القاهرة جفرسُن كافري. جعل سولود اقامته في بيروت وكان يتردد على دمشق بانتظام. أما ضابط الـ «ك. ج. ب» النظامي فكان رجلاً من جمهورية جورجيا وسيم الطلعة اسمه ايغور فيدورنكو، تفضل بزيارتي بعد يوم او اثنين من صولي ليخبرني، بابتسامة سلافية عريضة بأننا سنتسلّى كثيراً شرط ألاّ أبالغ في جديّة عملي ولا أهدر وقتي وتعبي في محاولات سخيفة كزرع أجهزة تنصت داخل سفارته. (سبق لنِك ان نبهني إلى ذلك قائلاً: «سيدرك قبل موظّفي مفوضيتك انك واحد من جماعتنا).

وفيما أخذت اختلط علناً بالدبلوماسيين النظاميين وبمجتمع دمشق الراقي من جهة، رحت من جهة ثانية أخالط الجواسيس والمحاريك السياسيين في محاولة لانجاز ما من أجله جئت إلى دمشق. حاولت جهدي في بادىء الأمر تجنب ستيف ميد كلما جاء لزيارة أصدقائه في الجيش السوري. إلاَّ أنه في

مجتمع دبلوماسي ومخابراتي ضيق كمجتمع بيروت ـ دمشق لا بد لأفراده أن يلتقوا من حين إلى آخر فصرت أشاهد ستيف في مناسبات مختلفة تثير فيها أي محاولة مقصودة من قبل أي منا لتجنب الآخر فضول المراقبين المحترفين. وبعد شهر او اثنين من لعبة القط والفأر هذه قال لي ستيف في احدى حفلات المفوضية في بيروت: «دعنا نوقف هذه التمثيلية، فلدينا مواضيع عديدة نتحدث فيها. وما همنا مما يفكر به البيروقراطيون؟»

أخذ مناخ اللعبة يتغير بسرعة في الوقت نفسه. فالاستقلال المفاجىء الذي أحرزته دول رزحت تحت نير الاستعمار قروناً طويلة أخذ يخلق مصاعب لم يسبق ان شملتها خبرة جهازنا الدبلوماسي. وتعقدت المشاكل التي واجهتنا في سوريا ولبنان بسبب اعتقاد حكوماتها الصادق ـ أكان له ما يسوغه أم لا ـ بأن حكومتنا تدعم الصهيونيين ثم اسرائيل بعد قيامها. وفيما كان موظفونا الدبلوماسيون الممتازون يتعرضون يومياً للحجج والمواقف العاطفية العربية كذلك كان زملاؤهم في واشنطن يتعرضون لضغوط السياسات الأميركية الداخلية إلى درجة لم يكن ليتسنى لهم الوقت الكافي لاستيعاب ما نواجه من صعوبات في مراكز عملنا. فتوالت اعتراضاتنا فقط ليقول لنا أصدقاؤنا العاملون في واشنطن في الدوائر المختصة بشؤون المناطق التي نعمل فيها: «أنتم تعملون هناك حسب مقتضيات مواقعكم. أما نحن هنا فعلينا ان نعمل حسب تعليمات واشنطن. وفي النهاية لواشنطن الشأن الأخير». بالطبع لم يأتنا هذا الرد عبر المراسلات الرسمية بل بواسطة الرسائل الشخصية بالبريد العادي.

كان زملاؤنا على حق في قولهم، وفي النهاية أصبحت الدبلوماسية المحلية عبارة عن تسليم رسائل خطية أو شفهية لا يتجاوز محتواها أكثر بكثير من عبارات مثل: «حكومتنا مهتمة بالأمر» أو «يقلقها ذلك»، كتأكيدات نُسبت إلى سفيرنا في القاهرة، جيفرسُن كافري: «لست هنا لأناقش حسنات وسيئات السياسة الأميركية بل للتأكد من أنكم تدركون ما هي تلك السياسة». أما من حيث اللعبة الدبلوماسية كما أفهمها أنا فكانت أشغالنا كثيرة. عاد الملحق الثقافي لممارسة ادارته لمكتبة مكتب المعلومات الأميركي، وتوقف البحث في انتخابات «حرة ونزيهة» التي، لو أجريت لأدّت إلى إقفال المفوضية الأميركية وإلى اعتبارنا بمثابة أشخاص غير مرغوب فيهم في دمشق.

وصف القائم بأعمال المفوضية طريقتي الشخصية بالعمل بعبارة «الدبلوماسية الخفية» التي مارستها على نطاق عملي وانحصرت بتقديم مساعدات في الحملات الانتخابية للمرشحين الخليقين بمساعدتنا وتشبه إلى حد ما المساعدات التي درج على تقديمها الفرنسيون والبريطانيون والسوفيات في سوريا ولبنان والعراق ومصر. والتزمنا موقف الانتظار والترقب لمعرفة ما الذي نفعله بالضبط. فكانت ممارستنا شبيهة بموقف لاعب الپوكر الماهر الذي يُدعى للعب مع لاعبين لا يعرفهم، فيشارك في فتّة أو اثنتين بمراهنات صغيرة. ولكن ينتهي الأمر بأن ينفذ صبر أكثرنا خبرة فيندفع مسترسلاً في اللعبة. وهكذا انطلقنا في تنفيذ عملية في سوريا وصفتها لاحقاً في كتابي «لعبة الأمم» على انها «المثل الكلاسيكي عن كيف يجب التمسّك بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة ذات سيادة» علماً بأنني اعترفت بأنها «وفرت لنا استعراضاً لأخطاء بديهيّة يجب تلافي الوقوع فيها خلال عمليات مماثلة نقوم بها في المستقبل».

لا بد لي هنا أن أضيف في دفاعي عن «دبلوماسيتي الخفية» ان كبار المسؤولين في وزارة خارجيتنا اعتقدوا في حينه بأن الفراغ الذي خلفه البريطانيون، اضافة إلى موقفنا المؤيد للصهيونية الذي لم يكن منه مهرب، جعلا نجاح مهمتنا مستحيلاً، وبالتالي فإن كل ما نستطيع أن نأمل به «تخفيض وطأة

الفشل». لذلك صارت التعليمات الصادرة من واشنطن إلى مختلف البعثات الدبلوماسية واضحة وضوح نبؤات دلفي، وراح رؤساء تلك البعثات يفسرونها حسب اختيارهم فيتحملون المسؤولية في حال الخطأ ويقطف المحاسيب السياسيون المعنيون في الوزارة في واشنطن ثمار أي نجاح جاء صدفة. في مثل تلك الحال كان لاستقامة ولسعة حيلة المسؤولين في البعثات ولشجاعتهم أهمية قصوى.

تمتع بوب ممينغر، القائم بالأعمال في مفوضيتنا في دمشق بقسط وافر من الاستقامة وسعة الحيلة والشجاعة اللازمة لمهمة عادية. ولكن عندما صارت دولة اسرائيل الجديدة حقيقة واقعة اعتبرت وزارة الخارجية في واشنطن اننا بحاجة إلى شخص يتمتع بمقدار أكبر من تلك المزايا، وسرعان ما بعثوا به إلينا. إنه جايمس هيو كيلي، دبلوماسي محترف نُقل من أثينا حيث شغل منصب نائب رئيس البعثة، هادىء الأعصاب في الأزمات، قادر على تحمل المسؤوليات وتوزيعها وعلى اتخاذ القرارات دون العودة إلى واشنطن بشأن أصغر التفاصيل.

في اليوم الأول لجلوسه وراء مكتبه برهن أن الوزارة اختارت الشخص المناسب. ذلك ان مظاهرات معادية لأميركا عمّت دمشق بأكملها ومشى فيها ألوف الطلاب نحو المفوضية مسلّحين بما يشبه المعاول. وقبل أن يتبين لكيلي انها نسخ كرتونية عن أسلحة قديمة خرج إلى قمة السلم المؤدي إلى مدخل المفوضية وأعلن انه إذا كانوا يبغون شيئاً منا فعليهم ان يأتوا في مجموعات لا يزيد عدد أفراد الواحدة منها عن ثلاثة أشخاص في أوقات الدوام الرسمي، أي بين الساعة الثامنة والنصف صباحاً والواحدة والنصف ظهراً وبين الساعة الثالثة عصراً والساعة السادسة مساء أيام الاسبوع العادية، وقبل الظهر في أيام السبت. قال ذلك بحزم أرفقه بابتسامة. وبدا ان شيئاً ما في اسلوبه ومظهره أقنعهم بأن من الأنسب ان يعملوا باقتراحه.

أدرك وزيرنا المفوض الجديد بسرعة ان الوضع في سوريا يحتاج إلى ما هو أكثر من الدبلوماسية التقليدية، وساهمت وكالة الاستخبارات المركزية المؤلفة حديثاً باقناعه، عبر وزارة الخارجية، بأنني الشخص المناسب للعمل المطلوب ـ أو بالأحرى بأنني الشخص الذي سيساعده هو على القيام به. ومن خلال مقابلتنا الأولى أقنعه تواضعي الطبيعي واستحيائي من الاطراء الذي شقعه فوق رأسي رؤسائي في وكالة الاستخبارات المركزية، بأنني صاحب الدبلوماسية الخفية الذي يحتاج إليه. واقتنع أيضاً باقتراحي عن ضرورة نقل ستيف ميد من بيروت ليكون عنصراً في «فريق عملنا». واكتشف، دون معاونة أحد، إنه في حال اجتمعنا أنا وستيف ميد سيلزمنا أحد من أجل التوازن فاختار الضابط السياسي في المفوضية دين هينتون الذي برهن رغم مظهره الفتي وتصرفاته المتناغمة مع مظهره على انه من المحافظين الناضجين.

تجدر الاشارة هنا إلى أنني كنت قد جمعت حولي بعض العملاء المحليين مستعملاً لذلك الأساليب التي استنبطتها أثناء تدربي في وحدة الخدمات الخاصة. فقد تمكنت من الحصول على قائمة بأسماء موظفي وزارة الدفاع بأن جعلت سائق سيارتي يسرق دليل الهاتف في الوزارة وتصادقت مع أحد المرابين ليزوّدني بأسماء موظفين في وزارة الدفاع يحتاجون إلى شيء مما استطيع توفيره لهم ـ كالدراهم عادة وكذلك في بعض الحالات سمة لزيارة الولايات المتحدة أو منحة دراسية لشاب من الأقرباء في الجامعات الأميركية أو وكالة لسلعة اميركية ما. وخلال فترة وجيزة تمكن المرابي من التعرف إلى سكرتيرين يعمل كل منهما في مكتب مسؤول كبير في الوزارة فاستخدمهمـا لسرقة الوثائق الهامة كلّ من خزنة رئيسه. وخلال فترة وجيزة أخرى تمكنت من جمع ما يكفي من المعلومات من السكرتيرين لتجنيد المسؤولين الكبيرين بنفسيهما، ولكننا اضطررنا للتخلي عن أحدهما لأنه رفع أسعاره إلى حد فاحش.

وقد استطعت ذلك بأن رتبت أموره بحيث جعلته يبدو عميلاً عند صديقي إيغور في الـ ك. ج. ب. أما الآخر فقد استمر باسداء خدمات هامة لنا وما زال حتى الآن من أقرب أصدقائي. بعد مرور سنوات عديدة على لقائنا الأول في دمشق سألته لماذا وافق شخص نزيه مثله على تقديم معلومات سرية إلى حكومة معروفة بانها تساعد عدوه الاسرائيلي اللدود، فأجابني: **أولاً**: بأن المعلومات لم تكن بتلك السرية، **وثانياً**: «إننا نحن السوريين تعلمنا من خبرة طويلة مع الأتراك والفرنسيين والبريطانيين فصل القضايا العملية وابعادها عن القضايا السياسية».

رأى كيلي الذي تأثر ليس فقط بتقرير كتبته بل وكذلك بتقرير مماثل وضعه دين هينتون، ان ثمة سيناريوين لسوريا وكلاهما غير مستحب. أما الأول فقيام السياسيين الاستغلاليين بمساعدة سوفياتية بثورة دموية ضد الرئيس شكري القوتلي. وأما الثاني فإمكانية استيلاء الجيش السوري على الحكم بدعم من «قبلنا (بشكل خفي بالطبع) والحفاظ على الأمن والنظام ريثما يمكن تحقيق ثورة سلمية. استكره كيلي السيناريو الثاني بمقدار ما استكره الأول تقريباً، ولكنه رأى فيه انه يخفف من احتمالات سفك الدماء ويفسح المجال أمام عناصر جديدة من المجتمع تشعر بالمسؤولية وتقف بوجه العناصر التي لا مصدر للقوة لديها إلاّ طاقتها على استعمال العنف.

وهكذا تمخضت دراسات كيلي المتأنّية عن انقلاب حسني الزعيم في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩. سُمح بموجب تعليمات جديدة لرؤساء دوائر وكالة الاستخبارات المركزية في الخارج بحرية العمل تحت رقابة بعيدة من قبل القيادة وشرط ان يُبقوا مختلف رؤسائهم الدبلوماسيين بمعزل عما يفعلون بحيث يستطيع هؤلاء اللجوء إلى حيلة «النكران القابل للتصديق». أعطيت الضوء الأخضر ولكن كيلي لم يقبل بفكرة النكران تلك. إنه يؤمن بمبدأ تفويض الصلاحية ـ بالأحرى بمبدأ ان المسؤول يستطيع تفويض السلطة إلى غيره دون تحميله المسؤولية ـ أي انه وان فوضني بالسلطة اللازمة لا يتهرب من المسؤولية التي قد تترتب على ممارستي لها. وفي الحالات التي تصرفت فيها دون علمه وقف بيني وبين القيادة متحملاً مسؤولية فشلي ومشيداً بي عند نجاحي. هذا هو جيم كيلي. مررت، قبل ولوجي العمل الحر، بأكثر من عشرة رؤساء وباستطاعتي القول دون أي اعتراض من قبل أي من زملائي السابقين أن كيلي أوحى لدى مرؤوسيه ولاءً أكثر من أي رئيس آخر اشتغلت معه أو عرفته أو سمعت به.

اعتمدت كثيراً على معاونة ستيف ميد الذي انتقل إلى دمشق بعد يوم او اثنين من طلب كيلي بنقله إليها. بدأ ستيف بالعمل فور وصوله مدركاً ان طريقتي تختلف كلياً عن طريقة كيلي وهي كما قلت انه يتحمل مسؤولية فشلي ويعطيني حقّي عند نجاحي.

قلت لستيف: «عليك ان تنظر إلى الوضع من منظار انه يمكن الاستغناء عنك ولا يمكن الاستغناء عني. كما اننا كلانا نعمل في ظل نظامين مختلفين من حيث الثواب والعقاب».

أجابني بنبرة مَن أدرك المغزى وبنظرة فيها اعجاب: «إنك على الأقل صادق وأنا أُقدر الصدق في الرجال».

كانت مهمة ستيف بسيطة فكل ما عليه فعله استعمال سحر شخصيته لاستمالة قائد اللواء الثالث العقيد حسني الزعيم وهو كردي ضخم البنية عرف بإرادته الحديدية وبذهن لا يقل عنها صلابة. وكان على ستيف أيضاً أن يتلمّس طريقه بحذر لوجود احتمال انقلاب عمله عليه فيُطرد من البلاد لاعتباره عنصراً مثيراً للشغب. إضافة إلى ذلك لم تكن مهمته الايحاء لحسني الزعيم بالقيام بنشاطاته بل معرفة نواياه وطموحاته.

في تلك الأثناء وعبر العميلين الرفيعي المستوى في وزارة الدفاع جعلت جميع الأوامر والمراسلات وتقارير المخابرات تصور حسني الزعيم على انه عسكري موالٍ مئة بالمئة لمؤيديه السياسيين من جهة وتنقصه من جهة أخرى سعة المخيلة اللازمة للكينونة خلافاً لذلك. أما المعلومات المستعملة في تلك العملية فتركت أمر اختيارها للعميلين المذكورين لأن ذلك يحتاج إلى تفهم وشفافية لا يدركهما من نما وترعرع في حضارة أجنبية. جاء عملهما ممتازاً ـ على كل حال وفى بالغرض المطلوب. فقد عُين حسني الزعيم مديراً عاماً للشرطة في دمشق ثم أسند إليه منصب القائد الأعلى للجيش.

وهكذا، فإلى انقلاب حسني الزعيم. ولما كنا نزود قيادتنا بالمعلوات عن تطور الأوضاع أولاً بأول طيلة فترة التخطيط تصور المسؤولون فيها بأن ستيف وأنا نضع جميع الخطط المتعلقة بالعملية ـ وهو تصور لم توجد أي ضرورة لتصحيحه طالما انه يبعث البهجة في قلوب المعجبين بنا في واشنطن وطالما لا اعتراض لنا على زيادة بعض النقاط الحسنة في ملفّ كل منا. أما الآن وبعد مرور أربعين سنة أستطيع الاعتراف بأن الاسهام المهم الوحيد الذي قدمناه في العملية كلها تأكيدنا لحسني [الزعيم] وكان قد أصبح القائد الأعلى بأن حكومتنا ستعترف به عملياً فور ثبات السلطة له على أن يأتي الاعتراف الرسمي بعد أيام قليلة. لقد قام ستيف بمرافقة حسني في عدة جولات حول المدينة بسيارة حسني الفخمة ودلّه على المباني والمؤسسات الواجب السيطرة عليها (محطة الاذاعة ومولدات الطاقة الكهربائية الرئيسية ومركز الهاتف الرئيسي ومختلف السياسيين الذين قد يشكلون مقاومة ما) وتظاهر حسني بأدب بأن تلك الآراء لم تخطر بباله. أما أنا فزودته بلائحة بما يجب فعله وما يجب تحاشيه من باب الاحتراز. وبفضل عميلنا «أ» داخل وزارة الدفاع، استطعت تأمين بعض المعلومات التي لم يكن باستطاعته الحصول عليها من الوزارة دون إثارة الشكوك. غير أن كل ذلك لم يكن بالغ الضرورة لانجاح مخططه. وباستثناء عنصر واحد هو أديب الشيشكلي (سنعود إليه لاحقاً) كان حسني الزعيم بطل التمثيلية الأوحد.

قدَّم حسني الزعيم اسهامين لهما نكهة أميركية في التمهيد للعملية: **الأول**، حملة تضليل إعلامي بدائية غايتها ابراز سوء حالة المحافظة على أمن وسلامة الدبلوماسيين الأجانب في البلاد؛ **والثاني**، الوسائل التي استعملها للحيلولة دون تسرب أي معلومات عن مخططه قبل بلوغه مرحلة من التقدم يعجز أي كان عن احباطه.

هل قلت إن «للمخطط نكهة اميركية؟» أجل كانت له تلك النكهة بكل تأكيد لأنه حيك حول مهاجمتي شخصياً. ذلك انه سبق وتناهى إلينا عن طريق موظف محلّي في المفوضية أنيط به استراق المعلومات لحساب جهاز للتجسس خاص بالرئيس شكري القوتلي، ان رئيس الجهاز هذا وهو رجل عذب الكلام ورقيق الشعور معروف بشذوذه اسمه فخري البارودي، يظن بأنني أقود عمليّات وكالة الاستخبارات المركزية في المنطقة ويحاول الحصول على البراهين كي يرفعها للرئيس القوتلي. ولاعتقادنا بأن فضوله قد يدفع به للقيام بعمل تجاهي أو تجاه المفوضية من شأنه ان يكون مربكاً أو مميتاً قررنا أنا وكيلي وستيف ان نفضح أمره. توجّه ستيف إلى حسني وأخبره بقرارنا فكان سروره به عظيماً وقال: «على العميل داخل المفوضية أن ينبىء فخري البارودي بأن من عادة كوبلاند الاحتفاظ في منزله لا في مكتبه في المفوضية بكل الوثائق التي قد تثبت عليه اي اتهام، لعل في ذلك ما يشوق فخري للإغارة على المنزل. وسنضع بالقرب من المنزل بعض رجال الشرطة العسكرية لتوقيف المهاجمين. وبذلك نستعمل الحادث دليلاً إضافياً على ان الحال الأمنية لا تضمن سلامة الدبلوماسيين الأجانب. وأما الباقي فاتركوا أمره لي».

أخذت برفقة ستيف أخطط لمعركة بالسلاح الناري الحي، تماماً كما في الأفلام السينمائية! وهنا جاءنا كيلي بدعم جديد إذ تمكن من نقل الملحق الجوي الاقليمي من بيروت إلى دمشق. وبذلك توفر لنا ليس فقط طائرة النقل سي - ٤٧ المعدلة لتكون من الفخامة بما يليق بالملحق الاقليمي، بل أيضاً المقدم في سلاح الجو جيم جيانتي لقيادتها ونقيب شاب اسمه دِك رول مساعداً له. وقضينا الاسبوعين التاليين بما يشبه المرح الدائم إذ خصصنا الدوام الصباحي لرسم خططنا المفصلة، ودوام بعد الظهر في التمارين على استعمال الاسلحة النارية في البادية القريبة من دمشق.

لا بد لي من الاعتراف هنا بأننا شعرنا بغبطة صبيانية من إثارتنا للفضول داخل المفوضية. فلأسباب خارجة عن نطاق خبرتي كان جيم جيانتي يحتفظ بشبه جبخانة في مكتبه. وكنا أنا وستيف وجيم ودِك نركب على مرأى موظفي المفوضية وبألبستنا العسكرية سيارات الستايشن المحملة بالمسدسات والبنادق الحربية وبنادق الصيد والرشيشات وبمدفع هاون او اثنين ونتوجه إلى ما هو بداهة أكثر من رحلة صيد عادية.

استمر أحمد، عميل المخابرات السورية في المفوضية، يمد فخري البارودي بالمعلومات المضلّلة لاجتذابه إلى فخّنا من ناحية، ويمدّنا أنا وستيف بالمعلومات عن مدى قبول فخري بصحة ما يزوده به من أخبار. وأخيراً جاء اليوم العظيم: فقط طلب فخري من أحمد أن ينبئه عن المرة التالية التي سأكون فيها خارج البيت فأجابه أحمد بأنه على علم بذلك لأنه سمع سكرتيرتي تعد الترتيبات لي ولزوجتي ولولدينا لقضاء عطلة الاسبوع الطويلة في بيروت. أجاب فخري بأنه سيرسل فريقه إلى منزلي يوم السبت وأردف قائلاً: «يا أحمد ستكون أنت في عداد الفريق».

انقبضت نفس أحمد فراح يفكر بوسائل التهرب من المهمة فأسمعه ستيف كلاماً مشجعاً تضمن وعداً بالمكافأة السخية إذا ما تابع في المخطط حسب التعليمات وبعقاب شديد ان هو تمنع. ومساء الخميس انتقلنا نحن الأربعة إلى منزلي. وصباح الجمعة وعلى مرأى من جميع جيراننا ركبت لورين وولداي السيارة المملوءة بحاجيات توحي بغياب أكثر من ليلة وانطلقوا فيها (نسيت كيف أوحينا للناس بأنني سبقت أسرتي إلى بيروت).

مر بنا يوم الجمعة ونهار السبت ونحن ندور في أرجاء البيت دون اشعال الأنوار ليلاً ومع الابتعاد عن النوافذ ليلاً ونهاراً. وامتنعنا عن إجابة الهاتف الذي كان يرنّ بين الحين والآخر. وقرابة ظهر يوم الجمعة شاهدت شخصاً يراقب البيت من أرض خالية مقابلة وشخصاً آخر في فناء الحديقة الخلفية. ومساء السبت تقدم شخص من باب المدخل ودق الجرس ثم أضاء بمصباح كهربائي من النافذة. ولما لم يشاهد أحداً قفل راجعاً. ومساء السبت وفي وقت كان لا يزال المارّة في الشوارع بحيث يستطيع المهاجمون الفرار والاختلاط بهم، حانت لحظة الحسم.

فاتتني الإشارة إلى اننا أعددنا المنزل اعداداً ملائماً إذ وضعنا مصابيح خاصة بالمصورين تضيء القاعة الرئيسية في الوقت المناسب وأفخاخاً من الغاز المسيل للدموع تنفجر في وجه من يحاول فتح الدرج الأعلى من مكتبي. كنا منبطحين أرضاً ومسلحين بمختلف أنواع الأسلحة علماً بأن حسني الزعيم قد أكد لنا بأن المهاجمين سيكونون ثلاثة رجال عُزَّل من أي سلاح. وهكذا وحوالي الساعة التاسعة مساءً رنّ جرس الباب، وللمرة الثانية شاهدنا شعاع مصباح كهربائي ينبعث من احدى نوافذ واجهة المدخل، وظننا بأن أمامنا مهمة سهلة.

وفي الواقع لم تكن مهمتنا بتلك السهولة. وفيما كنا منبطحين على الأرض الباردة في ذلك المنزل

الغارق في الظلام وسلاحنا في متناول الأيدي سمعنا تحطم باب المدخل وشاهدنا أطياف أربعة رجال، لا ثلاثة، يزحفون إلى الداخل ينيرون طريقهم بالمصابيح الكهربائية. تجاوزوا خط بصرنا دون أي ضجة ودون مشاهدتنا أو سماع صوت تنفسنا ثم دخلوا مكتبي المنزلي. وما أن بدأوا يتيقّنون من مواقعهم حتى قرر ستيف القبض عليهم قبل انفجار قنبلة الغاز المسيل للدموع. فصرخ: «اشعلوا الانوار!» ثم صاح بالعربية «اخرجوا بهدوء وأيديكم فوق رؤوسكم». عندئذٍ ظهرت يد ممسكة بمسدس لا تعلو أكثر من ١٥ سنتيمتراً عن الأرض وبدأت باطلاق النار فرّد عليها ستيف بالنار فثقبها (كما علمنا لاحقاً) ثم أخذت تظهر أيدٍ أخرى وكلّها تطلق نيران مسدساتها بعضها على المصابيح وأكثرها علينا.

باختصار بدا لنا ان أبواب الجحيم انفتحت على مصاريعها. كم منكم سمع صوت مسدس عيار ٤٥ في حقل رماية عادي؟ إنه يصم الآذان، أليس كذلك؟ إذاً تصوروا أصوات ثمانية مسدسات من هذا العيار تطلق نيرانها معاً داخل منزل أرضه رخامية وسقفه مرتفع يقع في شارع قليل الضجيج. ومما زاد في الطين بلّة ارتطام الرصاص بالجدران وارتداده بمختلف الاتجاهات يشهد على ذلك سجادة بُخارى عندنا لا يزال فيها عشرون أو ثلاثون ثقباً أحدثها الرصاص المرتد. وازداد الطين بلّة على بلّة بوجود أربعة شرطيين على الأقل خارج المنزل يطلقون الرصاص على البابين الخلفيين ليمنعونا من الخروج.

وهنا أودّ أن أسجل جبن النقيب في سلاح الطيران الأميركي رِتشرد أي رول. فقد أعطيته أمراً مباشراً بالخروج من الباب الخلفي والتعامل بالنار مع الشرطيين. فهل تعلمون ما قاله لي؟ «إخرس واذهب إليهم أنت يا راعي البقر، فلست على استعداد لأن يثقب الرصاص قفاي لأساعد رجال وكالتك المخنثين». هكذا قال لي بالحرف.

وشعرنا بنوع من الراحة المضحكة عندما رنّ جرس الهاتف وكان المتكلم ارك درايك من شركة النفط الايرانية البريطانية (لاحقاً السير ارك درايك رئيس شركة «بريتش بتروليوم»). رد جيم جيانتي على المخابرة وسمعته يقول: «إننا منشغلون قليلاً الآن». ثم شرح باقتضاب ما يجري وقال: «إنهم يطلقون النار علينا الآن والرصاص يتطاير في كل الاتجاهات. أشكر لك مخابرتك ولكن من الأفضل ان أقفل الخط لأنهم يطلقون النار عليَّ مباشرة».

وهكذا في الواقع أزّت رصاصة فوق رأس جيم وحطّمت قنديلاً سقط حطامه أرضاً. وتوقف اطلاق النار داخل المنزل بينما استمر بغزارة خارجه حيث كان دِك رول (ذلك الجبان الذي عصا أوامري المباشرة) يتعامل مع المتسللين اما الصوت في الداخل فكان من نيراننا نحن ومن متسلل واحد يغطي فرار رفاقه من نافذة مكتبي ليساعده في ذلك الشرطيون في الخارج!

استمر اطلاق النار اثنتين وعشرين دقيقة حسب توقيف ستيف ولكن تلك الفترة من اطلاق الرصاص الحي والجدّي بدت بطول اثنتين وعشرين ساعة.

انتهت المعركة وفرّ المهاجون (بسيارة الشرطة دون ريب) فيما سجّل حسني ما أراده. تركني ستيف استقبل أصدقاءنا في المفوضية وتوجه بالسيارة لمقابلة حسني الذي وجده يفيض فرحاً وحبوراً. كان يقهقه جذِلاً ولكن عندما بادره ستيف بالقول: «أنا على يقين من انك دهشت لرؤيتي» أدرك مغزى الكلام فوراً وبدت عليه إمارات الندم.

أجاب حسني: «كلا يا ستيف، فما زلت بحاجة لك، العالم كله بحاجة لك! فها قد بدأ عملنا

الآن». وتمتم بشيء عن كيف ان حادثاً صغيراً قد تكون له نتائج مقبولة وان حادثاً أكبر تكون له نتائج أفضل. وعليه خرج ستيف دون التلفظ بكلمة واحدة.

مرت الأسابيع بعد ذلك بسرعة وترتب عليّ بالطبع تفسير أشياء عديدة ولكن متاعبي جاءت نسبية نظراً لابقائي رؤسائي على بيّنة يومياً تقريباً من نشاطاتنا. ولم يتوان ستيف كيلي عن تحمل اللوم فقد بلّغ وزارة الخارجية بأنه كان على علم بكامل العملية منذ بدايتها وبأنه ما زال موافقاً عليها وبأنه إذا كان لوزارة الخارجية رأي مغاير فلتناقشه فيه، وليس لأي فرد من أفراد طاقمي.

لحسن الحظ جاءت تقارير الصحف في طول البلاد وعرضها متضاربة ومشوشة إلى حد أن وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية صارتا على استعداد للقبول بأي رواية من قبلنا. تضمنت برقية نِك الأولى فقط: «نرجو أن يكون كل منكم انت ومعاونوك بخير». وبعد اسبوع اتبعت ببرقية أخرى أكثر جدّية ورد فيها: «اننا نتوقع ان تعد تقريراً مفصلاً عن تأثير الهجوم على منزلك وما سيتبع ذلك في مواقف كل من حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في سوريا وباقي بلدان الشرق الأوسط».

في تلك الأثناء كان حسني يستغل الوضع إلى أقصى الحدود. فقد صور الهجوم على منزلي في وسائل الاعلام على انه اشارة واضحة إلى ما يمكن أن يحدث لجميع الدبلوماسيين الأجانب إذا لم يحصل تشدّد في ضبط الأمن في دمشق. ودعم تحذيره هذا «بتقرير سرّي» استقاه من «مصدر موثوق بصحة معلوماته» (ليس من ستيف ولا مني) أدرجت فيه أسماء اثنتي عشرة شخصية مدعياً تارة بأنها «مستهدفة» من قبل الشيوعيين وطوراً من قبل الاخوان المسلمين. ثم استدعى قادة الألوية للبحث في الوضع الأمني العام وفي شتى وسائل دعم حكومة الرئيس القوتلي «وبالتالي تفادي الحاجة إلى التخلص منها كلياً». وأخيراً «كشف النقاب» عن عدة فضائح داخل الحكومة علم بها أثناء توليه منصب قيادة الشرطة وأصرّ على وصول تفاصيلها إلى مختلف افراد الجيش السوري من أجل زيادة التذمّر منها في صفوفه. أما المعلومات الوحيدة التي حصل عليها مني أو من ستيف لمساعدته في هذا الشق من استعداداته فكانت تقريراً صحيحاً من مركز وكالة الاستخبارات المركزية في سويسرا جاء فيه ان وزير الدفاع أحمد الشراباتي يكدس الملايين من صفقات أسلحة مضخمة الاسعار.

كنا على اقتناع مقبول بأن حسني لم يفصح عن أي نية انقلابية أمام أحد من قادة الألوية مع العلم بأن خطته شملتهم دون علمهم. ولكن أسرَّ لي مرة صديقي أديب الشيشكلي بأن حسني ألمح من بعيد إلى احتمال كهذا. ومن أجل مصلحة ومعلومات المؤرخين في المستقبل أرى من واجبي القول بأن القادة الأربعة كانوا أديب الشيشكلي (جركس) ومحمد ناصر (علوي) وبهيج كلّاس (مسيحي أزرق العينين وأشقر الشعر) وشوكت شقير (لبناني درزي وأحد أقرباء زوجة آرتشي السفيرة سلوى شقير روزفلت). ولم يكن أي منهم عربياً تماماً، حسب تعبير آرتشي، والأهم من ذلك ان أحداً منهم لم يكن متحمساً لقتال الجيش الاسرائيلي المرعب رغم حداثة تكوينه.

لا بد هنا من كلمة عن أديب الشيشكلي. كان حسني الزعيم صديق ستيف. أما صديقي أنا فكان أديب الشيشكلي وهو محتال محبوب في سجله نقطة واحدة لصالحه: حسب علمي اليقين انه لم يطأطأ الرأس مرة أمام صَنَم منحوت. أما من الموبقات فقد ارتكب التجديف والكفر والاغتيال والزنا والسرقة ولم يتوان عن توجيه الاتهامات الكاذبة (دائماً في خدمة قضية انسانية). أما القول بأنه لم «يشته» مقتنيات جيرانه المختلفة «فشحٌ في استعمال الحقيقة» حسب قول شاهد في احدى محاكم استراليا. وإضافة إلى خطاياه العادية هذه تعاطى الحشيشة بين آن وآخر وتناول من المسكرات مقادير فاقت ما

يتناسب مع وصفات الأطباء. وخلال زياراته المتقاربة للسجون «استطاع مراودة بعض رفاقه عن أنفسهم» كما جاء في احد تقاريري إلى القيادة العامة. ولما كان بِك مايكلسون هناك يتتبع باهتمام كبير صداقتي مع تلك الشخصية الفذة في «الثورة السورية المقبلة، شدّد على تلك النقطة في التقرير وأشار في برقية لي بأنه «إذا ما كان عندي البرهان الأكيد عنها» لا بد من تسجيلها من أجل احتمال استعمالها للابتزاز عندما تدعو الحاجة.

وأما من حيث ايجابياته فيتحتّم عليَّ القول بأنني عرفت به رجلاً كريماً حتى الجنون ووفيّاً في صداقته (معي ومع ستيف مثلما مع الآخرين) كما أنه لم يكن دنيئاً أمام مغريات المال. في الساعات الأولى من صباح يوم الأحد في ٢٧ شباط ١٩٤٩، وقبيل ان يبصر ابني الثاني نور ذلك النهار سقطت زوجتي عن فراشها. ولما تأخر وصول سيارة الاسعاف لنقلها إلى المستشفى اتصلت بأديب هاتفياً وما هي إلّا دقائق حتى رأيته أمامي وقد تعتعه السكر في ليلة شبه بيضاء. فنقلنا زوجتي إلى المقعد الخلفي في سيارته الكبيرة وتوجهنا إلى المستشفى. جلس معي أديب وأخذت الصحوة تدّب فيه محل السكر حتى جاء ابني إلى هذا العالم وزال الخطر عن زوجتي. وجاء في سجل الولادات في دمشق اسم أديب اسماً ثانياً لابني ايان كوپلاند المدير المسرحي الشهير في نيويورك حالياً والأوحد بين أولادي الذي لا يزال يتكلم العربية والمعروف باسم أديب بين أصدقائه الكثر في بيروت.

دأب أديب، قبل بضعة أشهر من مولد ايان وحتى قيام انقلاب الزعيم، ينبئني بشكوكه من ان لدى حسني الزعيم «صديق ستيف» شيء أكبر من مجرد عصيان في الجيش. أما ستيف الذي سبق له أن أجرى عدة مقابلات مع أديب بحثا فيها الأوضاع في العمق (أحاديثي مع أديب كانت في معظمها استرخائية واجتماعية الطابع) فسرعان ما أدرك ان أديباً، وان كان ينقصه حضور واطلالة حسني وعلى الرغم من انه ليس الرجل الذي سيقبل به الشعب بديلاً عن شكري القوتلي، فهو أذكى من حسني بعشر مرات وسيتحكم بكل حركاته وسكناته فور اعلان الحكومة الجديدة. كان ستيف على حق فما ان استلم حسني الزعيم زمام الحكم حتى تحولت مقاليده تدريجاً لمصلحة أديب إلى أن ترأس هو، وان ببعض التردد (كما سأوضح لاحقاً) انقلاباً قام به في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥١.

استمر اديب الشيشكلي في الحكم ثلاث سنوات وعندما انهار حكمه فرّ إلى بيروت ومنها إلى المملكة العربية السعودية ثم إلى باريس في طريقه إلى البرازيل. يعود إصراري على انه لم يكن «دنيئاً أمام مغريات المال» إلى ما بات ثابتاً الآن انه لم يحصل من السعودية على أكثر من بضعة ألوف من الدولارات بعد لجوئه إليها. وإلى انه حين زرته في باريس كان يقيم في غرفة في فندق يقع على الضفة اليسرى يقدم لنزلائه وجبة الفطور فقط، ورفض قبول أي مساعدة مالية مني ولكنني دون علمه حاسبت الفندق لمدة شهر فجاءَت الفاتورة أكثر من ٥٠٠ دولار بقليل.

جاء في احدى الفقرات السابقة، قبل أن يسبح بي الخيال في بحر ذكرياتي الحلوة عن أديب الشيشكلي، قلت إن حسني الزعيم قدم اسهامين بالغي الأهمية في استعداداته للانقلاب: **الأول** حملة اعلامية تشهيرية برّر بها الانقلاب، **والثاني** الطريقة التي حال بها دون تسرب أي معلومات عن مخططه قبل بلوغه مرحلة من التقدم يعجز معها أي كان عن احباطه.

وإليكم الطريقة التي اتبعها. في ساعة متأخرة من ليلة الانقلاب أخذ اثنين من السكرتارية الذكور في وزارة الدفاع (أحدهما عميلي فيها!) وصعد بهما إلى الطابق الأخير وجعلهما يكتبان على الآلة الكاتبة أوامر تنص على ما معناه:

ايها الجنود والمواطنون، لقد دقت الساعة العظيمة في تاريخ أمتنا الأبيّة! ها قد بدأ عهد جديد الآن! انتهينا من الفساد. سقطت دمى الاستعمار والشيوعية (عبارة الشيوعية أضيفت إرضاء لستيف بدون معرفته). وللمرة الأولى منذ قرون طويلة صرنا نحن السوريين شعباً حراً!

... ومضى البيان ينسج على ذلك المنوال. لم يكن قطعة أدبية رائعة ولكنه وفّى بالغرض المنشود، خصوصاً وان اذاعة دمشق أضافت عليه التعابير البليغة التي أعلن بها حسني انقلابه مضيفاً بأن الحكومة العسكرية انما هي مؤقتة وستزول لدى امكان اجراء «انتخابات حرة حقاً». واستطرد البيان باصدار الأوامر المحددة: على الوحدة الفلانية ان تفعل كذا وعلى الوحدة الأخرى أن تنفذ كذا، الخ. وضعت الأوامر في مظاريف لتُسلم إلى قادة الألوية الأربعة على أن تُفَضّ بحلول منتصف الليل وليس قبله على الاطلاق. طبع السكرتيران الرسائل حسب أوامر حسني الذي استلمها وختم المظاريف بنفسه ثم قاد الرقيبين إلى خزانة أعدَّت مسبقاً في الطابق نفسه وزجّ بهما فيها لما تبقى من تلك الليلة وبرحا فيها منسيين حتى تمكن عميلي من تحطيم بابها بعد ظهر اليوم التالي والخروج منها ليرى الوزارة مهجورة ويسمع الأهازيج في الشارع ويتصل بي هاتفياً ليعرف ما فاته من أحداث ويعتذر عن عدم موافاتي بالتطورات في حينها.

قبيل منتصف الليل استلم قادة الألوية الأوامر في المظاريف المختومة ولما لم يكن لديهم أي فكرة عن محتواها، وكان الوقت قد تأخر ليقدروا ان يفعلوا أي شيء إذا كان المحتوى لا يروق لهم، أخذوا ينتظرون بدرجات متفاوتة حلول الوقت المحدد لفتحها. ولما فتحوها رأوا ما تضمنته من تعليمات واضحة وملحّة بحيث تعذّر عليهم الاتصال ببعضهم البعض للتشاور فيها فهرع كل واحد منهم لتنفيذ ما أمر به. كان على البعض إلقاء القبض على رئيس الجمهورية وعلى غيرهم القاء القبض على رئيس مجلس الوزراء وعلى فريق آخر احتلال محطة الاذاعة ومحطات توليد الكهرباء وغير ذلك من الأهداف المقررة.

* * *

على مدى عقدين من الزمن اعتمدت وكالة الاستخبارات المركزية تدريس خطة حسني التي نُفِّذت بدقة كدقة الساعة. وهكذا أفاقت دمشق صباح اليوم التالي على أنغام النيشد الوطني السوري المنبعثة من دار الاذاعة تلاه تسجيل بصوت حسني الزعيم أعلن فيه انه تولّى السلطة وسيستمر في الحكم حتى إمكان اجراء «انتخابات حرة ونزيهة»، الخ... وهكذا انتهى الموضوع من حيث برقياتنا إلى واشنطن.

قضيت الأشهر القليلة المتبقيّة لي من مهمتي في سوريا منكبّاً على دراسة العبر البدائية إلى حد ما التي توصلت إليها من عملية حسني الزعيم ومن مجمل موضوع «التدخل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة». وخلال فترة انتظاري للمهمة التي سأتولاها في واشنطن كتبت عدداً من التقارير عن الموضوع وجهت منها واحداً إلى وزارة الخارجية دون توجيه نسخة منه إلى وكالة الاستخبارات المركزية، عالجت فيه نقطتين. الأولى انه ليس في طوقنا، بصفتنا أجانب، فعل شيء لمساعدة دولة مثل سوريا للصيرورة والديمومة عضواً صالحاً في ما درجنا على تسميته العالم الغربي إلّا إذا كان ما نفعله قائماً على تفهم عميق لعدم الاستقرار السياسي المزمن الذي يترتب مواجهته على حسني الزعيم أو على أي زعيم آخر في البلد، عسكرياً كان أم رئيساً منتخباً. ووضعت في تقريري تاريخ اللامبالاة الشعبية الطويل في

سوريا وبروز التحالف بين ضباط الجيش الشباب وبين «أفراد المجموعة المثقفة الناشئة بين صفوف الطبقة الوسطى من الشعب» التي دأب الضباط السياسيون في مفوضيتنا على تنميتها وتشجيعها وأوضحت ان الاحباطات الشخصية والأحقاد القديمة والتباينات الاجتماعية الأخرى ستؤدي بالتأكيد إلى نسف أي محاولة باتجاه قيام حكم مستقرّ بغياب بدائل قابلة للحياة. إن أي حكم يواجه مثل تلك الضغوطات سيرى ان عليه اسداء وعود يعلم تماماً بأنه غير قادر على الوفاء بها وعندئذٍ تكر السبحة على غرار انقلاب حسني الزعيم فيأتي قائد تلو قائد حتى يجيء واحد بارع في الكلام والديماغوجية فيعلق الشعب آماله عليه، ولكن ينتهي به الأمر إلى إلقاء تبعة فشله في عدم تحقيق الوعود على عاتق فريق آخر مؤهل لتحميله تلك الاتهامات مثل «الرأسمالية والاستعمار» والولايات المتحدة المؤيدة لاسرائيل.

أما النقطة الثانية والتي برزت على انها الأهم في التقرير المذكور فكانت اننا بحاجة إلى تفهم أفضل - بل بالأحرى إلى مجرد تفهم - لما يُحتمل أن يفعله الشعب السوري أو شعوب مجمل «العالم غير الغربي» باحباطاتهم وبأسباب توتراتهم. وإذا كانت تلك الشعوب بخلفياتها الحضارية وأنماط دوافعها النابعة من تلك الخلفيات ستلومنا يوماً على ما هي فيه من اشكالات وصعوبات فسيتخذ موقفها المعادي للأميركية شكلاً مختلفاً من شكل العداء الأوروبي للأميركية، إذا جازت المقارنة. ولو كانت تصرفات تلك الشعوب على غرار تصرفات الأوروبيين لهان نسبياً التكهن بها - بل وحتى التأثير فيها» (ابقى كيلي على هذه العبارة في التقرير رغم اعتراض ضابط المفوضية السياسي عليها). وقلت في التقرير أيضاً لو «استطعنا نقل كل السويسريين إلى سوريا وحمل كل السوريين إلى سويسرا لكان بين أيدينا مجموعة مختلفة تمام الاختلاف من مشاكل العلاقات الدولية». بالطبع سيبقى الخلاف بشأن اسرائيل قائماً ولكن سيكون بمقدورنا حلّه بطريقة عقلانية ما، عوضاً عن العمل المضني في جوٍّ مشحون بالعاطفية الذاتية التدمير.

التقرير الاسبوعي («ويكا = Weeka) * * *

تبين لنا في أكثر من نادرة حصلت داخل مفوضيتنا ان تقاليد وطقوس وسلم القيم والربط بين الافعال والنوايا لدى السوريين تختلف اختلافاً جذرياً عنها عندنا. وجاء البرهان الحسيّ على ذلك أثر فكرة بسيطة طلع بها الملحق الثقافي بوب اوغدِن إذ اقترح تبادل الصور الموقّعة بين الرئيسينِ ترومن وحسني الزعيم. إنها لفكرة عظيمة قابلها حسني بحماس عندما طرحها ستيف عليه فتناول فوراً صورته باللباس العسكري تزين صدره خمسة عشر أو عشرون وساماً وسلّمها لستيف بعد أن وقعها بالعربية إلى جانب آية قرآنية كريمة كتبت بخط بديع. بالمقابل رحبت واشنطن بالاقتراح وأرسل ضابط العلاقات العامة في البيت الأبيض لبوب اوغدن صورة للرئيس ترومن مشمراً عن ذراعيه يعاون زوجته، بس، بتنشيف الأطباق في مطبخ منزلهما العائلي في مسقط رأسه انديبندنس في ولاية ميزوري.

تعذر علينا العثور على سبب مقبول نتذرع به لعدم إرسال صورة حسني تلك إلى واشنطن (لم يكن لدى ستيف ما يكفي من الشجاعة ليشرح لحسني الأسباب التي حلمتنا على التقدير بأنها ليست من النوع المناسب إرساله إلى واشنطن) فتبرع ستيف بتقديم صورة ترومن المعلّقة على الجدار خلف مكتبه. نزعناها عن الجدار وبمعاونة سكرتيرتي روز والسكرتيرة المسؤولة عن الأختام والتواقيع في وكالة الاستخبارات المركزية في دمشق محونا تحيات ترومن الشخصية لستيف واستعضنا بآية مناسبة من الكتاب المقدس ترجمها يوسف دبّوس إلى العربية باسلوب أنيق. سرور حسني بالصورة وامتنانه لها لم يُقابلا بالمثل لدى زعمائنا المنتخبين في واشنطن. ألقوا عليها نظرة واحدة واستنتجوا بأن أسوأ تقديراتهم قد تحقّقت : لقد جئنا إلى سدة الحكم في سوريا بعسكري فاشي. من ناحية أخرى لم نرد بالقول بأننا لو

قدمنا لحسني صورة رئيسنا المرسلة إلينا من قبل البيت الأبيض لقال حسني وضباطه إن فلاحاً أبله يحكم الولايات المتحدة.

وكان هناك أيضاً الاستاذ داوود، استاذ اللغة العربية في المفوضية، وأجوبته عن أسئلة فضولية طرحتها عليه في أحد دروسنا. ينتمي الاستاذ داوود إلى طبقة ذوي الياقات البيضاء (عمل عير يدوي) القليلي العدد في سورية الذين يجرأون على التحدث بالمواضيع السياسية. أخبرنا الاستاذ داوود مرة بأنه ينتمي إلى حزب البعث الذي أسسه ميشال عفلق. والاستاذ داوود أكثر إلماماً بما يجري في العالم من خريج جامعة أميركية عادي. سألته عن رأيه بالمصاعب التي تواجه حكم حسني الزعيم وعن رأيه في معالجة الحكم لها. جاءت أجوبته تنمّ عن حسن الاطلاع وعن سلامة في التفكير وعن نقد ذكي. وعندما سألته عما كان ليفعله هو حيال تلك المشاكل لو انه في موقع مستشار عند حسني الزعيم، أغرقني في فيض من الاجوبة الخيالية والسيناريوهات المستوحاة مباشرة من حكايات السندباد.

منذ مجيء حسني الزعيم إلى الحكم وحتى انتهاء فترة خدمتي في دمشق في أواسط العام ١٩٥٠ كنا عاطلين عن العمل كلياً لولا ما أسماه شرمَن كِنت «الاستخباراتية الخلّاقة». يقال إن رأس البطال معمل الشيطان. صحيح، لقد فكرنا ان قليلاً من «الاستراتيجية الخلاقة» المفيدة قد تتمخّض عنها عقولنا العاطلة عن العمل نسبياً شرط ألا ينتج عنها أي ضرر جانبي. في الواقع عندما أخذت ألفّق التقارير نيابة عن مختلف الملحقين بالمفوضية لم أكن أقصد سوى التسلية البسيطة وإشباع رغبتي بالكتابة الأدبية بسخرية لاذعة. وبمرور الوقت تحول هذا النشاط البريء إلى وسيلة مثالية أسمع بها حكومتنا ما يجب أن تسمعه لابعادها عن ارتكاب بلاهة ما فيما أضمن تقاريري الموجّهة إلى وكالة الاستخبارات المركزية ما يقارب حقيقة الواقع.

توفرت لي فرص القيام بذلك إثر فرض البنتاغون علينا إرسال تقرير اسبوعي، صار يُعرف باسم «ويكا» وهو عبارة عن مختصر للأحداث تعدّه لجنة تلتئم صباح كل يوم جمعة وتتألف (في مفوضيتنا) من الملحق العسكري وملحق السلاح الجوي وضباط الشؤون السياسية في المفوضية ورئيس الفرع المحلي لوكالة الاستخبارات المركزية والوزير المفوض جيم كيلي. بالطبع احتفظت بمعلوماتي الهامة حقاً للقنوات التي أرسل بها وإليها تقاريري الجدية. ولكنني استعملت «ويكا» وسيلة للتعبير عن العرفان بجميل صديقنا ملحق سلاح الجو جيم جيناتي لسماحه لنا باستعمال طائرته الفخمة. يحمل جيم شهادة دكتوراه بالفيزياء النووية وله عقل معقّد يتناسب معها كما ان اتقانه الرائع للغة الانكليزية يأتي في المرتبة الأولى اكاديمياً ولكنه لا يتناسب مع ضوابط اللغة المستعملة في البرقيات الحكومية. لذلك كانت تقاريره بأمسّ الحاجة إلى مساعدة لجهة التحرير فكنت بمنتهى السعادة أبادر للقيام بمهمة تدبيجها عنه نظراً لأنني رأيت ان تحرير التقارير التي تُرسل إلى قيادته وليس إلى قيادتي يتيح لي فرصة فريدة لاطلاق العنان لمخيلتي في السعي لايجاد وسيلة لردم تلك الهوة الحضارية.

الفت بعض التقارير الباهرة فنالت حقها من تقدير جيم وكانت النتيجة انني حصلت على رحلات بطائرته أكثر مما حصل عليه كيلي بنفسه، وصار موظفو المفوضية المؤيدون لي ولجيم يشاركوننا في رحلات آخر الاسبوع إلى طهران أو كينيا أو فيينا أو أي مكان نقرّر زيارته فجأة دون سابق تخطيط له. ولهذه الرحلات تفسير: فلكي يحصل جيم على دراهم «بدل طيران» كان عليه أن يطير عدداً معيناً من الساعات في الشهر فرأى أن من الأفضل له ولسلاح الطيران الذي يمثل اكتساب مودة أفراد المفوضية عوضاً عن الدوران ساعات طويلة فوق دمشق. وصار يأتي كل يوم خميس تقريباً يقف بباب مكتبي مبتسماً كطالب ينتظر عطلة نهاية الاسبوع ويسألني: «هل من اقتراحات جديدة؟»

لم يخل الأمر بين آن وآخر ان استعملنا الطائرة صبيانياً إلى حد ما ومنها مرة انزلنا فيها الاستاذ داوود بالمظلة في منتصف الليل وفي قلب الصحراء حيث سيعثر على معلومات هامة يعود بها إلى الملحق العسكري الذي أخذ يستخدمه «عميلاً» له. (عندما جاءنا مفتش من سلاح الطيران من واشنطن واعترض على العملية لأنها «غير مجازة» اضافة إلى ان جيم قاد الطائرة وهو تحت تأثير المسكرات، أجابه جيم: «اسمع يا بني، لقد قضيت من ساعات الطيران وأنا سكران أكثر مما قضيته أنت وأنت صاح»). وفي مجمل الحالات اثبت التعاون بين مكتب ملحق سلاح الجو ومكتب وكالة الاستخبارات المركزية انه أفاد الفريقين. فعند عودتي إلى واشنطن علمت بأن التقارير التي أعددتها نيابة عن جيم وباسمه اعتبرت أفضل بكثير من تلك التي أعدّها بكل صدق واخلاص أفراد لجنة «ويكا» الآخرون كما حصّلت على تنويه من رؤسائه.

فتح استخدام الملحق العسكري لداوود «عميلاً» له مجالات جديدة متعددة. فبعد ان انزلناه بالمظلة في الصحراء قضى المسكين اسبوعاً كاملاً حتى اهتدى إلى طريق العودة إلى دمشق واكتشف خلاله ان خدمة سيّدين معاً، وأنا أحدهما، هفوة فادحة. صباح يوم الاثنين، وبعد عودته من نزهته الصحراوية، دخل الاستاذ داوود مكتبي باكياً ليقصّ عليَّ الحكاية كاملة كيف أن «العقيد ماثيسون» (حتى لا أذكر اسمه الحقيقي) هدّده بأنه سيفقد وظيفته التعليمية إن هو لم يقدم الخدمات الاضافية المطلوبة دون زيادة في الراتب. وقال وهو يجهش بالبكاء: «يريدني أن اتجسس له»، وأضاف بأنه لا يتمتع بالأهلية اللازمة للعبة التجسس فضلاً عن انه يفتقر إلى المصادر اللازمة لاستقاء ما يطلبه العقيد ماثيسون من معلومات. والأسوأ من هذا انه خشي من انه إذا ازداد فضوله بين معارفه من ضباط الجيش ستنقضّ عليه المخابرات والمعروف ان أفرادها يتعاطون بقسوة مع أمثال داوود ويخاطبونهم على النحو التالي: «أنت تجمع معلومات عسكرية لذلك العقيد الأبله في مفوضيتكم؟» هكذا يصرخون بوجهه ثم يقولون: «كلام فارغ. لا شك في انك تتجسس لذلك الخواجا في وكالة الاستخبارات المركزية وتزوده بالمعلومات ليرسلها بدوره إلى أصدقائه في اسرائيل».

كان قبول داوود بما عرضناه عليه من معلومات مزعومة سيحصل عليها في الصحراء عائداً إلى شعوره باليأس. أما الآن وقد اكتوى بما حصل له في الاسبوع الأسبق صار يحسب أنني بما لي نفوذ خفي استطيع انقاذه من ورطته وكذلك ابقاءه في وظيفته.

ولكن خطرت لي فكرة أفضل. قلت للاستاذ داوود: «إذهب إلى العقيد ماثيسون وقل له بأنك لا تستطيع القيام بعمل جاسوسي احترافي لحسابه إلّا إذا كان لديك مخبرون داخل الحكومة نفسها، وان مثل هؤلاء المخبرين يكلفون مبالغ طائلة. لذلك لا بد لك من حساب للانفاق». عند ذكر حساب الانفاق هذا لمعت عينا داوود. ولما أفصحت له عن افكاره - بأنه ليس بحاجة إلى مخبرين وان بامكانه الاحتفاظ لنفسه بأموال حساب الانفاق تحول بريق عينيه إلى نشوة. وقلت له ان باستطاعتي تزويده بكفايته من «الجواسيس» لتسريب معلومات أفضل لذلك التيس العجوز وأكثر مما توقعه منها. ابتسم داوود جذلاً وخرج متمتماً يندب افتقاره إلى التعمق الكافي في اللغة لتمكينه من انجاز تأليف الكتاب الدراسي المطلوب منه لتعليم الدبلوماسيين الأميركيين اللغة العربية.

اكتشفت ان سعة المعلومات قد تحمّل صاحبها عبئاً ثقيلاً. وسرعان ما أبلغت المفوضية كلها بالمشروع فصارت «ويكا» أشبه بالمزحة. وعندما حاصرني ايغور فيدُرَنكو في احدى الحفلات الدبلوماسية ليسألني: «ما هي تلك الويكا عندك؟» كدت وبكل جدية أن أقايضه بها مقابل التقرير

الاسبوعي المشابه الذي بلغني أن السفارة السوفياتية ترسله إلى المعنيين في موسكو. على كل حال وطيلة الفترة التي بقيت لي لمغادرة دمشق كانت «ويكا» التسلية الوحيدة لنا جميعاً، بما فينا جيم كيلي، نحول بها أفكارنا عن القضايا الجدية التي ترسل عنها مختلف فروع المفوضية، باستثناء الملحق العسكري، تقاريرها كل عبر قنواته الصحيحة.

أما سكرتيرتي روز فهي على مهارة فائقة في استنباط حالات تجسسية خيالية حتى انني ارتبت في انها تكتب روايات جاسوسية وبوليسية، مهمتها تلفيق اجراءات بتعيين أو طرد أو «تحييد» مصادر للمعلومات بغية تبرير رصد المال لحساب داوود وجعله يبدو على انه يقدم الخدمات التجسسية الجليلة. وكانت التقارير تُكتب بلغة انكليزية بليغة ثم تُترجم إلى انكليزية داوود الركيكة ونشارك جميعاً بوضعها باستثناء دين هينتون الذي كانت له أسبابه الغريبة لعدم مشاطرتنا التسلية. فهو الوحيد بيننا الذي لم يفتر ثغره عن ابتسامة في كل مرة قاطع العقيد ماثيسون النقاش الدائر في جلسة لجنة «ويكا» ليقول: «إن لدى مصادري (لاحظوا استعمال صيغة الجمع) قراءة مختلفة للموضوع». لا داع للقول بأن التناقضات بين التقارير النظامية الصادرة عن المفوضية وبين «مصادر» العقيد كلها ملفقةً. فقد اعتبر كيلي ان بعض التناقضات في النص تضفي على «ويكا» مسحة من الوجودية الفكرية يستسيغها انصاف الأميين من القراء في البنتاغون.

كان كيلي على حق وكذلك باقي أفراد المفوضية بما فيهم العقيد ماثيسون، إنما رغماً عنه. وعلى الرغم من الموقف المتكبر الذي يتخذه رؤساء المكاتب في وزارة الخارجية تجاه أي شيء يصدر عن العسكريين فقد لقيت تقارير «ويكا» ترحيباً حاراً في الخارجية شأنها في البنتاغون كما ان وكالة الاستخبارات المركزية نفسها استخرجت منها من المقتطفات التي ضمنتها تقاريرها إلى البيت الأبيض أكثر مما استخرجت من تقاريري الأكثر جدية. كانت «ويكا» مختصرة وتعالج الموضوع مباشرة وهي مع ذلك مشبعة بتعابير يتعشقها أنصاف الأميين في مختلف الفروع: «الوسائلية» عوضاً عن «الوسيلة» و«المجتمعي» بدلاً عن «اجتماعي» و«استنظار» محل «توقع» و«الأطر» عوضاً عن «الحدود» هذا إضافة إلى فيض من العبارات المركبة مثل «عكسية الانتاج» و«الأطر المرجعية» و«القفزات الكمية» و«إضافة بُعد جديد» وما يكفي من التركيبات الكلامية لإرضاء أكثر البيروقراطيين تزمتاً. وإذا ما كان أحدكم أيها القراء يعدُّ رسالة للدكتوراه عن سوريا ما بعد الحرب فعليكم استعمال حقكم في حرية المعلومات من أجل مراجعة تقارير «ويكا» التي وردت من دمشق بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٠. ففيها تجدون تأريخاً تفيدون منه. انه متناسق مع الحكمة التقليدية في هذه الأيام ومع ما أسماه لينين «اسطورة الشعب» كما يحتاج إلى انثروبولوجي حضاري لتفسير الرسائل والبرقيات التي تعبّر عن تقويمنا كاختصاصيين للمناطق التي نعمل فيها.

لم ير ستيف ميد ما يضحك في تنكيتنا على العقيد ماثيسون وعندما ارتفع الضحك في المفوضية إلى أعلى ما يستسيغه ذوقه طلب اعادته إلى بيروت حيث فضّل العمل مساعداً لملحق عسكري غبي وجنتلمن على العمل مع غبي لا صفة أخرى له. وأوضح قائلاً: «الذوق هو قضية ذوق فقط». غير أن السبب الحقيقي لقراره هذا هو احتمال عودته إلى العمل مع آرتشي روزفلت الذي كان في أواخر العام ١٩٤٩ قد قطع شوطاً لا بأس به في استقطاب أشخاص من الأرمن والأكراد والجراكسة وغيرهم من أفراد الأقليات وتهريبهم إلى داخل الاتحاد السوفياتي عن طريق غرب تركيا. وثمة نبذة أخرى لا بد من ذكرها وهي قبول ستيف بتأدية دور «الرائد لينكولن» بطريقة أنقذت للحكومة الأميركية أحد أهم عناصرها الاستخباراتية، أي شخصي الكريم.

وفيما أخذ الصحيح والملفق من الحكايات يتكاثر في مختلف أنحاء الشرق الأوسط عن صعود وهبوط حسني الزعيم كان وِليَم دوغلاس، القاضي الظريف في المحكمة العليا الأميركية يقوم باحدى جولاته المعتادة على نقاط المغامرات في الشرق الأوسط وأواسط آسيا. بعد وليمة عشاء أقيمت في السفارة الأميركية في طهران لاحظ القاضي ان ثمة من يسترق السمع للحديث السري بينه وبين السفير. كان المتنصّت هو الصحفي الشهير درو پيرسون صاحب عمود «أرجوحة واشنطن الدوارة» المتعاقد لنشره مع صحف عديدة.في ظاهر الأمر بدا پيرسون في نقاش حادّ مع الضابط السياسي في السفارة، ولكن القاضي والسفير يعلمان تماماً بقدرته على الاشتراك في نقاش في احدى زوايا الغرفة واستراق سمع كل كلمة يُهمس بها في الزاوية الأخرى.

هنا حبك القاضي أحد مقالبه وراح يهمس في أذن السفير قصة مفادها انه في رحلته الأخيرة إلى المنطقة الكردية في شمال ايران كان يشوي اللحم فوق نار المخيم فطلع عليه من بطن الليل الدامس رجل يرتدي ألبسة محلية وعرف عن نفسه باسم «الرائد لينكولن» وأعطاه رسالة شفوية لينقلها إلى السفير ثم عاد واختفى في عتمة الليل. وتظاهر القاضي بأنه يهمس الرسالة في أذن السفير وراح هذا الأخير يهز رأسه استيعاباً. في الاسبوع التالي ظهرت حكاية «الرائد لينكولن» على صفحات بضع مئات من الصحف الأميركية وبضع عشرات الصحف في الشرق الأوسط ململمة حول نفسها تفاصيل جديدة كلما انتقلت من بلد إلى آخر.

ولما كانت السفارات الفرنسية في الشرق الأوسط على علم من سجلات دوائر استخباراتها بأنني استعملت اسم «الرائد لينكولن» المستعار في الحرب العالمية الثانية، تبادر لها فوراً بأنني ذلك الرجل الذي شاهده القاضي دوغلاس في ثياب مستغربة الشكل والألوان في شمال ايران. وعليه راحت تلك السفارات تستعلم عني لدى الاستخبارات الايرانية والعراقية وغيرها مثيرة اهتمام مختلف دوائر الاستخبارات والتجسس في الشرق الأوسط طولاً وعرضاً. وسخرّصديقي ن. النشاشيبي من وقته وهو يحاور جلالة الملك عبدالله عاهل الاردن لكتابة مقال طويل في امتداحي على انني أفضل هدية قدمتها أميركيا للدبلوماسية في الشرق الأوسط، نشرها في الصحيفة التي عمل فيها سابقاً. وقال لي في اليوم عينه: «عندما تصل أنباء المقال إلى واشنطن عليهم أن يعيّنوك سفيراً.

من ناحية أخرى اعتمدت أربع أو خمس هيئات أمنية أخرى في الشرق الأوسط مواقف مختلفة حيال الموضوع. فأظهر أديب الشيشكلي اهتماماً واضحاً وأرسل ستة من الرجال الأشداء باللباس المدني لحمايتي على مدار الساعة. وحذّر الأمير فريد شهاب، مدير عام الأمن العام اللبناني، آرتشي من أن بعض السفاحين العراقيين مرّوا لتوهم ببيروت في طريقهم إلى دمشق لاغتيالي. غير أني بمساعدة نصري الذي شعر بالندم شيعت معلومات تفيد بأن «الرائد لينكولن» المشبوه انما هو في الحقيقة الرائد ستيف ميد وليس أنا، وألمحت إلى انه إذا كان القَتَلة يريدون حقاً أن تُحفر أسماؤهم في التاريخ عليهم اغتياله هو لا أنا. واعتبرنا أنا وجيم كيلي ان من الأفضل عدم ابلاغ ستيف بالتضحية الجليلة التي قد يقدمها خدمة لبلاده. وكنا على أتم اليقين ان باستطاعتنا الاعتماد إلى آخر المطاف على اخلاصه للوطن وعلى شجاعته. على كل الأحوال كان ستيف على وشك ان يُنقل إلى مركز آخر، كما كان كيلي قد اتخذ كل الاجراءات مع نظيره في بيروت لوضع ستيف وعائلته على أول سفينة من سفن شركة «اميركان اكسپورت لاينز» تغادر بيروت. علم ستيف بالاسهام الذي قدمه لخدمة المصلحة القومية من ضابط في الاستخبارات الفرنسية متوجه على السفينة عينها لقضاء عطلته في فرنسا. وأخذ الحكاية بروحه

الرياضية كما كنا متأكدين. وبعد وصوله إلى الولايات المتحدة بعث برسالة عاطفية لي ولجيم كيلي يشكرنا فيها على توفيرنا له الفرصة تلو الفرصة لخدمة بلده.

(على فكرة، بعد بضعة شهور على الحكاية اخبرني القاضي دوغلاس ان اسمي المستعار «الرائد لينكولن» قفز فجأة من عقله الباطن، ولعل ذلك عائد إلى انني اخبرته حكايات مثيرة متعددة عن «الرائد لينكولن» خلال لقاءاتنا على العشاء عند الجنرال لوتن وإلى ان الاسم قد اعجبه).

بغياب ستيف وباستغناء أديب الشيشكلي عن نصائحنا في برمجته للانقلابات المتعاقبة التي سترفعه إلى سدة الحكم صارت حياتنا نحن التنفيذيين سواء في دمشق أو في بيروت شبيهة بحياة الطالب الداخلي في الجامعة إبان عطلة الصيف عندما يكون الطلاب الآخرون قد ذهبوا إلى بيوتهم. وانتهى بي الأمر إلى الملل من تلفيق تقارير «ويكا» صباح كل يوم جمعة. ولما علمت باسم بديلي حوّلت مواهبي إلى نصب الافخاخ في طريقه. لم تدرج وكالة الاستخبارات المركزية في بداية عهدها على جميع الخبرات السابقة والافادة منها بل كانت المحطة تبدأ من الصفر كلما عُين لها مدير جديد. ويرى المدير هذا ان مهمته جلاء الفوضى التي خلفها سلفه واعداد مسرح جديد لنفسه يؤدي عليه دور البطل الرئيسي. أما المدير المنقول من المحطة فيرى الأمور من زاوية مختلفة. ففي سعيه لجعل رؤسائه في واشنطن يتحسرون على «الأيام الحلوة الماضية» يترك لخلفه ما يكفي من المشاكل والعقد ليشغل في حلّها كل دقيقة من وقته فلا يبقى له هنيهة يعيد فيها كتابة التاريخ. من هذا المنطلق حرصت على ان يجد بديلي، واسمه المستعار والتر سندرسون، ما يلزمه من القضايا الوهمية ليشغله عن محاولة التقليل من أهمية ما قمت به من أعمال متواضعة.

وجدت في بديلي بعد لقائنا رجلاً طيباً جداً أمنيته الوحيدة «الاستمرار في تأدية العمل الممتاز الذي قمت به وألهمنا، نحن المستجدين في خدمة وكالة الاستخبارات المركزية لمتابعة مسيرتك»، كما جاء في عباراته المدروسة بعناية فائقة لبدء تعارفنا. ظننت لبعض اللحظات انه ربما يعني حرفية ما قاله ولكن سرعان ما أضاف بأن نِك كان قد حذره مما يخبىء الدهر له ان هو يُظهر ما يليق بي من احترام ومن انني سأكون الضابط المسؤول عنه عند عودتي إلى واشنطن ومن أن كل ما سيبعث به من رسائل إلى واشنطن سيمر بي قبل بلوغه أي شخص آخر في الوكالة. قلت له: «إن بقاءك إلى جانبي لن يُخسرك شيئاً». وأدركت بأنه استوعب كل معاني ما قلت له عندما رأيته خلال الاسبوع الأول من استلامه عمله يُعد مسروراً بل جذلاً المواد اللازمة لداوود لتحويلها إلى العقيد ماثيسون استعداداً لتقرير «ويكا» التالي. فتنفست الصعداء.

الفصل الثاني عشر

واشنطن والجيل القذرة

استلمنا وانا وآرتشي روزڤلت مراكزنا في دمشق وبيروت في التاريخ ذاته وكذلك حان نقلنا إلى مراكز أخرى في موعد واحد. ولكن وقبل شهر تماماً من اليوم المحدد لسفرنا إلى الولايات المتحدة انحرفت صحتنا فأصيب آرتشي باضطرابات في القلب يبدو انها وراثية في اسرته ونزل بي داء اليرقان المُعدي الذي ينتاب كل الذين يقضون فترة خدمة طويلة في الشرق الأوسط. وحلت بنا طائفة من التوعكات الألطف وقعاً كالالتهابات المعوية أثر نزهات متعددة قادتنا إلى قلب الصحراء في سوريا والأردن والعراق، لا يتسع مجال هذا الكتاب لذكرها. فدخلنا مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت في الوقت نفسه وكذلك غادرناه معاً.

ولما ودعنا المستشفى واجه آرتشي المسكين أوضاعاً صعبة في آخر أيام خدمته في بيروت. فقد هربت زوجته مع طبيبها النفساني، وبعث السفير پنكرتون بتقرير من بيروت إلى واشنطن مفاده أن تصرفات آرتشي «مغمغرتية» وهي كلمة وافق عليها نِك مايكلسون في واشنطن بعد أن أعياه التفتيش في معجمه عن معناها ودوَّن موافقته في هامش تقرير السفير وضمه إلى ملف آرتشي الشخصي في الوكالة.

وهكذا تواجدنا في العام ١٩٥٠ أنا وآرتشي في الولايات المتحدة، أنا في واشنطن أعاون نِك مايكلسون في فصل الخيال عن الواقع في التقارير التي بعثنا بها خلال ثلاث سنوات، وآرتشي في نيويورك يراقب برامج صوت أميركا الموجهة إلى الشرق الأوسط وافريقيا. أحببت نِك ولكن آرتشي مقته. وكان قريبه كِرمِت (أو كيم) روزڤلت قد تبوأ مركزاً هاماً في وكالة الاستخبارات المركزية خلق لنا توترات أثّرت فينا جميعاً وفي آرتشي أكثر منا. إضافة إلى كل ذلك استاء جداً من الملامات التي وُجِّهت إليه وكانت آخر كلماته لي أثناء صعوده سلم الباخرة «اكسكاليبُر» التي أقلته إلى نيويورك انه لن يقو على مقابلة محامي زوجته يطالبه بالطلاق في الاسبوع الأول لوصوله ثم مقابلة نِك مايكلسون في الاسبوع التالي. لذلك قبل بالوظيفة التي عُرضت عليه في اذاعة صوت أميركا.

وهكذا افترقنا وراح كل منا في طريقه ولكن بقي فكري معه. وبعد أن تركزت في واشنطن حددت لنفسي مهمة في الأمم المتحدة تدوم اسبوعين لكي أتمكن خلالها من الاطمئنان إليه في عمله الجديد. وفي أحد الأيام طلبني على الهاتف وأنا أحاول التخلص من سكرة الليلة السابقة وقال: «لن نصدق ذلك، ولكني التقيت بفتاة، صبية، جمالها يسيل دمع عينيك».

قلت: «أنت وفتاة، هل حان ذلك لك والحبر لم يجفّ بعد عن أوراق طلاقك؟»

قال: «لا، أنا جاد في كلامي. هذه المرة انتهى الأمر وأود أن تتعرف إليها هذا المساء».

سألته: «كيف شكلها وكيف هي؟ هل تنتمي إلى مجتمع بوسطن؟ أم انها من طبقة المفكرين في نيويورك؟ أو لعلها نجيمة صاعدة في أفلاك هوليوود؟»

قال: «كفاك تذاكياً يا حمار. كم من ساميّ حقيقي قابلت في حياتك؟ اليهود؟ كلهم صقالبة. السوريون واللبنانيون؟ كلهم حثيون. ولكن هذه الفتاة صافية، أعني سامية قحّ. إنها درزية. حتى أن رأسها قصير!»

صحت في نفسي: «أخذته موجة الغرام!» ثم قلت له: «حسناً سنتناول العشاء معاً هذا المساء».

وهكذا تعرفت بسلوى شقير. هل قال آرتشي انها جميلة؟ ما زالت سلوى قرة عين آرتشي وصارت أيضاً السفيرة روزڤلت رئيسة دائرة المراسم في ادارة ريغن، وهي وان ناهزت الخمسين من العمر ما زالت تستلفت الأنظار. فكيف إذاً بآنسة تخرجت لتوها من كلية ڤاسار للبنات وهي في العشرين؟

بعد فترة قصيرة من الزمن عاد آرتشي والتحق بوكالة الاستعلامات المركزية وسلوى إلى جانبه على انها أمينة سره الخاصة وغير الرسمية. وكان قريبه كيم في تلك الأثناء قد أحدث انقلاباً داخل الوكالة فأطاح بنِك مايكلسون وركَنَه في وظيفة وضيعة في دائرة التسجيل، وجعل نفسه المشرف ليس فقط على عمليات جمع المعلومات في الشرق الأوسط وجنوب شرقي آسيا وافريقيا بل وعلى عملنا الجديد في تلك المناطق المتضمن العمل السياسي والحرب النفسية والحرب الاقتصادية وكذلك الأعمال شبه العسكرية. عُيِّنت نائباً لكيم لشؤون الاستعلامات وأعطيت مجالاً واسعاً للاطلاع على نشاط نائبه الآخر نِد لوكارد المسؤول عن عمليات القسم السرية غير المتصلة بجمع المعلومات. وعملنا جميعاً بقيادة فرانك وايسنر رئيس المنظمة الجديدة التي انشئت أثناء غيابنا، وسميت: «مكتب تنسيق السياسات»، أي انها تحولت إلى الذَنَب الذي يحرك الكلب كله. ولما كان آل روزڤلت وآل دالس أصدقاء قدماء ولما كنت على علاقة حميمة بالاسرتين صارت الزمرة المؤلفة منا نحن الثلاثة تشكل فريقاً مستقلاً. من ناحية أخرى درج فرانك وايسنر على دعوة كيم إلى مكتبه (مظهراً له الكثير من الاهتمام به) للوقوف منه على معلومات ليس هو في الواقع بحاجة إليها، أو على دعوتي ودعوة آرتشي للغرض نفسه (متخذاً معنا موقف القائد الصارم) فقط لتذكيرنا بأنه رئيسنا.

تعرفت إلى كيم في أواخر العام ١٩٤٧ عندما قمنا أنا وآرتشي برفقته بجولة على القلاع الصليبية وأمكنة غير مطروقة كثيراً في سوريا ولبنان. مرّ على صداقتنا أربعون سنة كان كيم في عشر منها رئيسي والمدافع عني (يحميني من مختلف الذين عملت بأمرتهم، وخصوصاً من دِك هِلمز، الذين لم ينفكوا عن محاولة سلخ جلد رأسي لأسباب ما زلت أجهلها). كما كان خلال خمس عشرة سنة أخرى زميلاً في العمل ثم في الخمس عشرة سنة الأخيرة صديقاً للعائلة تتقلب صداقته صعوداً وهبوطاً بشكل متعاكس مع أوضاعي الخاصة. (كيم صديق عند الضيق. عندما أربح مليون دولار تسمعه يقول لاصدقائنا المشتركين: «انني قلق على مايلز». وعندما أخسرها يقف بجانبي وهو على أتم استعداد لاعطائي كل ما يملك بما في ذلك القميص الذي على ظهره. وقد أشار عليَّ ابنه جوناثن مرة بأن أذهب إلى أبيه ببدلة رثة وأدّعي الافلاس واستدين منه عشرة آلاف دولار فتعود عندئذٍ علاقتنا إلى سابق عهدها ويرجع كيم فيدخل حياتي من جديد صديقاً ومحسناً).

إبان غيابنا عن واشنطن، أنا في دمشق وآرتشي في بيروت، حدثت أشياء كثيرة كان البعض منها على مستويات رفيعة داخل الحكومة حيث اشتد التنافس على السلطة والنفوذ في أعقاب إصدار مجلس الأمن القومي القرار رقم م. أ. ق ٤ الذي حدّد لوكالة الاستخبارات المركزية صفتها الرسمية، وقرارات أخرى لاحقة مبنية على ادراك الحكومة المفاجىء بأنه إذا كان علينا أن نجابه «النشاطات السرية الشريرة التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي لتشويه غايات ونشاطات الولايات المتحدة» فمن الأحرى بنا القيام بنشاطات شريرة غايتها مصلحتنا. ولكن لما كان هذا الكتاب سيرة ذاتية لا كتاباً عن وكالة الاستخبارات المركزية (يوجد ما يكفي منها في الأسواق) فلن أرهق القراء بسرد التجاذبات الادارية التي حصلت نتيجة تلك القرارات، بل سأركز على التطورات التي طاولتني شخصياً وأعطت العمليات السرية منحاها وصرت فيها من الاختصاصيين مع بعض التسامح.

لدى عودتي من سوريا عام ١٩٥٠ استرعى انتباهي بشكل خاص ذلك التباين الواضح بين نوعيّة موظفي مكتب تنسيق السياسات ونوعية أولئك العاملين في مكتب العمليات الخاصة. فمعظم موظفي مكتب العمليات الخاصة هم مثلي من موظفي الاستخبارات المحترفين القدامى في مكتب العمليات الخاصة انضم إليهم بعض الموظفين السابقين في مكتب التحقيق الاتحادي الذين التحقوا بنا بعد الحرب اثر استلام وكالة الاستخبارات المركزية أعمال القسم المختص بشؤون أميركا الوسطى والجنوبية في مكتب التحقيق الاتحادي. كان معظم أفراد مكتب تنسيق السياسات من أصدقاء فرانك وايسنر أو آلن دالس الذين عادوا بعد الحرب إلى ممارسة المحاماة أو إلى جامعاتهم، علماً بأن بعضاً من الاختصاصيين بشؤون مناطق معينة هم أصلاً من أساتذة الجامعات. كان معظم موظفي مكتب العمليات الخاصة يعتاشون من رواتبهم ويقيمون في منازل متواضعة في ڤرجينيا القريبة. وبالمقابل بدا لي ان أكثر أفراد مكتب تنسيق السياسات هم من الأثرياء أصلاً وأعضاء في النوادي الفخمة يقيمون في منازل أنيقة في ضاحية جورجتاون أو في مرتفعات وسلي.

أسوق على ذلك مثلاً فأقـول بأن منزل نِك مايكلسون ومنزلي يقعان في مشروع سكني وكلانا يذهب إلى عمله يومياً بالباص. أما فرانك وايسنر ودِس فيتزجرالد وجوني بروس وغيرهم من كبار مكتب تنسيق السياسات فيقيمون في ضاحية جورجتاون ويملك كيم روزڤلت منزلاً فخماً وواسعاً في مرتفعات وسلي قريب من منزل المحسن الآخر إليَّ السناتور جون سباركمن وقبالة منزل الجنرال والتر ب سميث. على الصعيد الاجتماعي يتخالط أفراد مكتب تنسيق السياسات فيما بينهم وكذلك مع شخصيات مجتمع واشنطن وتظهر أسماؤهم في أعمدة النشاط الاجتماعي في الصحف الهامة كالواشنطن بوست والايڤنينغ ستار. أما موظفو مكتب العمليات الخاصة فعلى علاقات ودية بين بعضهم البعض وخلال وجبات غداء العمل، كما قامت علاقات صداقة حميمة بين البعض منهم أثناء فترات تزاملهم خارج الولايات المتحدة.

تنافس العملاء داخل الوكالة

جئت على ذكر ذلك لصلته المباشرة بوضعي الخاص باعتبار انني أخذت أبتعد عن مجال جمع المعلومات التجسسية وأتوجه نحو العمل الخفي نظراً لمواهبي التي شرعت بتنميتها في دمشق وكذلك بفضل كيم روزڤلت الذي قدّرها حق قدرها. صباح أحد أيام العمل دخل مكتبي مليونير شاب يشغل وظيفة متواضعة في قسمنا المتصل بمكتب تنسيق السياسات وقال لي: «إن فرانك ليس مغتبطاً للطريقة التي عالجت بها قصة الباكستان».

سألته: «فرانك؟ أي فرانك؟»

أجاب: «فرانك وايسنر». تساءلت في نفسي عما كان ذلك الفتى يفعله من وراء ظهري بالتحدث إلى رئيسي؟ ولما رأى دهشتي قال: «تحدثنا قليلاً في الموضوع أثناء العشاء مساء أمس في بيت آلن».

لم يسبق لي أن دُعيت لتناول العشاء سواءً في بيت فرانك أو في بيت آلن، الذي كان في ذلك الوقت «المستر دالس» بالنسبة لي، إلاّ كمدعوٍ ثانوي عند أحدهما في حفل استقبال مسؤول مخابراتي كبير في دولة أجنبية. وعليه فإذا كان موظف صغيرٌ في مكتب تنسيق السياسات متمرن عندي يستطيع الثرثرة معهم أثناء العشاء بشأن أمور عظمى تهم الدولة بينما أقف أنا في الصف بانتظار مقابلة أحدهما في ساعات الدوام فذلك يعني بأنني أقف في الجهة المغلوطة من الدار مزوداً بالدعم المغلوط كذلك.

بعد ذلك بيومين قامت بيني وبين فرانك وايسنر مشادة كلامية حادة نسيت تفاصيلها ولكني ما زلت أذكر اني قلت له: «اسمع يا فرانك اننا نتناقش في موضوع أفهمه تماماً بينما أنت لا تعرف عنه شيئاً

على الاطلاق. فلماذا إذاً لا تكتفي بما أقوله لك عنه؟» احمر وجهه ثم انفجر في وجهي فانفجرت بدوري وأخبرته صراحة برأيي في أفكاره وخرجت من مكتبه غاضباً.

وبعد ثوانٍ قليلة وفيما كنت أتعثر بطريقي إلى مكتبي ويداي على صدغي تساءلت: ماذا فعلت؟» أنني أحب فرانك واعلم انه يحبني، ولكن لا أحد يكلمه بمثل ما قلته له. لم يكن ثمة عذر لي. ثم قلت لنفسي بأنه سيطردني! وإذا لم يكن فعلاً قد طردني فيجب أن يفعل. فلو حدث معي شيء كهذا لطردت من كلمني على ذلك النحو. وفكرت بأنني لن أتمكن في الشهر المقبل من دفع بدر اجار البيت ولا شراء المواد الغذائية ولا تسديد أقساط ثمن سيارتي. ولن أتمكن من الحصول على وظيفة أخرى إلاّ بعد أن أغرق في الديون وتصبح شيكاتي مرفوضة لأنها دون مؤونة.

استدرت على عقبي وعدت إلى مكتب فرانك واعتذرت. اعتذرت؟ قلت: «لست أدري ماذا دهاني يا فرانك وليس بمقدوري التعبير عن مدى أسفي. انك تعرف الموضوع أكثر مني بكثير. وأعدك بأنني لم ولن أكلمك هكذا ثانية... و» لا أذكر تماماً ماذا حدث بعد ذلك ولكن يخيّل إليَّ أنني ارتميت أرضاً ورحت أقضم زاوية السجادة ندماً وأصيح باكياً: لا تضربيني أرجوكِ لا تضربيني.

«لا عليك لا تفكر في الموضوع وانني آسف أيضاً لأني صرخت بوجهك». أجاب فرانك.

قضي الأمر، ولكن أمضيت ما تبقى من بعد الظهر وكذلك المساء والليل بطوله أندب حالي. تصور أنك تتكل على وظيفة، أي وظيفة إلى حد لا يمكنك معه البوح بما تعتقد انه صحيح او التمسك بموقف تعرف بأنه الأفضل ليس فقط لبلدك بل وكذلك لمنظمتك ولرئيسك الذي يعارضك دون أن يقلقه احتمال نزول كارثة به. أدركت أنني في ذلك الوضع تماماً. وصباح اليوم التالي دخلت مكتب فرانك وذكرته بالاعتذار الذي قدمته بالأمس ثم قلت له بأنني لا أعني أي كلمة منه!

قلت له: «أعتقد بأنني أتكل مالياً على وظيفتي إلى درجة لا استطيع معها القيام بأعبائها على الوجه الأفضل إن تجاه نفسي أو تجاهك وعليه لا بد لي من الاستقالة قبل أن أطرد. لم أقرر بعد ما الذي سأفعله. لكنني أعتقد انه من الأسهل عليَّ العثور على شيء ما عندما لا أكون تحت ضغط الحاجة من العثور عليه وأنا واقع تحت ضغطها».

دُهش فرانك لذلك الكلام، ولا بد انه استغرب كيف يكون المرء بحاجة إلى وظيفة. ففي العالم الذي ينتمي إليه عندما يحصل «خلاف في الرأي» بينه وبين رئيسه يستقيل فوراً لأن ذلك هو المسلك المشرف الوحيد. ثم يعود إلى ممارسة الحقوق أو إلى التدريس في الجامعة أو إلى مزرعته في ماريلند ويبقى فيها حتى يستدعيه رئيس الجمهورية الجديد أو وزير الخارجية الجديد فيعود إلى الخدمة. أما الفكرة بأن أي انسان في مركز مثل مركزي عليه اتخاذ قراراته وفي رأس أفكاره انعكاسات تلك القرارات على استمرار بقائه في وظيفته أو عدمه، فإنها فكرة يصعب على العقل القبول بها.

استفسر عن أوضاعي المالية ليس من باب التطفل على شؤوني الخاصة بل للوقوف على معلومات اضافية عن دوافع أحد مرؤوسيه لم يكن قد وقف عليها بعد، ثم قال: «اسمع إذا كنت تواجه صعوبات في تسديد فواتيرك فسأدع كيم يحصل لك ترقية جديدة، وإذا ما شعرت ثانية بأنك ما زلت بحاجة سنجد لك شيئاً ما. لا تقلق». لم يسبق لي حتى ذلك اليوم ان رأيت فرانك مبتسماً، ولما خرجت من باب مكتبه استدرت فرأيته يهز رأسه ويضحك.

ولما لم يكن ثمة ما يغريني آنذاك لترك وكالة الاستخبارات المركزية، قدّرت تطمينات فرانك

خصوصاً وانها مقرونة بايماء إلى انني إذا ما بقيت فيها سأنتدب للقيام بالعمل الذي طالما حلمت به. أخبرت كيم بما جرى بيني وبين فرانك فقط لأجد انه مثل فرانك لم يكن يخطر بباله ان بعضاً من مرؤوسيه بحاجة إلى وظائفهم. ولكنه، خلافاً لفرانك ضمن تطميناته أشياء حسية إذ قال لي: «ابق معنا وسأسهر على ان تسند إليك مهمة توصلك إلى مكان ما خارج الوكالة أو داخلها. ولكن عليك البدء بالتفكير للأمد البعيد وليس بكل قضية على حدة كما هي عادتك». كرّر إشارته هذه أكثر من مرة منذ أن اجتمعنا للمرة الأولى: أي أن «التفكير للأمد البعيد» يجب أن يكون بمعظمه في مجال الأعمال الخفية لا بمجرد مراقبة عمليات جمع المعلومات السرية التي يقوم بها فرعنا.

انتبهت إلى تلك الاشارة منذ المرة الأولى. وبذاك أخذت أقضي أوقات فراغي كلها في مطالعة جميع التقارير والمحاضر والوثائق التي ترشدني إلى أسباب انشاء مكتب تنسيق السياسات ودمجه لاحقاً بمكتب العمليات الاستراتيجية ثم استحداث المنصب المسمّى نائب المدير لشؤون التخطيط، وتحولت بعد ذلك إلى دراسة التوجيهات والأوامر التي قادتنا إلى بداية المشاكل مع الجناح اليساري في البلاد. وبعد عدة سنوات برزت حركة تنادي بأن العمل الخفي بحد ذاته مُنكر لا يُحتمل في مجتمع ديمقراطي قوي كمجتمعنا يستطيع تحمل أي خسارة قد يسببها الامتناع عن اللجوء إليه. وهكذا درجت عادة إلقاء اللوم علينا وتحميلنا مسؤولية كل مشاكل العالم، والادعاء أن بمقدورنا عدم الاهتمام بالعالم كله، بل وعلى العكس ان على العالم أجمع أن يتأثر بمواقفنا ويقلق منها. وهنا تجدر الاشارة إلى ان تفكيرنا لم يأخذ ذلك المنحى في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات. فقد منعنا هتلر من السيطرة على أوروبا وأطلقنا خطة مارشال بقصد رفع مستوى معيشة الأوروبيين، بمن فيهم أصدقاؤنا وأعداؤنا السابقون على السواء، فارتفع إلى ما لم يبلغه من قبل، وتحولنا إلى الوقوف بوجه عدو جديد، عدو للأوروبيين ولنا، لا تقل مطامحه سوءاً عن مطامح العدو الذي قضينا عليه. إننا لا نشعر بحاجة إلى الاعتذار من أحد وبأن لا أحد سوى الهبل يستطيع منازعتنا في حاجتنا إلى الأعمال السرية حسب تفسيرنا لها خصوصاً وان الأهداف التي ترمي إليها يقرها الشعب الأميركي بغالبيته الواسعة.

لاحظت أيضاً مفارقة ثانية. فقد كان من الواضح تماماً أن التوجيهات والتعليمات ومثلها الأسباب الموجبة انطوت ضمناً على ان من مهام وكالة الاستخبارات المركزية «ممارسة الحيل القذرة». ولكن بدا لي ان أفراد الوكالة الذين أنيطت بهم مهمة البحث عن وسائل التطبيق أغفلوا التوجيهات وما انطوت عليه ضمناً. وكان من الواضح اننا فيما أخذنا نطلق العنان لمخيلاتنا في تصور الحيل القذرة لم نعر الغرض منها والغاية التي ستُستعمل من أجلها اهتماماً يُذكر. فقانون الأمن القومي الصادر عام ١٩٤٧ نصّ فقط على ان وكالة الاستخبارات المركزية التي خُلقت بموجبه مهمتها: «القيام بأعمال وواجبات أخرى متصلة بالاستخبارات وذات علاقة بالأمن القومي حسبما يُصدره مجلس الأمن القومي من توجيهات بين آن وآخر». كما ان التعليمات الايضاحية اللاحقة والمتعلقة صراحة بمكتب تنسيق السياسات حدّدت مهمتها على انها مجابهة محاولات الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكه «الرامية إلى تشويه غايات ونشاطات الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى». صحيح أن كلمتي «سري» و «خفي» لم تردا في النصوص، ولكن مطالبتنا بالاشتراك في أعمال تكتنفها السرية والغموض تضمنتها بوضوح الشروط الواردة في القانون المذكور لجهة وجوب تخطيطها وتنفيذها بشكل لا يتضح منه لأي شخص غير مأذون له بذلك ان الحكومة الأميركية على علم بتلك العمليات أو مسؤولة عنها، وأيضاً بشكل يسمح للحكومة التنّصل منها ومن أي نتيجة تترتب عنها تنصلاً مقبولاً قابلاً للتصديق».

في حينه تبين لي من موقفي بأن ما كان يُطبخ ويمر تحت أنف فرانك وايسنر وكيم روزفلت ليس مسيئاً بل يبعد كل البعد عما حاول خصوم الوكالة الصاقه بها من اتهامات. فلم تكن مطلقاً مجموعة من

عباقرة السوء نتآمر على غسل أدمغة العالم والسيطرة عليه بحيل الخرافات العلمية التي تُعرض على الشاشات الصغيرة. بل كنا على العكس من ذلك تماماً، مجموعة أطفال يلهون بألعاب جديدة رُخص لهم بالسرقة.

لقد تمكنت تارة بأوامر مباشرة من كيم أو من فرانك وطوراً بفضولي الشخصي ورغبتي السليقية بالتلصص («إذا كان المرء لا يستطيع التجسس على قيادته فكيف سيتمكن من التجسس على قيادة أعدائه؟» هذه احدى فلسفاتي)، تمكنت من رؤية كل المقترحات التي مرت بمكتبيهما، باستثناء القليل القليل منها. لذلك استطيع التأكيد الموثوق إلى حد ما انه لم يمر من تحت أنفيهما أي اقتراح تُشتم منه رائحة أساليب الغستابو أو «ينطوي على «انتهاك للحريات المدنية» أو يُعتبر انحرافاً عن مبادىء الديمقراطية. لا شك ان بعض الخطط الخيالية عرضت ولكنني استطيع التأكيد بأن أسوأ ما يستطيع أي كان قوله فيها، رغم الاجواء السائدة حالياً من حيث التمسك بالأخلاقيات، هو كونها بعيدة عن مجابهة «النشاطات السرية الشريرة التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي».

روح الاستنباط الشيطانيّة

دعوني هنا أسوق مثلاً ـ ليس هو بالأمثل ولا هو بالأسوأ أو بالنموذجي، بل الأفضل من حيث تناغمه مع سطحية هذه السيرة الذاتية. وهو مثل لا يحتاج إلاّ للقليل من التجميل والاضافات ليصبح حلقة تلفزيونية ناجحة وحديث الناس. إنه المخطط الذي تذرعت به لقضاء اسبوع او اثنين في نيويورك كي أطمئن عن حال صديقي آرتشي روزفلت بين زواجيه.

تدير السيدة مكمورتي «مدرسة السيدة مكمورتي للفتنة والأناقة» والمدرسة هذه من بنات أفكار ضابط من جورجيا اسمه المستعار «ادريان لوندكويست». والسيدة مكمورتي من سيدات مجتمع واشنطن الراقي عيَّنها كيم للإشراف على وحدة صغيرة اسمها وحدة الملابس ومستحضرات التجميل غايتها دعم عمليات الهرب والمراوغة التي كان يقوم بها ستيف ميد في آسيا الوسطى. في اجتماع أول الاسبوع الذي يعقد صباح كل يوم اثنين، وكان ذلك صبيحة يوم ممطرٍ في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٠ قال لنا لوندكويست انه أمضى عطلة الاسبوع في نيويورك منشغلاً بنشاطات اجتماعية أقنعته بأن الأسرار الهامة المتصلة بالأزمات الدولية إنما هي في أذهان الدبلوماسيين الافريقيين والآسيويين والجنوب اميركيين وبأن استخلاصها منهم ممكن بواسطة نساء جميلات مُدربات تدريباً خاصاً بذلك.

وجّه لوندكويست نظرة نحوي لها مغزاها وقال: «كم نعلم جميعاً نحن أهل الجنوب ان الرجال سواءً من اللون الأسود أو الأسمر أو الأصفر يفقدون كل شعور بواجب كتمان الأسرار لدى احتكاكهم بنساء بيض البشرة لهن صدور وأقفية عارمة». ومضى قائلاً: بأن وكالة الاستخبارات المركزية، وقد جمعت معظم موظفاتها من كليات شهيرة للبنات مثل سميث ورادكليف وفاسار وبراين مور، لديها إذاً معين من النساء اللواتي يمتلكن تلك المؤهلات ويستطعن بالتالي خدمة بلادهن بالعمل في نيويورك يستخلصن الأسرار من موظفي الأمم المتحدة، خدمة أفضل من جمع نتف من المعلومات من الصحف والاذاعات في واشنطن.

في يوم الاثنين هذا تأخر فرانك وكيم بالعودة إلى مكتبيهما من عطلة نهاية الاسبوع، فترأس الاجتماع ضابط أخرق، كانت آخر مهامه الميدانية «ترتيب» الانتخابات اللبنانية عام ١٩٤٧، اسمه المستعار «ورثنغتن آلسبوري» يشغل حالياً منصباً اسمه الرنان «مدير الادارة الاحتياطية» مهمته تنظيم جردة متقنة بمواد وأدوات التخريب الالمانية التي جمعت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية والتي لم يكن قد تمّ حتى ذلك التاريخ العثور على وسيلة مقبولة إدارياً للتصرف بها.

في الجو الذي ساد الاجتماع وبغياب الأيدي الرادعة تحول اقتراح ادريان لوندكويست من مذكرة ادارية بسيطة إلى عرض رسمي لمشروع، إلى أمر يجيز للوندكويست بالشروع «بالعمليات الاستقصائية». وعليه وزِّعت مذكرة خدمة على جميع النساء العاملات من رتبة سكرتيرة عامة درجة تاسعة وما فوق ورد فيها احتمال انفتاح مجالات للعمل في مجالات «تتميز بالتحدي والسوانح» للنساء العاملات في الوكالة اللواتي يتمتعن «بالذكاء والتربية والرغبة» و يستطعن اغراء الرجال المنتمين «إلى خلفيات حضارية بعيدة جداً عن خلفيتنا» اغراء صاعقاً. ولم تغفل المذكرة التلميح إلى أن مكان العمل يقع في نيويورك.

وعلى الرغم من عدم تحديد المهمات فلا يخفى على أي فتى نبيه في العاشرة من العمر انها تتضمن مناسبات اجتماعية براقة في النوادي والمطاعم الفخمة ومجالات للتحدث قليلاً بالفرنسية أو الاسبانية وبعض النشاط الجنسي والغراميات التي تتوهم سيدات الوكالة انهن مقبلات عليها فور تقديم طلباتهن. ورأى لوندكويست ان الاغراء الأخير من شأنه استقطاب فتيات كليات سميث ورادكليف وڤاسار وبراين مور لأنهن مثل نظرائهن خريجي جامعات هارڤرد وييل وپرنستون الذين انسجموا في الحرب العالمية الثانية مع الكذب والاغتيال وتدمير الخزنات خدمة للأغراض الوطنية سيكنّ سعيدات للمبيت مع أي كان كل ليلة إذا ما استطعن اقناع أنفسهن بأن في ذلك خدمة للعم سام.

تبين من اقبال المرشحات على تلبية الدعوة بالحضور إلى قاعة التمارين الرياضية في مبنى الوكالة ان تقديرات لوندكويست لم تخطىء كثيراً كما جاء الاستعراض، وهو أنسب كلمة لوصف ما جرى، أكبر مهزلة في تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية. فقد لبّى الدعوة أربع وثلاثون شابة راوحت ملابسهن بين أروع ابتكارات كريستيان ديور وبين تصاميم انسيسترال ثورغود، رئيسة فرع الألبسة في الوكالة. دخلت المرشحات واحدة تلو الأخرى إلى «سيناريو كوكتيل» من اعداد قسم التدريب وقمن بأدوار مدعوات يسعين للاختلاط بجمهور المدعويين بهدوء ومع مراعات كامل اللياقات الدبلوماسية. وكان على كل مرشحة التوصل إلى التعرف على الشخص «الهدف» المحدد لها بأي وسيلة تبتكرها (قام بدور الشخص ـ الهدف أحد أفراد المدربين الذي تدرب بدوره على التصرف كأحد دبلوماسيي العالم الثالث) وتدخل معه في حوار وتجعله بتصرفاتها يشعر ملزماً بتدبير لقاء آخر في ظروف تسمح ببعض التصرفات الطائشة.

أما الحضور، وقد جلسوا في شرفة معتمة، فترأسهم كيم روزڤلت الذي سمع بالمشروع بعد أن بلغ من التقدم نقطة اللارجوع وأصرَّ على الحضور لأنه اعتبر نفسه المرجع الوحيد في الوكالة وصاحب الخبرة العملية بالأساليب التي ستُعرض. فخلال الحرب العالمية الثانية قبض عليه الالمان فيما كان في احدى مهامه وراء خطوطهم وتحمل ببطولة العذاب الأليم الذي أنزله به عملاء الغستاپو دون أن يحصلوا منه على أكثر بكثير من اسمه ورتبته ورقمه التسلسلي أدلى بها إلى عميلة في الغستاپو أشفقت عليه وهي تستمع بانتباه إلى شرحه ان عزرا باوند هو المؤلف الحقيقي لكتاب «الأرض الخراب» رسخت ذكرى ذلك الاختبار في ذهنه فأصرّ، وهو مدير جميع العمليات السرية في الشرق الأوسط وافريقيا على الاشراف شخصياً على كل الموظفات التي تتضمن مهامهن مجرد التعرف البسيط على أي شخص من المناطق الواقعة ضمن نطاق مسؤوليته.

أما باقي أفراد الحضور فكانوا روجين آتكنز (اسم مستعار) وهو أغنى موظف في الوكالة (تقدر ثروته بمئة مليون دولار) وانسيسترال ثورغود مدير دائرة الملبوسات والليدي وِندرمير (اسم مستعار)

اختصاصية التجميل وستيف ميد وهو بطريقه إلى آسيا الوسطى بمهمة الهرب والمراوغة، هذا طبعاً بالاضافة لي. يعود ادعاء اتكنز بمعرفة اغراء النساء إلى تاريخ زيجاته (له أربع زوجات سابقات يتقاضين منه نفقة تفوق المليون دولار سنوياً). ولعل سبب وجود ثورغود وويندرمير بين حضور الاستعراض كونهما اللواطيين الوحيدين الذين منحتهما الوكالة براءة أمنية بكامل معرفتهما لواقعهما. أما وجود ستيف بين الحضور فبسبب بعض أعماله الخارقة التي حملت إيان فليمِنغ على تأليف حلقة في أفلام جايمس بوند على أساسها. ولأسباب لن أبعث الضجر في نفوس القراء بسردها كنت أنا الخبير الوحيد في ذلك الموضوع. على كل حال وبصرف النظر عن مهارتنا أو عدمها كلجنة محكمين كان علينا اختيار المرشحات العشر أو الاثنتي عشرة اللواتي رأينا فيهن أفضل صفات الاغراء ونرسل بهن إلى السيدة مكمورتي ليتدربن تدريباً خاصاً مركزاً.

جرى العرض شبيهاً بتمثيلية سخيفة قام بأدوارها فريق من الهواة القرويين. كانت المرشحات كلهن مقبولات من حيث الاغراء في ظروف العمل العادية في مكاتب الوكالة. ولكنهن بألبستهن المبهرجة وحركاتهن المدروسة كن حتماً ليقززن نفس أكثر الرجال حرماناً. إلّا ان العرض تضمّن درساً كان علينا نحن الرجال الذين نعرف العالم أن ندركه قبلاً: أي ان المغريات التي ستعرضها النساء في مطاردتهن الرجال هي تماماً الأسباب عينها التي تحمل أي رجل على التهرب منهن ـ هذا إذا كان رجلاً محترماً وعلى أدنى درجة من درجات الحضارة، لا مجرد قرد همّه الوحيد الفوز بأنثى سهلة المنال. ان القردة الذين يبحثون عن انثى سهلة المنال (كما يحدث لنا جميعاً بين آن وآخر) لا يتناسون السرية بالسهولة التي أشار إليها أدريان لوندكويست. ولو ان أي امرأة من الوكالة تصرفت على الطبيعة كتصرفها في مهرجان لوندكويست لما استطاعت الحصول على أكثر من دليل للهاتف... إنما مقابل التضحية بالكثير من الشيم.

لا بأس فقد تعلمنا درساً أو اثنين عما يجب ألّا نفعله في استخدام الجاسوسات المستقبليات، علماً بأن مكتب العمليات الخاصة وفّق ببعضهن وبأنه من الواجب سرد القصة التالية لأنها تصور العفوية البريئة التي اتصفت بها الأيام الأولى من أعمال مكتب تنسيق السياسات، عفوية بريئة حاول خصوم الوكالة استغلالها على انها روح الاستنباط الشيطانية السائدة في الوكالة. بالطبع لم يتمتع جميع المسؤولين فيها بذلك المستوى الرفيع من روح الابتكار، ولكن كان على زملائنا في مكتب تنسيق السياسات لو انهم حملوا البحث عن وسائل الاغراء الفعالة على محمل الجدية، كان عليهم استشارة الخبراء في الموضوع لا اطلاق العنان للحرية المفاجئة التي هبطت عليهم فراحوا يقومون بتجارب عشوائية. كان عليهم استشارة الخبراء، وهل أفضل من ستيف ومني خبرة؟

وخدمة للمؤرخين من الأجيال القادمة لا بد لي من اختتام هذه الوصلة بالقولة ان السيدة مكمورتي وهي من سيدات مجتمع واشنطن الراقي (احدى زوجات روبين اتكنز السابقات، وذات ماضٍ حافل ـ تزوجت ثلاث أو أربع مرات «وكلها زيجات ناجحة وسعيدة» حسب اصرارها ومفاخرتها) وانها استلمت ادارة «مدرسة المفاتن» عندما كان الغرض منها اعطاء دروس في البروتوكول لزوجات مندوبي الوكالة الذين يعينون في مناصب دبلوماسية في الخارج. ولكن السيدة مكمورتي جعلت من نفسها اسطورة في الوكالة بأن دفعت بمدرستها خطوة كبيرة إلى الأمام. إذ راحت توصي بعض المتدربات المختارات بعناية فائقة بعدم اطلاع أحد على الاطلاق بما في ذلك أزواجهن على الدروس المتقدمة في فنّ التجسس ثم تحولهن إلى رئيسِ شعبة العمليات المخفية ريتشارد هيلمز الذي

يسند إليهن مهمات خاصة لا علم لأزواجهن بها مطلقا. في الكثير من الحالات لم يدر الأزواج بمركز زوجاتهن المهني (ولا بحساباتهن المتنامية في المصاريف السويسرية)، علماً بأنه حدث في احدى الحالات فضيحة استرعت انتباه ورضا آلن دالس. فقد زُوِّد موظف جديد أرسل إلى بيروت بتعليمات تقول إن صلة الوصل بينه وبين فريق اثني معين موظف لم تحدد التعليمات ما إذا كان ذكراً أم انثى، يُعرف باسم مستعار هو «واندرلَست» ويُعتبر من أفضل العملاء. ولما وصل الموظف الجديد إلى بيروت اكتشف بأن «واندرلَست» ليست سوى زوجته التي طالما حسبها بلهاء، فهدّد بالطلاق منها وبالاستقالة من وكالة الاستخبارات المركزية. ولكنه لم يستطع إلى أي من التهديدين سبيلاً ذلك لأن المهمة الموكلة إليه ليس فيها سوى مخرج واحد وان «واندرلَست»، حسب تعليمات القيادة الصارمة والواضحة، جزء لا يتجزأ من مهمته لا من المخرج.

من حيث حاجة التاريخ والمؤرخين يكفي ما أوردته من تلك الحكاية وفيها أيضاً نقطتان هامتان جديرتان بالانتباه. **أولاً**: إن ما أوردته كان مجرد اختبار أي حماقة اخرى من تلك التي ارتكبت خلال المرحلة الأولى من قيام وكالة الاستخبارات المركزية. وهي تجربة لم تستمر فضلاً عن انها لم تشغل من اهتمام فرانك وايسنر أو كيم روزفلت سوى أعشار الثانية، ولا حازت على اهتمام آلن دالس الذي لعله لم يسمع بها إلاَّ بعد أن صارت واحدة من اساطير الوكالة. هذا مع العلم بأن في الموضوع مواداً وافرة تمكن أصحاب المقالب من نسج حكايات كثيرة تصلح للتندر بها في لقاءات قدامى موظفي الوكالة جيلاً بعد جيل. وما من ريب انها من قبيل انطوائها على مواد للتنكيت ستدوم أكثر من أي اختبار آخر حملته الوكالة على محمل الجدية. أما **النقطة الثانية** فهي ان تلك الحماقة خارجة تماماً عن مسؤوليات ومهام مكتب تنسيق السياسات ولما كان الغرض منها ابتكار وسائل جديدة لجمع المعلومات وجب حصر المسؤولية عنها بمكتب العمليات الخاصة الذي، كما سبَّقتُ، حدد الغاية ووسائل بلوغها.

إن ما أوردته اعلاه ينطبق على مختلف الاختبارات الأخرى التي أجرتها الوكالة خلال إيامها الأولى. ولما بدأ تفعيل مكتب تنسيق السياسات كان جميع أركان الوكالة على ادراك تام بالحاجة إلى ما عليهم انجازه وبالحدود المرسومة له للعمل ضمنها. غير أن بعض عناصر دوائر الوكالة الذين لا علاقة لهم مطلقاً «بمكافحة النشاطات الشريرة الخفية التي يقوم بها السوفيات» استغلوا بعض الغموض في تعليمات وتوجيهات مجلس الأمن القومي فأخذوا يلجون مجالات ما كانوا ليحلموا بأكثر من التفكير بها. فمشاريع هؤلاء، لا مشاريع مكتب تنسيق السياسات، هي التي تحولت إلى قرائن استغلها أعداء وكالة الاستخبارات المركزية.

صحيح أن أحد فتياننا دسَّ في شاي الرئيس الاندونيزي سوكارنو مادة مهلوسة قبيل القائه خطبة كانت عبارة عن مطالعة عقلانية جداً مؤيدة «للحياد الايجابي». ولو تُرِك على سجيته وطبيعته لجاءت الخطبة حفنة من الكلام الفارغ.

وجربنا الاتصال بين شخصين بواسطة «الادراك الخارج عن الحس» بين السيدة براون في رِتشموند بولاية ڤرجينيا وبين زوجها السيد براون في استنبول، فاستطاعت السيدة براون بالتخاطر (توارد الأفكار) نقل رسائل إلى زوجها وصلته بدقة لا بأس بها وقبل أن تصله الرسائل المثيلة التي نقلت إليه بواسطة قنوات الاتصال التي تستعملها وكالة الاستخبارات المركزية.

أحد عملائنا، وقد تتلمذ على أيدي كاتب قصص الخرافات العلمية رون هوبارد نفسه، أدخلناه جماعة من المؤمنين بالسحر والتنجيم ثم أخذنا نحصل على ما نطلبه له من النفقات العملانية (على غرار

ما فعلنا من أجل الاستاذ داوود الذي عمل بخدمة العقيد ماثيسون) فحوّلها في النهاية هي ومدخرات عمره لحساب تلك الجماعة وقضيتها.

لكن مشاريعنا «المشؤومة والبديعة» وان كانت كلها مسلّية جداً لم تكلف أي مال أو ان كلفت فالقليل منه، كما لم تخلّف أي ضرر دائم هذا فضلاً انها، تستأهل كل درهم أنفق عليها لقاء ما اكسبتنا من وقاحة مهنية. وعلى الرغم من رهبتها لم تتمكن لجنة مجلس الشيوخ المميزة المختصة بشؤون الاستخبارات من العثور على حالة واحدة وقع فيها فرانك وايسنر أو كيم روزفلت على عملية لغسل دماغ أو تحوير تفكير أو تبديل شخصية أو اغتيال أحد، أميركياً كان أم أجنبياً. وقد حصل بعض اللغط عن خطط أعددناها لدس مادة في سيغار كاسترو يؤدي تدخينه له لأن يسقط شعر ذقنه. وجاءني أحد المحققين من اللجنة المذكورة التي يرأسها الشيخ فرانك تشيرتش ليستجوبني ويسجّل إفادتي بشأن المادة التي دسّها أحد فتياني في شراب سوكارنو. هذا كل ما في الأمر. فهل يستأهل كاسترو وسوكارنو هذا الاهتمام كله؟

لقد أجريت جميع المشاريع التي استرعت انتباه لجنة تشيرتش خارج وكالة الاستخبارات المركزية وقام بها علماء أو علماء مزيفون تستخدمهم جامعات وشركات لصنع الأدوية والعقاقير بموجب عقود مع الوكالة من أجل غايات اعتبرناها محض اختبارية كما اعتبرنا ان ليس ثمة أي ضرر من أن يعلم المرء بالأشياء التي يمكن تحقيقها. واستناداً إلى ذلك المفهوم قام اولئك «العلماء»، أو سمِّهم ما شئت، بصنع مواد تجعل «الشخص المستهدف» يقول الحقيقة أو يهلوس أو يتصرف بطريقة تؤدي إلى هلاكه أو يسقط ميتاً دون إمكانية العثور على سبب الوفاة. كان كل ذلك مسلياً للغاية مما جعلني أكتب مقالاً فيه لمجلة ذي نيو يوركر. وقد تضمن المقال اختباراً أجري في احدى الجامعات وشمل رئيس فريق الباحثين الذي عاد إلى بيته تفوح منه رائحة كريهة إلى حد لم يطق معها أفراد عائلته البقاء معه تلك الليلة. وأوردت فيه أيضاً كيف قام واعظ معمداني بالقاء عظة الأحد حشاها بما تيسر له من بذاءات عوضاً عن الوقار الذي اتّسمت به كل عظاته السابقة.

تملكتنا الدهشة كما تملكت الرأي العام عندما ذاعت قصة ذلك المسكين الذي تناول على يد أحد الباحثين حبة إل. اس. دي المهلوسة فقفز من الطابق العاشر صائحاً: «انظري يا أماه انني استطيع الطيران». ولكن السناتور تشيرتش الذي أخذت الوكالة تقلقه لم يقدر الناحية الفكاهية من الحادث حق قدرها. ولما أخذ المحققون في لجنته يتوغلون أكثر فأكثر في زوايا وخبايا الوكالة عثروا على اختبارات تُجرى في مجال الحرب الجرثومية وفي تحوير الشخصية وفي محو الذاكرة وفي أصول الاغتيال والله أعلم بما اكتشفوه أيضاً. في أواخر العام ١٩٥٠ كلفني كيم بالبحث عن مشاريع أخرى من المشاريع «المشؤومة والبديعة» التي يمكن اكتشافها من قبل لجان تحقيق أخرى قد تأتينا متطفّلة، فعثرت على بعض منها تنشرح لها الصدور وتبتهج بها العقول. ولكن وجود تلك المشاريع لم يدل على الشر بمقدار ما دل مرة أخرى على ما يمكن أن يحصل في أقبية ودهاليز مصنع للأحلام مثل وكالة الاستخبارات المركزية بمجرد غفلة من عين كبار المسؤولين عنها.

إلّا انني استطيع الجزم والتأكيد، خدمة للحق والحقيقة، بأنني لم أعثر في تحرياتي في أواخر العام ١٩٥٠ ولا في تلك التي أجريتها في أيار (مايو) ١٩٥٣ على حالة واحدة استعملت فيها منتجات عباقرة الباحثين إلّا على أشخاص تطوّعوا للقيام بدور جرذان اختبارات آدميين. كما استطيع القول استناداً إلى سلطات موثوقة بأن المناسبات الوحيدة التي خطر فيها للوكالة خاطر استعمال عقاقير الافصاح بالحقيقة أو تحوير الآراء أو السموم جاءت بمبادرات من سلطات أعلى مقاماً من وكالة الاستخبارات المركزية،

ومن البيت الأبيض على وجه التخصيص. وتضمنت تلك المبادرات مؤامرات لاغتيال باتريس لومومبا في الكونغو وفيدل كاسترو في كوبا ـ علماً بأنها كانت مجرد خطط وليس محاولات فعلية.

لنعد الآن إلى قضايانا. كيف قضينا أوقاتنا بين ١٩٥٠ و١٩٥٣ في مكتب تنسيق السياسات؟ فكما قلت سابقاً، لم أكن قد انضممت رسمياً بعد إلى المكتب المذكور، بل كانت مهمتي في مكتب شؤون الشرق الأدنى وافريقيا برئاسة كيم روزفلت. كما انني لم اجرؤ على غزو مكتب نائبه تِد لوكارد إلاّ بأمر صريح من كيم. ومتى كان يأتيني الأمر الصريح هذا؟ ما كان مثل ذاك الأمر يأتيني إلاّ عندما يتهم محقق من الكونغرس أو صحافي فضولي مكتب التنسيق بالقيام بأعمال أمره بها مكتب العمليات الخاصة أو دوائر الأمن أو مكتب الاستعلامات السرية أو دوائر اخرى في الوكالة استجابة لتوجيه صادر عن مجلس الأمن القومي برقم م. ا. ق ٢/٥٠ يحدد بصراحة وجوب قيام مكتب التنسيق دون سواه بالتحقيق. غير أن ذلك لم يشغل من وقتي إلاّ عشره أو أقل.

ولكن، إذا كان «فرع الحيل القذرة» في وكالة الاستخبارات المركزية، حسب تسميته من قبل الرئيس ترومن بالذات، لا يقوم بحيل قذرة فماذا عساه يعمل إذاً؟ انني أصف هنا تلك الفترات التي كنت أقضيها في واشنطن بين المهمة والأخرى اللتين أكلّف بهما في الخارج. وأعود لأكرر: مهما بدت مرعبة لنقّاد الوكالة اليوم نشاطاتنا في تلك الحقبة وما نُسب الينا من نشاطات فيها فقد كانت جميعها متناغمة مع ما أراده الشعب الأميركي آنذاك. ففي نظر الرأي العام الذي ابتهج بمشاهدة فيلم «مكتب التحقيق الاتحادي في السلم والحرب» وبقراءة روايات جايمس بوند وصفق لمحاولات السناتور جوزف رايموند مكارثي المسعورة للايقاع بالناس على أنهم شيوعيون، في نظر الرأي العام هذا كانت وكالة الاستخبارات المركزية تجرّ أقدامها جراً، أو تكاد. وفي أعين مكتب التحقيق الاتحادي ذي الشعبة المتصاعدة بدا حماس الوكالة «لمكافحة الشيوعية» أدنى بكثير مما توقعه المواطنون. ولا ريب في أن نُقّاد الوكالة في أيامنا هذه سيصابون بالذهول لمعرفتهم بأن ظنون مكتب التحقيقات كانت في محلها. فحقيقة الواقع اننا في الوكالة فعلنا كل ما في وسعنا للبقاء بمعزل عن المكارثية ولتنصّل منها. من موقفنا هذا أستنتج أهل مكتب التحقيقات بأن الوكالة ليست، في أفضل حالاتها، «سوى نادٍ بضم مجموعة من المخنثين».

بالطبع لم نكن كذلك، ولكننا كنا قد تحولنا إلى مجموعة من البيروقراطيين. فمنذ اليوم الأول لقيام مكتب تنسيق السياسات انهمك جميع كبار المسؤولين في الوكالة باعداد مشاريع الموازنات وهرمية التنظيم والمسؤوليات فلم يبق لهم الوقت للاهتمام بما يقع على عاتقنا من واجبات. وانخرطنا نحن على المستوى التنفيذي في تلك النشاطات فصارت تأخذ حيّزاً لا بأس به من وقتنا الثمين. ولن أنسى ما اعترانا من قلق في محاولتنا تقرير ما ينبغي ان نطلبه كموازنة لقسمنا، قسم الشرق الأدنى وافريقيا. فهل نحن بحاجة إلى مليون أو إلى خمسين مليون دولار نخصّصها لمصر؟ وكيف لنا ان نعلم ماذا يلزمنا؟ وجاء الفرج. دخل مكتبي الموظف المسؤول عن مكتب سوريا وقال ان حساباته تشير إلى ان مكتبه يحتاج إلى ١,٢ مليون دولار. فإذا مكتب سوريا يحتاج هذا المبلغ لا بد ان مكتب العراق يحتاج إلى ضعفه لأن العراق أهم من سوريا بمرتين وسنحتاج إلى ٤,٨ مليون لمصر لأنها أربع مرات أهم من سوريا، وهكذا دواليك. وبلغ المجموع مبلغاً ضئيلاً، زهاء ٢٠ مليون دولار (بل ربما ٢١,٤٦٧,٢٣٣ دولار و٥٦ سنتاً على وجه التحديد) هذا علماً بأن أحداً منا لم يكن يعلم كيف وعلى ماذا ستنفق تلك المبالغ.

ثم أخذنا الأرقام ورحنا بها إلى مكتب كيم فذُعر! وقال: «إن قسمنا أهم قسم في الوكالة. فإذا طلبنا مبلغاً زهيداً كعشرين مليون دولار سنصبح مضحكة الجميع». وعليه طلبنا مئة مليون أي خمسة

أضعاف ـ عدنا وعدلناها فصارت ١١٢,٥٦٨,٣٣٩ دولاراً و٢٠ سنتاً وحصلنا عليها! وبنفس الطريقة كافحنا للحصول على عدد أكبر من الموظفين. بدأ مكتب تنسيق السياسات بقرابة ٣٠٠ أو ٤٠٠ موظف يشكلون قوة طوارىء صغيرة تستخدم للقيام بعمليات في مناطق حساسة فشلت فيها الدبلوماسية والتهديدات باستعمال القوة العسكرية. وفي العام ١٩٥٣، عندما رجعت إلى الولايات المتحدة لدى انتهاء مهمة لي في الخارج كان عددهم قد فاق الخمسة آلاف.

ها هي البيروقراطية حلّت. فالبيروقراطيات، مهما كانت مهمتها، تكبر وتنمو اما بتوسيعها نطاق المهمات المسندة إليها أو بتعظيم أهمية تلك المهمات. و«قوة الطوارىء الصغيرة» التي بدأنا بها كانت ستنمو إلى منظمة عالمية ولو في أيام السلم والهدوء ولكن جاءت حرب كوريا تغذيها مثلما تغذّي المخصبات الكيميائية النباتات الاستوائية. وعندما ظهرت «القوة الصغيرة» على رقعة اللعبة الدولية في أواسط العام ١٩٥٠ أخذت لنفسها قوة اندفاع خاصة بها كأي وكالة حكومية مستقلة وادّعت بأكثر من نصف ميزانية وكالة الاستخبارات المركزية.

اندلعت حرب كوريا فيما كنت استعد للعودة من المهمة التي انتدبت لها في دمشق. وعندما دخلت مقر الوكالة في واشنطن في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٠ كان سبب النقد الأول الذي واجهني تقصير الوكالة عن التنبؤ بحجم وبموعد هجوم الكوريين الشماليين على كوريا الجنوبية، وعن امتلاك الوكالة ما يلزم لتقدير وتصور الوضع على حقيقته. ضاع توازن مدير الاستخبارات المركزية آنذاك الأميرال هِلِنكوتر في محاولاته إرضاء رغبات وزير الخارجية من جهة ووزير الدفاع من جهة أخرى وكانا على خلاف مزمن فيما بينهما فأمضى الشهر الأخير من خدمته في مضيعة للوقت. وعندما جاء مدير جديد مقدام هو الجنرال «بيتل» سميث واستلم زمام الأمور في تشرين الأول (اكتوبر) وجد الفراغ الذي يتناسب مع رغبته. فأظهر ميلاً نحو ملئه بأكثر من مجرد نشاطات الاستخبارات التقليدية.

جعل الجنرال سميث وزارتي الخارجية والدفاع تطلبان منه قيام وكالة الاستخبارات المركزية بعمليات شبه عسكرية في كوريا الشمالية وكذلك في الصين إضافة إلى عمليات أخرى عسكرية في جوهرها. وهكذا بين ليلة وضحاها صار لمكتب تنسيق السياسات منظمة أكبر من مكتب العمليات الخاصة بمجلمه بأكثر من مرتين، كما كانت رتب موظفيه المدنيين أرفع من رتب موظفي مكتب العمليات الخاصة بدرجة أو بأثنتين. في بادىء الأمر تحول أكثر من نصف الموظفين المدنيين الجدد، فضلاً عن عدد من العسكريين، إلى قسم الشرق الأقصى بحيث صار ذلك القسم أكبر من باقي الأقسام مجتمعة. ولما كان هؤلاء جميعاً مرتبطين بمكتب كوريا التابع لقسم الشرق الأقصى ارتفع عدد أفراد مكتب كوريا ليصبح أكثر بعدّة أضعاف من عدد الموظفين المسؤولين عن مجمل بلدان الشرق الأقصى الأخرى مجتمعة.

لا يجوز حدوث أمر كهذا في أي بيروقراطية، فقد كان بالامكان ضمّ جميع العمليات المتصلة بالحرب الكورية في فريق واحد مستقل كلياً عن الفرق الاقليمية الأخرى. ولكن أي رئيس فريق يتمتع بالذكاء وبمعرفة الأصول البيروقراطية يستطيع الحيلولة دون تطبيق ذلك. وعليه وبعد الكثير من الأخذ والرد حصلت زيادة عامة في عدد موظفي قسم الشرق الأقصى، وعيِّن في المكاتب الأخرى من الموظفين ما يفوق حاجتها بثلاثة أو أربعة أضعاف، ورافق ذلك طبخ «عمليات تعزيزية» لتسويغ تلك الزيادات في اعداد الموظفين. وغني عن القول بأن الأقسام الأخرى، ومنها قسم الشرق الأدنى وافريقيا الذي أترأسه، وجدت أو اخترعت ما يكفي من الأزمات كل في منطقة عمله تبريراً لزيادة عدد موظفيها للبقاء

على قدم المساواة مع فريق الشرق الأقصى. إن هذا التصرف كثيراً ما يكون له مفعول كرة الثلج.

يقول بعض أصدقائي القدامى ممن خدموا في قسم الشرق الأقصى آنذاك بأنني أبالغ. ولكن مراجعة نمو مكتب تنسيق السياسات بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٣ تظهر بوضوح ان لا سبيل لتفسيره بأي طريقة أخرى حتى ولو أخذنا بالاعتبار ان المكتب سينمو ويتوسع، حسب سُنّة البيروقراطية. لقد مرَّ على ذلك كله ثلاثون عاماً ونيِّف، وأراني كلما استعدته في مخيلتي عاجزاً عن ادراك ما كان يجول في اذهان ساداتنا آنذاك يوم فكروا بأن قوة ضاربة صغيرة قابعة على أهبة الاستعداد في واشنطن بمقدورها فور صدور الأمر إليها القفز إلى الأورغواي أو إلى مصر او لاوس أو البانيا لمعاجة مشكل تعذَّر حله بالوسائل الدبلوماسية أو العسكرية العادية. هل تصوروا بأننا مثل الاطفائيين نلعب الپوكر في المركز مشمرين عن سواعدنا وجاهزين للانطلاق لحظة سماعنا جرس الانذار؟ ألمْ يفطنوا ولو لبرهة قصيرة إلى حتمية سعينا للبحث عن حرائق نطفئها حتى ولو اضطررنا لاشعالها بأنفسنا؟

في الواقع لم نشعر بالافتقار إلى الحرائق. ففور عودتي من دمشق كلّفني نِك بمهتي الأولى وكان منهمكاً بشؤون الشرق الأدنى وافريقيا داخل مكتب العمليات الخاصة (بكلام آخر تقصّي المعلومات عن التطورات الجارية في الشرق الأوسط فقط) إلى درجة فاته معها إدراك التطورات التنظيمية الجارية حوله. أما المهمة فكانت انشاء «شبكة داخلية» في الشرق الأوسط استعداداً للحرب العالمية الثالثة التي أخذت بعض الأصوات داخل الحكومة وخارجها تنادي بها وتتنبأ بقرب وقوعها. فلم يمضِ شهر واحد على وجودي في واشنطن حتى كنت في طريقي إلى قبرص فالقاهرة ثم بيروت وبعدها عمان ومنها إلى بغداد فالبصرة وبعدها الرياض فالظهران ومنها إلى طهران اجتمع فيها برؤساء فرقنا هناك شارحاً لهم برنامج «الشبكة الداخلية» وأعدّ العدة لهم لاستلام الاجهزة اللاسلكية ومعدات «الصمود والبقاء» التي ستصلهم على متن طائرات النقل التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية.

كانت مهمتي هذه عبارة عن مهزلة. ذلك ان كل ما ترتب عليَّ هو ارشاد رئيس كل فريق إلى كيفية ذهابه إلى صحراء قريبة وحفر عدد من الثقوب يدفن فيها كميات من المعدات المتقادم عهدها (كانت تعتبر قديمة عام ١٩٥٠، إذ بامكانكم التصور ما ستكون عليه عند اشتعال نار حرب عالمية ثالثة) ثم العثور على صخور كبيرة أو أجسام أخرى تتناسب مع طبيعة المكان لتكون معالم يستدل بها على مواقع الثقوب. ولكن، بناء على تعليمات سرية زودني بها كيم روزفلت طرحت على رئيس كل فرقة قابلته، بحضور السفير في البلد المعني ومرات بغيابه، اسئلة مثل: هل يجري في البلد الذي تعملٍ فيه ما يشكل حالياً أو ما قد يشكل في المستقبل خطراً على المصالح الأميركية؟ وإذا كان جوابك ايجاباً فهل من سبب يحول دون التعاطي مع ذلك الأمر بالسبل الدبلوماسية؟ وما رأيك بمساعدات مالية أو تقنية ـ بكلام آخر، هل نستطيع شراء تلك الدولة إما عبر حكومتها القائمة أو بواسطة حكومة نستطيع تنصيبها بتقديم بعض العون الخفي؟ بمختصر الكلام كان عليَّ التعرّف إلى ما في منطقة الشرق الأدنى وافريقيا من مشاكل لا يمكن حلها إلاّ بذلك النوع من العمليات التي أجيز استعمالها شرعاً لمكتب تنسيق السياسات الحديث العهد.

عدت إلى واشنطن وفي جعبتي جواب أساسي واحد («لن نواجه أي مشاكل إذا امتنعنا عن تأييد اسرائيل») إضافة إلى عشرات المشاكل الأخرى المتوسطة والصغيرة التي يستطيع رجالنا التنفيذيون حلها بالوسائل السياسية، حسب فهمنا لتلك الوسائل آنذاك. باختصار، عدت ومعي حجة أخرى تسوغ زيادة تضخم مكتب تنسيق السياسات. فخلافاً للمراسل الصحفي الذي يؤدي مهمته بنجاح في الارجنتين هذا الاسبوع ثم ينجح في برلين الشرقية في الاسبوع التالي لا يمكن للموظف التنفيذي ان

يكون فعالاً إلاّ في منطقة واحدة ذلك أن ليس بامكانه ادراك طبيعة المشاكل في تلك المنطقة ناهيك عن ايجاد الحلول لها إلاّ إذا كان متعمقاً في فهم أهلها ودوافعهم وسلم القيم لديهم. وهذا يعني انه بدلاً من أن يكون لمكتب تنسيق السياسات زمرة صغيرة من رجال الأطفاء متأهبين للقفز من مركزهم في واشنطن إلى حيثما تتفاقم أزمة ما ينبغي تجهيز المكتب بأعداد كبيرة من الموظفين الدائمين وبينهم اختصاصيون بعلم الحضارات الانسانية وتوزيعهم في مختلف أنحاء العالم حيث يمكن ان تدعو الحاجة إليهم.

حاز التقرير الذي وضعته على اعجاب كيم فحمله وأخذني معه إلى مكتب آلن دالس الذي كان على اعتاب الصيرورة نائباً للمدير لشؤون التخطيط ورئيساً لمنظمتي مكتب العمليات الخاصة ومكتب تنسيق السياسات المندمجتين.

كيم عرَّف بي على انني عضو وكالة الاستخبارات المركزية الوحيد الذي نفذ، حتى ذلك التاريخ، عملية سياسية مستترة ـ حسب تعريفنا آنذاك للعملية السرية، دون ذكر العمليات الفعلية أو نصف العلنية التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة. أجاب دالس بأنه سمع بي من خلال ما قمت به من أعمال في جهاز مكافحة الجاسوسية وفي مكتب الخدمات الاستراتيجية إبان الحرب. وكان ما تبقى مما قاله بمثابة اعتراف صريح بأنه اعتبرني الأول حقاً في مجال اختصاصي.

على الرغم من ذلك أخذ دالس وقته ليشرح لي ان الحكومة الأميركية نجحت بالقيام بعمليات سياسية صريحة وعلنية، منها مثلاً انها رأت ان الشيوعيين كانوا على قاب قوسين من الفوز بالانتخابات في ايطاليا عام ١٩٤٨. فاستدعت وزارة الخارجية رئيس وزراء ايطاليا ألسيدي دي غاسپيري لزيارة واشنطن وبلغته بأن مبالغ المساعدات الضخمة التي تحتاجها ايطاليا لاعادة الاعمار لن تأتي إلاّ اذا تخلص من الشيوعيين في حكومته. ثم أخذ مكتب المعلومات الأميركي يشجع الأميركيين من أصل ايطالي على كتابة الرسائل والبرقيات إلى الألوف من أقربائهم في ايطاليا ينبئونهم فيها بأن شيكات المساعدات التي يتلقونها منهم ستتوقف إذا لم ينضموا إلى الحركة المناوئة للشيوعية. وراحت الشخصيات الأميركية المرموقة التي تتكلم الايطالية بطلاقة تتحدث إلى الايطاليين عبر الاذاعات على الموجة القصيرة عن البؤس الذي سيحلّ ببلادهم إذا ما سيطر عليها الشيوعيون. ومن جهة أخرى أقيمت المعارض الفوتوغرافية وبعثات النوايا الحسنة وزيارات الفرق الموسيقية واستعملت جميع الوسائل لاظهار أفضلية حسن العلاقات الايطالية الأميركية بالمقارنة مع نوع العلاقات الخطرة التي كان الايطاليون على وشك الوقوع فيها مع الاتحاد السوفياتي. أما إسهام وكالة الاستخبارات المركزية في العملية كلها فكان تقديم مليون دولار، أو أكثر بقليل، لحزب واحد مناهض للشيوعية إضافة إلى بعض النصائح عرضتها على حكومة دي غاسپيري عما يستطيع الايطاليون أنفسهم فعله لابعاد ذلك الخطر عنهم.

قال دالس ان على الوكالة ان تشجع إلى أقصى حد ممكن النشاطات العلنية والا تدعمها بالنشاطات المستترة إلاّ عند الحاجة. وأعرب عن أمله ان نعثر في الشرق الأوسط على أشخاص ومجموعات محلية تقوم بعمل ما يلزم من تلقاء نفسها مع بعض المساعدة المالية والارشاد من قبلنا. وأضاف بأن وزارة الخارجية لن تكون بحاجة لخدماتنا في معظم الحالات ولكنها قد تضطر للاستعانة بنا عندما يصرّ متلقو مساعداتنا وإرشاداتها على بقائها سرية، وبأن تلك السرية هي لصالحهم وليست لمصلحتنا.

وفي طريق عودتنا إلى مقر الوكالة قال لي كيم بألاّ أحمل ما سمعته على محمل الجدية لأن آلن دالس يتصور نفسه شخصية من شخصيات روايات جون بيوكان ولا يستطيع ضبط نفسه ولا ضبطنا إذا

ما لاحت لنا في الأفق فرصة القيام بالدور المُعد لنا. وأضاف كيم قائلا: «إن آلن على استعداد للتضحية بـ . . . لنقُل بسبابة يده اليسرى مقابل الذهاب إلى مسرح العمليات والقيام بنفسه بهندسة انقلاب».

الفصل الثالث عشر

وكالة الاستخبارات المركزيّة: منظمة أم بيروقراطية؟

حُدِّد لمكتب تنسيق السياسات خمسة أنواع من العمليات هي: **الدعاية والاتحادات العمالية واللاجئون والأعمال شبه العسكرية والنشاطات السياسية**. وكان علينا أن نوجه اهتمامنا نحو أوروبا الغربية أولاً ثم الشرق الأوسط وتليهما افريقيا. أمر أوروبا لا يهمني لأنني أشعر وأنا برفقة الموظفين الذين يتقنون لغتين أو ثلاثاً كأنني أحد الأقرباء القرويين، حسبما تبيّن لي خلال خدمتي القصيرة في مكتب المانيا، فضلاً عن أن قسم اوروبا الغربية تعزز كثيراً أثناء غيابي في سوريا.

من ناحية أخرى لم يكن ثمة مجال يذكر للنشاط في حقل الاتحادات العمالية لعدم وجود اتحادات تستحق اسمها في الشرق الأوسط. أما العمليات شبه العسكرية فهي ذلك النوع من النشاط الذي كنا نحتاج فيه إلى شهادة بالعجز حتى مجيء «واحد من أصحاب الأفكار الخلابة» واستنبط لنا دوراً في الصراع العربي الاسرائيلي فاق كثيراً ما كنا نفكر به. العمل السياسي؟ انه دون ريب طفلي المدلّل، خصوصاً وان المجهود الذي بذلناه للدفع بحسني الزعيم إلى سدة الحكم في سوريا صار درساً يُعطى في صفوف التدريب. إلاّ أن كيم روزفلت رأى من الأفضل التريث فترة نراقب فيها زملاءنا في وزارة الخارجية ونستمع إليهم يبشرون بأن «حكومات منتخبة ديمقراطياً» في الدول العربية سينتج عنها مواقف أكثر اعتدالاً تجاه دولة اسرائيل التي قامت حديثاً.

وفيما كنت أُصفي أعمالي مع كيم رحت أستعد لاستلام مركز خُلق حديثاً، أي رئيس اركان التخطيط والمعلومات للشرق الأدنى وافريقيا، ورافقه ترقية في الرتبة وعدني بها فرانك وايسنر. وكالة الاستخبارات المركزية تعرّف كلمة «استخبارات» على انها المعلومات التي نستقيها عن الآخرين، وكلمة «معلومات» بالمعلومات التي ننشرها عن أنفسنا بكلام آخر، ما نريد الغير ان يظن بأنه يعرفه عنا. أشار كيم إلى أن التقارير التي كنت أبعث بها من دمشق فيها من المعلومات أكثر مما فيها من الاستخبارات وبالتالي يجب أن أرتاح كثيراً لعملي الجديد.

وافقت على ذلك، وكانت مهمتي الجديدة عبارة عن توضيب المعلومات بشكل ملفت يضمن لها حظاً كبيراً في ان تتلقفها الصحف وتنطوي ضمناً على ما يدعم المصالح الأميركية ويلحق الضرر بالمصالح السوفياتية، وهو العمل الذي يروق لي تماماً.

وهنا خطر ببالي جيم آيخلبرغر وقد انقطع الاتصال بيننا منذ افتراقنا عند نهاية الحرب. فقد بقي في باريس وأقام في منزل على الضفة اليسرى وراح يكتب مقالات غريبة لمجلة «نيو يوركر». وعلمت لاحقاً بأنه انتقل إلى شيكاغو وتوظف في أكبر شركة للعلاقات العامة في العالم حيث يكتب المقالات باسم السياسيين ويحضر لهم نصوص خطبهم. وما أن كلّمته بالهاتف حتى كان بطريقه إلى واشنطن.

ليس هذا بآيخلبرغر الذي عرفته. ها هو ببدلة أنيقة وقيمص ثمين وياقة عنق مناسبة يخبرني برصانة انه مرتاح جداً لعمله في حقل العلاقات العامة وعلى الأخص من حيث الراتب وحساب النفقات. وأضاف أنه استطاع بعد بضعة أشهر من التمرين ان يتدنى بمستوى كتابته إلى مستوى أفضل موظفي الشركة. وانسجم جيم وكيم انسجام أديبين، وبعد اجراء تحريات سريعة عنه ارضاءً لمتطلبات

أنظمة الأمن والسلامة، أقسم اليمين القانونية كموظف في الوكالة بمرتبة ومرتب سمح له باستئجار منزل في ضاحية جورجتاون. وفي شقتين محاذيتين لشقة مكتب كيم أقمنا أنا وجيم مكتبينا ومعنا سكريتيرتان، وبدأنا العمل بعد اسبوع من التحضيرات الادارية. قضينا زهاء شهرين في وقت ممتع نتحدث مساء بالمواضيع الأدبية والفكرية بعد نهار من العمل في اعداد مواضيع الدعاية. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياتي العملية.

ما زلت أذكر حصول جيم على موافقة كيم بعد تردد على مخطط يرمي إلى اثارة حفيظة زعماء متهورين وغير محبوبين في الشرق الأوسط بارسال رسائل إليهم تحملهم على الرد رداً عقلانياً نستطيع إبرازه بشكل يثير التساؤل حول سلامة عقولهم. وكانت التجربة الوحيدة التي أجريناها سلسلة من الرسائل وجهناها إلى البارودي المندوب السعودي لدى الأمم المتحدة. كانت لهجة الرسائل مزيجاً من التقوى والاهانة كما لو انها كُتبت بيد مسلمينْ اتقياء وعرب متعصبين لقضيتهم القومية، تتهمه بالتقاعس عن الدفاع عن الموقف العربي في الخلاف مع اسرائيل ربما لأنه متأثر بوجهة النظر الغربية. وقع البارودي في الفخ وألقى عدة خطب طغى عليها هذيان يفوق ما اعتاد عليه.

سُرَّ جيم آيخلبرغر بتلك المحاولة فوصفها على انها «أفضل نتيجة من حبوب الـ. إس. دي المهلوسة». أما كيم فلم يعجب بها ذلك انه أولاً: على علاقة طيبة بالسيد البارودي ويتفق بالرأي معه في الكثير مما يقوله هذياناً أو غير هذيان. وثانياً: لأنه لا يرى أي خطأ في موقف السعوديين من الصراع العربي الاسرائيلي كما يعتبر ان من الأفضل لمصلحة الولايات المتحدة أن يتمكنوا من ابداء موقفهم بوضوح وبشكل مقنع. وكان أكثر ما أزعجه رؤية ثلاثة من كبار «خبرا» مكتب تنسيق السياسات بما لديهم من امكانات الحكومة الأميركية يكرسون مواهبهم لاظهار صديق حسن النوايا بمظهر رجل مخبول. سجَّل كيم ما أراد تسجيله وغرقنا نحن في الخجل.

ولكن كان لدى كيم نقاط أخرى. فقد كان علينا، نحن قبل كل الآخرين ادراك معنى المعرفة وادراك الفرق بين المعرفة والعقيدة. كما كان علينا بصفتنا رجال دعاية أن نفهم ان «المعلومات» يجب تفصيلها لتلائم العقيدة لا المعرفة. هذا الفرق ادركه موسوليني (قال: «لا أريد شعبي أن يعرف بل أريده أن يؤمن بعقيدة») وعلينا أيضاً إدراك ذلك الفرق. ولكن المهم هنا هو معتقدات مَن نستهدفهم لا معتقداتنا نحن.

في تلك الحقبة بالذات لم يكن ثمة مجال يذكر للعمل الدعائي في الشرق الأدنى وافريقيا. وكانت عملية انقلاب حسني الزعيم التحرّك السياسي الوحيد الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية دون مساعدة أي وكالة أخرى من وكالات الحكومة الأميركية. أخذت في دفء ذلك الانجاز اعتبر نفسي أثمن الموجودات في مبنى القيادة للقيام بعمليات فعلية. أما من حيث التخطيط فشعرت بأنني انتمي إلى المرتبة الثانية خصوصاً بعدما شاهدت من آن إلى آخر عمليات التخطيط في قسم أوروبا الغربية. فقد كان لدى قسم أوروبا الغربية داخل مكتب تنسيق السياسات أكثر من مئة مشروع قيد التخطيط في آن معاً: منها التأثير في الانتخابات والتسلل إلى الاتحادات العمالية والسيطرة عليها وانشاء اتحادات جديدة وتمويل الصحف واعداد كوادر سياسية داخل معسكرات اللاجئين كما كان ثلاثون أو أربعون من تلك المشاريع قد بدأ العمل بها فعلاً. أما الوضوح في تقديم المشاريع وعرضها فجعل موظّفي مكتب الخدمات الاستراتيجية بكليشيهاتهم التقليدية يبدون أميين بالمقارنة. وعلى الرغم من ان الشطر الأكبر من عملي قد تحوّل في أواسط العام ١٩٥٢ إلى قسم التخطيط في مكتب تنسيق السياسات، كنت لا أزال مُدرجاً على أنني ضابط في مكتب الخدمات الاستراتيجية. من هنا إيلام المقارنة.

وهنا جاء حدثان يعجلان من اقتراب المرحلة الجديدة من مهنتي المخابراتية. **أولها**: جولة كبرى في افريقيا. فعندما توحد مكتب تنسيق السياسات ومكتب العمليات الخاصة وعُيّن آلن دالس نائباً لمدير التخطيط ورئيساً للمكتبين المندمجين صار كيم روزفلت رسمياً رئيس قسم الشرق الأدنى وافريقيا الذي توسع ليشمل أيضاً افغانستان وباكستان والهند وسيلان. وبذلك أصبحت المنطقة المخصصة لنا تفوق من حيث المساحة كل المناطق الأخرى مجتمعة وعليه رأينا من واجبنا زيارتها والتعرف إليها عن كثب.

لا ريب في ان منطقة بهذا الاتساع عبء ثقيل يفوق طاقة رجل واحد. لذلك قرر كيم القيام بجولة في الشرق الأوسط وشبه القارة الآسيوية تاركاً لي بصفتي المسؤول الثاني القيام بزيارة افريقيا، فاتخذ المبادرة وعاد بعد قرابة الشهر إلى واشنطن. عقد خلال رحلته هذه محادثات طويلة ليس فقط مع كل شخصية ذات شأن في غرب آسيا بل ومع الزعماء المحليين الذين جنّد البعض منهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية ـ ليس عملاً تماماً إنما «زبائن» على استعداد «للتعاون» مع الحكومة الأميركية في كل الشؤون الدولية ذات المصلحة المشتركة للفريقين ـ لقاء القليل من المساعدات المالية وبعض الدعم التقني.

عاد كيم إلى واشنطن في يوم خميس وقضينا مع زوجتينا عطلة نهاية الاسبوع نستمع إلى حكايات رحلته ونتفرج على ما التقطه من صور خلالها. ويوم الاثنين ركبت الطائرة متوجهاً إلى القارة السوداء. لم يقدم لي أحد فيها امارته ولكنني قمت ببعض الاتصالات المفيدة في السودان وأثيوبيا وكينيا وجنوب افريقيا ونيجيريا وتوغو وليبيريا. أما في غانا وشاطىء العاج والسنيغال فكان لي أكثر من مجرد اتصالات. فقد كان في غانا مثلاً رجل أميركي من أكثر الرجال حكمة اسمه بوب فليمنغ يزن قرابة ١٥٠ كيلوغراماً وهو بمثابة لورنس افريقيا، يؤدي دور المستشار لقوامي نكروما. وبالطبع كان هناك نكروما نفسه الذي تناولت معه، بفضل فليمنغ، طعام الغداء وقضينا ثلاث ساعات من الحديث وجدته خلالها من أكثر الشخصيات سحراً، ذلك أنه لم يكن قد مضى على توليه الزعامة الوقت الكافي لظهور اعراض داء العظمة فيه•كان نكروما ودوداً يتمتع بروح النكتة ويتكلم الانكليزية بلهجة أفراد الفرق الموسيقية في نيو اورلينز. وكان هناك أيضاً رئيس جمهورية شاطىء العاج فيليكس هوفويه بنغي الذي يتكلم الفرنسية بلهجة وطلاقة الباريسيين وقد ترك في نفسي انطباعاً بأنه رجل مثقف وسياسي محنّك. وكان هناك بالطبع رئيس السنيغال ليوبولد سنغور الأديب والشاعر الكبير. والواقع ان هذا الثلاثي وحده كان كافياً لاعتبار رحلتي ناجحة جداً لجهتي مركزي في الوكالة ومستقبلي بعد الوكالة.

جاءت أهم نتائج رحلتي الافريقية من خلال احاديثي ومشاوراتي مع بوب فليمينغ. انه يشاطرني عطفي الطبيعي على الأفارقة السود ولكن إسرافه في الكلام عن نكروما أدّى إلى طرده من البلاد. وعلى الرغم من ابعاده إلى نيجيريا استمر بتقديم المعلومات لتنوير الحكومة الأميركية وزيادة تفهمها لأوضاع الأفارقة السود بحيث اخذ الموظفون في وكالة المساعدة الدولية المحلية يدركون ضرورة تلطيف عطفهم هذا بإضافة بعض «الحقائق الحضارية» عليه (حسب تسميته لها) رغم معارضة رؤسائهم في واشنطن.

من محادثاتي مع بوب اتضح لي نقطتان على صلة وثيقة بأفكار كانت قد بدأت تجول في خاطري: **الأولى** ان النوع الوحيد من المجتمعات الذي يرتاح إليه الأفارقة السود هو **المجتمع القبلي** وجوهره «السلطة القَبَلية (حسب تفسيره لها). **والثانية** انه لا يمكن قيام زعامة افريقية شاملة بقيادة شخص واحد أو مجموعة صغيرة من الأشخاص، ليس فقط لتعارض ذلك مع «السلطة القَبَلية» (حسب تفسيره لها) بل لعدم وجود لغة مشتركة في افريقيا. فنصف الافارقة يستعملون الفرنسية لساناً مشتركاً للتخاطب فيما بينهم والنصف الآخر يلجأ إلى الانكليزية. ولهم جميعاً أكثر من مئتي لغة في كلٍّ منها عشرات اللهجات المحلية.

من عوامل التفرقة الأخرى بين الافارقة السود تخوّفهم من بعضهم البعض وتحاسدهم، فضلاً عن ان المتنورين منهم بما فيه الكفاية لرسم تطلعات مستقبلية مختلفون فيما بينهم حول ما يجب ان تصبو إليه تلك التطلعات وحول سبل بلوغها. عاشر بوب مختلف أصناف الافارقة وتحدث إليهم ورأى ان ما يعتبرونه «تطلعات» لا يعدو كونه شعوذات بالنسبة إلينا نحن الغربيين، ولكنها بالنسبة إليهم حقائق واقعة تستحق قيام حروب قَبَلية من أجلها. ولم تكن الاجتماعات للبحث في داء الفم والحافر الذي فتك بالماشية في طول افريقيا وعرضها أكثر من مناقشات حول العلاجات بالسحر والشعوذة والتعاويذ، علماً بأن أطباء تخرجوا من جامعة اكسفورد اشتركوا فيها بالحماس عينه الذي أبداه أبناء عمومتهم الأميون.

وعبر ماركسية بدائية مناسبة أخذ السوفيات بعض التقدم على مجمل المسرح الافريقي لاعتماد اسلوب معاداة شيء ما جزء منه حقيقي والجزء الآخر وهمي. إن أقل شخص يعمل في حقل الدعاية يدرك ان الوسيلة الفضلى لتوحيد مجتمعات متباينة هي إرشادها إلى شيء تلتقي على كرهه ومعاداته بينما تؤدي محاولة اعطائهم ما يريدونه إلى تبيان انهم يريدون اشياء متعددة وانهم لا يستطيعون الاتفاق على الأولويات. ولكنهم في الوقع ذاته قادرون على الاتفاق فقط على من أو ما يقف بينهم وبين تعدد رغباتهم وبالتالي الانحاء باللوم عليه على انه سبب حرمانهم.

قبل بحث الموضوع مع بوب فليمينغ راودتني أفكار عن ابراز نكروما كنوع من المخلص الافريقي وتراءى لي انه إذا كان قد استطاع بلوغ مرتبة الزعامة في نيجيريا رغم ضعة أصله القَبَلي فقد يتمكن من بلوغها على نطاق افريقيا السوداء الشامل. والواقع انه استغل صفة أصله القبلي ذلك انه باعلانه الحياد في الصراعات القبلية ارتفع فوقهم منادياً بشعارات مستحبّة لديهم جميعاً. هكذا بدا الوضع لي ولكن بوب رأى بأنني على خطأ فادح ومخطر، فالأشياء ليست على مظاهرها. فقد بدأ نكروما يدّعي بأنه «أعظم من موسى» وعلى استعداد «لقيادة جميع شعوب افريقيا عبر ذلك البحر الأحمر من البؤس الاستعماري». ولكني رأيت بألا أؤخذ بأولى أعراض داء العظمة هذا، فيما كان بوب يتمنى ألا تكون خبرتي الجديدة هذه انعكاساً لما يفكر به رؤساؤنا في واشنطن. ومما قاله لي ان مجرد التلميح إلى نكروما عند أي زعيم افريقي آخر سيجعل مني شخصاً غير مرغوب فيه لديهم ويؤدي إلى الاستهزاء بي والسخر مني واخراجي من افريقيا. ولكنه وافق على أن «سياسياً ساحر الشخصية» حتى ولو كان أبيض قد يتمكن من بلوغ زعامة عامة في افريقيا ـ «إذا ما كان ذلك شيئاً مستحبّاً»، حسب قول بوب.

وعلى الرغم من عدم ظهور زعماء يذكرون، كان في افريقيا فراغ قيادي واضح يأمل السوفيات بملئه وبجمع بعض الاتباع حول زعيم ينادي بشعارات مناهضة للاستعمار لم يبرز بعد. لقد كانت افريقيا محفوفة بما أسماه مخططونا في واشنطن «ظروف ما قبل الثورة» وفي الوقت نفسه كان رؤساؤنا في واشنطن على خطأ في ظنّهم ان البريطانيين والفرنسيين يسيطرون على الأوضاع هناك. ولعل باستطاعة أي مراقب محايد أن يشاهد بوضوح وضع الافارقة السود من مرضٍ وسوء تغذية لولا وجود الاستعمار الفرنسي والبريطاني في افريقيا وان يدرك في الوقت نفسه ان اميركا هي المصدر الوحيد القادر على توفير العون الاقتصادي والتقني اللازمين لانقاذهم من المرض وسوء التغذية. ومع ذلك كان خبراء الدعاية السوفيات واتباعهم المحليون المستجدّون يحاولون اقناع اصحاب النشاط السياسي الأفارقة بأن عليهم التخلّي عن خصوماتهم القَبَلية من أجل طرد «الاستعمار والرأسمالية».

إذاً يمكن توحيد الأفارقة، وأخذ السوفيات يحاولون أن يبرهنوا ذلك. ولكن لا أستطيع القبول

بتأكيد قدرتهم على الاتحاد فقط بوجه عدو مقيت. كان اليوم الذي قضيته في ادغال شاطىء العاج مع عالم الانسان الالماني الدكتور هانس غروبر كافياً لاقناعي بأن الأفارقة ضعفاء أمام القيادة «الساحرة» من صنف الدعاة الاصوليين الذين يُشدهون مستمعيهم في قلب الجنوب عندنا. فقد قضى البروفسور غروبر قرابة العشرين سنة يراقب بهدوء تصرفات أهل قرى آكان مثلما جاءت جاين غودّال بعده بثلاثين سنة تراقب تصرفات قردة الشمبنزي. فقد لاحظ بتدقيق كيف يبرز زعيم في أوقات الشدة ويسير رجال القبيلة خلفه بهدوء دون أن يكون قد ألقى خطباً ورفع شعارات نارية، وهذا أمر شاهدته بنفسي. ففيما كنا أنا والبروفسور نقترب من احدى القرى سائرين وراء رئيس القبيلة ببضع خطوات رأينا القرويين يتبادلون الصياح بشأن قضية قبلية. وما أن شاهدوا رئيسهم حتى توقّف صراخهم وانصتوا بهدوء إلى ما أمرهم به.

سألت البروفسور غروبر عما يتمتع به رئيس القبيلة دون أفراد قبيلته فأجاب بأنه يتمتع بسحر الشخصية. وما هو ذلك السحر؟ وهل يستطيع احد أفراد القبيلة العاديين تنميته وانتزاع القيادة؟ أجاب بالنفي لأن القائد يأتي أولاً ثم يأتيه السحر. أي ان القائد ليس قائداً لأن شخصيته ساحرة بل أن شخصيته ساحرة لأنه القائد، هكذا بكل بساطة. أضاف ان الأمر في واقعه ليس بتلك البساطة ذلك انه يشبه حال مَن جاء أولاً البيضة أم الدجاجة. فمن المعقول إذاً ان يتمكن المرء من تنمية السحر في شخصيته أو ان يُنمّى السحر فيها عن طريق العلاقات العامة بابرازه للرأي العام. ولكن لا يمكن حصول ذلك تحت أنوف الاتباع وعليه يجب أن يؤتى من الخارج بالزعيم ذي الشخصية الساحرة المُطوَّر تطويراً مصطنعاً.

غادرت افريقيا وجعبتي مليئة بمواد وأفكار جديدة بعضها غير كامل النضوج محورها اعتقاد راسخ اننا بحاجة إلى زعيم واحد في افريقيا، أسود كان أم اسمر أم أبيض، قادر على توحيد جميع الافارقة السود حول قضية ايجابية وبنّاءة، وان علينا أن نؤمن لهم ذلك القائد. نظمت توصياتي في برقية أرسلتها إلى واشنطن يفوق طولها طول البرقية التي بعث بها جورج كِنان من موسكو قبل بضع سنوات.

لم يعد بوسعي ان أتذكر الآن، بعد مرور خمس وثلاثين سنة من الخبرة والنضوج على الآراء الباهرة التي خرجت بها عامي ١٩٥١ و١٩٥٢، جُل ما كان يجول في ذهني آنذاك. هل ما زلت أذكره ان مجموعة الافكار التي عدت بها إلى واشنطن شغَّلت ثمانية أو عشرة موظفين شهراً ونيفاً لتنظيمها في الأطر المعينة، وانها، قبل ان ينسفها كيم روزفلت تضخّمت مثل كرة الثلج فصارت مشروعاً اندرج في السجلات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية بعنوان: «البحث عن بيلي غراهام مسلم». وبفعل مذكرة صدرت إلى جميع الفروع في الخارج جند رئيس مركز بغداد «داعية تقياً» من العراق وأرسله في جولة تبشيرية أدت إلى اعتقاله ومحاكمته فإعدامه على يد حكومة نوري باشا السعيد الذي اعترض «من حيث المبدأ» على القضية برمتها. جاء اعتراضه هذا في كتاب اعتذار وجهه إلى كيم روزفلت لدى معرفته بأن «الداعية» المسكين كان فعلاً عميلاً لوكالة الاستخبارات المركزية ولم تكن اعترافاته بذلك عبارة عن تبجّح أمام مستجوبيه.

كانت رسالة نوري باشا أول ما سمعه كيم عن المشروع فثارت ثائرته واعتبرني جننت. وعلى الرغم من علمه بأن موظفي مكتب تنسيق السياسات مجانين فقد كان يتوقع مني ما هو أفضل مما صدر عني. ومما قاله لي: «انك تعجب بأفكارك من أجل ذاتها وهذه هي مشكلتلك. ولكن عليك ان تكتسب عادة التمعن جيداً بأفكارك النيّرة وبما ستنتهي إليه». ولما كان كيم من آل روزفلت، الأسرة ذات

التقليد القديم في نوع خاص من الزعامة، فقد فكر بالموضوع الذي لم أكن على دراية به حتى ذاك. وألقى عليَّ محاضرة عن ان الزعماء، رغم ما قد يتمتعون به من سحر، يمكن أن يكونوا عملاء لدى اتباعهم وكيف يمكن ان ينتج عن مزيج اعتباطي بين الزعماء والاتباع انفجار مغاير لما كان منشوداً.

على كل حال رأى كيم ان في الفكرة بعض الحسنات وأدرك أيضاً انها اكتسبت قوة اندفاع خاصة بها وقال: «سنضعها الآن على نار خفيفة لبعض الوقت، ولكن لديَّ في الوقت نفسه رحلة أخرى لك. فعليك مرافقة كيركپاترك وجونستن في جولة على مراكزنا في الخارج. وستكون يداك مليئتين بالعمل بلملمة الركام الذي سيخلفانه. وعليك أيضاً الاستمرار بالبحث بجميع الوسائل عن ذلك «الساحر» العظيم مع الأخذ في الاعتبار ملاءمتهم للظروف المحلية في الأماكن التي ستزورونها. على كل حال سنبحث في الموضوع بعد عودتك».

كان ليمن كيركپاترك رئيس مكتب العمليات الخاصة، والعقيد كيلبورن جونستن رئيس مكتب تنسيق السياسات خلفاً لفرانك وايسنر الذي حل محلّ آلن دالس نائباً لمدير التخطيط. إذاً أصبح كلاهما من «الأركان» ولم يعودا من «الخط» (يعني ذلك بلغة الهندسة الادارية انه لم تعد لأي منهما سلطة الأمر والنهي بل أصبح عملهما اعداد الأوراق السياسية ليسترشد بها رئيسهما آلن دالس). ومع العلم بأن انتقالهما إلى «الأركان» اتخذ الصفة الرسمية فلم يكونا قد اعتادا عليها فكانا ضابطي أركان صلفين.

عجزت آنذاك وما زلت عاجزاً عن تحليل شخصية كيركپاترك. فمنذ انضمامي إلى وكالة الاستخبارات المركزية أخذت أبذل جهداً خاصاً في انشاء ملفات عن أي شخص فيها قد يكون له أي تأثير في وضعي الحالي أو المستقبلي، وهو شعور اندفاعي نما عندي أيام شغفي بلعب الپوكر فاحفظ بدقة تصرفات اللاعبين الآخرين وتحركات أيديهم وقسمات وجوههم التي تدلني عما إذا كانت أوراقهم رابحة أم انهم يخدعون. ولكن جمع المعلومات هذه عن كيرك أعياني ولم أقوَ على تركيبها بما يسمح باستطلاع طبيعته واستباق تصرفاته. ففي أيام الفتوة عندما كان الفتيان والفتيات يسرقون سيارات ذويهم ويغازلون الفتيات (أو الفتيان) ويجربون التدخين كان كيرك يجمِّع ما تيسر له من شارات الاستحقاق بغية الصيرورة أصغر شاب تولى قيادة فريق الكشاف في روتشستر بولاية نيويورك. وبعد بلوغه مرحلة الرجولة استمر على ما كان عليه من أهلية بالثقة ومن ولاء ورغبة بتقديم العون، والود والتهذيب والاقتصاد والشجاعة والنظافة والتقوى وإلى حد ما اللطف والطاعة. فأي موظف يقع في ورطة مع قيادته يستطيع الاعتماد على تأييد كيرك في السرّاء والضراء، ورغم ذلك تراه يطرد موظفاً تعيساً لمجرد الظن بأنه أبدى ما قد يدلّ على عدم الانصياع للأوامر او التبرم بها. ثمة مدرسة فكرية تقول بأن كيرك تحول إلى "العُلَجَ" الذي هو عليه بعد جولتنا فصار «طموحاً دون شفقة» (حسب قول أحد الثقات) بعد إصابته بداء شلل الأطفال أثناء وجودنا في بانكوك، كي يعوض عن العجز الذي حل به ويبرهن بأنه ما زال ندّاً لمنافسه ريتشارد هلمز. والحق يقال إنه كان في طريقه إلى ذلك قبل رحلتنا المشؤومة.

اعتمد كيرك معي اسلوب التعسف المتشدد متعمداً إرباكي أمام موظفي مكتب الخدمات الخاصة في كل مركز زرناه فقط ليظهر لهم مدى بأسه وسلطانه. ولكنه في الواقع كان غافلاً عما يفعله بي حتى أبديت له اعتراضي فانقلب صلفه إلى اعتذارات صادقة. أما العقيد جونستن وقد احتفظت بملاحظات عنه تكفي لملء كتاب فلم يكن أقل قسوة ولكن قسوته لم تتخذ صفة التعمد الشخصي. إنه مدمن سابق على الكحول أصيب بنوبة قلبية واحدة على الأقل واعتمد مظهر المشاكس المتسلّط الذي ساعده كثيراً في

مركزه كرئيس لمنظمة مليئة (حسب رأيه) بالمخنّثين. وكان، رغم محاولته اخفاء ذلك، حاد الذكاء يعود صلفه وقسوته إلى تفوقه العقلي.

«بات» جونستُن هو ابن هيو جونسُن المجدد والمنظّم الهام جداً في إدارة الرئيس فرانك روزفلت (أضاف حرف ت على جونسون لاخفاء القربى). تعلم البيروقراطية وهو بعد في حضن أبيه ثم التحق بكلية وِست پوينت الحربية حيث أتقن أصول التنظيم العسكري، فأضحى خلال الحرب العالمية الثانية أحد أهم شخصيات برامج التنظيم والادارة في الجيش الأميركي وألّف عدة كتيبات إرشادية بلغة نثرية واضحة خالية من الكليشيهات العسكرية. وكان قبل قيامنا برحلتنا قد قرأ كل الكتب الهامة عن التنظيم والادارة وحفظها فصار قادراً على تقيّوء محتواها بكشل مفيد ومثير.

هل قلت «بشكل مثير؟» فقد كانت محاضراته الطويلة حول الموضوع التي ألقاها أمام جمهوره المؤلف مني بمفردي ساحرة حتى لجعلت كتاب برنارد «مهمات المدير التنفيذي» المملّ والقديم المحتوى مقبولاً ومشوقاً. وتقديراً لاهتمامي بمحاضراته تلك أسبغ عليَّ قائمة بأسماء مجموعة من الكتب استنير بها بعد عودتنا إلى واشنطن وقال لي بالمناسبة: «أنت متهور مهووس، ولكنك ذكي».

عليَّ أن أُلفت انتباه القراء إلى أنه لا حِكَم بات جونستُن ولا قائمة الكتب التي نصحني بقرائتها كانت أول ما سمعت به عن موضوع الادارة. فقد سبق لي أن ساعدت پيردي سيلفا في وضع الرسوم البيانية أثناء دمج مصلحة مكافحة الجاسوسية بمصلحة الاستخبارات السرية وقبل ظهور كيرك وبات على الساحة. ولكن تبقى البيروقراطية طبقي المفضل على كل ما عداها من تنظيم وادارة و«التنظيم والادارة» بالمعنى الخاص الذي أسبغه عليه في تلك الأيام مؤلهو مفهوم الكفاية. فقد سبق لي أن قرأت أعمال ماركس ولينين وماكس ڤيبر ولودڤِك فون مِيزِه وفريدريك فون هايك إضافة إلى فرانتز نويمن وروبرت مايكلز بشكل خاص. ففي كتابه «بهيموث» (كيان ضخم قوي) بينّ نويمن كيف أفسحت البيروقراطية «كدولة ضمن الدولة» المجال أمام هتلر لبلوغ السلطة. وكذلك أظهرت نظرية مايكلز القائلة «بحديدية سِنّة حكم القِلة» أفكاراً متعددة لم أدرك معناها ساعة قرأتها، وها أن معناها ينجلي في ذهني بعد مقابلاتي لزعماء أفارقة بدأوا يرون البيروقراطية دونهم تنمو وتخرج من قبضتهم.

من مطالعاتي فهمت البيروقراطية على انها أكثر من نعت استهزائي يصف الادارة بأنها أنشئت من أجل الادارة ومن أجل المعاملات الورقية ومن أجل موظفين يبتزّون أموال الملكلفين. إنها، حسب تعبيري الخاص، عبارة عن منظمة (ليست كل منظمة بيروقراطية) لها صفاتها الخاصة: (١) توزيع المهمات حسب مهارات محددة، (٢) وهيكلية لها الصفة الرسمية، (٣) و«تحديد ووصف طبيعة العمل» لكل من أفرادها، (٤) وأنظمة محددة بوضوح تنظم العلاقات بين أفرادها وضمن فرق العمل وداخل الأقسام. فإنشاء بيروقراطية، حسب تعريفي لها (استناداً إلى ماكس ڤيبر وغيره) لا تزيد كثيراً عن وضع قائمة بكل شيء يجب عمله من أجل تمكين المنظمة من بلوغ غاياتها ثم ادخال تلك العناصر الأربعة بأقل تعقيد ممكن. يبقى ان أهم مميزاتها ان السلطة تترافق مع اللقب ومع وصف الوظيفة، لا مع الشخص، بحيث ان ولاء المرؤوس لرئيسه ليس مرتبطاً باحترامه له كشخص بل بأنه يشغل منصباً معيناً.

ما أسهل التغلب على هذا النظام! ففي أي مجموعة كبيرة من الناس يعملون معاً تنشأ حكماً شبكة من العلاقات الشخصية المتداخلة الخيوط سواء رحبت الادارة بذلك أم لم ترحب. وقد تستطيع المنظمة البيروقراطية القيام بأعمالها بانتظام عندما لا تتعدى تلك الأعمال الرتابة الروتينية. أما في

الأزمات فتحل العلاقات الشخصية محل رتابة النظام المعمول به. وعليه وتحت اشراف پات اخترعت عبارة «خلق الأزمات» ادراكاً مني بأن التفهم العميق لحركية المنظمات أمر أساسي في تخطيط عمل سياسي احترافي طالما حلمت بإتقانه. فسعيت للتوصل إلى طريقة أرقى من مجرد العثور على عقيد مغفّل أرشده خطوة بعد خطوة لتنفيذ انقلاب على الدولة. وخطر لي وأنا أطبق تعليمات پات على مشاهداتي في افريقيا ان البيروقراطية المتصلّبة لا بد أن تكون في أحد مستوياتها من رأسها حتى أسفلها عرضة لانطباق مخططي عليها شرط توفّر مجال يسمح بالتحرك من أجل «خلق الأزمات» أو «الامساك بزمام الازمات».

باستطاعة الشخص الجالس على قمة منظمته والواقف على قنوات حركة المعلومات فيها أن يفعّل شبكة العلاقات الشخصية غير الرسمية ساعة يرى في ذلك تلاؤماً مع غاياته - أو بتعبير أوضح وأدق عندما تتوافر فيه مهارات اللعب بالمنظمة حسب رغباته يستطيع استخدام تشابك ما هو رسمي مع ما هو غير رسمي في بنية المنظمة لتحقيق تلك الغايات مهما كان نوعها. ولا ريب في انه سيعتمد على العلاقات الشخصية إذا كانت الأزمة المفتعلة مدروسة باتقان واحكام. كما يستطيع الافادة من الولاء على صعيد شخصي لا على صعيد وظيفي - شرط أن يكون قد ملأ المراكز في المنظمة بحيث يشغل مؤيدوه الشخصيون المراكز الحساسة. وإذا ما قمت أنا بتدريب الموظفين في المراكز الأدنى رتبة ونفوذاً فسيتمددون إلى أدنى لخلق المشاكل وإلى أعلى ليبدأ الشعور بوجودهم فتكون العلاقة بينهم كعلاقة الجذور بالنبتة وهي علاقة معرّضة جداً «للتأثيرات الخارجية» - أي اختلاق أزمات خفية لا تطالها المراقبة.

سبق لپات أن لفت انتباهي إلى أن بعضاً مما أوردته أعلاه قد حدث فعلاً لنسل جديد من المهنيين يطلق عليهم اسم مهندسين اداريين. ففي كل بلد زرته في افريقيا كان الزعيم قد استلم السلطة إثر قطعه وعوداً لم يستطع الايفاء بها واستمر في مركزه بإلقائه اللوم على قوى خارجية حالت دون تحقيقه تلك الوعود، ويزجّ المشككين به في السجون. إن لاسلوب «اللوم والارهاب» جدواه، لا ينجح إلاّ بتطبيق ما أسماه مايكلز وغيره «السيطرة البيروقراطية». وقد حاولت في بعض الصفحات السابقة الايضاح بأن انعدام تلك السيطرة أدى إلى سقوط حسني الزعيم.

خلافاً لمدير الاستخبارات المركزية الجنرال بيدل سميث، لم يكن كيركپاتريك (حسب اصرار پات) «رجل التنظيم الأمثل» بل كان «رجل البيروقراطية الأمثل». أشرق عليَّ هذا الادراك بكامل قوته بعد أن عكّرنا المياه على رؤساء فرقنا العاملة في نيودلهي وكلكوتا وكاراتشي وبغداد وبيروت ووصلنا إلى استنبول حيث كان فريقنا بعهدة آرتشي.

خلال الاجتماع الأول أفرغ كيرك وپات جعبتيهما عن اندماج مكتب العمليات الخاصة بمكتب تنسيق السياسات في منظمة واحدة بإدارة نائب مدير التخطيط وانهما انتقلا إلى «الأركان» من «الصف». ثم اخرجا مخططاتهما التنظيمية وفسرا له كيف يجب عليه ادارة شؤون فريقه. وهنا لمع في ذهني انهما لم يظهرا أي فضول أصيل عن سبب وجود فرق في تلك الأمكنة بالذات أو بشأن الأوضاع المحلية ومدى تأثيرها في عمليات تلك الفرق، هذا إذا كان ثمة عمليات وامكانات اجرائها. ويبدو انهما لم يعتبرا ان لمثل تلك الأشياء علاقة بمهمتهما.

والأدهى من ذلك انهما افتتحا عرضهما لآرتشي بمفرده، ولكنهما قبل البحث فيه مسبقاً معه على انفراد دعيا كل الموظفين باستثناء السكرتيرات وعرضا التنظيمات التي قرراها أمام الجميع. وتضمنت

تنظيماتها وجود رئيس فريق (آرتشي) ونائب عن مدير مكتب العمليات الخاصة، ونائب عن مدير مكتب تنسيق السياسات ورؤساء لأقسام الاستخبارات ومكافحة الجاسوسية والعمل السياسي والشؤون العمالية والعمليات شبه العسكرية، هذا علماً بأن لدى آرتشي سلطة دمج أو رفع أو تخفيض أو حتى الغاء تلك الاختصاصات كلها حسبما تقتضيه الأوضاع المحلية. أما آرتشي وهو ذلك الرجل الذي يفترض دوماً وجود حسن النية حتى يثبت العكس فسمح بالتمادي في ذلك الاسراف إلى نقطة اللارجوع. وقبل أن يدرك آرتشي بأن بيانهما قد انتهى لتتبعه بضع أسئلة مهذّبة، كان كيرك قد استدار نحوي وسأل: «هل ذلك واضح بالنسبة إليك يا مستر كويلند؟»

أجبته: «أجل، انه واضح بما فيه الكفاية بالنسبة لي، هذا علماً بأن ما سأكبته عنكما إيها السيدان يصلح مقالاً لمجلة نيويوركر أكثر منه تقريراً سأبعث به إلى كِم. ثم اسألا آرتشي عما إذا كان واضحاً بالنسبة إليه».

جلس آرتشي وقد اعتراه الذهول. ثم فعل شيئاً لم يسبق لي أن شاهدته يصدر عنه. وانفجر غضباً! تاه عن بالي ما قاله لهما وكل ما أذكره انه خاطبهما بكلمات وعبارات امتازت بحسن الاختيار، عندها نهض ضابط برتبة عقيد المفروض فيه الاشراف على العمليات شبه العسكرية وقذف نحو الحائط بالكرسي الذي كان يجلس عليه، فتحطم.

يا له من مشهد! همدت فوراً لهجة پات وتحولت إلى التماس المصالحة. فقد أدرك انه بإشارته للتمييز بين «الأركان» و«الخطّ» ارتكب هفوة كبيرة. أما كيرك فشعر بأن سلطته تعرّضت للتحدي وانه بات مجرد ناظر مهمته السهر على الانضباط حسب أوامر تأتيه من فوق. وحافظ على رباطة جأشه، وبدا عليه الغضب بوضوح جعله إما يتجاهل پات أو لا يسمعه وهو يبدي اعتذاره بعض التراجع فقال بأنهما لم تعد لهما أية «سلطة» بالمعنى المتعارف عليه للكلمة وبأنه يأمل أن يدرك آرتشي ما تنطوي عليه «توصياتهما» من «وزن سلطوي» عندما يقرر «ما إذا كان سيقبل بتلك التوصيات أو يرفضها».

ظننت بأن آرتشي الذي لم يكن على معرفة بلهجة التقرير الذي سأرفعه إلى كيم، قد شعر بأنني تخليت عنه بانزوائي صامتاً فيما كان كيرك يدلي ببلاهاته. على كل حال كان من شأن تحطم الكرسي على الجدار ان خفّف التوتر قليلاً وحوّل اهتمام كيرك نحو محاولة تهدئة العقيد الذي حطم الكرسي ليقول له بأنه سينقله إلى مركز آخر حيث يقدّرون مواهبه. ثم تناولنا طعام الغداء والصمت يخيّم علينا نظراً لأننا كلنا على درجات مختلفة من الصدمة، كما لم يعدو ما تبادلناه من كلام عن بعض ما تكلفناه من أدب مع محاولة تلطيفه ببعض النكات والضحك المصطنع.

والغريب اننا بعد مغادرتنا استنبول جرت الأمور على خير بيننا فقد شعر من كل كيرك وپات بالراحة وبالسعادة لانتهاء المهمة وكانا يضحكان فعلاً أثناء رحلتنا بسيارة السفارة من مطار لندن إلى فندق كلارِدج حيث جلسا يعدّان برقية لمدير الاستخبارات السرية يتضمن اننا جميعاً متعبون جداً من الرحلة وبحاجة إلى العودة بحراً. جاء الجواب ايجاباً فوفرت لنا الباخرة الفخمة «كوين ماري» راحة كنا بأمسّ الحاجة إليها وكنت في أحسن استمتاعي بها عندما سمعت شاباً من وكالة الاستخبارات المركزية استقل الباخرة من مرفأ ساوث هامبتون، يسأل پات صحة الاشاعة عن حتمية تعيين كيرك مديراً للاستخبارات المركزية. أجاب پات بأن لا مفر من ذلك لأن كيرك مزيج مثالي من القدرة الادارية والعقلانية والصرامة وبأنه لدى بلوغه غايته هذه سيكون أقل «خرائية مما هو عليها».

تجمد الدم في عروقي. فحتمية ارتقاء كيرك إلى الترؤس علينا جميعاً كانت صدمة قوية لي. فهو

سيصبح يوماً مديرنا وسيكون مديراً جيداً لأن فهمه لجوهر الأمور محدود جداً. من هنا سيتمكن من ادارة وكالة الاستخبارات المركزية على انها منظمة لا مجرد اسطبل يضمّ مجموعة من راقصات الباليه ـ مثلما يتعامل رئيس مستشفى والتر ريد العسكري مع الاطباء المستقلي الرأي فيه. أما منافسة الرئيسي دِك هِلمز فلديه بعض المعلومات عن الاستخبارات ـ بما يكفي لجعله رجلاً مخطراً ـ ولكن كيم يُعتبر «مستر نظيف» وهو وان كان يعلم ان الخط المستقيم ليس بالضرورة أقصر مسافة بين نقطتين فهو اسلمها حتى يثبت العكس. إذاً انه «رجل البيروقراطية» الأمثل!

غير انه يوجد في الاسطبل راقصة لن يتمكن من قيادتها وهي أنا. عندما اتضحت في ذهني سخافة عملي في وكالة استخبارات مركزية يديرها ليمن كيركپاتريك صرت أفكر بأن «المنظمات خُلقت للحرتقة بها لا لأن أكون فرداً فيها». وحسب ما أوحته لي محاضرات پات سأصبح، أنا، مهندس ادارة! ولما وصلنا واشنطن قضيت اسبوعاً في اعداد تقريري لكيم عن الرحلة (وجعلت ما حدث في استنبول نموذجاً عنها)، وأمضيت جلسة أخرى قابعاً بصمت في احدى الزوايا استمع إلى كيم يسرد على پات وكيرك رأيه فيها، وأعددت ورقة أخرى أوردت فيها أفكاري عن كيفية البحث عن «أب أبيض كبير» هذا إذا كان بحث كهذا سيجري على الاطلاق، والنظر إليه كقضية تنظيمية (عنيت في الواقع «بيروقراطية» حسب تعريف ماركس وفيبر ومايكلز، لكنني قلت «تنظيمية» مراعاة لپات وغيره من القراء المحتملين والملمين، بأحدث ما يصدر عن مكتب التنظيم والادارة في الجيش الأميركي).

قوبلت أفكاري التي ضمنتها تقريري الواقع في ثلاثين صفحة بالاستحسان وعلى الأخص فكرة استقالتي لاستلام عمل جديد مع شركة بوز ـ آلن اند هَملتون وهي أهم شركة في العالم للاستشارات الادارية. وقد تأمّن لي عملي هذا أثناء لقاء طويل على الغداء بيني وبين رئيس الشركة بواسطة مكتب رالف سمايلي في واشنطن وكتاب توصية يشعُّ اطراءً بي وقّعه فرانك وايسنر. أعجب رالف بأفكاري حول القيادة والبيروقراطية (مستقاة من «القانون الحديدي» لمايكلز المعدل للتلاؤم مع الظروف في افريقيا والشرق الأوسط حسب فهمي لها) وقال بأن أفكاري تلك قد تساعده إذا ما نجحت مخططاته لإقامة قسم دولي لشركة بوز ـ آلن اند هِملتون.

وهكذا وصلنا إلى مرحلة أخرى من مراحل عملي المتقاطعة، مرحلة تصور المقولة القديمة انه بامكانك إخراج الشاب من وكالة الاستخبارات المركزية ولكن ليس بإمكانك اخراج وكالة الاستخبارات من الشاب.

الفصل الرابع عشر

مهمة استطلاعيّة في مصر؟

رواية كوبلاند من الزاوية الأميركية*

استقلت مرتين من عملي في وكالة الاستخبارات المركزية بسبب حاجتي إلى المال ولم ألق ترحيباً لدى عودتي إليها إلّا مرة واحدة وكنت قد جمعت من المال ما سمح لي بالعودة إلى ترف العمل في ذلك المكان المدهش. اعتاد أحد زملائي ـ وكان يعتمد على أبيه الثري لتغطية الفرق بين راتبه ونفقاته ـ القول بأنه يشعر وكأنه لا يزال طالباً في الجامعة إذ يكتب لأبيه قائلاً: «أبي الحبيب، أرجو أن ترسل لي المزيد من الدراهم كي أبقى في وكالة الاستخبارات المركزية ستة أشهر أخرى». ولما لم يكن لي والد ثري، اضطررت في العام ١٩٥٣ إلى مغادرة الوكالة لسنتين لأجمع ما كفاني من المال لشراء منزل جميل في ولاية ڤرجينيا وسيارة ثانية وسترات رياضية من المخازن الأنيقة. بلغ راتبي في شركة بوز ـ آلن اند هملتن ضعفي ما كنت أتقاضاه في وكالة الاستخبارات المركزية، ولم يحسدني على ذلك زملائي الأكثر فقراً مني فيها بل حاولوا اقتفاء أثري. وعندما أخذت عطلة من الشركة في العام ١٩٥٥ للانضمام إلى الوكالة من جديد اغتبط الجميع لعودتي.

وعندما تركت الوكالة ثانية عام ١٩٥٧ ارتفع دخلي بعد فترة وجيزة مما حمل مجلات الأعمال الكبرى على ادراج اسمي بين العشرة مستشارين الأعلى راتباً في العالم. وبعدما أصبحت ثرياً بحيث استطيع استئجار جناح في برج واردمن وتوظيف بعض الخدم فيه لم يعد أحد من زملائي السابقين يتكلم معي. ولما غرقت الوكالة في المشاكل بعد عملية «خليج الخنازير» الفاشلة عرضت خدماتي على ريتشرد بيسل الذي حل محل فرانك وايسنر في منصب نائب مدير التخطيط ليقال لي بأن نار الثورة ستشتعل فوراً في مباني القيادة بمجرد التفكير باعادتي إلى الوكالة. ثم تقدمت بعرض من نوع التعاقد للعمل مقابل دولار واحد في السنة، فرفض هو الآخر. ومنذ تلك الأيام وحتى الآن وأنا، حسب تسمية فرانك وايسنر، «الخرّيج الأمين» أقوم بمهمات يجب القيام بها ولا تجرؤ الوكالة على ذلك (هل لاحظتم الفرق)، تارة أحصل على بدل أتعاب ضئيل، وأخرى على مجرد ما دفعته من جيبي، وفي أكثر المرات أقدّم اتعابي دون مقابل. والواقع ان وَلَديَّ الاثنين أخذا في السنوات الأخيرة بمولان نشاطاتي غير الرسمية (وغير الموافق عليها بشكل صريح) بواقع بضعة آلاف من الدولارات في السنة وهي مبالغ غير خاضعة للحسم من ضريبة الدخل. وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من انني ما زلت أنعم بصداقة وثقة بعض الأصدقاء الباقين في الوكالة، أبقى مضطراً لسماع ثرثرة الباقين الذين استساغوا أفكاري واستنكروا وسائلي.

سأطلع كل قارىء يتعهد بالكتمان على السرّ الكامن في سيرة حياتي، أو لنقل وراء دوافع تصرفاتي الكيفية. لقد قضيت السنوات الثلاثين الماضية في تتبع وتحسين نظرية نشأت في ذهني من خلال جولتي الافريقية ومن احاديثي مع پات جونستن ومن مراقبتي لذلك البيروقراطي الأمثل ليمن

* ملاحظة: جرى استبدال العنوان الأصلي من «بيلي غراهام المُسلم» إلى العبارة الواردة أعلاه. ومن نافل القول ان مايلز كوبلاند ينظر إلى الموضوع من زاوية المخابرات المركزية الأميركية وخطّتها الرامية إلى التدخّل في شؤون مصر. فاقتضى تنبيه القارىء لئلا يأخذ الأمور على علاّتها.

كيركپاترك. ادعى الرياضي الاغريقي ارخميدس بأنه اذا ما تيسر له نقطة أو مكان ليقف فيه والرافعة المرتبة ترتيباً مناسباً لاستطاع رفع الكرة الأرضية من مكانها. أما نظيرتي فقامت في بدايتها على اختيار زعماء من «البيروقراطيات الرئيسية في العالم الحر» وتهيئة «سحر الشخصية» لهم فيكونوا رافعات صالحة تستطيع السياسة الخارجية الأميركية المتنورة الاستعانة بها لرفع مستوى العالم. وقد قلت في مذكرتي الوداعية قبل جولتي على الزملاء ان من شأن تطبيق نظريتي بحكمة تمكين وكالة الاستخبارات المركزية، إذا ما أحسنت الاستفادة منها، من تحقيق ما وعد به الرئيس وودرو ولسون «بجعل هذا العالم مكاناً أسلم للديمقراطية» من جهة، وبإزالة ما يجري هنا وهناك من مربكات لاسلوب العيش الأميركي، من جهة أخرى. وعلى الرغم من التحسينات التي أدخلت عليها، لم تحقق نظريتي على مر السنين تقدماً يذكر ولكنها قادتني إلى بعض المآزق وكذلك إلى تحصيل بعض المال. إنما الأهم من ذلك كله انها علّمتني الكثير عما لا يمكن الاعتماد عليه من أجل رفع مستوى العالم أو من أجل تخفيف وطأة مشاكله المتنوعة.

الديمقراطية، مثلاً، واحدة من تلك المشاكل. فقد تأتي الديمقراطية الأصيلة ـ بالمقارنة مع الديمقراطية الزائفة التي يدّعيها الاشتراكيون ـ نقمة لا نعمة إلاّ إذا انبتت نوعاً معيناً من القيادة، عنيفة في نظريتي واستطاع هذا النوع الثبات بوجه تقلبات الظروف والضغوط. وها قد صار من المقولات الشائعة ان بلوغ السلطة يحتاج إلى مجموعة من الصفات، وان استعمال تلك السلطة لخير الذين منحوها يستلزم مجموعة أخرى. وقد اتضح لي حتى في وقت مبكر كالعام ١٩٥٣ ان الديمقراطية كغاية بحد ذاتها أفادت الغوغائيين الديماغوجيين فاستغلوها لأغراض تناقض غاياتها. يشهد التاريخ الحديث على أن بعضاً من أسوأ طواغيت العالم شقّوا طريقهم إلى السلطة عبر انتخابات ديمقراطية. ففي العام ١٩٨٠ مثلاً تبجّح روبرت موغابي رئيس زيمبابوي المنتخب ديمقراطياً بأنه يحبّذ الديمقراطية لأنها «نظام يسهل اختراقه والتغلب عليه. وتوصل أيضاً أشخاصاً من أقل الناس أهلية وكفاءة وأكثرهم ثرثرة في التاريخ إلى مراكز رفيعة بفوزهم في انتخابات ديمقراطية لم تكن في واقعها أكثر من مباراة في الشعبية، وما لبثوا ان خربوا مصالح بلدانهم لأنهم لم يتمكنوا إلاّ من السير وراء جمهورهم على غرار ما كتبه ادموند بورك عن احد قادة الثورة الفرنسية الذي نسب إليه قوله: «إن الرعاع يملأون الطرقات وعليَّ أن أعرف وجهتهم لأنني قائدهم».

والمهم ان الغاية من ملاحظاتي هذه ليست إلقاء درس في أصول القيادة السياسية. فهذا الكتاب سرد ذاتي لسيرة حياتي أعبّر فيه فيما أعبر عما كان يجول في خاطري عندما تخليت عن العمل في وكالة الاستخبارات المركزية عام ١٩٥٣، ومن بينها الاشارة إلى مواقع في بعض البيروقراطيات في العالم حيث تُتخذ أكثر المقررات تأثيراً في مصالح الولايات المتحدة. فقد ملأ ضميري آنذاك الأمل بأن أتمكن من التخطيط لأعمال سياسية تدفع ببعض من اختار من الطامحين إلى الاشتراك فيها والاستمرار عليها ثم السير في طرق تؤدي بهم وبنا إلى الازدهار والاستقرار. والواقع انه بصرف النظر عن بعض التسليات العبثية تركزت كل نشاطاتي خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية بشكل ما على الأمل في التعرف إلى أشخاص يبشرون بطاقة قيادية من أجل توجيههم نحو بلوغ مستقبلهم الأمثل بالوسائل الديمقراطية، إذا ما توافرت، أو بأي وسيلة أخرى ودون تردد عند عدم توافرها.

وقع اختياري الأول من الناحية الاقليمية على مصر. فقد أبدى رؤسائي المقبلون شركة بوز ـ آلن آند هَملتُن ورئيسي آنذاك كيم روزفلت اهتماماً واضحاً ومكشوفاً بها، وكل فريق لأسباب لا صلة لها البتة بأسباب الفريق الآخر ولكن اسبابهم جاءت متضافرة تماماً من وجهة نظري أنا. فقد كانت الشركة

تفاوض المصرف الوطني المصري بشأن اجراء مسح اداري شامل لادارته ولمختلف ممتلكاته، فيما كان كيم، دون علمه بنشاط الشركة، منشغلاً بالفوضى السياسية في ذلك البلد الذي أصبح مُفضلاً عنده من خلال خبراته إبان الحرب العالمية الثانية.

ودون علمه باهتمام الشركة ورغم توسلي بأن يترك لي أمر الافكار الخارقة، دخل كيم مكتبه صبيحة أحد الأيام ودعا المسؤولين لاجتماع طارىء أعلن فيه انه قضى ليلته يتقلب في فراشه ويقلب في عقله بعض الافكار التي راودته بشأن انقاذ الملك فاروق الذي لا يزال يحظى بعطف الغرب. فكان علينا اقناع «الزير السمين» حسبما لقبه بعض موظفي دائرة التخطيط في قسم الشرق الأدنى وافريقيا، اثناء غياب كيم طبعاً، بأنه إذا امتنع عن اجراء تطهيرات بين موظفيه الفاسدين وفي نظام حكمه البالي وعن جعله أقرب إلى مجتمع المساواة، فإن شخصاً آخر سيقوم بذلك.

دونت أفكار كيم هذه بشكل مشروع (أطلقنا عليه رمز ز. س. أي «الزير السمين») أخذ طريقه الروتينية لموافقة السلطات الأمنية عليه. وسرعان ما سبقتنا أحداث القاهرة في يوم بات يُعرف باسم «سبت مصر الأسود».

ففي أواخر العام ١٩٥١ قررت حكومة ونستون تشرتشل التي عادت إلى الحكم بعد أن أضعفت الحكومة العمالية بريطانيا دولياً وداخلياً، قررت معاقبة مصر على نقضها المعاهدتين اللتين سوغتا الوجود البريطاني في منطقة قناة السويس وعلى دعم نقضها هذا بمحاصرة المنطقة بحرب العصابات. ففي كانون الأول (ديسمبر) دمر الجيش البريطاني قرية كان ينطلق منها المقاومون المصريون. وفي أوائل كانون الثاني (يناير) هاجموا مركزين مصريين بالقرب من الاسماعيلية وقتلوا أو أصابوا معظم الذين كانوا فيهما. توتّرت الأجواء وأحرقت ودمرت الجماهير الهائجة المؤلفة من مسلمين متطرفين كل مباني المدينة ذات الصلة «بالامبريالية البريطانية» ـ منها فندق شپرد وتورف كلوب وكل مطعم أو بار أو دار للسينما عرفت بملازمة الجاليات الأجنبية لها.

كل هذا في مصر الصبورة فبات صبرها هذا موضوع انتقادات في معظم العالم العربي. أما الحكومة البريطانية التي استشاط غضبها وقلّت حيلتها فأقسمت على اتخاذ اجراءات اضافية بحق المصريين. وأما وزارة الخارجية الأميركية وقد كدّرها تقصير البريطانيين عن الادراك بأن «عهد الاستعمار قد ولّى»، فأرسلت احتجاجات موزونة للحكومتين البريطانية والمصرية. ورأت وكالة الاستخبارات المركزية فرصتها فقطعنا صلاتنا الرسمية مع الاستخبارات السرية البريطانية، وأخذ مشروع كيم (روزفلت) لانقاذ الملك فاروق «بالثورة السلمية» طريقه إلى التنفيذ فنال موافقة آلن دالس أثناء تناوله الشاي في بيته في ضاحية جورجتاون بعد ظهر يوم الأحد الذي تلا السبت الأسود وأعلن كيم ذلك في اجتماع المسؤولين في قسمه صباح اليوم التالي.

هل كان متوقعاً ان يرسلني كيم إلى القاهرة للقيام بتلك المهمة؟ لا، لا مجال مطلقاً؛ بل انه سيقوم بها بنفسه. أما أنا فيؤتى بي للابقاء على قوة اندفاع المشروع بعد نجاحه ـ شرط ان أتخلّى، حسب قول كيم عن «اصراري بعناد» على مغادرة وكالة الاستخبارات المركزية سعياً وراء كسب أكبر. أجبت بأني سأفكر في الأمر، ولم يكن كيم على علم بالطبع بأنني سأذهب إلى مصر سواء قبل بذلك أم لم يقبل ـ باعتباري الموظف الذي يتكلم العربية في شركة بوز ـ آلن آند هملتن.

أثبتت لي اعادة قراءة ملف كيم بأنه على كامل الحق في اصراره على انه وحده القادر على تحقيق المشروع. ففي الحرب العالمية الثانية قامت علاقة ودية بينه وبين الملك فاروق اثر فترة من التوتر بين

الملك والبريطانيين فرض عليه هؤلاء فيها وتحت التهديد بالسلاح ابعاد العناصر الموالية للالمان في حكومته واستبدالهم بعناصر من اختيارهم. وفيما الملك يرغي ويزبد في قصره كان كيم يزوره يومياً تقريباً لتطييب خاطره بالايماء إليه بقيام حقبة جديدة بعد الحرب تنعم مصر فيها بسيادة حقيقية ويكون هو فيها «أول حاكم لأول مصر حرة منذ ألفي سنة». وكما ذكرنا كيم في اجتماع الموظفين في مكتبه صباح ذلك الاثنين، فقد ارتاح الملك فاروق لأحاديثه وبالتالي هناك مجال واسع للاعتقاد بأن زيارة له من قبل كيم لاعادة الصلة قد تجعله يقبل بتلك الأفكار التي توصل إليها كيم في تلك الليلة البيضاء. وهكذا وخلال أقل من اسبوع كان كيم في طريقه إلى القاهرة.

صحيح أن الملك استقبله بحرارة، وان بشكل ملفت أكثر مما هو مطلوب. لزيارة «تكتسي طابع السرية القصوى» حسب ما ورد في برقية بعث بها كيم بالشيفرة عبر قنوات اتفق عليها مسبقاً. تقدم موظف مصري مهذب إلى الطائرة ورافق كيم عبر دوائر الأمن والجمارك بسرعة قبل السماح لباقي ركاب الطائرة بمغادرتها. وراحت السيارة التي أقلتها وعليها الشعارات الملكية الواضحة تخترق الشوارع بسرعة وعجلاتها تزعق في الطرقات فتتبعثر أمامها السيارات والعربات ويفرّ من أمامها المارة والأولاد الذين اتخذوا الطريق ملعبهم. وقد روعيت واحدة من تعليمات السرية التي طلبها كيم وكانت تغطية نوافذ السيارة بستائر بحيث انه لم يستطع معرفة وجهة رحلته إلّا عندما توقفت السيارة في حديقة استراحة الجيزة المطلة على الأهرام.

بوصوله إلى الاستراحة استعاد كيم من خبايا ذاكرته انطباعاً تكوّن في ذهنه في الأيام التي قضاها في القاهرة إبان الحرب، بأن الملك فاروق ليس من ذوي الأوزان العقلية الثقيلة. وجاءت لقاءاته به على مدى الاسبوعين التاليين تؤكد صحة انطباعه. فقد كان الملك يبدي إدراكاً جلياً للأحداث الجارية في البلاد ولتأثيراتها المحتملة في مستقبله ومستقبل عرشه فيوافق بحماس على اقتراحات كيم العلاجية، ويختفي في اليوم التالي عن الأبصار وقد أهمل اصدار أمر كان بالأمس قد وافق على انه حيوي للخطة التي عرضها كيم. ثم يعود بعد اسبوع، وفي نزوة آنية من نزواته، فيصدر أمراً آخر يؤدي إلى انهيار الخطة من أساسها.

استغرقت زيارة كيم للقاهرة قرابة الشهر عاف على أثرها «مشروع ز. س.» حسبما كان عليه في الأصل، وعاد إلى واشنطن مقتنعاً بأن لا مجال للعمل العقلاني في مصر طالما بقي فاروق متربعاً على العرش، ومصمماً أكثر من أي وقت مضى على «انقاذ مصر من نفسها»، حسب تعبيره. وفي تعلقه بحبال الهواء نفض كيم أكداس الغبار عن فكرتي بالبحث عن «بيلي غراهام المسلم» وقرر ارسالي إلى مصر في مهمة استكشاف. أمرني بزيارة القاهرة لإجراء مسح شامل للوضع العام، وباستقصاء مدى أي اضرار تكون قد نجمت عن تصرفات الملك الصبيانية، وبالعودة بمخطط جديد. كانت أوامره بمثابة القول «اسبح ما شئت دون أن تبتل».

ما ان وصلت القاهرة حتى خالفت احدى وصايا الوكالة المقدسة آنذاك إذ قررت القيام بزيارة للسفير الأميركي واطلاعه على حرفية ما أنوي عمله والوقوف على رأيه. أما ذريعتي، عندما بلغ واشنطن خبر تمردي هذا، فهي ان السفير جفرسون كافيري أكبر موظفي الخارجية سناً وأشدهم حكمة وأعلم من أي مستشرق بالشؤون المصرية، كما كان يعاونه في السفارة موظفان لهما اتصالات مع المصريين أوسع بكثير مما لمسؤولي الوكالة في القاهرة. فقد قام مساعد الملحق العسكري المقدم دايفيد إيفانز والضابط السياسي (لا ينتمي إلى الوكالة) بيل لايكلاند بأعمال تفخر بها الوكالة كما لو انها هي

التي قامت بها، من حيث المراقبة الذكية للغليان المستتر الذي أقلق كيم روزفلت والمحللين السياسيين في طاقمه في واشنطن. هذا فضلاً عن انهما قدما لي العون الذكي علماً بأن من حقهما الامتعاض من فضولي وتدخلاتي.

وعندما شرعت بالعمل الجدي بحثاً عن زعيم أو قائد، بدأت خارج السفارة مستعيناً بصديقي ناصر الدين النشاشيبي (أو نصري). تعود صداقتنا إلى أيام عملي في دمشق، وهو من الجيل الحادي والثلاثين من سلالة الأمير أحمد ناصر الدين النشاشيبي حارس مساجد القدس والخليل في عهد المماليك. تعرفت إليه في الاردن وهو في العشرينات من العمر، ياور لدى الملك عبدالله واستمر في ذلك المنصب حتى اغتيال الملك في تموز (يوليو) ١٩٥١.

أما الآن وقد أصبح من شخصيات المجتمع السياسي الرفيع في القاهرة فرجوته ان يفسّر لي كيف يمكن لأي قائد يبرز من «الثورة السلمية» التي يتصورها كيم رزفلت تحويل الآمال إلى توقعات، أو أي شيء آخر، رغم ما سيكون عليه من انشغال بكل المكائد التي حاكها كيم مع الملك فاروق.

أوضحت لنصري، ونحن نتناول كأساً من الشراب، رغبتي في ان يكون آخر عمل أقوم به قبل التخلي عن وظيفتي في الحكومة، العثور على منقذ وتدريبه لينطلق من مصر وينشر كلمته بين الأفارقة وربما في العالم الثالث كله. وقلت له: إن المطلوب من الرجل الذي نختاره ألا يكون فقط قادراً على اثارة الآمال بل على تحويلها أيضاً إلى توقعات سليمة وعلى قيادة شعوب العالم المحرومة نحو حياة أفضل ونحو الأمن ونحو «الحرية»، هذا إضافة إلى تحصينهم في وجه أي انبياء زائفين.

في بداية الحديث أعرب نصري بالشكل المألوف عن امتعاضه عن تأييد أميركا لاسرائيل ثم وافق على ان قائداً ذا شخصية ساحرة ربما هو المطلوب لتحويل موجة الكراهية المتنامية لأميركا ليس فقط في العالم العربي بل وفي مجمل غرب آسيا وتوجيهها نحو مستهدفٍ آخر. من هنا فإن شخصاً له صفة دينية ما وقادراً على سحر الجماهير سيكون ذلك الشخص المثالي. ولكن يبقى السؤال هل من الضروري ان تكون حركة دينية موجهة منذ بدايتها ضد شيء ما؟ إذاً، علينا ان نخلق «شيئاً» أشد هولاً وتهديداً من دولة عبرية، علماً بصعوبة التوصل إلى ذلك في حقبة كانت خلالها عبرية اسرائيل أهم مزاياها اطلاقاً.

إذاً، قادني البحث عن عدو مقبول بديلاً عن الولايات المتحدة واسرائيل للقيام بجولة بدأتها بزيارة «جحر ميلو» مسجد في المدينة القديمة المشرف على مسجد السلطان حسن بكل جماله ورهبته. وميلو هذا لواطي يوغسلافي، تقي متعبد سلس الحديث، اشتغل مخبراً في الحرب العالمية الثانية لدى اجهزة تجسس متعددة، وضعته المخابرات المصرية في قصر بناه أحد أمناء بيت المال أيام المماليك في القرن الخامس عشر. حولت المخابرات غرف القصر السرية وممراته وأروقته المخفية إلى دار شرقية للتسلية تتلاءم مع كامل نشاطاتها الأخرى الأكثر غرابة ابتداء بالتهريب وصولاً إلى تخدير وخطف الدبلوماسيين الأجانب. أما الغرف التقليدية فسمحت لميلو بتحويلها إلى ما أسماه «المربع الليلي لكافة المذاهب» حيث يمارس المشعوذون وأصحاب المذاهب العجيبة طقوسهم امام السواح الأجانب، هذا إلى جانب مذاهب أخرى «موقتة» يخترعها ميلو بنفسه لتنويع برامج تسلية زبائنه.

وليلة اصطحبت نصري إلى «جحر ميلو» كانت فرقة من الدراويش تقدم الوصلة الرئيسية حول مصطبة أشبه بحلبة المصارعة الواسعة ينيرها ضوء بدر يكتمل جلس حول طاولاتها المرتبة على غرار المرابع الليلية سواح يرشفون الشمبانيا المصرية. على ايقاع طبلة ينقرها درويش ضرير راح افراد الفرقة يدورون في حلقة من حلقات الذكر مردّدين عبارة: «اذكروا الله» بغية إثارة نوبة من الشعور الديني.

علّق نصري على المشهد بالقول: إذا قصرت تلك التصرفات عن تحويل الاهتمام من «الظلم المتمثل باقامة اسرائيل» فلن يقدر شيء آخر عليه.

أدركت من خلال شرح قصير همسه نصري في أذني بين وصلتين ان أفراد هذا المذهب يحاولون الانتقال إلى «عالم غير مرئي» بالرقصات التي نراها، ويحررون أنفسهم من الخلافات الدنيوية المعششة في مصر. استفسرت من نصري عن آرائهم بالتأييد الأميركي لاسرائيل فقال: «لا رأي لديهم، انهم مجانين».

لم يكن منطلق تفكيري «ظاهرة بيلي غراهام المسلم» نزوة للتسلية. فقد خطر لي وأنا ابن الاباما التي شاهدت فيها وعرفت بعض المبشرين والدعاة المعمدانيين وحواة الثعابين، خطر لي ان ربما، وربما فقط، كان لدى هؤلاء الناس ما هو قابل لأن يُحمل على محمل الجدية. فمن المُسلَّم به انه يجب ان يكون للانسان عقل قبل أن يفقده، وكذلك يجب ان يشعر المرء بانتمائه إلى العالم قبل الشعور بالرغبة في الهرب منه. قد استطيع الموافقة على ان هؤلاء الراقصين مجانين حقاً أو لعلهم حمقى. إنما لا بد من وجود فكر متقدم في أصول تلك الحركة جدير بالاهتمام. أكد لي نصري ذلك قائلاً: إن المذهب من الصوفية وكان لاتباعه مجتمعهم ومعابدهم وموقعهم في أواسط العالم الاسلامي. أما الآن فلم يبق لهم صلة بأصولهم القديمة إلّا بمقدار ما لحضارة الـ إنكا من صلة بأهل البيرو المعاصرين.

وهل من ضير في ذلك؟ ولئن لفت نصري انتباهي إلى ان الصراع العربي الاسرائيلي قد حرك الطاقات السياسية الواعية في مجتمع متفكك، كنت في الواقع على بينة، قياساً على ما يجري في أميركا، من أن العقلانية والمنطق ليسا من الضروريات لاجتذاب الاتباع لدعوات دينية هذا في زمن سبق استعمال التلفزيون وسيلة له. فكان لبيلي غراهم أمثال وانداد لا يجتذبون البلهاء والمتخلفين عقلياً فقط بل يعدّون بين اتباعهم أيضاً محامين وأطباء واساتذة جامعات يرغبون بأن «يولدوا من جديد». قلت لنصري: «لا بد ان يكون بين هؤلاء الدراويش من يستعمل عقله».

أجابني: «أجل، انهم موجودون وهم يستغلون الجهلة من الناس».

فعلاً كان بينهم من يستعملون عقولهم ولم يطل بي الأمر حتى اجتمعت بأحدهم. رفض نصري الذهاب إلى ما وراء الكواليس حيث كان الممثلون يعودون إلى رشدهم، وتقدم مني أحدهم (الواقع انني لم أذكر انني شاهدته بين الراقصين) وسألني بتهذيب وبانكليزية ركيكة إذا كنت أبحث عن المراحيض. كنت على وشك اجابته عندما تقدم مني شاب يرتدي مثل ثيابهم، ولكنه أميركي، وقال لي انني شخص غير مرغوب بوجوده في ذلك المكان وان عليَّ، أن أبول في مكان آخر» وانصرف بسرعة.

ولما عدت وانضممت إلى نصري ثانية أبدى استغرابه لما اخبرته عن الشاب الأميركي وقال: «ظننت انه لا بد من وجود مدير أعمال مسرحي من نيويورك في هذا المكان». انضم ميلو إلينا وقضينا ما تبقى من السهرة نشرب العرق ونأكل كباباً مقبولاً وحمصاً بطحينة. (كانت تلك السهرة بداية لصداقة طويلة مع ميلو استمرت حتى وفاته في أوائل السبعينات وقد قضى السنوات الأخيرة من حياته في الاسكندرية يتقاضى بدل تقاعد شهرياً من وكالة الاستخبارات المركزية).

اصطحبني نصري في الليلة التالية إلى قاعة للمحاضرات بالقرب من جامعة الأزهر حيث استمعنا إلى خطبة نارية ألقاها رجل اسمه حسن الهضيبي سمّى فيها الأشياء بأسمائها. وكان السيد حسن الهضيبي قد عيّن حديثاً لرئاسة جمعية الاخوان المسلمين، فامتلأت خطبته بالتهجم على تأثير أميركا المفسد في العالم. سبق لي ان استقيت بعض المعلومات عن الاخوان المسلمين أثناء الأسابيع

القليلة التي قضيتها في مكتب شؤون المانيا في مقر قيادة الوكالة في واشنطن. أسس الجمعية الشيخ حسن البنّا في أواخر العشرينات لتطهير الاسلام من «المؤثرات الأجنبية». وتسيّست الجمعية السرية هذه أثناء الحرب العالمية الثانية بدافع من بعض الامكانات العملية التي قدمها الالمان والايطاليون وعلى الأخص طرد البريطانيين من مصر. حلّ الشيخ حسن الهضيبي محل الشيخ حسن البنا، وكان خطيباً مفوهاً يتكلم بوتيرة واحدة سرعان ما يسيطر بها على جمهور مستمعيه ليصبحوا آلة طيّعة بين يديه. همست في أذن نصري بأنني أود التعرف إليه فظنني أمازحه وقال: «أليس هو من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية؟» وما أن انتهى الاجتماع حتى سحبني نصري من مقعدي في مؤخرة القاعة قبل أن يرانا أحد وفي أقل من دقيقة كنا في سيارته المرسيدس في طريقنا إلى قلب القاهرة.

وفيما نحن خارجان من القاعة لمحت الأميركي الذي شاهدته الليلة السابقة عند ميلو، مرتدياً هذه المرة كنزة وفوقها سترة من المخمل المضلّع. كان على مسافة العشرين قدماً مني تقريباً، ينظر إليّ بإمعان. رفض نصري ونحن في السيارة ايضاح ما قاله لي عن ان حسن الهضيبي عميل للوكالة. أوصلني إلى فندق سميراميس ومضى في طريقه دون ان يتمنى لي أن أصبح على خير. وعندما وصلت إلى جناحي في الطابق الأخير وجدت ان الشاب الأميركي قد سبقني إليه وجلس أرضاً في وضع يوغا بالقرب من كرسي. أدركت هويته فوراً ولم يتأخر هو بتأكيدها.

بادرني بالسؤال: ألم يقل لك «فوكوايز» ان تتركني وشأني؟ فوكوايز هو الاسم المستعار لكيم روزفلت داخل الوكالة. من البديهي ان هذا الشاب واحد من عملاء كيم الخاصين وكنت قد علمت صدفة بوجوده من سكرتيرة كيم.

سألته بحنق ظاهر: «قل لي بحق جهنم، ماذا تفعل هنا؟» كان حنقي موجهاً بالطبع إلى كيم وليس إلى الشاب المسكين الذي أدركت من حداثة سنه انه لا يشغل مركزاً رفيعاً في الوكالة وان يكن قد توصل بشكل ما إلى مشارف هدف هام، حسبما تبيّن لي من حديثي معه. لقد عرف الشاب الذي سأسميه روبرت في هذا الكتاب، مَن أنا لأنه شاهدني أكثر من مرة في مبنى القيادة. ولكنه لم يكن على علم بمهمتي الحالية. كما أبدى تقيداً صارماً بالسرية منعه من الاستفسار، ولكنني اخبرته بذلك.

أخذته الدهشة! ثم أفرغ جعبته. ففيما كنت في مهمة استطلاعية كان كيم يعدّ العدة لانقلاب ما على الملك فاروق على ألا يكون لي فيه دور. واتضح لكل منا نحن الاثنين، روبرت وأنا، ان امامنا وضعاً من تلك الأوضاع حيث حصيلة واحد زائد واحد تأتي أكثر من اثنين، وبالتالي سيكون من المفيد لكل منا تبادل المعلومات سراً. غير أن روبرت تحفظ في التعاون معي حتى سألته عن رتبته.

قال انه في الرتبة السابعة أي انه واحد من الأميركيين القلائل العاملين فعلاً كعملاء (خلافاً للاعتقاد السائد بأن أجهزة التجسس قلما تستخدم مواطنيها عملاء لها) فهو بالتالي أدنى رتبة في هرمية وكالة الاستخبارات المركزية من عاملة على الآلة الكاتبة. فهو إذاً يقوم بمهام مَن يجب أن يكون في الرتبة ١٣ على الأقل. لا بد ان كيم استغل وضع هذا الشاب الجامعي الذي اعتاد على الراتب المنخفض واستخدمه في ادنى رتبة قبل بها. وبالتالي ما كان عليّ إلا القول له بأنه مُستغَل لاكتسابه إلى جانبي.

مرة أخرى اضطررت إلى رفع قبعتي تقديراً لمهارة كيم وحنكته بعد الذي أخبرني به روبرت. ذلك ان كيم بمفرده وعلى الرغم من مراقبة فاروق الدائمة له استطاع ـ وتحت أنف فاروق ـ ان يعلم بأنه وان كان من المفروض انهما يتعاونان في وضع مخططات «الثورة السلمية» فقد راح الملك فاروق يعمل سراً مع زعماء الاخوان لاحداث انقلاب تسيطر عليه حركة «العودة إلى الله» التي يقودها أصوليون

مسلمون. ظنّ فاروق، وهو على بعض الحق في ذلك، بأن التشكيك بكونه مسلماً يتّقي الله لن يخفف من استعداد الاصوليين القبول بمساعدة مالية ملكية. وظن كيم بدوره، وهو أيضاً على بعض الحق في ما ذهب إليه، ان ذلك التشكيك سيخفف من استعدادهم هذا بما يكفي لانجاح ما أخذ يتبلور في ذهنه من مخطط لمناهضة فاروق بعد قضائه اسبوعاً او اثنين في محاولات ترمي إلى التعاون مع الزير السمين. اقنع كيم الملك فاروق «بشراء» الاخوان بتقديم مبالغ كبيرة من المال إلى حسن الهضيبي. ولم يكن فاروق على علم بأن أموال الرشوة هذه تُستخدم لسدّ نفقات جانبية تستلزمها محاولة اجتذاب الجيش المصري إلى مخطط الاخوان الانقلابي، وبأن تلك الأموال بحد ذاتها أدلة اضافية على مدى فساده وإلحاده. ذلك انه يحاول رشوة من اختاره الله! ترى إلى أي مدى يصل الفساد؟ لذلك لن يكون لفاروق مكان في النظام الجديد.

باكتمال جميع المعلومات المتوافرة عن الاخوان بتّ على يقين مما يجول في خاطري: ان الانقلاب الوحيد الذي يمكن أن يكون فعالاً، سواء بالسيطرة على الحكومة أو بتثبيت القبضة على الحكم بعد السيطرة عليه لا يتحقق إلاّ بتضافر الجهود بين الجيش والاخوان المسلمين. ومع العلم بأنني لم أعطِ روبرت أكثر من فكرة سطحية عما يجول في خاطري، فقد كان ذلك كافياً للحصول على مساعدته في معرفة الضباط من الرتب المتوسطة والعليا المنخرطين في حركة الاخوان أو المتعاطفين معها. وفي الوقت نفسه طلبت من نصري أن يدلّني على كبار الضباط في الجيش المصري الذي لهم أفضل الحظوظ في الحصول على التأييد الشعبي إذا ما قرر الجيش الاستيلاء على الحكم.

لم يبد نصري ارتياحه لطلبي إلاّ انه اعترف بوجود تململ واستياء واسع النطاق في طول البلاد وعرضها وان في نادي الضباط في ضاحية هيليوبوليس القاهرية همساً عن أن رجلاً طيباً وشعبياً على صورة «الأب الصالح» مثل الجنرال محمد نجيب سيلقى الترحيب إذا ما صار الرجل الأول في البلاد بوجود الملك أو بدونه. لم يشأ نصري الافصاح عن أكثر من ذلك وأجابني بأنه لا يعرف ضباطاً كباراً ينتمون إلى حركة الاخوان المسلمين، موضحاً عدم رغبته بالمزيد من الحديث في هذا الموضوع.

لم يكن روبرت في تلك الأثناء عاطلاً عن العمل. فبعد يوم أو اثنين من حديثي مع نصري رافقني في ساعة متأخرة من الليل إلى اجتماع سري جداً عقد في بيت بالقرب من الاهرام وصلناه بعد المرور بالزواريب والأزقة والطرق المتعرجة بحيث يستحيل عليَّ العودة إليه بمفردي في وضح النهار. كان هذا الاجتماع الذي انعقد في آذار (مارس) ١٩٥٢ هو عينه الذي أورده مؤلفون مصريون وأوروبيون واميركيون بروايات مختلفة تحدثت كلها عن ان كيم روزفلت أطلق خلاله الشرارة التي أدّت بعده بأربعة أشهر إلى حصول الانقلاب العسكري. وتصحيحاً لمعلومات محمد حسنين هيكل الذي ينكر عليَّ كل ما أقوله، اؤكد جازماً ان كيم لم يحضر ذلك الاجتماع ولم يسمع به إلى أن رفعت له تقريراً عنه بعد عودتي إلى واشنطن. واؤكد كذلك ان كلمة انقلاب لم ترد خلال ذلك الاجتماع. كل ما قلته للضباط الثلاثة، ولم أكن أعرف أسماءهم، هو ان حكومتي قلقة من تزايد النقمة في مصر البلد الصديق وانها ترغب بالوقوف على «آراء ضباط يمثّلون الجيش المصري بأمانة» حول ما يمكننا عمله، هذا إذا امكننا عمل أي شيء للمساعدة على الحيلولة دون المزيد من تدهور الأوضاع.

إن الملاحظات الهامة الوحيدة التي أثارها كلامي هي تلك المتعلقة بالبلاد بمجملها ـ أكرر القول بأنها لم تكن على صلة بالجيش وحده بل بالبلاد كلها ـ انها الاستياء الشامل حيال «استمرار الاحتلال البريطاني» والطريقة الصحيحة التي تعالج بها تلك القضية. واؤكد بأنه لم يرد ذكر اسرائيل إلاّ في سياق النقد العنيف والاستياء العارم اللذين عبر عنهما أحد الضباط حيال الفساد المستشري في الحكومة مما

أدّى إلى تكبيل الجيش والحيلولة دون ادائه اداءً أفضل في الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨. وصحيح أيضاً ما جاء من اخبار ان التقرير الذي ورد إلى واشنطن عن ذلك الاجتماع (تقريري انا لا تقرير كيم - وهو تقرير رفعته إلى كيم وليس صادراً عنه) انطوى على اشارة إلى الضابط الصاغ عبدالمنعم رؤوف الذي لم يكن فقط عضواً في الاخوان المسلمين بل أيضاً عضواً في مجموعة الضباط الأحرار، أي حلقة عبدالناصر الداخلية. هذا الكلام صحيح، ولكنني لم أعلم إلاّ لاحقاً ان الصاغ عبدالمنعم رؤوف قال لي بعبارات لا مجال لسوء تفسيرها أو لعدم وضوحها بأنني أقدم خدمة جليلة لبلدينا ان أنا أقنعت الحكومة الاميركية بالاقلاع عن التدخل بالشؤون المصرية. ولم أعلم إلاّ في اليوم التالي وبواسطة ضابط مصري شاب جاءني إلى الفندق بأن «مندوبين» عن مجموعة الضباط الأحرار السرية يسرها الاجتماع إلى السيد روزفلت (رئيسكم) شرط الاتفاق مسبقاً على مكان اللقاء خارج مصر.

في أواخر آذار ١٩٥٢، بعد اسبوع من عودتي إلى واشنطن وقبل أربعة أشهر من الانقلاب الذي أطاح بالملك فاروق، بدأ كيم روزفلت وجمال عبدالناصر بعقد سلسلة من الاجتماعات اعتبرت فيما بعد نماذج لتلك التي تسبق العمليات السياسية من صنف الانقلابات.عقد كيم الاجتماع الأول مع لجنة من الضباط البعيدين بما فيه الكفاية عن لولب حركة الضباط الأحرار بحيث يمكن الاستغناء عنهم إذا دعت الحاجة، علماً انه بالامكان الاعتماد عليهم للادلاء به دون الافصاح عن الاسرار الرئيسية. ثم حصل اجتماعان آخران حضر ثانيهما جمال عبدالناصر بنفسه (يمكن لمحمد حسنين هيكل ان ينكر ذلك ما شاء. ولكن الاجتماع مدعوم بالوثائق والصور). أما أنا فلم أحضر أياً منها وكنت مع روبرت ننتظر في الفندق فيما الاجتماع الثالث منعقد. أوردت مجال الاتفاق الواسع الذي تم التوصل إليه بين كيم وعبدالناصر في تقرير وضعته استناداً إلى ما قاله لي كيم منه شفاهة فصار نصاً يُدرَّس عن التفاهم المتبادل الذي ينبغي ان تقوم عليه أي عملية سياسية تقرر الحكومة الأميركية دعمها.

توصل عبدالناصر وكيم إلى الاتفاق سريعاً حول ثلاثة مواضيع عامة. **الأول**، هو عدم احتمال قيام الجماهير بثورة بسبب الظروف الاقتصادية المرعبة. لقد أوضح كيم هذه النقطة مرات عديدة في وزارة الخارجية مكرراً انه لم تقم في التاريخ أي ثورة هامة لأسباب اقتصادية وان حكومتنا لا تستطيع ارغام أي زعيم على التصرف حسب اهوائنا بمجرد تهديده بقطع المساعدات الاقتصادية. أدرك عبدالناصر ذلك خلال الاجتماع المذكور وجاءت خبرته الشخصية تؤكده لاحقاً: فكلّما ستحاول الحكومة الأميركية معاقبته بحبس صنف هام من المساعدات عنه (القمح مثلاً) سينتهي به الأمر إلى ازدياد مركزه قوة بحيث ينمو شعور الشعب بأن اللوم يقع على الأميركيين وليس عليه لما يعانونه من بؤس.

الموضوع الثاني الذي اتفقا عليه هو ان الاحتمال ضئيل في ان تقوم الجماهير المصرية بأي ثورة. وقد تصورت حركتان ثوريتان آنذاك هما: **الاخوان المسلمون والشيوعيون**، ان الشعب المصري - ومنهم الفلاحون والعمال والموظفون العاملون في المدن اضافة إلى طبقة المهنيين - أخذ أخيراً يقترب من نقطة الغليان وان ايصاله إليها ممكن باستعمال النداءات المناسبة. لم تنل تلك الفرضية موافقة عبدالناصر الذي قال «تكمن مشكلتنا في ان الشعب لا يريد ما يكفيه»، وأضاف بأن معظم المصريين عاشوا ألوف السنين على شفير الجوع وباستطاعتهم الاستمرار على ذلك النحو لألف سنة أخرى. وهكذا لا مجال لقيام ثورة «شعبية» أو «ديمقراطية».وتمّ التفاهم منذ البداية على استلام الجيش المصري لمقاليد الحكم في البلاد على أن يُترك له امر اختيار الموعد والظروف المناسبة التي تضمن له التأييد الشعبي الواعي سياسياً في المدن، وان الريف سيقتفي الأثر لاحقاً.

ثالثاً وأخيراً تم الاتفاق على انه في العلاقات المقبلة بين حكومتي البلدين علينا (الأميركيين) تجنب استعمال عبارات مثل «اعادة تثبيت الاجراءات الديمقراطية» و«حكومة تمثيلية حقاً». وفي حال استعمال مثل تلك العبارات يجب أن يأتي ذلك في سياق مراسلات يمكن الافصاح عنها إلى الرأي العام. وتم التفاهم بيننا سراً ان الظروف التي تسبق قيام حكومة ديمقراطية ليست موجودة ولن تتوافر في سنين عديدة. على ان مهمة الحكومة الجديدة ستكون تأمين تلك الظروف.

أدرك عبدالناصر بسرعة توضيح كيم كيف أن الرأي العام الأميركي ورجال الكونغرس وبعض الصحفيين وحتى بعض المسؤولين في وزارة الخارجية وفي بعض الحالات الوزير بنفسه سيبدأون بترديد الشعارات القديمة. وفي الوقت نفسه قبل كيم برأي عبدالناصر القائل بأن أي محاولة سابقة لأوانها باتجاه الديمقراطية ستعيد البلاد إلى الفوضى التي كانت تتخبط فيها: أي الخيار بين مرشحين منهم من تدعمهم الولايات المتحدة ومنهم من يدعمهم البريطانيون يتنافسون مع مرشحين يدعمهم السوفيات، وشعب ريفي (يقترع إذا ما اقترع) حسب الأوامر التي يصدرها إليه كبار ملاكي الأراضي. وأهل المدن الخائبة آمالهم الذين لم يبق لهم أي ملاذ سوى الشغب وسيلة للضغط فينضمون إما إلى الاخوان أو إلى الحزب الشيوعي على ان أياً من الفريقين سيفيد من نشاطهم.

بالمقابل هناك بعض المواضيع التي كان الاتفاق الصريح عليها أكثر صعوبة ولكنها في الوقت نفسه شكلت تفاهماً متبادلاً حول الدوافع الكامنة وراء الانقلاب القادم، وقد أدى البحث فيها إلى ما يمكن اعتباره المبادىء الأساسية لأي مساومة حول العمل السياسي:

> ان الاتفاق النهائي يتضمن حكماً اتفاقاً شاملاً على بعض النقاط و«اتفاقاً على الاختلاف» حول نقاط أخرى ويجب أن يكون هناك تفاهم متبادل على تحديد المواضيع التي تقع في الخانة الأولى وأيها يقع في الثانية بحيث يؤدي أي خلاف يتفق الفريقان على انه معدّ للاستهلاك الشعبي إلى الحاق أدنى نسبة ممكنة من الضرر بالاتفاق الأساسي.

خلال محادثات كيم مع عبدالناصر قبل الانقلاب كان هناك «اتفاق على الاختلاف» انطوى على اتفاق شامل أكثر منه على أي أثر للخلاف: اتفاق على موقف عبدالناصر من اسرائيل. فالسياسيون والمؤلفون والمواطنون العاديون في أي بلد عربي - إضافة إلى معظم الدبلوماسيين الأجانب - يقولون لدبلوماسيينا ان «التصميم على استعادة فلسطين» يُشكل الأولوية الأولى لدى مصر. كما ان أكثر مراسلينا الصحفيين تدقيقاً اصروا طيلة تلك السنوات على ان هزيمة مصر على أيدي اسرائيل عام ١٩٤٨ كانت «اختباراً قاسياً» وان «كراهية اسرائيل» تحولت إلى عنصر هام في تفكير مخططي الثورة المصرية.

كانت قضية الاحتلال البريطاني لمنطقة قناة السويس قضية بالغة الدقة. والواقع ان الشيء الحسي الرئيسي الذي تمخضت عنه محادثات عبدالناصر وكيم روزفلت هو احالة الشعور في الجيش المصري بالاشمئزاز من وضع البريطانيين في مصر ومن جميع المصريين القابلين به. أما بشأن البريطانيين كأفراد فكان لدى المصريين منهم موقف مزدوج تغلّب فيه الاعجاب. فقد أحبّ المصريون الأميركيين واستساغوا مزجنا بين الرفقة والرغبة في المساعدة ولكنهم في الوقت نفسه قدروا البريطانيين واحترموهم. لهذا السبب الحقت معاملة البريطانيين لهم على انهم من طبقة أدنى ذلك الضرر الفادح في العلاقات بين الفريقين.

لدى عودته إلى واشنطن عشية الانقلاب رفع كيم تقريراً إلى وزير الخارجية دين اتشيسون ضمنه النقاط التالية:

(١) ان «الثورة الشعبية» التي تنبأت بها الخارجية وتمناها الشيوعيون والاخوان المسلمون ليست واردة.

(٢) ان لا مجال مطلقاً «لابقاء الجيش بمعزل عنها»، الذي توخاه المخططون في الخارجية الأميركية الذين انزعجوا من تصرفات العسكريين في سوريا، وان الجيش المصري بات على عتبة القيام بانقلاب، شئنا أم أبينا.

(٣) ان للضباط الذين يُحتمل قيامهم بالانقلاب دوافع «عادية» تختلف كلياً عن تلك الدوافع «المنيعة على التصور» التي عزاها اليهم معظم المراقبين الدبلوماسيين. وان من شأن دوافعهم هذه زيادة احتمالات نجاحهم اضافة إلى انها ستجعل منهم مفاوضين أكثر مرونة وعقلانية بعد وصولهم إلى الحكم.

(٤) ان على الحكومة الأميركية القبول بتنحية الملك فاروق وربما القبول أيضاً بالاستغناء عن النظام الملكي، علماً بأنه لا مانع من ابداء اعتراض موزون ارضاء لبسطاء القلوب، اضافة إلى انه من المناسب ان يبدي السفير الأميركي جفرسون كافيري بعض الاهتمام بسلامة الملك فاروق الشخصية.

(٥) ان على حكومتنا، بعد الانقلاب، الامتناع عن بذل أي محاولات إلّا المحاولات الكلامية الرمزية لاقناع زمرة الضباط باجراء انتخابات وباقامة حكومة دستورية وكل ما يتبع ذلك. وان عليها التعاطي مع الحكومة الجديدة (في مصر) من منطلق الادراك بأن المؤسسات الديمقراطية ستبنى من مداميكها الأولى.

(٦) انه على الرغم من كل تلك الاجتماعات التآمرية التي سبقت الانقلاب لا يجوز لأي مسؤول في حكومتنا التفكير بأن الانقلاب هو لمصلحتنا أو من صنعنا. بل يجب اعتباره بصرامة على انه قضية محض داخلية بعيدة عن أي تأثير لنا فيها وان المساعدة الوحيدة التي يمكن ان نقدمها له تكمن في عدم معارضته. أما بشأن ضرورة وجود عدو يُستهاب، فيجب ألا يكون الاسرائيليون ذلك العدو بل طبقات المجتمع المصري العليا - إضافة إلى البريطانيين، شئنا ذلك أم أبيناه.

منذ أواسط أيار (مايو) وحتى ٢٣ تموز (يوليو) - يوم الانقلاب - تحملت عبءَ الأعمال في واشنطن بمفردي. ذلك ان كيم رئيس الفريق المناط به جميع الأحداث ابتداء من كايب تاون (جنوب افريقيا) حتى نيودلهي، وبالتالي فهو منهمك بمواضيع أخرى. لذلك خصصت كل وقتي للحيلولة دون تأثر وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية تأثراً عميقاً بالتقارير المتشائمة الواردة تباعاً من القاهرة. فقد كان روبرت، بطلاقة لسانه بالعربية وبطريقته في البقاء بعيداً عن الأضواء، على اتصال بالضباط الذين التقيناهم في المنزل القريب من الأهرام وبدا من تقاريره إلى مركز الوكالة في القاهرة ان كل شيء يسير حسب الخطة المرسومة. أما رئيس المركز الذي حصر علاقاته بالشخصيات الكبيرة في الحكومة وبين السياسيين، فكان يبعث بتقارير روبرت إلى واشنطن مرفقة بمذكرات تنم عن انطباعاته الشخصية. وفي الواقع ما انفك يؤمن حتى يوم الانقلاب بالذات بأن الملك فاروق لديه اطلاع دائم على نشاطات الضباط الأحرار السرية وبأن الملك سيسلط عليهم سيف نقمته القاطع في اللحظة المناسبة وبأن كل ما ورد في تقارير روبرت انما يؤيد وجهة نظره.

وردنا في ١٦ تموز (يوليو) تقرير من القاهرة انطوى على انتصار تشاؤمي باهر مؤداه ان الملك فاروق عزل أفراد لجنة نادي الضباط الادارية من وظيفتهم وهم في أكثريتهم أعضاء في هيئة الضباط

الأحرار. وجاء في نهاية التقرير عبارة «القاء القبض يتبع قريباً». وبعد يوم أو اثنين تلقى كيم رسالة «شخصية» من روبرت بواسطة احدى القنوات التي لم يفصح لي كيم عنها حتى يومنا هذا مآلها ان رئيس مركز الوكالة في القاهرة ليس أذكى من حمار وان تصرفات فاروق إزاء البالونات التي يطلقها عبدالناصر تدل بوضوح على ان الملك لم يكن على دراية اطلاقاً بنوايا الضباط الأحرار. غير أن الملك قام بعدة خطوات يُستدل منها انه شعر بأن الجنرال محمد نجيب يبيت شيئاً ما. هذا كل ما أدركه فاروق بشأن الجنرال محمد نجيب، الشخصية المحبّبة التي اختارها عبدالناصر واجهة لرئاسة الدولة بعد الانقلاب.

وهكذا وفي ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ حصل الانقلاب دون أي عراقيل على الاطلاق وكان الجنرال محمد نجيب على رأسه، اسمياً بالطبع. وخلال الأشهر الستة الأولى من الانقلاب انحصرت جميع العلاقات بجمال عبدالناصر وبمجلس قيادة الثورة وبكبار المسؤولين المدنيين في الحكومة الجديدة بالموظفين الرسميين في السفارة بمن فيهم السفير كافيري بنفسه.

بعد عيد الميلاد عام ١٩٥٢ سألت رالف سمايلي، المسؤول في شركة بوز آلن اند هملتُن عما إذا كان عرض الشركة ما زال قائماً. وما أن علمت انه كذلك حتى سطرت كتاباً من نوع «هذه أصعب رسالة حكمت عليَّ الظروف ان أسطّرها»، وضعتها على مكتب فرانك وايسنر أثناء غيابه عنه. وما أن وصلت إلى غرفة كيم لأخبره بما فعلت حتى أخبرني بأنه تلقى مكالمة من فرانك طلب فيها منا الاثنين موافاته فوراً في مكتبه. وفي الطريق (الممر طويل بين مكتب كيم وقاعة الاجتماعات في مكتب فرانك) علّمني كيم كيف أتعاطى مع فرانك بقوله: «قل له بأن عقلك وقلبك دائماً مع الوكالة وانك وان استقلت لتحصّل المزيد من المال ستبقى «ذلك الخريج المخلص لها».

أحرز الدرسُ النجاح! إذ قال فرانك: «حسناً، يمكن ان تكون خريجاً مخلصاً. ولكن حسب معلوماتي الموثوقة عن الشركة ستحاول ان تحصل من عملك معها أكثر مما تدفعه لك. وبالتالي لن تسمح لك باستعمال وظيفتك ستاراً. غير انك تستطيع اللقاء مع روبن (الاسم المستعار الذي أطلقته على رئيس مركز الوكالة في القاهرة) في المناسبات الاجتماعية وان تخبره بأي شيء هام أو مثير تصادفه في وظيفتك». ضمَّ كيم صوته إلى صوت فرانك مقترحاً بأن عملي أثناء الفترة المتبقية لي في الوكالة يمكن تحديده بشكل يتوافق مع مصلحة الحكومة الأميركية ومصلحة رؤسائي الجدد. أظن بأن القراء سيغفرون لي اصراري على التشديد على هذه النقطة، ذلك انني أود التأكيد على أن شركة بوز ـ آلن اند هملتُن لم تكن على الاطلاق ستاراً لنشاطي، وعلى انني كنت موظفاً بعض الأحيان متطلبات وظيفتي فيعود سببها إلى حماسي للعمل ـ وكذلك إلى حماس كيم، بالطبع. إن هذا الأمر مهم بالنسبة لي ذلك لأن معظم ما كُتب حديثاً من دراسات وتقارير ومقالات عن عهد عبدالناصر أشار إليَّ على انني «عميل في وكالة الاستخبارات المركزية» مما سبّب حرجاً شديداً للشركة التي استوظفتني عن حسن وسلامة نية.

الفصل الخامس عشر

شهر العسل الناصري

بعد انقضاء قرابة السنة تماماً على عودتي من مهمتي الاستطلاعية، رجعت إلى القاهرة في آذار (مارس) ١٩٥٣ في مهمة مشتركة بين وكالة الاستخبارات المركزية وشركة بوز ـ آلن اند هملتن ليس فيها أي تضارب بين مصالح الفريقين. فمهمتي من حيث الوكالة كانت متابعة المحادثات التي أجراها الملحق العسكري دايف إيفانز مع زكريا محيى الدين الرئيس الجديد للمخابرات المصرية والأمين الخاص لجمال عبدالناصر حول امكانية قيام وكالة الاستخبارات المركزية بتدريب المخابرات المصرية على أساليب جمع المعلومات ومكافحة الجاسوسية. أما من حيث عملي مع الشركة فكان متابعة ما إذا كان بنك مصر، أي المصرف المركزي، ينوي جدياً تكليفها باجراء مسح عام لجميع نشاطاته ابتداء من مصنع النسيج الذي يملكه في المحلة الكبرى وانتهاء بنشاطه المصرفي، والواقع انني نجحت في المهمتين. فقد قال لي زكريا محيى الدين بأنه يرغب في الحصول على مساعدة مدربين من وكالة الاستخبارات المركزية لاعادة تنظيم المخابرات المصرية، أما أحمد رشدي، رئيس بنك مصر، فأكد لي انه يودّ بالتأكيد ان تؤدي الشركة المهمة التي بحثها سفير مصر في واشنطن مع رالف سمايلي بشأن البنك ـ أضاف وأنا على وشك الخروج من مكتبه ان على وكالة الانماء الدولية تسديد الفواتير.

إن أي دجل قد حصل مرده إلى رغبتي السليقية في الدمج بين المهمتين. حسبت انه لو استطعت حمل وكالة الاستخبارات المركزية على اقناع كبار مسؤولي وكالة الانماء الدولية (وكان ذلك امراً غير مستصعب بسبب وجود آلن دالس آنذاك على رأس وكالة الاستخبارات المركزية وجون فوستر دالس وزيراً للخارجية) تكون مخططات مهمتي قد رُسمت في فردوس ضابط الاستخبارات. في ما يخصني شخصياً تؤلف وكالة الاستخبارات غطائي للمهمة المكلف بها من قبل الشركة، وتكون الشركة غطائي للمهمة التي أقوم بها لوكالة الاستخبارات المركزية كأحد خريجيها الأمناء. ولن تكون احداهما مسؤولة عن الأخرى طالما استطعت تأمين لكل منها حاجتها. في بادىء الأمر لم يكن أحد على علم بمهمتي المزدوجة إلاّ زكريا محيى الدين. لم يطل الأمر برالف سمايلي رئيس مكتب الشركة في واشنطن حتى أدرك حقيقة واقعي ذلك انه لم يرَ أي سبب آخر لقدرة موظف ثانوي في مكتبه في مصر على الاتصال سريعاً بكبار المسؤولين في الحكومة المصرية. لم يَر سمايلي أي داع للاعتراض على ذلك باعتبار انه لما كان واضحاً انني شخص مرضيٌّ عنه جداً في الدوائر العليا في الحكومة المصرية فقد كنت في وضع مناسب للحصول على عقود مشوقة للشركة.

سرد لي سكرتير زكريا محيى الدين ونحن في المقعد الخلفي في السيارة الفخمة التي أقلّتنا للاجتماع به، كيف مثّل زكريا ما يتوقعه من تصرف الملك فاروق ان هو علم مسبقاً بالانقلاب وكيف تصرف فعلاً تماماً كما توقع زكريا. عندها أدركت ان زكريا محيى الدين سيكون، أياً كانت وظيفته، الشخصية الأهم في فريق عبدالناصر والأكثر فائدة للفريقين في أي مباحثات تجري بينهما.

تسنى لي خلال الاسبوعين اللذين قضيتهما في القاهرة في مهمتي هذه عقد عدة اجتماعات طويلة مع زكريا محيى الدين تبين لي منها انه من حيث النزاهة والذكاء أرفع من كثيرين غيره. وبنهاية اجتماعنا الأخير أعددنا برنامج للقاءات تعارف غير رسمية ولندوات تضم مصريين وأميركيين من «كبار

البيروقراطيين، ودروس تدريب لأعضاء مجلس قيادة الثورة حول المتطلبات والمرفوضات الأميركية التي ينبغي أخذها في الاعتبار لجهة ما يمكنهم ان يتوقعوه منا.

من المفروض طبعاً ان يوافق كيم روزفلت وجمال عبدالناصر على كل تلك المواضيع في اجتماعهما المقرر عقده في غضون شهر تقريباً. وأثناء الفترة الفاصلة بين اجتماعي بزكريا والاجتماع المقرّر بين كيم وعبدالناصر طرأ عنصر جديد وهام على ترتيباتنا تمثل بشخص النقيب حسن التهامي. ذلك ان زكريا كان قد وافق على ارسال واحد من الضباط الأحرار يتكلم الانكليزية إلى واشنطن لالقاء نظرة علينا في بلادنا.

وصل التهامي إلى واشنطن في ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ وتبين بعد وصوله انه أغرب ظاهرة بشرية صادفتها في عملي الطويل من التعاطي مع الظاهرات البشرية الغريبة الأطوار. اتضح لي بعد قضاء يوم واحد معه لماذا اختاره زكريا ـ أو عبدالناصر ـ لتلك المهمة. فهو قبل كل شيء وطني متعصّب، ومتديّن ورع، لا شائبة على نزاهته، إضافة إلى صفات أخرى اعطته المناعة في مواجهة كل المغريات التي كنا على استعداد لتقديمها له. المسكرات؟ لم يسبق له ان مسّها في حياته. النساء؟ في الليلة الثانية التي قضاها في واشنطن دعاه مرافقه إلى مربع ليلي اسمه بلو اينجل (الملاك الأزرق) فما كان منه إلاّ ان صبّ كأس الكوكا كولا فوق رأس «مضيفة» جاءت تجلس في حضنه. الدراهم؟ في احدى مراحل اقامته في واشنطن سأله الضابط المسؤول المناوب ليلاً: «هل باستطاعتنا إقراضك بضع مئات من الدولارات لتتمكن من التسلية على طريقتك الخاصة؟» فما كان منه إلاّ ان سحب مسدساً من وسطه وصوّبه نحو رأس الضابط قائلاً: «بما لي من حصانة دبلوماسية استطيع نشر دماغك على ذلك الجدار البعيد دون ان اجازى بما يعادل ضبط مخالفة وقوف». وعلى الرغم من انه من النوع الذي كنّا نسمّيه آنذاك «نمرة» فإنني أقول بفخر اننا أصبحنا بسرعة صديقين حميمين وما زلنا كذلك حتى يومنا هذا رغم الفروقات الحضارية الواسعة بيننا ورغم التباين في نظرتنا إلى الأمور ومع انه كثيراً ما باعدت بيننا السُبُل.

استغرقت زيارة التهامي لواشنطن اسبوعين قضاهما يتفرّج على مختلف مجالات المساعدة الفنية والخدمات التي يمكن ان تقدمها مختلف أجهزة الشرطة في المدن إلى الحكومة المصرية الجديدة: وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الاتحادي ومختلف أجهزة الشرطة الأخرى في المدن. وخلال زيارته تلك قضيت معظم أوقاتي برفقته. وبعد مغادرة الولايات المتحدة رفعت استقالتي رسمياً من الوكالة وقمت بجولة وداعية على الجميع اغرقتنا جميعاً بالدمع، كما سافر كيم إلى القاهرة لاضفاء الصفة الرسمية على الترتيبات مع عبدالناصر الذي كان آنذاك، على صعيد الرسميات نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للداخلية. أما أنا فقضيت ربيع العام ١٩٥٣ في نيويورك أقوم بمهمات اختارتها لي شركة بوز ـ آلن اند هملتن لكي أتعرف بواسطتها على أساليبها في العمل. عدت بعد ذلك إلى واشنطن لبضعة أيام، بوصفي الخريج الأمين، لابداء تعليقاتي وملاحظاتي على التقرير الذي وضعه كيم عن اجتماعه بعبد الناصر وللتزود ببعض الارشادات والتعليمات، ولحزم امتعتي والسفر إلى القاهرة برفقة زوجتي وولدينا.

حاولت خلال الاسبوع الذي قضيته في واشنطن قبل سفري إلى القاهرة معرفة كيف يمكن توظيف «نجاحنا» في مصر، إذا كان ذلك هكذا، في خدمة أهداف الولايات المتحدة. فقمت بزيارة الأصدقاء في وزارة الخارجية، وتناولت طعام الغداء في غرفة الطعام في مجلس الشيوخ برفقة صديقي القديم وصاحب الفضل عليّ السناتور جون سباركمن السناتور وليم فولبرايت وغيرهما، وقضيت عدة

ساعات مع نائب الرئيس ريتشرد نيكسون ـ وجدته أوسع تفهماً لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من جميع كبار شخصيات وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية، باستثناء كيم روزفلت، ولكن بمن فيهم الأخوين دالس. غير انني لم استطع العثور على أي شخص في أي مكان يقدر على اعطائي جواباً بسيطاً على السؤال التالي: ماذا يترتّب علينا فعله بهذا الاتصال الذي تحقق لنا مع الحكومة المصرية الجديدة؟ لنفرض ان بمقدورنا تنويم عبدالناصر مغنطيسياً، فماذا نطلب منه فعله عندما ينام؟

بالطبع جاءتني أجوبة ولكنها لم تتجانس مطلقاً مع ما نعلمه عن تطورات دينامية السياسة في الشرق الأوسط آنذاك ومع ما عندنا عنها في تقاريرنا إلى البيت الأبيض وغيره من دوائر الدولة ووكالاتها. بيل بوردِت الضابط المسؤول عن مكتب مصر في وزارة الخارجية قال ان هدفنا يجب أن يكون إقناع الحكومة المصرية الجديدة «بالتوصل إلى ترتيب توافقي مع اسرائيل» وباستعمال نفوذها لاقناع حكومات عربية أخرى باقتفاء أثرها. أما مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى بيل راونتري فقال إن عليّ اقناع عبدالناصر «بالتناغم» مع مخططات حلف شمال الأطلسي الدفاعية ـ وعلى وجه التحديد الاشتراك في مخطط إقليمي دفاعي كان يجري إعداده آنذاك من قبل الاستراتيجيين في وزارتي الخارجية والدفاع. وعندما سألت أعضاء مجلس الشيوخ عما يمكن ان نطلبه منطقياً من حكومة مصرية مستعدة للتعاون أجابني السناتور وِليم فولبرايت ان أي شيء قد يطلبه السفير كافيري من عبدالناصر نيابة عن الحكومة الأميركية سيكون في الواقع الطلب إليه أن يقدم على الانتحار.

دعاني كيم لتناول طعام الغداء في آخر يوم في واشنطن وزودني بالمعلومات عن محصّلة رحلة العشرة أيام التي قام بها قبل شهر وزير الخارجية جون فوستر دالس في الشرق الأوسط. ومما قاله لي إن ما سيخبرني به: «سري جدا بالطبع ولكن إذا كان «لا بد لك ان تعرف» شيئاً يا فتى فمن الضروري ان تعلم ما استقاه وزير خارجيتنا ـ من معلومات» ـ باختصار: لا شيء. فلما كان الوزير على علم مسبق بكل شيء فمن الصعب جداً على أي انسان ان يدخل في ذهنه ولو بالمطرقة والازميل ان لعبد الناصر مشاكله أيضاً. وهكذا أصبح وزيرنا، مثله مثل البراكين وجبال الثلج، ما نسميه: «عامل لا بد من العيش معه». على كل الأحوال بدا أن الجميع يتوقعون مني انجازات عظيمة ليس فقط لكوني خريجاً أميناً بل باعتباري أيضاً أول من حرّك مشروع وكالة الاستخبارات المركزية في مصر. من دواعي السرور ان بعض التقدم كان قد تحقق في المجال الشخصي. فقد رتب كيم الأمور بحيث ينتقل جيم ايخلبرغر إلى وزارة الخارجية ثم ينتقل إلى القاهرة بصفة ملحق اقتصادي. كما حصل صديقنا القديم فرانك كيرنز على عمل كمراسل متجول لشبكة سي. بي. أس وطلب الأخر تعيينه في القاهرة لاكتمال حلقة التسلية. ولكنه رفض قبول أي مركز رسمي في وكالة الاستخبارات المركزية معرباً عن استعداده في الوقت نفسه للتعاون معي ومع ايخلبرغر في تقديم بعض الارشادات المجانية لعبدالناصر في مجال العلاقات العامة («حاولوا حمله على الابتسام أكثر بقليل: «هكذا نصحنا كيم) مقابل القليل من الايماء عن احداث ممكنة الحصول وقد تكون صالحة للتصوير التلفزيوني. وصلنا القاهرة نحن الثلاثة مع عائلاتنا في أوقات متقاربة وأخذنا نقوم باتصالاتنا الاجتماعية بشكل يومي إلى محمد حسنين هيكل وغيره بأننا جميعاً «عملاء في وكالة الاستخبارات المركزية» نستعمل شقة فرانك الفخمة في الزمالك (حساب نفقاته أكبر من حساباتنا) مقراً لعملنا.

بدأ عملي بداية حسنة في القاهرة حيث دبّر لي صديقي حسن التهامي دارة جميلة لاقامتي تقع في حي المعادي الفخم كانت سابقاً دارة الجنرال وِلسون قائد القوات البريطانية في مصر، يقوم خلفها بيت

الضيوف أقام فيه هو ويقع إلى جانبها بيت آخر أعدّه لضابط وكالة الاستخبارات المركزية الذي سيقوم بالارتباط الرسمي بينه (أي التهامي) وبين فريق الوكالة الآتي إلى مصر. لدارتي حديقة خلفية وحديقة أمامية فيها حوض واسع للسباحة على أحد جنباته سقيفة للاستظلال تصلح لتناول طعام الفطور صباحاً والشاي بعد الظهر. أما فريق شركة بوز آلن اند هملتن المؤلف من خمسة رجال فانتقلوا إلى مبنى جديد في غاردن سيتي حيث بدأوا العمل بجد ونشاط يحاولون ما استطاعوا تفهم تشابك شركات بنك مصر بعضها ببعض. وأما جيم ايخلبرغر فكان على أحسن ما يرام من التفاهم مع السفير كافري والضابط السياسي في السفارة الأميركية بيل لايكلند (دايڤ إيڤانز نُقل إلى البنتاغون) هذا واستطاع فرانك كيرنز إذاعة بعض اخباره على الهواء مباشرة فيما أصبحت زوجته غون من أفضل المضيفات في مجتمع الزمالك.

في أول اجتماع لي معه في القاهرة أخبرني ايخلبرغر ان الأسئلة التي طرقها قبل مغادرتي واشنطن باسبوع قد أثارت اهتمام اشخاصٍ متعددين وجعلتهم يدركون لأول مرة بأنه من الصعب عليهم الحكم حكماً مقبولاً على عملية ما إلاّ إذا كانوا هم والمسؤولون المشرفون عليها قد أدركوا ما هي الغاية المنشودة منها. وأثناء وجودي في مكتبه عرض عليَّ ايخلبرغر وثيقة تحمل عنواناً يشبه «رهان اميركا في الشرق الأوسط» وطلب إليَّ ان أقرأها مثنىً وثلاثاً حتى تترسخ في ذهني ثم مساعدته في اعادة صياغتها إذا ما تسنّى لي الوقت في عملي في الشركة. وقال إنه سينقلها إلى العربية على يد أحد الطلاب الاختصاصيين في وكالة الاستخبارات المركزية، ثم أقوم أنا بنقلها إلى زكريا محيى الدين وأطلب إليه ابداء تعليقاته عليها. بدت لي الوثيقة عادية إلى حد ما علماً بأنها تحمل خاتم «سري جداً». وقال ايخلبرغر بأن أنقلها إلى زكريا ليس بوصفي ممثلاً لوكالة الاستخبارات المركزية بل كخدمة شخصية للسفير كافيري باعتبار انني أتصل بزكريا محيى الدين بحكم عملي في الشركة (كان من واجبي الاشارة قبل الآن ان عبدالناصر عيّن زكريا ضابط ارتباط مع الشركة ليس لأن له أي علاقة رسمية ببنك مصر بل لأنه كمدير المخابرات المسؤول الأمثل لمراقبة فريق من الأجانب سيتعاطون بأحد أهم حقول الدولة حساسية، أي ماليتها). على كل حال رفضت الطلب فقال ايخلبرغر: «ان كنت غير مستعد للقيام بخدمات بسيطة كهذه من وقت إلى آخر سيترتب علينا ابقاؤك خارج لعبتنا كلياً». فعل ذلك الكلام فعله في نفسي وساندته رغبتي في «الاسهام» التي تتغلب في النهاية. اتصلت بحسن التهامي وتوجهنا نحن الاثنين إلى هليوبوليس (مصر الجديد) وكان زكريا محيى الدين على وشك مغادرة مكتبه بعد ظهر الخميس لقضاء عطلة الاسبوع. ألقى محيى الدين نظرة على الورقة، النسخة الانكليزية والنسخة العربية وقال انه سيعرضها على الريّس، أي عبدالناصر، أثناء السهرة. وانتهى الأمر.

كانت تلك نهاية القضية بشقها المختص بي. ولكن ايخلبرغر أخبرني صباح الاثنين التالي ان السفير «كافري» قد استعرضها باختصار مع وزير الخارجية محمود فوزي. فقد وصلت الورقة إلى محمود فوزي عبر قنوات «غير رسمية» وغير دبلوماسية بحيث ان كافري أعرب عن دهشته وعن عدم علمه بها وتنصّل من أي علاقة له بها ومسؤولية عنها وقال للوزير محمود فوزي انه إذا كانت تلك هي السياسة التي تبنتها الحكومة الأميركية فقد حدث ذلك دون علمه بها وكذلك دون موافقته.

في الاسبوع التالي، وفيما كنت ألقي احدى محاضراتي أمام كبار مدراء شركات بنك مصر لاحظت ان في فناء القاعة رجلاً بلباس ضابط مصري طويل القامة وقوي البنية لا تنمّ تقاسيم وجهه عن أي ابتسامة يتابع بنهم ما أنثره من درر وحكم في الأصول الادارية. إنه عبدالناصر بنفسه! ولما صار وحده يشكل جمهور المستمعين اتخذت موقف الجدية المهنية وتغاضيت عن بعض النكات التي أعددتها لايقاظ

النائمين من المستمعين وحصرت كلامي بالمناشدة «للعمل كفريق». تضمن كلامي أيضاً نقداً لاذعاً لأنظمة الهرمية في الشرق المبنية لخدمة بل ولتشجيع الخصومة بين أقسام المنظمة الواحدة تسهيلاً لمهمة «الادارة بالتجسس». فكان لأقوالي أثرها في نفس نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية جمال عبدالناصر.

بعد انتهاء المحاضرة تقدمت منه وعرّفته بنفسي فأعرب عن تقديره لما سمعه مني وسألني ما إذا كنت مرتبطاً بموعد لوجبة الغداء. أجبته بالنفي فاصطحبني إلى سيارته البويك القديمة وقال للسائق ان يتوجه بنا إلى مكتبه في وزارة الداخلية حيث تناولنا غداء مؤلفاً من الشورباء والسندويشات على طاولة عمله. ومنذ ذلك اليوم وحتى تخلّصه من محمد نجيب بعد عدة أشهر كنت أتناول طعام الغداء مع عبدالناصر مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع إما في وزارة الداخلية أو في غرفة الطعام في مقر مجلس قيادة الثورة في الزمالك يرافقنا في معظم الأحيان حسن التهامي، وفي بعضها زكريا محيى الدين أو بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة. وأشدد هنا على ان محمد حسنين هيكل لم يكن معنا مرة واحدة.

قضت اسرة كوبلاند في القاهرة سنتين سعيدتين هانئتين تخللتهما بين الحين والحين فترات من النشاط التآمري المحموم والفوضى الدبلوماسية، كانت كلها مهنية في طابعها. وحتى اجتماعي الأول بعبدالناصر كنت منهمكاً بشهادة زملائي في الشركة، بأعمال الادارة العامة الأكثر تحدياً وإثارة من أي أعمال في الهندسة الادارية سبق لي أن قمت بها في أي وقت مضى. فقد كنا في الحقيقة كمن يعمل في أرض بكر نخترق ادغال الفوضى والتقاليد المتحجّرة.

أثناء دراستنا اعادة تنظيم دوائر الجمرك مثلاً، والوسائل الآيلة إلى جعل خمسمئة موظف ينجزون العمل الذي كان يقوم به الفا موظف، قال لنا زكريا محيى الدين بأننا تجاهلنا «ضرورة اجتماعية» موضحاً بأن مدراء الجمارك البريطانيين الذين نظموا دوائر الجمرك قد أبعدوا عن الشارع ألفي مشاغب مُحتمل فيما نحن نحاول اعادة ألف وخمسمئة منهم إلى الطرقات. وأضاف أن الخبراء البريطانيين استطاعوا تعقيد، بل في الواقع تأخير معاملات تخليص البضائع المستوردة، طبعاً ارضاءً لجميع من يهمهم الأمر باستثناء المستوردين والمورّدين الأجانب وهما دون ريب أقل عناصر العملية أهمية.

نصحنا زكريا بأن «علينا تنظيم أولوياتنا» وبأن الهيئتين الأكثر جدارة بتحسين كفاية الاداء فيهما من بين كل الهيئات الحكومية هما المخابرات ووزارة الداخلية، وهما الهيئتان اللتان تشرفان على مَن وما يدخل البلاد ويخرج منها وتضبطان ما يجري في داخلها. لم يكن من مجال للتشكيك بأولوياته فعندما تشكّلت لجنة من مجلس قيادة الثورة لدراسة تحسين كفاية الدوائر الحكومية تبينت لها جدية البطالة الموروثة من العهد الملكي فأصرّت على عدم تسريح مئات الموظفين الفائضين عن الحاجة في وزارة الداخلية. فما كان منه إلاّ أن جمع هؤلاء الموظفين في مبنى مستقل وأمرهم بنسخ القرآن الكريم نسخة نسخة. نعم، هكذا فعل عندما حل محل عبدالناصر وزيراً للداخلية في أعقاب اعتلاء عبدالناصر إلى مرتبة الرئاسة. في زيارتي الأولى لوزارة الداخلية كان عبدالناصر ممسكاً بناصيتها يعتبرها الأولوية الأولى القادرة في حكومته الجديد على تأمين «قاعدة وقائية مستترة نوعاً ما غايتها وقاية عهد جديد من الاضطرابات العامة التي تتصف بها فترات ما بعد الثورة في أي مكان.

أدى تكليفي بتقديم الاستشارات لتنظيم وزارة الداخلية إلى ضم قوى شركة بوز ـ آلن اند هملتن إلى قوى وكالة الاستخبارات المركزية فكان عليهما القيام بمشروع لا يخص الوكالة بل حكومة الولايات

المتحدة، باشراف وكالة الانماء الدولية. أما مشاركة الوكالة فيه فليس سببها رغبة الحكومة الأميركية باسباغ صفة السرية عليه بل رغبة الحكومة المصرية. ولعل هذه المرحلة من الكتاب هي المناسبة الملائمة لابداء الملاحظة التالية التي تنطبق على معظم الحالات: وهي أن الحكومة التي تتلقى مساعدة من الولايات المتحدة تتعرض للارباك السياسي الشديد ان هي أفشت ان علاقتها بالحكومة الأميركية حميمة كعلاقة للمريض بطبيبه.

إذاً، كانت وزارة الداخلية من نصيبي فيها عالج خبيران القضايا الثانوية كبطاقات الهوية وتسجيل السيارات والآليات وغيرها من الشؤون المشابهة كتحسين خدمات دائرة الهجرة والخدمات الجمركية دون تسريح اي موظف. أما مجال اختصاصي فكان بالطبع دوائر الشرطة. ونظراً لمحدودية خبرتي في هذا الحقل اضطررت للاستعانة بربّ عملي الأول، أي وكالة الاستخبارات المركزية. خلال قرابة الشهر بعد اجتماعي بعبدالناصر فصلت كلية الشرطة الخاصة التي أنشأتها قبل استقالتي من الوكالة الملازم پات كيلي وهو ضابط لطيف متقدم في السن أُحيل حديثاً على التقاعد من كلية الشرطة التابعة لدائرة شرطة نيويورك حيث خدم عدة سنوات رئيساً لقسم حماية الشخصيات الكبيرة أثناء زيارتها لمنهاتن.

أُنيطت بي مهمتان: الأولى وضع لوحات بيانية تنظيمية بهرمية المسؤوليات واعداد الدروس في المدرسة الجديدة. أما الثانية فينبغي تنفيذها بالتعاون مع فرانك ديوان وفرانك هوفر عميلَي مكتب التحقيق الاتحادي اللذين جاء بهما صديقي القديم أورڤال يارغر لادارة مدرسة الشرطة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية.

جاءت المهمة العملانية الوحيدة التي قمت بها للشرطة بمساعدة پات كيلي عندما صار السير انطوني ايدن بعد بضع سنوات مهووساً بالرئيس المصري جمال عبدالناصر بحيث أصبح وزير خارجيتنا يتوقع ان يواجه في أي يوم اصراراً بريطانياً على وضع مؤامرة اغتيال. تلقى رئيس مركز القاهرة في تلك الفترة رسالة من آلن دالس بالذات أرسلها بناء على اصرار شقيقه طلب فيها منا البحث عن وسائل اغتيال عبدالناصر إذا ما دعت الحاجة. انطوت الرسالة على لهجة مبطنة تنبىء بأن الأخوين دالس يرحبان بجواب عليها مفاده استحالة الوصول إلى عبدالناصر مع عدم التوضيح بالطبع بأننا نحن وسيلة الحيلولة دون وصول أيدي الاغتيال إليه باعتبار اننا صمّمنا ترتيبات الحفاظ على سلامته.

لقد حان الوقت أخيراً لاعترافي بصحة نبذة واحدة من كل الدعاية المعادية لي التي نشرها الشيوعيون في السنوات القليلة الماضية وأخذها عنهم بعض السخفاء من الأميركيين. نعم، لقد تناقشت في ذلك الموضوع بالذات مع الرئيس عبدالناصر بنفسه، كما كان التقرير الممتاز الذي حاز على مكافأة في واشنطن يتضمن الكثير من اقتراحات عبدالناصر.

سألته في سياق تلك المناقشة: «ما قولك بالسمّ؟ لنفرض انني غافلتك ودسست حبة سم في فنجان قهوتك».

قال: «حَسَن واقف هناك. فإذا غافلتني سيراك هو».

قلت: «ربما استطعنا رشوة خادم ليدسّ لك السم في القهوة قبل الدخول بها عليك؟»

أجاب: «يبدو ان شرطيكم النيويوركي قد فكر بذلك. القهوة لا تقتل إلاّ ذائقها. عندما يسقط الذائق ميتاً، أفلن يرشدنا ذلك إلى مؤامراتكم»؟

وهكذا كانت الأسئلة والأجوبة. تبين بالفعل ان پات قد فكر بكل الاحتمالات. ولكن وضع

عبدالناصر على محك تمثيل عملية اغتياله جعلته (أي بات) يدرك أهمية القضية بمجملها.

وكما قلت سابقاً كل ذلك جرى في وقت لاحق، أما في العام ١٩٥٣ عندما كنا جاهدين للحفاظ على حياته، كان خوفنا الأكبر عليه من قيام ثورة معاكسة على يد الفريق الذي أوصلنا إلى الجيش: الاخوان المسلمون. عبدالناصر يتمتع بالقوة اللازمة لخنقها، ولكن ثمة عائقين في الطريق. الأول انه حمل على محمل الصدق المعلومات المغلوطة التي أوصلناها له قبل الانقلاب ووصوله إلى السلطة عن ان الاخوان المسلمين قد يكونوا حلفاء ذوي شأن. والثاني انه لم يستطع، بعد اكتشافه انهم ليسوا كذلك، الخروج بفكرة لتحييدهم دون اظهار عهده على ان قمعي أكثر من اللزوم. لقد بسّطت الأمور كثيراً لأنني أردت اظهار النقطة التالية: ان عبدالناصر الجديد، كأي عهد ثوري آخر، مضطر للمرور بفترة من القمعية الشاملة. ذلك لأن على العهد ان يرسي لنفسه «أساساً قمعياً» قبل مجرد التفكير بإرساء «أساس بناء».

تضمنت البرقية الأولى التي تسلمها رئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة جواباً على تقريره الطويل عن تقدم أعمالنا في وزارة الداخلية الطلب إليه أن يبلغني تنويه الأخوين دالس بنجاحي في مهمتي، ثم ان يرفع تقريراً عن احتمالات اجراء «انتخابات حرة وشريفة وديمقراطية في المستقبل القريب». كانت كل المراسلات التي تلت البرقية تتمحور حول الفرضية بأن الحكومة المنتخبة انتخاباً حراً ومنصفاً في بقعة من بقاع العالم ستكون حكماً مناهضة للاتحاد السوفياتي ومؤيدة للولايات المتحدة حتى ولو كان السوفيات يقدمون لها كل ما تحتاج إليه ولو كنا نحن نقف إلى جانب ألدّ أعدائها.

بتزايد ضغوط واشنطن علينا طلب مني جيم ايخلبرغر ان اساعده في اتخاذ دور «محامي الشيطان» في دراسة للوضع العام في مصر كان قد طلبها منه السفير كافري. وبعد قبول السفير بتوقعاتنا نقاط انطلاق تُركت الأمور الباقية لي، أو بالأحرى لي ولحسن التهامي فقضينا الشهرين التاليين أياماً من العمر، ذلك اننا بموافقة عبدالناصر وزكريا محيي الدين، أقوى رجلين في مصر من حيث أمن الدولة، رحنا نتصور خطط انقلاب ضد عبدالناصر. وضعنا أنفسنا في مكان مختلف الشخصيات أو المجموعات المعروفة إما بعدائها للنظام الجديد أو باحتمال صيرورتها منافسة له. ولم نرتق فقط إلى مصاف كبار الخبراء العالميين في طرق زعزعة استقرار الحكومات والاطاحة بها بل ربما أصبحنا أكبر الاختصاصيين بذلك. علّمتنا تلك الفترة العناصر اللازمة لذلك، فوضعنا قائمة مفصلة بالضروريات الأساسية اللازمة، أوسع بكثير مما كان في ذهن ستيف ميد عندما رافق حسني الزعيم في مشوار بالسيارة في شوارع دمشق يدلّه على الأهداف الواجب السيطرة عليها في ليلة تنفيذ الانقلاب. وبعد ذلك ببضع سنوات عندما جلست مع مجموعة من خبراء المخابرات الأميركيين والبريطانيين نخطط للاطاحة بعبدالناصر جدياً، لم يبد من زملائنا البريطانيين ما دلّ على الادراك بأنهم في حضرة الشخص الوحيد في العالم العليم بالخبرة بطرق تنفيذ ما يهدفون إليه.

لا بد لي الآن من الادلاء باعتراف أشد خطورة من اعترافي السابق: هل تعلمون من كان يُعد الكثير من تصريحات عبدالناصر وسيل الدعاية المعادية للولايات المتحدة المتدفق من إذاعة القاهرة - أقوى وسائل الدعاية في الشرق الأوسط - التي أزعجت الدبلوماسيين المحترفين في وزارة خارجيتنا؟ طبعاً أنتم لا تعلمون اننا كنا نحن نعدّها. ذلك لأننا كنا ندرك مثلنا مثل عبدالناصر نفسه أن قبضة العهد الجديد على البلاد تتوقف على قدرته في الاستمرار بالعداء لأميركا بشكل مقنع وان ليس في مقدور عبدالناصر المخاطرة بمجرد ابداء أي عقلانية في مواقفه حيال سياساتنا المختلفة في الشرق

الأوسط. وحتى لو استطعنا تنويم عبدالناصر مغنطيسياً بحيث يطيع أوامر واشنطن دون تردد، لأحجمنا عن حمله على التصرف تصرفاً نعلم مسبقاً بأنه انتحاري. لذلك ساعدناه في دعايته المعادية لأميركا. ومن ناحية أخرى بذلنا مجهوداً كبيراً لجعل تلك الدعاية تأتي بنتائج عكسية إذ ضمناها الكثير من السخافات الواضحة مع بقائنا بكامل السيطرة على انتاجها. وذهبنا في اتقاننا لهذه العمليات إلى استقدام پول لاينبارغر، ولعله أقوى الدعائيين «السود» في التاريخ، إلى مصر لتدريب الفريق المصري الأميركي المسؤول عن انتاج الدعايات المذكورة.

لقد كانت مهمتنا، كما ترون، خلق قناة اتصال سرية مصرية أميركية وبعيداً عن البيروقراطية ومنيعة بوجه أي تأثيرات افسادية، والابقاء عليها مفتوحة دون أن يكون لها أي تأثير في ما يمرّ عبرها. أما هذا الأمر الأخير فهو من اختصاص وزارة خارجيتنا. فإذا ما أدّت المراسلات المارة عبر تلك القناة إلى تلاقي الافكار تكون النتيجة طيبة. أما إذا أظهرت تبايناً صادقاً إنما غير قابل للتوفيق، عندئذٍ لن يكون بطوقنا فعل أي شيء ولن ينبغي علينا فعل أي شيء.

ويترتب عليَّ هنا أن أشدد على ان ذلك هو كل ما يمكن للفعل السياسي ان يحققه. إذ لا يمكنه إلاّ استغلال الحركية السياسية الجارية في حينه الاستغلال الأمثل، علماً بأنه قد يستطيع تعديل اتجاهها أو خلق حركيات جديدة في بعض الأحيان. ولكنه لا يمكنه إلّا نادراً جداً احداث تغييرات داخلية في أي بلد باستخدام قوى خارجية ـ أكان ذلك في مصر أو في كوبا أو في نيكاراغوا كما هي الحال حديثاً. وعندما كنت لا أزال أعمل في الوكالة جرى نقل كل الموظفين الذين خالفوا هذا الرأي إلى وظائف ادارية داخل الوكالة أو انهم طُردوا منها. كان آلن دالس منفتحاً على المنطق، أما شقيقه جون فوستر (وزير الخارجية) فبالعكس. ولا شك في ان الوزير لم يكن من قمم الذكاء المتوقد كما كان يتصوره رئيسه، الرئيس ايزنهاور، أو كما تصور هو نفسه. أما عناده فيضرب به المثل وهو الذي أضفى على عبارة «عقل مثل الفخ الفولاذي» معناها الجديد. ولما لم يسبق له ان عايش وتعاطى فعلاً مع زبائنه من العالم الثالث اكتفى بالاقتناع الأعمى بأنه يتمتع بتفهم مكيافيلي لكل المشاكل الاقليمية في العالم بينما لم تكن آراؤه في نظرنا نحن الذين عملنا على الأرض سواء كنّا في وكالة الاستخبارات المركزية أو في وزارة الخارجية إلّا أقل بدائية من الترهات التي تلف افكار معظم سياسيي الشرق الأوسط.

قضيت معظم ما تبقى من سنتيّ خدمتي في القاهرة ومن سنتين أخريين، بعد استقالتي من الشركة وعودتي إلى وكالة الاستخبارات المركزية بصفة رئيس لقسم العمل السياسي، في مساعدة كيم روزفلت نلملم معاً شظايا الركام. ركام ماذا؟ الركام المتناثر من سياسات الوزير دالس التصادمية أكان في مصر أو في بلدان الشرق الأوسط الأخرى. ذلك انه أصرَّ على اتباع سياسات واتجاهات كان موظفو الخارجية والوكالة على يقين من انها ستؤدي إلى كوارث. هل حصل الخطأ من قبلنا؟ هل تأخرنا في انذار الوزير دالس وكبار معاونيه وكبار المعجبين به ومؤيديه في البيت الأبيض بأنه يكدّس الاخطاء فوق الاخطاء؟ لقد اخبرناه بكل ذلك وبكل تأكيد. وما على مَن يشك بقولي هذا إلّا أن يتيقن من ذلك بمراجعة المراسلات حول الموضوع التي بات في متناول من يشاء مطالعتها.

أما نحن العاملين ميدانياً فقد تقيّدنا كلياً بأربعة مبادىء اعتبرناه على براءتنا من طرق وأساليب واشنطن بأنها تنطبق على مبادىء المنطق السليم لدى رؤسائنا. لا بد اننا أصبنا ـ من حيث المبادىء المذكورة وان لم يكن من حيث الطاعة لرؤسائنا ـ باعتبار انه منذ ذلك الحين وحتى الآن والكوارث تحل بأي عملية تُنفذ دون التقيد بها.

سبق أن ذكرت **المبدأ الأول**: وهو انه اذا اضطررت لتغيير طبيعة او اتجاه حكومة ما عليك ان تفعل ذلك من خلال القوى الموجودة داخل البلاد. بالطبع هناك لازمة لهذا المبدأ وهي انه في غياب تلك القوى ـ أو حيث لا توجد قوى نائمة يمكن ايقاظها أو تحريكها بدافع من مصالحها وتوجيهها في أقنية تخدم مصالحنا ـ عليك التخلي عن العمل السياسي واللجوء إلى اسلوب آخر، أو محاولة التكيف مع وضع تشوبه بعض النواقص. ليس هذا المبدأ اكتشافاً جديداً فقد أفصح استراتيجي صيني عن اسمه منذ قرابة الثلاثة آلاف سنة بقوله: إياك الدخول في عراك لا ترى بوضوح طريقك نحو الفوز فيه؛ وإياك السير في عمل ما إلاّ إذا كنت على بيّنة من احتمال مقبول لنجاحه. وعليه يأتي دائماً ثمن الاخفاق في حل اشكال في العمل السياسي أعلى من ثمن الابقاء عليه دون حل. أما كلفة التقصير المفضوح فكثيراً ما تكون انتحارية.

المبدأ الثاني: فهو الذي يلاقي العاملون ميدانياً أشد الصعوبة في ادخاله عقول استراتيجيي المقاعد المريحة في واشنطن، وهو أن الديمقراطية والانتخابات الحرة في معظم دول العالم الثالث لا تشكل الحل لمشكلات تلك البلدان أنفسها ولا الحل لمشكلاتنا فيها. ففي أكثر الحالات يفوز في الانتخابات الحرة في البلدان المسماة «نامية» واحد من نوعين من المرشحين: فإما أن يكون سياسياً أو فريقاً سياسياً يضع في رأس اولوياته لدى بلوغه السلطة التوقف عن اجراء اي انتخابات حرة أخرى؛ أو غوغائي قطع على نفسه وعوداً يعلم انه غير قادر على الوفاء بها، يبدأ بعد فوزه بمطالبتنا بأشياء لا نستطيع القيام بها فينحى باللائمة علينا ويتهمنا بأننا وراء تقصيره.

والمبدأ الثالث: هو ان علينا الاعتراف بواقع ملخّصه ان الحكومة التي ندفع بها إلى سدة السلطة تضع مصالحها دوماً قبل مصلحتنا. إن أشد الحكومات موالاة لأميركا تمتنع عن السير في خططنا ما لم تخدم تلك الخطط مصالحها قبل مصالحنا وشرط ألا يعرض ذلك قبضتها على بلادها لأي خطر. هذه هي النظرة التي استحال علينا نحن العاملين ميدانياً مع حكومة عبدالناصر اقناع واشنطن بها. فقد كانت الأولوية، كما رأيناها نحن، وجوب ابقاء عبدالناصر على رأس الحكم؛ فهو لا يشكل أي قيمة لنا خارجه هذا إضافة إلى انه لم يكن له أي بديل منظور. ورغم ذلك طُلب إلينا المرة تلو المرة حمله على اتخاذ اجراءات يعلم هو مثلنا بأنها انتحارية. ولدى رفضه طلباتنا جاءتنا التعليمات بالشروع بخطط التخلص منه.

المبدأ الرابع: هو أن علينا الاعتراف بأن القسم الأكبر من عملنا الأفضل مع حكومة نريد بقاءها في السلطة يجب أن يبقى سرياً ليس لأننا بحاجة إلى سريته بل لأن السرية هي رغبة تلك الحكومة. يجب أن نعلم أن القادة في البلدان التي تتلقى أريحيتنا لا يستفيدون كثيراً على الصعيد الشعبي من اعلانهم عن صداقتهم معنا ـ علماً بأن أكثرهم يسجّلون بعض النقاط لصالحهم بتبجحهم بقدرتهم على استغلالنا. باستثناء حالات قليلة جداً لم يجْن الزعماء الاقليميون الذين عرف عنهم الولاء لأميركا إلاّ فقدان نفوذهم أو حياتهم. إلاّ ان الاسرائيليين يشكلون إلى حد ما شواذ القاعدة، هذا مع العلم بأن هؤلاء لا يتأخرون، بين آن وآخر، عن التبجح بأن نفوذهم عندنا أقوى من نفوذنا عندهم على الرغم من المساعدة الضخمة التي نقدمها لهم. فحسب تعريفنا للعمل السياسي في الأيام الطيبة الغابرة كان تعاطينا به مع جميع الحكومات، باستثناء الحكومة الاسرائيلية، ناجحاً بمقدار ما حافظنا على سريته. أما الاعلان عنه فلا يعني فقط تخريبه بحد ذاته بل جعل تأثيراته عكسية بحيث تصبح كلفتها أكثر من المنافع التي كنا نتوقعها منه.

ولكن المشكل الرئيسي يكمن خارج مثل هذه الاعتبارات ففي سنوات قادمة لا بد أن يكتشف شاب ما في جامعة ما من أبحاثه لاعداد رسالة الدكتوراه أن الصعوبات في العمليات السياسية الأميركية إبان الخمسينات نجمت ليس من عدم قراءة تقاريرنا في واشنطن بمقدار ما نجمت من اننا في الميدان لم نكن على علم بأن لا أحد يقرأها. إن المبادىء التي أشرت إليها موجودة في السجلات. فلما عدت إلى واشنطن وجدت خزانة محفوظات كاملة مليئة ليس فقط بأوراق أشبه بمقالات دراسية تعالج بتوسّع تفاصيلها بل بتقارير مفصلة عما كنا نقوم به من أعمال، مما يعني ضمناً اننا كنا نراعي تلك المبادىء بدقة. ومع ذلك لم أعثر على وثيقة واحدة لا في ملفات وزارة الخارجية ولا في ملفات وكالة الاستخبارات المركزية تقول لنا واشنطن فيها بأننا نعمل خارج نطاق التعليمات. وفي الواقع عثرت على تنويهين موجهين لي شخصياً مما يعني بوضوح ان واشنطن اعتبرتنا نعمل فعلاً ضمن نطاق التعليمات وانها أثنت بذلك صراحة على «استراتيجيتي» في التعاطي مع حكومة عبدالناصر.

وهكذا تابعنا العمل بثقة عمياء بأننا متقيدون بالحدود المرسومة مع واشنطن بينما كان واقع الحال اننا زججنا عبدالناصر في المأزق تلو المأزق ثم استحال عليه وعلينا الخروج منها. ومما زاد في سوء الوضع ان الزوار الوافدين علينا من واشنطن يغادروننا مقتنعين بما شرحناه لهم في القاهرة ويرجعون إلى واشنطن فقط للعودة إلى ما كانوا عليه من آراء انعزالية. وثابرت وزارة الخارجية تطالب عبدالناصر باتباع سياسات تؤدي به إلى الانتحار السياسي، ورحنا نحن في القاهرة نتنبأ بدقة بما ستكون ردة فعله على طلباتنا، حتى اننا تنبأنا كيف أن تصرفات عبدالناصر والاستراتيجيات الآخذة بالتكون حولها ستبقيه أمامنا بخطوة في اللعبة طالما بقي جون فوستر دالس وزيراً للخارجية.

لم يتمكن الوزير دالس من فهم المبدأ الأول القائل بأنه: «من النادر ان تفوز بلعبة دون معرفتك باشتراكك فيها». هذا فضلاً عن ان الاستراتيجية المضمونة النجاح قد تصل إلى نهاية مأساوية إن هي أغفلت التغيرات الجذرية الجارية على رقعة اللعبة ذاتها. كان عبدالناصر يقول: «إنني لا أقوم بالعمل بل أرد عليه». دعونا من الكلام بالعموميات فواقع الأمر ان موقفه هذا سهّل عليَّ مهمتي.

نعم، نعم، ثمة اجراء واحد اتخذه عبدالناصر وقصرنا أنا وكيم روزفلت عن التنبؤ به. فعندما أعلن وزير الخارجية دالس اننا لن نساعد عبدالناصر في بناء السد العالي، دُعينا إلى اجتماع عقد في وزارة الخارجية للمساعدة في استقراء ما ستكون ردة فعله. طُرحت آراء كثيرة ولكن رئيسنا المحبب فرانك وايسنر انفرد بذكر احتمال تأميم عبدالناصر لشركة قناة السويس. دسنا أنا وكيم على رجل فرانك تحت الطاولة (اننا نحبه ولم ترق لنا رؤيته يجعل من نفسه موضوع سخرية أمام الحاضرين) ولكنه ثابر في اصراره على رأيه فيما أخذ كبار مسؤولي الخارجية يشرحون له بحنو أبوي أسباب استحالة أو قلة احتمال اقدام عبدالناصر على اتخاذ مثل ذلك الاجراء.

ولكن الرئيس عبدالناصر أمم شركة قناة السويس كما يعلم الجميع (لم يؤمم القناة نفسها كما يُظن خطأً بل أمّم الشركة) فدعانا فرانك إلى مكتبه ليشمت بنا وقال: «أرجو أن تجلبا معكما الملاحظات التي دوّنتماها عن الاجتماع في وزارة الخارجية .

دخلنا عليه فإذا به في نشوة الظفر وكأنه يقول: «ألم أحذركم؟» ولكن مظهره تبدل عندما عجز عن العثور بين أوراقه على ما يدعم نبوءته. قال بصوت عال: «ألا تذكران؟ قلت مرتين أو ثلاث مرات ان عبدالناصر قد يلجأ إلى تأميم شركة القناة».

نظر كيم إليّ ونظرت إليه، ثم قال: «لست أذكر، يا فرانك، انك تفوهت بشيء من هذا القبيل. أتذكر انت يا مايلز؟»

قلت لكيم: «لم اسمع ذلك منه». ثم توجهت إلى فرانك بالسؤال: «هل انت متأكد من انك فكّرت بذلك دون التفوه به؟ فلو نطقت بها لكانت نبوءة خارقة، ولكن . . .»

ما انفك فرانك يصرّ على قوله: «انكما تعلمان بأنني قلتها» وما انفككنا أنا وكيم نردد وقد علت مظاهر الدهشة وجهينا بأننا لم نسمعه. كانت لعبة قذرة كثيراً ما رددناها بندم خصوصاً وان فرانك انتحر بعد مرور أقل من سنة على فشل عمليته المفضلة: ثورة هنغاريا. وهنا أود أن أسجل للتاريخ ان فرانك وايسنر الذي يجهل معظم الأميركيين من هو، رجل عظيم كبير القلب ومن أفضل المدراء الذين اشتغلت معهم. فيه قال ستيوارت آلسوپ انه: «مات ضحية الحرب كمثل ميتة أي جندي في ساحة القتال»، وهو لعمري، قول يشهد على صحته كل أصدقاء فرانك ومَن تعاون معه.

الفصل السادس عشر

العمل السياسي في الخفاء
هل هو شأن جدّي؟

سبق لفرانك وايسنر ان قال لي بأنني سألقى الترحيب دوماً في وكالة الاستخبارات المركزية وبأن فيها عملاً جاهزاً بانتظاري متى شئت العودة إليها. وعليه، عندما انقضت مدة تعاقدي مع شركة بوز ـ آلن اند هملتن في مصر في تموز (يوليو) ١٩٥٥ راجعت حسابي في المصرف وتأكدت من أن فيه ما يكفي لشراء بيت جديد في ڤرجينيا إضافة إلى سيارتين، فكتبت رسالة استقالتي ثم وجهتها إلى رئيسي جيم آلن رئيس الشركة الذي أجابني برسالة جاء فيها تماماً ما سبق لفرانك ان قاله لي عندما استقلت من الوكالة قبل سنتين (أي انه يرحب بعودتي إلى الشركة في أي وقت أشاء) مضيفاً بأنه سيحيلني على الاستيداع إذا ما شئت ذلك بحيث لا أعتبر مستقيلاً. وهذا يعني انني ما زلت معتبراً في عطلة بالنسبة إلى الشركة، إلاّ إذا كان أحد الكَتَبة في مكاتبها في شيكاغو أو في واشنطن قد قرّر شطب اسمي.

قضيت في القاهرة وقتاً ممتعاً جداً، وعندما استعيد ذكرياتي بين تموز ١٩٥٣ وتموز ١٩٥٥ أدرك انها كانت فترة هامة جداً أفادت حكومتنا وأصدقائي المصريين والشركة، كما جنيتُ منها منفعة كبيرة. وكم أتمنى لو استطعت القول عينه في السنتين التاليتين. صحيح أنني أول من سُمي اختصاصياً بالعمل السياسي في الوكالة وأول رئيس لوحدة مؤلفة من خمسة رجال اسمها **أركان العمل السياسي**. وصحيح أن للوظيفة وللقبها رنة مطربة على الغلاف الورقي لكتاب حيث نبذة عن الكتاب و/أو المؤلف. ولكن ما أعطيته فعلاً هو عبارة عن كيس فارغ أمسك به. وبعد أن بدأ الفريق بالعمل المفيد اضطررت أن أقضي معظم أوقاتي وعلى مدى سنتين في محاولات دائمة لتلافي عمليات العمل السياسي تقوم بها داخل الأقسام الاقليمية وحدات تتجاهل وجودي.

لكن دعونا نعالج الأهم أولاً. لم يمض يوم واحد على استقراري في عملي الجديد حتى أدركت ان لا أحد من رؤسائي المباشرين ـ لا آلن دالس ولا حتى كيم روزڤلت ـ كانوا على علم دقيق بما هو عملي بالضبط. ولدى استفساري طالعني كلٍ منهم بجواب مبني على ما قاله الرئيس ترومن وهو يوقّع قرار مجلس الأمن القومي رقم ١٠/٢ الذي أخبر به لوكالة الاستخبارات ان تتوسع مهمتها من وكالة لجمع المعلومات والاستخبارات لتشمل «مكافحة الأعمال الشريرة التي يقوم بها السوفيات في الخفاء» بأي وسيلة ممكنة. فالسوفيات يحاربوننا بالحيل القذرة. إذاً علينا محاربتهم بسلاحهم. ولكن أفلا يعني ذلك بأننا قد انحدرنا إلى مستواهم؟ وإذا استعملنا الحيل القذرة لمجرّد أنهم يستعملونها، أفلا نكون قد ماثلناهم سوءاً؟ أسئلة قد يطرحها اليوم المهتمون بالفضائل والأخلاق ولكنها افتقرت إلى من يطرحها آنذاك.

اسمحوا لي ان أطلب المعذرة منكم، يا معشر الشباب الذين تعدون رسائل لشهادات الدكتوراه، إذا بدا ما أقوله مفاخرة. فالمواد التي باتت في متناول أيديكم بفضل قانون حرية المعلومات تتيح لكم التيقن من انني كنت أول من اقترح في رسائل رسمية انه لا يجوز لأي ذراع من أذرع الحكومة الاميركية، سواءً كانت وكالة الاستخبارات المركزية أو غيرها، لا يجوز لها الخروج على العالم بالحيل القذرة لمجرد ان السوفيات يلجأون إليها. في ورقة مؤلفة من عشر صفحات حول طبيعة الصراع

الأميركي السوفياتي - حسبما رأيته - قلت بأن علينا أولاً أن نحدّد بدقة الضرر الذي ينوي السوفيات إلحاقه بنا ولأية غاية، وان نقوم بأي عمل يحول دون تحقيقهم مآربهم، أكان نظيفاً أو قذراً، والمضي في السعي لتحقيق غاياتنا.

واني وان كنت أول من وضع ذلك في رسائل وأوراق رسمية فآرائي هذه لم تكن من بنات أفكاري، بل يعود معظمها إلى هاري روزتسكي كما يعود الفضل بتوضيحها إلى ريتشرد بيسل وهو استاذ في الاقتصاد بعث به إلينا البيت الأبيض حيث كان يعمل مستشاراً في تنفيذ مشروع مارشال. بعد اسبوع من انضمامه إلى الوكالة رأى فيه كيم روزفلت حليفاً محتملاً. لم يكن ريتشرد يعرف الكثير عما اسميناه «العقلية المستهدفة» ولكنه وافق معنا على ان تفهمها ضروري قبل وضع الخطط اللازمة لعمليات مخابراتية ضد أصحابها. ضممت ما سمعته من هاري روزتسكي إلى ما استقيته من ريتشرد بيسل أثناء تناولنا الغداء معاً بضع مرات وتوجهت نحو البنتاغون ووزارة الخارجية ومواقع صنع القرار الأخرى للتعرف إلى أفكار الاختصاصيين فيها بشأن ما سيواجهنا في تصدينا للسوفيات.

وسرعان ما تعلمت من جولاتي درساً بات مذّاك يلازمني كاحدى الحقائق البديهية: ان البيروقراطي، تعريفاً، شخص يفصّل المشاكل حسب قياس الحلّ وليس العكس. ماذا يحاول السوفيات ان يفعلوه بنا، وكيف نستطيع إيقافهم؟ كل وحدة من وحدات الحكومة تجيب عن هذا السؤال بالطريقة التي تخدم غاياتها وهكذا تنبت «لعبة» جديدة. انني اسمي ذلك «اللعبة البيروقراطية» وأصنّفها إلى جانب «اللعبة المحلية الداخلية» المتفرعة من «اللعبة الدولية». أما مكوناتها الضرورية فهي:

- ان غاية كل لاعب (أي كل وحدة داخل البيروقراطية) تحقيق موقع مسيطر على رقعة اللعبة، موقع يمكنه من تحديد المشكل بمجمله بطريقة تعطيه الدور الأول في العثور على حل له.
- ان الاستراتيجية الرابحة تقوم بكليتها تقريباً على بناء امبراطورية أي جمع عدد أكبر من الموظفين برتب عالية والقاب لائقة بها والتمركز في أبنية جديدة فخمة، والحصول على ميزانيات أكبر من ميزانيات اللاعبين الآخرين.
- ان الحل المتفق عليه للمشكل بمجمله بين اللاعبين المتنافسين ليس نتيجة التعاون لبلوغ غاية مشتركة بمقدار ما هو عملية توافق بين أدوار مختلف اللاعبين كل لمصلحته.
- ان طبيعة «الحل» (إذا جاز حقاً تسميته كذلك) وما يشدد عليه تحددهما الوحدة التي تمكنت من استخلاص أضخم ميزانية ممكنة من الكونغرس مع كل متممات تلك الميزانية.

إنني أتحدث هنا عن اللعبة كما رأيتها في العام ١٩٥٣. ومذ ذاك توالت أدمغة أكثر معرفة من دماغي على وصف الصراعات والتنافسات البيروقراطية داخل الحكومة، وكلها في النهاية تتوافق مع أكثرية الآراء التي أبديتها منذ نيف وثلاثين عاماً: «إن ما يُعتبر في حكومتنا على انه سياسة الدفاع القومية» ليست حلاً مدروساً بدقّة وتجرّد لمشاكل أمن بلادنا بقدر ما هي تسويات توافقية بين البنتاغون ووزارة الخارجية وغيرها من وزارات الدولة ووكالاتها فيما يتخذ الرجل المقيم في البيت الأبيض دور الحَكَم بين اللاعبين. في العام ١٩٥٣ كان المقيم في البيت الأبيض الجنرال دوايت ايزنهاور، العكسري الذي بلغ الشهرة كقائد للقوات التي هزمت المانيا النازية. فبالنسبة إليه كانت الرئاسة آخر مرحلة في مهنته العسكرية. وبالتالي كان البنتاغون دوماً الفائز باللعبة.

لاحظت ان اللعبات الشخصية تسبّب أعلى درجة من الوهن والارهاق في وزارة الخارجية. فأفراد السلك الخارجي المحترفون، وهم العمود الفقري للوزارة، يعتبرون أنفسهم دبلوماسيين مهنيين فقط. ولما كنت قد قضيت الشطر الأعظم من السنوات الست الماضية في بلدان الشرق الأوسط حيث العادات وطرق التفكير والقيم الأخلاقية تختلف عنها عندنا، دأبت على القول بأننا لن نستطيع تحقيق الحد الأدنى من أهداف سياستنا الخارجية في افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية إلاّ من خلال الدبلوماسيين وضباط المخابرات الذين، حسب قول آرتشي روزفلت لاحقاً، قد درسوا لغة وحضارة ومجتمع شعوب أخرى بحيث يتعلمون التفكير مثلهم ورؤية العالم مثلما يرونه. ولكن لم يكن عليهم ان يهتموا بتلك الأمور في أيام الوزير دالس. لقد حاول اختصاصيو الأقاليم في وكالة الاستخبارات المركزية العمل مع الدبلوماسيين الأميركيين المحترفين على أساس وحدة القضية ولكن هؤلاء يعتبرون أن السلك الذي ينتمون إليه سلك متفوق عناصره مختارة من ذوي الاختصاصات الشاملة الذين يعتبرون أنفسهم في بيوتهم أكانوا في كابول أو في باريس، لكنهم في كلا المكانين أشبه بالسمكة خارج الماء. من بين اللاعبين الأربعة في اللعبة البيروقراطية الذين زرتهم استعداداً لعملي كرئيس لأركان العمل السياسي وجدت السلك الدبلوماسي أقل الأربعة ادراكاً للأخطار المحيقة بسلامتنا القومية والتي علينا مواجهتها.

لم يكن ثمة حاجة لخبير في تحليل المؤسسات من شركة بوز ـ آلن اند هملتن للتوقع بأننا سنكون في معركة دائمة مع الدبلوماسيين المحترفين: فهم لا يحبوننا ويغتاظون من تطفلنا على طبقتهم المختارة. ولما كنا نختبىء وراء السفارات والمفوضيات والقنصليات في الخارج أصرّ الدبلوماسيون دائماً على الاشارة إلينا بطريقة خاصة تدل على أي شخص يعرف شيئاً عن أجهزة الموظفين إلى «أن هؤلاء ليسوا منا»، وهي عبارة درجوا على استعمالها ليفسروا للأغراب سبب وجودنا معهم. فإن كانوا يمقتوننا في الحالات العادية فقد كانوا بالتأكيد يكرهوننا عندما كان جون فوستر دالس وزيراً للخارجية وأخوه آلن رئيسنا والمدافع عنا. وفي أيام الوزير دالس، وباستثناء بعض الحالات الفردية، تخلّى موظفو الخارجية الدبلوماسيون عن أي ادعاء بالاختصاص بالشؤون الاقليمية مكتفين بوضع مسودات التحالفات والمعاهدات.

إن ما رآه هؤلاء الاختصاصيون الانعزاليون ونصف المنبوذين هو استراتيجية سوفياتية غايتها حرماننا من مقومات حياتنا. كانت تلك الاستراتيجية، من حيث مقومات الايديولوجية الماركسية، دفاعية في أسسها. ولم تكن غايتها السيطرة على العالم بل الحيلولة دون سيطرة «الامبريالية والرأسمالية» عليه إذا تعذر ذلك على الشيوعية السوفياتية. لم يكن تفكير اللينينيين الجدد في موسكو من باب حسبان التمني حقيقة، بل آمنوا حقاً بأن الاقتصاد في الغرب يقوم على «استغلال» العالم الثالث، فظنوا أنهم إذا ما استطاعوا بشكل ما حرمان حلفائنا الأوروبيين من الوصول إلى المواد الأولية ومصادر الطاقة من افريقيا والشرق الأوسط تنهار «امبرياليتنا الاقتصادية». وأطلعني رجال مخابرات سلاح الطيران على ما اعتبرته براهين قاطعة عن أن حرمان أوروبا الغربية من بعض المواد الأولية التي كانت تستوردها آنذاك من بلد واحد في جنوب افريقيا يؤدي إلى توقف صناعاتها خلال أقل من شهر. من السهل إذاً تصور ما قد يحدث لتحالفات أميركا العسكرية مع دول أوروبا الغربية لو صارت تعتمد على سخاء السوفيات. واتفق ان الاتحاد السوفياتي كان قادراً على التقدم لإمداد الأوروبيين بأي مواد أولية يحتاجونها، بما في ذلك النفط، بعد توقف ورودها من افريقيا والشرق الأوسط.

عدت من جولتي على البيروقراطيات المعنية بسياستنا الخارجية لأجد ان مهمتي قُدّت لي. فقد حرّك كيم روزفلت فريقي أثناء غيابي وطلب من مساعدي الأول، وهو شاب ذكي وخلوق يحمل شهادة

دكتوراه اسمه بوب ماندلستام، القيام بأي عمل له صفة العمل السياسي كي لا يلاحظ فرانك وايسنر ركوداً في نشاط وحدتنا فيسرق منا غرف مكاتبنا ويجرّدنا من الميزانية المخصصة لنا. وسرعان ما أطلق بوب لمخيلته العنان وراح يعمل لتطبيق بعض الأفكار التي رعاها منذ أيام الجامعة.

بدأ العمل بتفعيل ما أسماه «السحر في الطبقات الراقية» وهي نظرية من النشاط السياسي تقوم على دراسة مفصلة عن أن الزعماء العالميين يتخذون قراراتهم على انها موحى بها إلهياً بطريقة أو بأخرى. فقد بعث إلينا رئيس وحدتنا العاملة في كابول بتقرير موثوق عن ان السياسيين الافغان يلجأون في حل بعض المعضلات المستعصية إلى صراع الديوك داخل مجلس النواب. بمعنى ان كلاً من فريقي النزاع يلقي بديك في قاعة المجلس فيتقاتل الديكان حتى ينفق أحدهما. عندئذٍ يرفع الرئيس ما تبقى من الديك الفائز ويعلن نهاية النزاع السياسي. وبالفعل استشار بوب أحد مدربي مصارعة الديوك في المكسيك، ولكن كيم أوقف المشروع قبل توسعه معتبراً، بكل أسف، انه يجب تعريف رؤسائنا تدريجياً بتلك الأساليب المستوردة وبما ستتمخض عنه مخيلاتنا في المستقبل. هذا إضافة إلى ان استغلال خرافات وتطيّرات الشعوب الآسيوية والافريقية من شأنه اثارة مشاعر الليبيراليين بيننا فيتهموننا «بالعنصرية».

ولما طلع بوب بفكرة زرع المنجّمين لدى بعض الزعماء في بلدان أخرى لم تلق فكرته معارضة تذكر. بل حصل فوراً على تأيد من كيم وعمل الاثنان على تذليل مقاومة فرانك وايسنر مذكّرين إياه بما لبعض منجّمي جورجتاون من نفوذ في الحياة الاجتماعية في واشنطن. فقد كان بعض سيدات المجتمع الراقي في العاصمة يستشرن منجميهن بأسماء المدعويين إلى حفلاتهن، كما انه من المعلوم ان بعض رجال الكونغرس ـ لن أذكر أسماءهم ـ اعتمدوا على نصائح شخص ظريف في جورجتاون مُلقّب بـ «الجدّ موسى» الذي يعتمد بدوره على تعاويذ السحر والشعوذة التي لقّنته اياها وكالة الاستخبارات المركزية.

ثم كان شيء اسمه حركة التسلح الاخلاقي وهي حركة سياسية دينية تضم أشخاصاً من مختلف الأديان أسسها أحمق أبله اسمه فرانك بُوخمان، وتزعم بأن غايتها تعميق روحانية حياة أعضائها وتحملهم بالتالي على التصرف بمسؤولية وايثار وتسامح في المجتمع. استرعى المستوى الاجتماعي الذي انتشرت فيه تلك الحركة انتباه واهتمام بوب، ذلك انها استهدفت بشكل يكاد يكون حصرياً القادة والزعماء كما ان مطبوعاتها موجهة إلى هؤلاء. باختصار، انها لأمر رهيب.

تحرّك برنامج التدريب على التنجيم ببطء في بادىء الأمر ولم تظهر منه أي نتائج تذكر إلى ان زرعنا قارئاً للغيب إلى جانب نكروما رئيس جمهورية غانا فأقنعه بضرورة القيام بزيارة رسمية إلى الصين الشيوعية وهكذا كان نكروما خارج البلاد عندما قام صديقنا الجنرال آرثر انكراه بحركته الانقلابية وأظهر البرنامج فائدته أيضاً بعد بضعة أشهر على ذلك عندما بَرْمَجنا جهاز كمبيوتر أقنعت استقراءاته لمستقبل الرئيس الاندونيزي أحمد سوركانو باتخاذ اجراءات مختلفة تلاءمت مع أغراضنا. وأمّنت لنا ترتيباتنا مع حركة التسلح الاخلاقي قنوات سرية مفيدة تنفذ عبرها ليس فقط إلى أفكار زعماء في افريقيا وآسيا بل وإلى افكار زعماء في أوروبا أيضاً. وفيما كان بوب يجري ترتيبات مماثلة مع حركة «الوجوديين الكونيين» التي أسسها الأهبل الآخر رون هوبارد، كاتب قصص الخرافات العلمية، كنا في طريقنا نحو بلوغ قدرة في العمل السياسي يستحيل معها إلى مهزلة «العمل السري» المفضوح والبالغ النفقات والقليل المردود الذي أخذت تقوم به وكالة الاستخبارات المركزية بعد أن استلمها وليَم كايسي.

أما أنتم أيها المشكّكون من القراء، ويا مَن تظنون أن كلامي هذا مزاح، فانبذوا تلك الأفكار من

عقولكم. في سنوات الخمسينات أدرك بعض منا على الأقل ان معظم التحركات الجارية على رقعة اللعبة الدولية، وان معظم التحركات في الألعاب الداخلية الدافعة إليها تأثرت بالخرافات التقليدية أكثر منها بالمنطق المكيافيلّي. وهل يستطيع أحد المناقشة اليوم في أن تأثير رئيس أركان البيت الأبيض الأفطس دونلد ريغن في أفكار الرئيس رونلد ريغن يتساوى مع تأثير العَرَّافة المكتومة الاسم التي تستشيرها زوجة الرئيس ريغن؟ وكي أتقي الكلام المبطن بشأن هذه المهزلة الأخيرة، أشعر بوجوب القول هنا بأن القدماء منا الذين لا يزالون يتذكرون الأيام الطيبة، أيام فرانك وايسنر وكيم روزفلت ودِس فيتزجرالد وفرانك لندساي وآرتشي روزفلت وايامي أنا، يعتقدون بأن تقهقر فعالية وكالة الاستخبارات المركزية بدأ يوم أخذ مدراؤها يفكرون تفكيراً «عملياً» أي العمل انطلاقاً من الفرضية بأن شعوب العالم الأخرى تفكر على طريقة رجال الأعمال الأميركيين القائمة على الوقائع والأرقام فقط. تنفسنا الصعداء عندما شاع الخبر بأن رئيسنا يستشير منجماً عوضاً عن استشارة وزير الخارجية أو مستشار الأمن القومي.

قمنا أنا وبوب وبعض الباحثين بجولة فيما بعد على أقسام الأقاليم ورؤساء مكاتبها وطرحنا عليهم الاسئلة التالية: «ماذا يمكن أن يلحق الضرر بالمصالح الأميركية مما يجري في منطقتكم؟ لماذا؟ وكيف يمكننا تعديل الوضع؟ غطّينا الأرض كلها من افغانستان إلى البانيا والجزائر واليمن ويوغسلافيا وزامبيا. ولم نكن في الواقع نبحث عن كل ما نستطيع العثور عليه من المشاكل، بل من أخطار واضحة المعالم يمكن استعمالها مشاريع استرشادية نختبر بها أصول العمل السياسي المتواضعة التي تصورناها آنذاك».

سُئلنا مثلاً: «لماذا لا تجرّبون الاتحاد السوفياتي»؟
أجبنا: «علينا أن نتعلم السير قبل الركض».

أما الجواب الأكثر تردداً على أسئلتنا فكان البلد الفلاني لا يقدر الاسلوب الغربي للديمقراطية حق قدره، فهو لا يجري «انتخابات حرة» في مواعيد منتظمة، أو ان الأفكار الغربية المتصلة «بحقوق الانسان» لم تصبح بعد جزءاً من الحضارة المحلية. أما ردة فعلنا على تلك الأجوبة فكانت، «حسناً»، ولكن كيف يلحق ذلك الأمر الضرر بمصالحنا»؟ بالفعل وجدنا حالتين أو ثلاثاً حيث الانتخابات الحرة إلى درجة معقولة تشكل مبدأ مقبولاً في المجتمع من جهة وخطراً حقيقياً على مصالحنا. ذلك لأن الشعوب لمقتها أميركا، تقترع باستمرار إلى جانب المرشحين الذين يتعهدون بالحاق الضرر بمصالحنا أينما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ففي بلدان كهذه من الصعب أن يكون من مصلحتنا الحماس لتشجيع «حرية التعبير» كما نفهمها ونتقبلها في بلادنا.

وورد علينا أيضاً طراز آخر من الأجوبة ان دلّ على شيء فعلى داء «الزبائنية» الذي يصيب الكثيرين من خبرائنا الاقليميين. فمثلاً يعود إلى واشنطن في اجازة سنوية مسؤول عن مكتب اقليمي أو رئيس فرع في بلد ما ويخبرنا بأن «الفلانيين يقاتلون العلانيين وان شرارة الحرب العالمية الثالثة ستنطلق من ذلك البلد بالذات!». وأمام مثل تلك الأقوال لم يكن بوسعنا سوى التثاؤب ثم القول، بأن علينا وضع تلك الشرارات جانباً نظراً لكثرة ما بين ايدينا من قضايا، إلى ان تكون قد أصبحت تشكل خطر حريق داهم. وكان الواقع البسيط، ولا يزال، أن من جميع الحروب المحلية التي اندلعت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لم يكن منها واحدة حسبنا انها قد تسبب حرباً عالمية ثالثة استناداً إلى طبيعة خلافاتنا مع السوفيات. وعندما رفعنا تقاريرنا - حسبما رأينا - إلى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع والبيت الأبيض، توجهت إلينا الاتهامات بأننا معتدّون بأنفسنا، وتنقصنا سعة المخيلة، وقصيرو النظر أو مجرد

جَهْلة. (أثارت الأوضاع على رقعة الالعاب الدولية، وما تزال، آراء متصلبة مبنية على معلومات ضئيلة، أكثر تصلباً مما يُسمح به في أي مجال آخر من مجالات النشاط البشري).

غير اننا نتمتع بتفوّق على متّهمينا: فنحن نعلم ما نتحدث عنه فيما هم لا يعلمون. استخباراتنا الممتازة تنبئنا بأن الاستراتيجية السوفياتية موجهة إلى نقاط الضعف في الغرب ولا تقوم على نقاط القوة السوفياتية معتبرة ان أكثر نقاط الضعف قابلية للاستغلال هي الدول التي يحكمها قوم فاسدون مستبدون يستمدون قوتهم من معرفتهم من أين تؤكل الكتف. إن الدول التي حددتها مجموعتي الصغيرة على انها خليقة بأولوية الاستهداف هي بلدان في افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية يحكمها زعماء موالون لأميركا تجعلهم تصرفاتهم فريسة سهلة لعمليات الاستخبارات السوفياتية. عجزنا عن اقناع اي ادارة جمهورية بأن هؤلاء الزعماء يشكلون لنا ارباكاً باهظاً ـ فضلاً عن كونهم أهدافاً سهلة المنال للعمل السياسي السوفياتي بحيث يصعب اعطاؤهم أي مناعة ضد الانقلابات ـ علماً بأن البعض منهم يصلحون أهدافاً لتدريبنا باعتبار ان بعض أعضاء الكونغرس لم يسبق لهم أن سمعوا بهم قط.

منذ ذلك الوقت (١٩٥٥) وحتى اليوم صدر عشرات من الكتب عن «أخطاء» خفية ارتكبتها وكالة الاستخبارات المركزية. كل تلك العمليات كانت شبه عسكرية ومن النوع الذي كرهناه نحن قدماء الخبراء في العمل السياسي، الخفي منه والعلني. تعطي تلك الكتب انطباعاً بأنها تشمل مجمل مجهودات الوكالة خلال السنوات الأربعين الماضية. أما الواقع فهو انها لا تشكل كلها سوى جزء يسير مما فعلته الوكالة لابقاء العالم مكاناً آمناً للمصالح الأميركية وللحيلولة دون اشتعال حرب عالمية ثالثة. لم تلقَ اي عملية أرشدها فريقي الصغير أو العمليات الأخرى التي أجريت على غرارها أي تغطية اعلامية. وعلى الرغم من انها لم تكلف مبالغ كبيرة كغيرها (لسنا بحاجة إلى جنود وأسلحة ودعم لوجيستي) فقد جاءت نتائجها الصافية أعمق بكثير واستمرت مدة أطول فضلاً عن انها لم تحدث أي ارباك بسبب تسرّب اخبارها في الصحف.

في هذه الأيام، عندما أظهر في مقابلات تلفزيونية أو اشترك في ندوات يناقش فيها موضوع الوكالة أراني الوحيد الذي يصر على التأكيد بأن التركيز هو على ما نقرأه في الصحف عن عمليات الوكالة يتطرق بالتحديد إلى عمليات مكشوفة وليس إلى عمليات خفية وأضيف بأن للوكالة من النجاح أضعاف ما عليها من تقصيرات ولكن اخبار النجاح لا ترد مطلقاً في الصحف. بالطبع قوبلَت، وتُقابل، أقوالي هذه دائماً بالقهقهة الصاخبة وبالتحدي التالي: «حسناً، هل تتفضل وتخبرنا عن نجاح واحد لا غير»؟ فأجيب: «هنا يكمن السر. نجاحاتي الخفية ليست مُعدة للاعلان كتلك التي يكتب عنها المحررون. إنها خفية، خفية، وهذا ما يحول دون وقوفكم عليها وانني لست على وشك اطلاعكم عليها». لا داعي للقول بأن هذا الجواب قلّما يقنع أحداً. إلّا ان الادلاء به يبعث في نفسي الكثير من الرضا والارتياح.

قفز كتابي حول أصول الجاسوسية الحديثة (نشر في بريطانيا تحت عنوان: «عالَم الجاسوسية الحقيقي» وفي الولايات المتحدة تحت عنوان: «من دون عباءة أو خنجر» إلى لائحة الكتب الأكثر مبيعاً بسبب ما نشر عنه من مراجعات وصفته على انه «خليط بارع من الخداع والتحريف» و«نتاج من التلفيق الهزلي الصاخب». فصرت ادعى للاشتراك في مختلف أنواع الندوات اليسارية المعقودة بالوكالة وفي كل منها ترد اسماء ثلاث عشرة دولة اتهمت الوكالة باجراء عمليات فيها تتصف باللاأخلاقية وبالأخطاء الفادحة وبإلحاق الأذى بالمصالح «الحقيقية» للولايات المتحدة. أما البلدان الثلاثة عشر

الدائمة الذكر فهي: «بورما والصين والفيليبين وكوبا واندونيسيا والتيبت وسنغفورة والبرازيل وتشيلي والكونغو واليونان وايران وغواتيمالا. لقد ارتكبت الوكالة بعض الهفوات في تلك البلدان وغيرها ولكنها حازت في الوقت نفسه على تنويهات بأعمالها فيها جميعاً باستثناء الصين وكوبا. ولما كانت التنويهات التي تشير إلى النجاحات لم تصل أخبارها إلى الصحف مطلقاً ولا هي بلغت مسامع لجان المراقبة في الكونغرس.

غير أن ما لفت انتباهي هو ان السرية التي درجنا عليها كانت بعيدة عن الكمال. ومع الوقت وتخفيض القيود على موظفي الوكالة الذين صاروا أدباء ومؤلفين حصل تسرّبٌ لا بأس به من المعلومات. بعد أن ألهبت مجموعة أركان العمل السياسي جذوة النشاط فيها من جديد نجحت الوكالة في أكثر من مئة عملية سياسية خفية داخل أكثر من ثلاثين دولة. وعلى الرغم من ذلك ثابر اعداء الوكالة على تجاهل كل النجاحات تجاهلاً تاماً رغم علمهم بها.

وكي لا أكون مجحفاً بحق أولئك أبناء (كذا وكذا) اعترف بأن القضية قد تكون قضية تعريف. فبالنسبة اليهم تنطبق عبارة «العمل السياسي الخفي» فقط على تلك العمليات التي أربكت الوكالة خارج الولايات المتحدة وداخلها وتلك العمليات هي: (١) إما شبه عسكرية أو متصلة بالأعمال العسكرية كتلك التي في فيتنام وافغانستان واميركا الوسطى، الخ. (٢) أو ممولة من قبل الوكالة او عبر قنواتها وان تكن في معظم الحالات ليست بادارتها. (٣) نفّذت في معظمها على أيدي متعاقدين (أي غير محترفين) أو عسكريين بدعم من الجيش أو سلاح البحرية أو سلاح الطيران. (٤) انها ليست «خفية» مطلقاً أي انها نالت تغطية صحفية واسعة.

أما نحن في دائرة أركاننا الصغيرة فنعرِّف «العمل السياسي» على انه واحد أو أكثر من أنواع العمليات التالية:

«اللـوبـي»:

رتبنا في البلدان المستهدفة مصالح صناعية وتجارية اقنعناها بتنظيم وسائل غير علنية للضغط على حكوماتها ووفرنا التدريب اللازم لموظفي فروع العلاقات العامة فيها على غرار ما تفعله عندنا لجان العمل السياسية التابعة لحكومات بلدان أجنبية (مثل اسرائيل واليونان وبريطانيا وغيرها) مع بعد التعديلات لتتلاءم مع الأوضاع المحلية في تلك البلدان. كان بعض ما دعونا إليه وعلّمناه قانونياً كلياً وفوق الطاولة، وبعضه مختلفاً عن ذلك. أما نسبة ما هو قانوني منها إلى ما هو غير قانوني فتتقارب مع النسبة المقابلة عند اللجان الأجنبية العاملة عندنا.

المستشـارون الأميـركيـون:

لم أدرك قبل انتهاء دورة السنتين التي قضيتها في مصر بين عامي ١٩٥٣ و١٩٥٥ وانخراطي في أصول العمل السياسي خلالها، مدى ما بلغته عملياتنا تلك من الصيرورة نموذجاً يحتذى في أصول ذلك العمل. فقد تيسر لي الوصول الفوري إلى أهم أعضاء مجلس قيادة الثورة. وعندما غادرت مصر كان لنا فيها خبراء اميركيون دائمون يعملون في دوائر الشرطة والأمن العام والمخابرات. وكان لنا أيضاً على أساس تعاقد مؤقت خبراء مثل بول لاينبارغر يعاونون وزير الأعلام والرئيس عبدالناصر نفسه في أصول اصدار الصحافة والاذاعة اخبار وتعليقات تبدو في ظاهرها مؤيدة للسوفيات ولكنها تلحق بالحقيقة بالسوفيات وبالشيوعية من الضرر أكثر مما تسديه إليهم من خدمات، إضافة إلى اخبار

وتعليقات تبدو في ظاهرها مناهضة للولايات المتحدة وتسدي لنا في الواقع من المنافع أكثر مما تلحقه بنا من أذى. أما الخبير شيرمن كِنت، وكان آنذاك رئيس مكتب الوكالة المختص بشؤون التقديرات القومية، فقد أعطى المخابرات والبحاثين في مصر دروساً قيمة في أصول تحرير خلاصات يومية بسيطة ومليئة بالوقائع التي يحتاجها الرئيس عبدالناصر فعلاً، عوضاً عن تلك الترهات التي كانت تملأ بريده اليومي. وعبر وسائل الاتصال هذه وغيرها أقمنا علاقة وثيقة مع نظام عبدالناصر الثوري مكنتنا من تفهم دوافعه العامة ونواياها المحددة بحيث نستطيع التنبوء بتحركاته والتكلم معه مباشرة في أي وقت تدعو الحاجة إلى اقناعه بالعدول عن اجراءات اعتبرناها مضرة بمصالحنا المشتركة. على كل حال لم يكن لنا ان نقنع عبدالناصر بعدم القيام بأعمال تعود بوضوح بالنفع على بلاده وحدها دون العودة بالنفع علينا.

مستشارون آخرون غير مصريين:

بدأنا نشكك في المراحل الأولى من علاقاتنا معه بأن عبدالناصر يستعين بخبراء غير الذين نوفرهم له، أي ان ثقته بنا هي دون المئة بالمئة. (لماذا شرع حسن التهامي إذاً يأخذ دروساً لتحسين لغته الالمانية؟) تأكدت شكوكنا عندما أخبر العقيد السابق في فرقة أس. اس الالمانية أوتّو شكورزني مسؤول الوكالة في مدريد بأن الملحق العسكري في السفارة المصرية هناك اتّصل به طالباً منه المساعدة في تجنيد ضباط المان قد يرون في مصر مخبأ مناسباً لهم يقيهم مطاردي النازيين السابقين. فهل باستطاعة الوكالة تقديم العون؟ اننا بالطبع قادرون. وبمساعدة أوتّو المذكور اختار ضابط الوكالة الذي يتعاون مع الجنرال راينهارد غيلن في پولاخ [مركز المخابرات الالمانية الغربية بالقرب من ميونيخ] بعض الجنرالات والعقداء وغيرهم من الضباط الالمان البلهاء بحيث يمكن الاعتماد عليهم لتخريب الجيش المصري إلى درجة لا يعود يعرف معها طريقه من القاهرة إلى الاسماعيلية ناهيك عن قتال البريطانيين هناك.

لفكرة زرع المان متهمين بجرائم الحرب لدى حكومات شرق أوسطية حسنات عديدة. ذلك انهم ضد الاميركيين كما هم ضد السوفيات فضلاً عن كونهم غالباً معادين للسامية أي ضد اسرائيل. والواقع ان أكثرهم كانوا ضد العرب أيضاً ولكنهم يتمتعون بمقدار من الذكاء لاخفاء ذلك. المهم انهم كلهم انتهازيون نفعيون على استعداد لخدمة مَن يدفع لهم لذلك كانوا على استعداد كامل لتقديم اي معلومات أردنا وصولها إلى أربابهم الشرق أوسطيين. كان من الطبيعي ان نواجه بعض الصعوبة في الحصول على موافقة لمشاريع تتضمن استعمال النازيين أو النازيين السابقين ولكن الصعوبات اضمحلت عندما اعترف اصدقاؤنا في الموساد في اسرائيل بأنهم يستخدمون النازيين السابقين في بعض اغراضهم المشينة وللغايات عينها التي استسغنا نحن استعمالهم لأجلها.

مستشارون محليون:

لعل أفضل طريقة للتأثير في موقف رئيس الدولة في أي بلد، ومنها بلدنا، هي عبر أشخاص من مجتمعه ومن جنسيته ودينه وأصوله الاثنية له ثقة شخصية بهم. ركّز «بوب» في عملياته تلك على اشخاص من ضمن هذه التصنيفات في استعانته بالمنجمين وقارئي الكفّ ومستقرئي الأرقام والسَحَرة ومستحضري الأرواح والمؤوّلين وغيرهم من المشعوذين. وجدنا اننا لم نحتج، إلاّ في حالة واحدة أو اثنتين، إلى «زرع» مشعوذين أتينا بهم من خارج بطانة الأشخاص المستهدفين ودرّبناهم على طريقتنا. لقد دلّنا استعراض سريع للحكومات التي اخترناها اهدا؛ا لنا أن الزعماء المحليين الذين يعتمدون إلى حدّ ما على المشعوذين هم أكثر عدداً من الذين لا يعتمدون عليهم. ولما كان المشعوذون في خوف دائم

من التودية بزبائنهم في الاتجاه المغلوط (انهم مشعوذون لكنهم ليسوا بلهاء) فقد أسعدهم الحصول على مساعدتنا. فبها يستطيعون استبدال ابهامهم بمادة صلبة، وبهم نستطيع تلقيم اهدافنا معلومات تبدو وكأنها نزلت عليهم من مصادر فوقية.

لعل الرئيس عبدالناصر هو وحده بين رؤساء الدول في افريقيا وآسيا الذي لم يعر المشعوذين اهتماماً كبيراً. ولكنه كان يستمع باهتمام إلى مساعديه وأصدقائه المقربين الذين يرتاح إلى مجالستهم بعد يوم طويل من العمل المضني. وكان من بين هؤلاء مثلاً صديقه الأقرب محمد حسنين هيكل الذي باستطاعته ايصال «الكلمة» الاميركية له بوضوح واقناع أقوى بكثير مما استطاعه أي من النكرات الذين شغلوا منصب سفير الولايات المتحدة إبان السنوات الأخيرة من حياته. وكثيراً ما قلنا مازحين بأن الولايات المتحدة ليست بحاجة إلى سفير لها في واشنطن طالما بقي محمد حسنين هيكل إلى جانب عبدالناصر يجتمع به ساعة أو اثنتين في الاسبوع يتلو على مسامعه ما أرسلته واشنطن إلى رئيس مجموعة وكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة. من الصعب تسمية محمد حسنين هيكل «عميل لوكالة الاستخبارات». ولكن المعلومات التي كان يقدّمها لعبدالناصر لخدمة أغراضه خدمت في الوقت نفسه أغراضنا.

عملاء ذوو نفوذ:

تشمل هذه العبارة في أي بلد مختلف أصناف ذوي الأهداف والرغبات الشخصية التي تتلاءم تلاؤماً مناسباً مع ما نبتغيه والذين يمكنهم، بقليل من التشجيع والتأييد، التحول إلى أشخاص أكثر تأثيراً وفعالية مما كانوا عليه أثناء وقبل المساعدة والتشجيع. كما يوجد في أي بلد مستهدف أشخاص مستقلّون بعملهم قادرون على نفعنا إذا ما تركوا يتصرفون حسب معرفتهم، ويشعرون بالاهانة إذا ما عرضنا عليهم بدلاً عن خدماتهم أو إذا ما لمحنا لهم بأن ما قالوه لنا أو فعلوه أفادنا بمقدار ما أفاد القضية المحلية التي يعتنقون. هؤلاء يجب أن ندعهم وشأنهم. ولكن يوجد في أي بلد أذهان متوقدة بحاجة إلى توجيه وتأييد ولا يهمها من أين يأتيانها. في أيامي كان على رئيس الفريق في البلد المعني اكتشاف الأفضل من بين هؤلاء الناس أكانوا في الحكومة أو خارجها (في وسائل الاعلام أو الجامعات أو المؤسسات الدينية أو في أي مكان قد يكون منبراً لهم) ووضع ترتيبات رسمية معهم لتبادل الأفكار وتقديم المساعدات المالية وغيرها، وفي حالات قليلة جداً تقديم مكافأة مقابل الخدمة المسداة.

المساعدات المالية للصحف واتحادات العمال والحركات السياسية والمرشحين:

فخلافاً للاتهامات التي تساق ضدنا منذ بضع سنوات، اننا لا نملي على الصحف ما نريدها ان تنشر ولا نوجه اتحادات العمال في كيفية استعمال قوتها ونفوذها ولا تصدر تعليمات صريحة للحركات السياسية وقادتها بما عليها قوله أو فعله. عوضاً عن ذلك اخترنا من بين هؤلاء مَنْ تصرفوا ويتصرفون بطرق تتلاءم مع غاياتنا وقدمنا لهم الدعم اللازم كي يستمروا في سلوك نهجهم. وفي سنوات لاحقة صارت عمليات وكالة الاستخبارات المركزية ضد حكومة الليندي في تشيلي مثلاً ممتازاً يُدرَّس في الصفوف. فقد اتهمنا «بشراء» الصحف واتحادات العمال. ولكننا لم نفعل. جلّ ما فعلناه اننا قدمنا للصحف الورق الذي حرمتهم الحكومة منه، وأمّنا لاتحادات العمال طعاماً مجانياً بعد ان أقفلت الحكومة مخازن تموينهم. يخطىء خطأً فادحاً كل من يظن بأننا قدّمنا لهم ما حسّن قدرتهم في ما كانوا يفعلون للاطاحة بحكومة سلفاتور الليندي.

الاقناع:

في بداية عهد الوكالة استعملنا كلمة ارهاب دون ارباك. فالارهاب عوضاً عن الاغتيال هو ما لجأنا إليه عندما رغبنا في ثني أي مجموعة أو دولة عن الاتيان بأي عمل من شأنه تعريض مصالحنا المشروعة للخطر. وجاء حصول أي قتل أو تشويه صدفة غير مقصودة. ثم أخذنا نستبدل كلمة الارهاب بكلمة «الاقناع» الأكثر لطفاً خصوصاً بعد أن تفوق خصومنا علينا في استعمال الارهاب وسيلة للعمل السياسي، واكتشف اختصاصيونا في شؤون الدعاية ان ما تحمله كلمة «ارهاب» من معان اضافية تصلح في حربنا ضد الجاسوسية. ومنذ ذلك الاكتشاف صار فريقنا يقنع والفريق الآخر يرهب. أما التعبير اللطيف والرقيق «مقاتلو الحرية» (المقاتلون في سبيل الحرية) فلم يظهر إلى الوجود إلّا بعد مرور بضع سنوات على ذلك.

تعني كلمة «الارهاب» لأي اختصاصي بالدعاية أي عمل ينطوي على العنف وتنطبق عليه التحديدين التاليين: (١) انحراف عن الاعراف المقبولة عموماً في الأعمال الحربية و(٢) شرط أن يكون الفريق الآخر هو الذي انحرف عن تلك الاعراف. أما بالنسبة لمخططي العمل السياسي أو لمحللي المخابرات فالارهاب عمل يُقصد منه تخويف العدو وردعه عن القيام بنشاط معين أو استفزازه للقيام بعمل لا عقلاني يخدم اغراضنا الاستراتيجية. مثلاً على ذلك ما اتخذناه من اجراءات في أوروبا المحتلة ابان الحرب العالمية الثانية حيال المتعاونين مع الالمان من فرنسيين وهولنديين وبلجيكيين. فقد أثنت الناس عن مجرد التفكير بالتعاون معهم. وإبان الانتداب البريطاني لفلسطين استعمل الصهاينة، أي عصابات شتيرن والإرغون الارهاب لتدمير معنويات البريطانيين ولإثارة المعارضة في بريطانيا مما أدى في النهاية إلى خروجهم من فلسطين. لم تلجأ وكالة الاستخبارات إلى هذا الاسلوب إلّا نادراً منذ العام ١٩٥٥ وحتى مغادرتي الوكالة وشروعي بالعمل الفردي المستقل. وقد استعملته بفعالية كلما أرادت إثارة دولة بوليسية ما لضرب شعبها بطريقة تبرز طبيعتها المتعسفة فتسهل لنا عملنا في انشاء حركات مقاومة.

قدرات الملاذ الأخير:

استعيد من وقت إلى آخر ذكريات أعمالي الماضية علنيّ أجمع مواداً أؤلف منها حكايات أرويها لأحفادي قبل الرقاد فأجد نفسي بين انقلابات وتزوير انتخابات وأشكال أكثر عنفاً من تبديل أنظمة الحكم وغير ذلك من نشاطات لجأنا إليها من وقت إلى آخر. إنها في الواقع مواد القصص البوليسية وحكايات الجاسوسية وروايات شدّ الأعصاب التي نشاهدها على شاشة التلفزيون ـ ناهيك عمّا يرويه كتّاب يساريون من دعاية مناهضة للوكالة وجدت طريقها إلى الصحفيين الفضوليين، هذا فضلاً عن نتائج تحقيقات لجان الكونغرس. أما المواد المسلّية والمثيرة مثل خبر بعنوان: «رجل عضّ كلباً» تقرأه في الجريدة فتحظى باهتمام أكبر بكثير من الاخبار العادية التي نطالعها كل يوم. وعلى الرغم مما عندي من ذكريات محببة عن الانقلابات والأعمال الجريئة التي كان لي ضلع فيها فإني استعيدها في مخيلتي وكأنها حكايات من الطفولة. على كل حال احتفظنا حتى آخر يوم لي في الوكالة بقدرات على تنفيذ عمليات الملاذ الأخير فكنت ألقي بانتظام دروساً في قسم التدريب على كيفية تخطيط وتنفيذ تلك العمليات.

ماذا فعلنا إذاً بكل ذلك التطوير للوسائل والأساليب؟ أما الجواب فهو اننا سجّلنا خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة النجاح تلو النجاح. وأعتقد بأنه من الانصاف القول ان جميع

العمليات التي نفذّتها الوكالة بالأساليب والوسائل الواردة جاءت ناجحة برمتها. ولهذا السبب عينه لم تحصل على اعتراف بها داخل الوكالة وخارجها، في حين ان كوارثنا العديدة حصلت على الشهرة والتمجيد في الداخل وعلى الانتشار الاعلامي الواسع في الخارج. وباعتبارنا نعمل في الخفاء كنا نتمنى عدم الحصول على الشهرة والتمجيد، ونسعد بالحصول على الميزانية اللازمة وعلى الترقيات المستحقة.

إن العمليات التي شرعنا بها بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٧ تُعامل حتى اليوم على انها سرية ولكنني استطيع أن أبوح بكل ما يستأهل البوح به في بضع جمل قصيرة انما لن أفعل ذلك قبل نثر بعض الحكم. إن العمل السياسي الذي يتميز بالكمال هو تعريفاً عمل لا يتخلله الحَدَث. ذلك لأن لا شيء يحدث خلاله. إنه ترتيب مستمر وليس عملية متسلسلة كما انه ليس سلسلة من الأعمال تبدأ من نقطة انطلاق وتصل إلى نهاية. إن العمليات التي وصفتها أعلاه تحت عنوان: «قدرات الملاذ الأخير» قد تكون شواذاً عن القاعدة ولكنها (تعريفاً أيضاً) لن تكون مطلقاً كاملة الصفات.

قلت سابقاً ان العمل الأول الذي قام به أركان العمل السياسي كان وضع قائمة بأسماء الدول حيث توجد مواد أو مواقع ضرورية كلياً لبقائنا ورفاهيتنا كالمواد الأولية وأماكن تصلح لإقامة مواقع عسكرية أو بحرية ملائمة في حال قيام حرب أو مناطق يسهل اجتيازها لتقصير طرق تنقل الجيوش والامدادات. أذكر ان القائمة شملت بعضاً وثلاثين دولة ومنطقة (حسبنا ما يسمى العالم العربي منطقة جغرافية واحدة) تتناسب مع حاجاتنا.

خلال السنتين اللتين قضيتهما بالعمل الجدي كاختصاصي بالعمل السياسي أرسلت الوكالة إلى الخارج أكثر من فئة من مختلف الاختصاصات ودرّبت عدداً مماثلاً، أو أكثر، من المحليين الكفوئين في البلدان المستهدفة. وقع الاختيار عليهم أولاً لأنهم أظهروا مواهب واضحة في مجالات عملهم وثانياً، ثانياً فقط، باعتبار انهم قد يكونوا في المستقبل عملاء يمكن الاتكال عليهم. وفي الوقت نفسه اتخذ رؤساء مراكزنا في تلك البلدان اجراءات مفيدة للفريقين مع الشرطة المحلية ودوائر الأمن وبعض الصحف والمجلات المختارة والاتحادات العمالية والمنظمات الدينية وغيرها من المنظمات وأبقوا تلك الاجراءات سرية ليس لوجود أي عنصر غير قانوني أو لا أخلاقي في النشاطات التي نؤيدها بل لالتصاق وصمة بقبول المساعدات المالية من مصادر أجنبية.

كم أتمنى لو استطعت القول بأن الأوضاع لم تفلت من ايدينا قبل مغادرتي الوكالة. فالواقع المؤسف هو أن زمام الأمور أفلت في العالم كله وبات على الوكالة القيام بأعمال تفوق مجرد ضبط الأوضاع في البلدان التي توجد فيها مواد حيوية من أجل سلامتنا ورفاهيتنا. في الوكالة نفسها ظهر الميل البيروقراطي الطبيعي باتجاه التوسع. فراح رؤساء الأقسام يقيمون لها فروعاً في بلدان لم نكن بحاجة إلى تغطيتها. ولدى وصول رؤساء الفروع إلى مراكز عملهم الجديدة لم يكتفوا بفرك الأكف والانتظار بل راحوا يعملون بجد واجتهاد لإقناع أنفسهم ولاقناعنا في واشنطن بأن المناطق التي عيّنوا فيها بؤرة للعمل السياسي الذي إذا لم يوضع له حد سيتفشى إلى البلدان المجاورة الواردة على قائمتنا.

ليس هذا جزءاً من تفسير أسباب نمو وكالة الاستخبارات المركزية من وحدة حكومية سهلة الادارة تقدم خدمات لا تقدر بثمن، إلى امبراطورية واسعة أصبحت بفعل ضخامتها وتعدد نشاطاتها هدفاً للاستخبارات السوفياتية أولاً ثم «لبلهائها النافعين» من الأدباء والمفكرين الأميركيين وأخيراً لأعضاء الكونغرس وغيرهم ممن لهم الحق المشروع بالاهتمام ببعض نشاطاتها. وبصرف النظر عن:

مَن هو المسؤول، الوكالة نفسها أم أعداؤها، فإنه لمن الواضح للفرد وللجميع ان الوكالة وما استحالت إليه في أواخر الثمانينات تختلف كلياً عن ذلك القسم من المؤسسة المتقنة المركبة بحكمة وذكاء الذي كان لي فيه دور في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات. لقد استمر هذا القسم بالذات يعمل بنجاح حتى انتهى أمره في الهجمة والحملة على الوكالة في السبعينات. إن جميع الذين يشاطرونني ذكرياتي عن وكالة الاستخبارات المركزية ونشاطاتها الأولى حسب ارشادات مجلس الأمن القومي المختلفة سيوافقون على أن بذور انهيارها لم يزرعها أركان العمل السياسي الاصليون.

الفصل السابع عشر

ايران وغواتيمالا: ١٩٥٣

سيّدة القطط وشركة الفاكهة المتحدة

فيما كنت أستعد في أوائل ١٩٥٣ للشروع بعملي الجديد مستشاراً ادارياً في مصر ساد سكوت مستغرب في الأقسام التي تتعاطى مع الشؤون المصرية في وكالة الاستخبارات المركزية. وفجأة لم يعد بالامكان الاتصال بـ كيم روزفلت أو بفرانك وايسنر أو بآلن دالس للبحث بقضايا تلك المنطقة من العالم التي شغلت لعدة أشهر المرتبة الأولى من اهتمامهم. وفي صبيحة أحد الأيام دعاني كيم إلى مكتبه ليسر السبب في أذني. يبدو أنه خلال الأسابيع القليلة السابقة قام نقاش حاد على مستوى سياسي مرتفع بين الحكومتين البريطانية والأميركية حول ما يجب فعله بشأن امكانية قيام ذلك المخادع العجوز محمد مصدق، رئيس وزراء ايران، بانقلاب على الشاه وبتأميم شركة النفط البريطانية الايرانية، والتحول بالتالي إلى عقبة في وجه مخططات الوزير دالس بإقامة «الحزام الشمالي» لاحباط مخططات السوفيات التوسّعية.

بعد تبادل التحيات قال كيم: «يؤسفني ان أؤخر سفرك إلى مصر، فالحاجة تدعو لأن تقوم ببعض الاستكشافات». كان عليّ ان أذهب إلى ايران للحصول على اجوبة عن أربعة أو خمسة أسئلة يمكن اختصارها بسؤال واحد: هل نستطيع او هل ينبغي لنا القيام بعمل سياسي لدعم الشاه ولتشويه سمعة مصدّق ومنع مؤيديه من القيام بما خشيت وزارتا الخارجية البريطانية والأميركية من قيامهم به؟ جاءت تحرياتي حول أسئلة كيم بأجوبة اعتبرها موثوقة. نعم، نحن بحاجة إلى عمل سياسي غير عادي في ايران لحماية المصالح الأميركية والبريطانية هناك. أما الغاية من العمل السياسي فيجب أن تكون ازاحة مصدّق من الحكم وجعله أضحوكة بين الناس، وزجّ كبار مؤيديه في السجون واعطاء الشاه أي مساعدة قد يحتاج إليها للانطلاق ببرنامج علاقات عامة يظهر للشعب الايراني دقة المأزق الذي مروا به وخطورته، وكم كان حظهم كبيراً لخروجهم منه.

لا بد لي من كلمة عن المصادر التي استندت إليها لتأمين الاجوبة عن أسئلة كيم. بدأت تحرياي في مكتب ايران في وكالة الاستخبارات ورديفه في وزارة الخارجية حيث حصلت على نتائج ممتازة، ذلك ان أكثرية الموظفين في كليهما سبق لهم ان خدموا في ايران ويعرفون جيداً. وفي ايران نفسها وجدت أن كبار المسؤولين في السفارة وفي مركز الوكالة اختصاصيون ذو كفاءة بشؤون المنطقة وأوضاعها، لا مجرد دبلوماسيين محترفين يعدون الأيام التي تفصلهم عن الانتقال إلى مركز أعلى في دولة ما من دول أوروبا الغربية. فكان هناك السفير هندرسون وهو صديق شخصي لآلن دالس وكيم روزفلت والأب الروحي لجميع قدماء الموظفين الذين اشتغلوا في بلدان الشرق الأوسط. وتعرفت على أربعة من كبار موظفي السفارة النظاميين يتقنون الكلام بالفارسية، يتحلون بالشجاعة الكافية لينزلوا إلى الشوارع ويتحسسوا بمشاعر مختلف طبقات المجتمع حيال الأوضاع.

رئيس مكتب الوكالة في طهران رجل شغل جده لأبيه منصب وزير الدفاع في فرنسا مرة واحدة، وجده لأمه منصب وزير الدفاع في ايطاليا مرة واحدة أيضاً. أما هو فضابط مخابرات ممتاز يتقن اللغات الثلاث. ونائبه (أستطيع الكشف عن هويته باعتبار انه أماط اللثام عنها منذ سنوات عديدة): جون

واللر، الذي مضى يترقى حتى بلغ منصب مفتش عام الوكالة قبيل تقاعده وفي الوقت الذي مسّت حاجة الوكالة إلى مفتش عام أي عندما كان السناتور فرانك تشيرتش وغيره في أوج حملتهم المسعورة على الوكالة ـ أمّن لي هؤلاء جميعاً الزاد الكافي للاجابة عن كل أسئلة كيم ومنها آخرها: إذا ما أيّدنا انقلاباً شبيهاً بذاك الذي ساعدت في التحريض عليه في دمشق، فإلى أين تراه يؤدي بنا؟ بكلام آخر هل تنجح العملية وماذا سيترتب عليها؟ أجبت بنعم، انها ستنجح وستكون نتيجتها ملائمة لنا عن الأميركيين وللبريطانيين وللايرانيين كذلك، شرط ان يكون الشاه حكيماً وحذراً في تثبيت موقفه المُستعاد والا تصعد خمرة التفاؤل إلى رأسه.

وعند عودي إلى واشنطن أراد مني كيم اسداء أي نصيحة يمكنني اسداؤها عن كيفية اجراء الانقلاب ـ إن كان سيحدث انقلاب حقاً للحصول على بعض المساعدة في الاجابة عن هذا السؤال اتصلت بما يسميه موظفو قسم ايران «وكالة الاستخبارات المركزية الحقيقية» أو «وكالة الاستخبارات داخل وكالة الاستخبارات» وهي وحدة صغيرة ترأسها زوجة موظف الاتصالات اللاسلكية الملقبة «سيدة القطط». أظن بأنني أول من كتب عنها وعن وحدتها ليس فقط لقلة عدد الذين يعلمون بوجودها إن داخل أو خارج الوكالة، بل ربما لأن لها وسائلها الخاصة في التعاطي مع من يختلس النظر تحت خبائها.

أطلعني كيم على وجود سيدة القطط فيما كنت على وشك السفر إلى طهران وحذرني من الاقتراب منها. ولكنه بدل رأيه عندما تذكر بأنها هي وحدها على اتصال مجدٍ «بالقطط» وهم مجموعة من المرتدّين الأميركيين المتحدرين من أصل ايراني (فرس، بلوخيّون ، أكراد، تركمان، الخ). جاءوا بحثاً عن عمل مع المقاولين الأميركيين، اضافة إلى «عمالقة الزركانة» وهم مجموعة من الربّاعين الذين تدعو الحاجة إليهم في قيادة المظاهرات المأجورة والسيطرة عليها ـ كما حدث مرة عندما كانت الجماهير تنادي «يعيش مصدّق والموت للشاه» فحولوا النداءات إلى «الموت لمصدق. يعيش الشاه». وأخبرني كيم ان من مواهبها الشخصية القدرة على التظاهر بأن السكر يتعتعها في حين تكون صاحية وصافية الذهن، أو انها تجهل الفارسية واللهجات الايرانية الأخرى علماً بأنها نشأت وترعرت في تبريز وتتقنها كلها مثل أهل البلاد.

لاحظت عندما رأيتها للمرة الأولى ان شكلها يوحي بما ليست عليه، ذلك انها وقد جاوزت الأربعين تبدو في العشرينات من عمرها وعلى نوع مستغرب من الجاذب. لا بد انها أدركت ان الايرانيين يعتبرون النساء اللواتي يتمتعن بجاذب جنسي خاليات من العقل، فجعلت تسريحة شعرها الاسود الطويل كعكة تلفها في مؤخرة رأسها واختارت نظارة غليظة الاطار واعتمدت الثياب السوداء، ولم تنس مطلقاً ارتداء الشادور خارج البيت تستر به وجهها. مظهرها العام يوحي بأنها من الايرانيات المطالبات بحقوق المرأة سبق لها أن قضت سنة في كلية الاقتصاد في لندن.

بيتها كوخ قريب من السفارة الأميركية «يشكل جزءاً من ملبسها» حسب وصف كيم وهو في الواقع كذلك. انه يعج بالقطط والأطفال الصاخبين، منه تنبعث أقرف الروائح وفيه يعلو الصراخ حتى ليكاد يستحيل تبادل الأحاديث العادية. «الملائكة الصغار»، كما تسمهيم يلعبون في الغرفة المجاورة لعبة الطبيب. وفجأة انبعث زعيق جمّد الدم في عروقي علقت عليه سيدة القطط قائلة: «لا بد ان ضجيج الأطفال يرتفع كثيراً في بعض الأحيان، فلا تأبه بهم». ولما هدأ الصراخ والزعيق وحلّ السكوت في البيت، قالت: «من الأفضل ان أرى ما هم عليه». أما ما كانوا عليه فكان انهم قطعوا هرة

حية بالمنشار إلى قطعتين. ذلك ما شاهدته بأم العين عندما خرج كبيرهم وهو في قرابة العاشرة من العمر يحمل بكل يد نصف الهرة المنشورة. اشعلت السيدة سيجارة وقالت له بهدوء: «أرمها خارجاً، أفلست ترى اننا نحاول التحدث كأشخاص متمدنين؟»

حصل ذلك الاجتماع صبيحة اليوم الثالث لوصولي طهران، أي بعد عثورها عليَّ ذلك انها لو لم تعثر عليَّ لما استطعت العثور عليها لأن أحداً في السفارة لم يجرؤ على الاعتراف بأنه يعرفها ناهيك عن ارشادي إلى منزلها. عندما علمت هي بوجودي، ولعل ذلك صدفة بواسطة زوجها، أرسلت لي سيارة الأسرة، تلك الفولكسفاغن المهلهلة التي أقلّتني إلى بيتها حيث تناولنا قدحاً من الشاي المنعنع وشاهدت ضحية لعبة «الجراح البيطري». ثم قمنا بجولة في المدينة، فإذا بها تعرف كل شارع وطريق وزاروب وزقاق وزاوية ومنعطف فيها.

قضيت صبيحة ذلك النهار أتعرف بمساعدتها طبعاً إلى الأهداف الواجب التحكم بها على كل مَن يقوم بانقلاب (كالاذاعة والمحطات الكهربائية الرئيسية ونقاط التحكم الأساسية في شبكة الهاتف، ومنزل رئيس الوزراء مصدّق ومنازل غيره من الشخصيات الواردة اسماؤهم في قائمة المطلوبين، الخ). ثم أخذت أرسم الطرق التي ستسلكها قطعان المتظاهرين والتقاطعات حيث يحدث ازدحام السير والمخارج التي تلجأ إليها الشرطة عندما تدعو الحاجة إلى السيطرة على جمهور الرعاع المتظاهرين.

استغرقت استطلاعاتي هذه طيلة قبل الظهر وعند الساعة الواحدة قالت كاثي (كاثرين لا أعرف ماذا هو اسمها الحقيقي): «حان وقت الغداء». قادنا سائق سيارتها إلى نسخة فارسية عن المطاعم التي يرتادها سائقو الشاحنات في أميركا. كان المطعم مليئاً «بالقطط البشرية» التي أشرت إليها في فقرة أعلاه. قالت كاثي: «هؤلاء محترفون وليسوا مسيّسين اطلاقاً وسيكون العم كيم بحاجة إليهم مهما كان نوع الانقلاب الذي يخامره». تبين لي من حديثي العابر مع البعض منهم أن جمع جمهور يكفي للقيام بانقلاب مؤيد للشاه ليس قضية صعبة وان «القوى القومية» التي يكثر التخوف منها لن تشكل عائقاً في طريق الانقلاب. واستطعت كذلك تكوين صورة لا بأس بها عن «الشعب» الايراني وعن شعوره تجاه الشاه ومصدّق وشركات النفط الأجنبية. ولما عدت إلى واشنطن كان التقرير الذي رفعته إلى كيم كل ما احتاج إليه لاقناع الأخوين دالس بوجوب الاقدام على «عملية اجاكس» اضافة إلى الارشادات الأولية لطرق تنفيذها.

لا بدّ لي هنا من تصحيح بعض ما ورد في الكثير من الكتب والمقالات التي اعتبرتني «العبقرية الكامنة وراء عملية اجاكس» أو «الدماغ الذي يحرك كيرمت (كيم) روزفلت أو ما قاله البعض بطرق مختلفة من ان العملية ما كانت لتنجح «لولا التخطيط والاعداد الممتازين» اللذين قمت بهما. بعد نجاح العملية ببضعة أيام قال الشاه وهو يتبادل الأنخاب مع كيم في القصر الشاهاني: «انني مدين بعرشي إلى الله وإلى شعبي وإلى جيشي وإليك وبالطبع إلى مساعدك المستتر الذي لن أذكر اسمه». وعندما علّق الرئيس ايزنهاور وسام الأمن القومي على صدر كيم، قال الأخير بتواضعه المميز: «الحق انني لا استحق ذلك. نحن مدينون إلى أحد مساعديّ الذي يفضل عدم ذكر اسمه».

الواقع ان الفضل كله يعود إلى كيم في صيرورة عملية اجاكس نموذجاً حياً لعملية العمل السياسي الكاملة. فقد استعملت عناصر من داخل البلاد وفعّلت مشاعر وقوى محلية لاستنهاضها. تضمنت العملية السيطرة على الجيش واعادة توجيه استهدافاته بشكل أكثر فعالية من أي عمل آخر قمت به، واقامة توازن بالغ الاتفاق بين القوة العسكرية وبين التأييد الشعبي. والواقع ان جميع الاجراءات الروتينية قد اتخذت حسب الخطط المرسومة (الاستيلاء على الاذاعة وقطع الاتصالات

الهاتفية، الخ.) ولكن العملية سارت بسلاسة لم تكن لتستدعي تلك الاجراءات ومع ذلك كله كلّفت الشعب الأميركي أقل من مليون دولار علماً بأنه رُصِد لها ثلاثة ملايين. يبقى الأهم من ذلك كله انها نجحت على المدى البعيد مثلما نجحت على المدى القريب. فقد بقي الشاه على عرشه عشرين سنة أخرى استمتع خلالها شعبه ببحبوحة لم يشهدها من قبل ـ مع الاعتراف بالطبع بأن الشعب تحمل الاحباطات والتوترات مثله مثل أي شعب آخر يسير نحو التعصرن بسرعة تفوق ما تقوى التقاليد استيعابه. انتهى كل ذلك بعدما تحولت الحكومة الأميركية إلى سياسات تشبه جداً ما دعا إليه المفكرون اليساريون وما قاومناه في العام ١٩٥٣.

لماذا إذاً استيائي واستياء المهنيين الآخرين من وكالة الاستخبارات المركزية رغم كل ما حققته من نجاح؟ المؤسف ان الموظفين الجدد، والموظفين القدامى الذين أعيد تدريبهم لا بد تعلموا شيئاً أو اثنين مما تعلموه في غرف الدراسة عن وكالة الاستخبارات. ولكن السادة رؤساءنا لم يتعلموا شيئاً بل فاتتهم كل مقاصدها. لقد كانت في الواقع الفصل الأخير في حكاية المدنية كما عرفناها، وفي الوقت نفسه الفصل الأول في حكاية وكالة استخبارات مركزية مُعسْكرة التنظيم وبيروقراطية الغايات لا أشعر بأن لي فيها مكاناً فقد راحت تنافس البنتاغون من حيث ضخامة الحجم وعدد الموظفين وضحالة كفاءتهم المهنية أدى ذلك إلى استقالة كيم روزفلت واستقالتي أنا وإلى اتكال الحكومة الأميركية على قوى خارج الوكالة لتحقيق ما ظننا ان ارشادات مجلس الأمن القومي ترمي إليه.

من «اجاكس» إلى لعبة غواتيمالا

الواقع هو ان ما جاء في أعقاب عملية اجاكس، وليس العملية بحد ذاتها، هو الذي خيّب آمالنا نحن الاثنين. وبالتحديد كانت عملية غواتيمالا هي السبب، وبتحديد أكثر هو ان كبار مسؤولي الدولة وكبار العاملين في الوكالة من ذوي التوجهات العسكرية الطابع اعتبروا عملية اجاكس على انها جاءت بالسوابق لنجاح عملية غواتيمالا. وإذا كانت اجاكس قد تلاءمت مع جميع مواصفات عملية تحرّك سياسي مثالية، فقد تلاءمت عملية غواتيمالا مع جميع مواصفات بنائي الامبراطوريات داخل وكالة الاستخبارات المركزية نفسها وفوقها كذلك. وليس في اذهان هؤلاء البنائين سوى اعتبارات «لعبتهم» الداخلية والبيروقراطية.

دعوني أوضح الموضوع على النحو التالي: كانت وكالة الاستخبارات المركزية يوم ولدت في مخيلة مؤسسيها منظمة تشبه جداً الاوركسترا السمفونية أو فريق كرة القدم حيث لكل واحد من أفرادها الكفاءة الرفيعة في اختصاصه كما انه يسعى باستمرار لبذل أفضل مجهوده لها وضمنها ـ تماماً مثل المسؤولين عن مكتب ايران في واشنطن والمسؤولين في سفارتنا في طهران وقد زرت الفريقين، كما مر معنا، قبل الشروع بعملية اجاكس. ولكن تحولنا سريعاً إلى البيروقراطية (وقد أدركت الآن ان هذا أمر محتوم) حيث أضحى موظفونا يتنافسون فيما بينهم على المراكز داخل الوكالة. انعكس مختلف «الألعاب الشخصية» داخل اللعبة البيروقراطية التي راحت الوكالة تنافس فيها سائر الوكالات الحكومية للحصول على ميزانيات أضخم وعدد أكبر من الموظفين والمزيد من التقدير على الصعيد الوطني. لقد حملتنا طموحاتنا البيروقراطية إلى تلك المجالات عينها التي ينبغي على أي وكالة استخبارات تحاشيها إن هي أرادت الحفاظ على طبيعتها.

لن أحمِّل القراء وزر حكاية أخرى من حكايات عملية غواتيمالا التي نشر منها الكثير من عشرات الكتب والمقالات منها ما فيه بعض الصحة ومنها ما يفتقر إليها. بل أكتفي بالقول بأنني وطني الشعور والولاء مئة بالمئة وبأنني رأسمالي مئة بالمئة وبأنني أؤمن بأسلوب الحياة الأميركي

وبأسلوب الديمقراطية الأميركي - لنفسي وللأميركيين وان كنت أشكك بملاءمته للحضارات العديدة التي تعاملت معها. ومع ذلك وبمثل هذا الموقف الايديولوجي، وعلى الرغم من عدم علاقتي بعملية غواتيمالا فإنني اعتبرها اهانة وطنية كان من شأنها في نهاية المطاف، وان لم يكن بشكل فوري آنذاك عام ١٩٥٥، إنزال السخط على وكالة الاستخبارات المركزية وعلى المسؤولين عن اتخاذ القرارات واصدار الأوامر فيها.

إلاّ انني لم أر أي دليل يشير إلى ان الذين شغلوا مناصب القيادة فيها سعوا للبروز أو كانوا غير شرفاء بأي شكل من الأشكال. ولكن الأسوأ من ذلك انهم برهنوا عن بلاهة - أو ان سذاجة تصرفهم في مناصب تستدعي منتهى الميكافيللية والحذاقة كانت بمثابة البلاهة.

ولكن إليكم بعض ما عثرت عليه بشأن عملية غواتيمالا:

أولاً - انها نتيجة تحريض الوكالة من قبل شركة يونايتد فروت وهي شركة رفضت شركة بوز آلن اند هملتن المختصة بالاستشارات الادارية التعامل معها. وقد دلت تحريات بوز آلن الأولية ان كبار المدراء التنفيذيين في شركة يونايتد فروت كانوا ليعتبروا من طراز قديم لا يصلح اشراكهم في روايات تشارلز ديكنز، وعلى انخفاض في مستوى الذكاء لا يقوون معه على فهم توصيات بوز آلن لو انها قُدمت لهم. في الواقع ان قول مهاجمي وكالة الاستخبارات المركزية بأن مسؤولي شركة يونايتد فروت «تستغل السكان المحليين» قول مُلطَّف جداً ذلك أن الشركة خربت بيوت الأهالي ودمّرت اقتصاد غواتيمالا. وبالمقارنة معهم يبدو مدراء شركة النفط البريطانية الايرانية كأنهم خريجو كليات ادارة الأعمال في جامعة هارفرد او ستانفورد.

ثانياً - اعتمد مدراء الشركة في تعاطيهم مع حكومة غواتيمالا ليس فقط على التعسف بل اعتمدوه مقروناً بانعدام الشرف. سبق ان صفحت عن بعض التجاوزات الرأسمالية ولكن مدراء شركة يونايتد فروت على درجة من انعدام الشرف المفضوح الذي لا يطاق بحيث ان الأكاذيب التي اختلقوها ونقلوها للمسؤولين في غواتيمالا (ولم يكن هؤلاء من خلاصة النزاهة) هي في الواقع عبارة عن مجموعة اهانات وشتائم لا يحتملها أحد. فعندما استملكت حكومة غواتيمالا، مثلاً، مساحات واسعة من أراضي الشركة التي لم تكن (الشركة) في وارد استعمالها، عرضت الحكومة ثمناً لها المبلغ الذي أوردته الشركة رسمياً في سجلاتها ولكن الشركة طالبت بضعفيه متذرعة بكل صفاقة انها أوردت ذلك الثمن فقط «لاغراض ضرائبية» وانه اسلوب معترف به في كل مكان لتفادي دفع الضرائب «حتى في البلدان المتمدنة».

ثالثاً - كانت الشركة أحد زبائن مكتب محاماة سليفن اند كروموبل الذي يملكه الاخوان دالس، كما كان لكل واحد تقريباً من كبار موظفي الحكومة الأميركية الذين لهم أي صلة بعملية غواتيمالا علاقة مالية بالشركة - ومنهم مساعد وزير الخارجية لشؤون الدول الأميركية، ومدير شؤون الأمن في وزارة الخارجية، ووزير التجارة وحتى نائب وزير التجارة وحتى نائب وزير الخارجية الجنرال بيدل سميث الذي صار فيما بعد أحد أعضاء مجلس ادارة الشركة مما ساعد الذين يهاجمون الوكالة على القول بأن تعيينه في المجلس كان مكافأة له على الخدمات التي قدّمها للشركة من أجل انجاح عملية غواتيمالا. ولكن الصدمة التي جاءتني من ذلك ان أحداً من هؤلاء السادة الكرام لم يفقه مدى تأثير علاقاته تلك في جعل العملية هدفاً لدعاية المخابرات السوفياتية، والحكومة الأميركية ووكالة الاستخبارات هدفاً لهجمات «الأغبياء المفيدين» من بين المفكرين الأميركيين، وفي إثارة عداوة الأذكياء

والوطنيين من الأميركيين الذين بدأ الشك يرقى إلى قلوبهم حول «المستوى الاخلاقي الرفيع» الذي ما انفك وزير خارجيتنا الورع يدّعي انه يمتلكه.

رابعاً - فيما نستعيد ذكريات تلك العملية بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة عليها نرى انها كانت شبه عسكرية من الصنف الذي لم يكن لوكالة الاستخبارات شأن في التدخل بها، عملية كان لا بد من ان تقودنا إلى «عمليات مكشوفة - مخفية» قادتنا بعد ثلاثين سنة إلى نيكاراغوا وتضمنت خرقاً لكل مبادىء العمل الخفي، حتى إلى وقت عملية اجاكس. ولكن عندما تورّطت وكالة الاستخبارات المركزية في حرب كوريا وبعدها في فيتنام جاء أجَلُها. وراحت تعتمد على مهووسين من البنتاغون يتصرفون على هواهم. لا شك انهم مقاتلون ممتازون في الحروب السرية غير المعلنة. ولكن تلك الحروب تُخاض ضد حكومة أو ضد قواتها العسكرية بقوى من خارج البلاد، وغرضها في الأصل دحر العدو لا إزالة زبانيّته أو تحويله إلى قيمة مفيدة.

---

* ملاحظة: تجدر الإشارة إلى ان المقصود بتسمية «حزب الله» في ايران آنذاك هي منظمة «فدائيان إسلام» بقيادة صفوي وزعامة آية الله السيّد أبو القاسم الكاشاني، والتي وقفت إلى جانب حكومة الدكتور محمد مُصدِّق.

الفصل الثامن عشر

رقعة اللعبة على ضفاف النيل

مصر والولايات المتحدة

أوردتُ في صفحات سابقة كيف يلعب الزعماء والفاعلون في مجتمع ما ثلاث لعبات في آن معاً (**اللعبة الشخصية، واللعبة المحليّة واللعبة الدولية** ـ ولعبة رابعة في بعض الأحيان هي **اللعبة البيروقراطية**)، وكيف يمكن لشخص ذكي أو لوكالة أو لحزب سياسي أو حتى دولة تتحلى بالذكاء أن ينغمس الواحد منهم في تداخلات اللعبة ويلتصق بمصدر النشاط وينتهي إلى الكارثة المحتومة.

لنأخذ مثلاً رئيس أي شركة كبرى يبشر باجراءات في الشركة تترك انطباعاً طيّباً في نفوس المساهمين خلال السنة الجارية، علماً بأنه يعرف أن اجراءاته تلك ستؤدي إلى مشاكل هامة بعد عشر سنوات ـ وبعد عشر سنوات نراه يستمتع بدفء أشعة الشمس بالقرب من حوض السباحة في حديقة بيته بينما يشقى شخص آخر وراء مكتبه السابق في مواجهة المساهمين. ولننظر أيضاً إلى هؤلاء القادة السوفيات، وهم ليسوا بأغبياء، فقد تأكدوا منذ زمن بعيد من أن الشيوعية لا تؤدي إلى الغاية المنشودة، ومع ذلك فهم لا يستطيعون التخلص منها لأنها هي التي أوصلتهم إلى مراكزهم ومناصبهم ولأنهم سيسقطون ضحايا اللعبة البيروقراطية ان هم لم يتمسكوا ويستمروا بها. ولننظر كذلك إلى رئيس الجمهورية في الولايات المتحدة الذي أعطانا الازدهار بإغراقنا في ديون تكاد لا تحصيها الأرقام ونال هو الشعبية العارمة، هذا مع علمه بأن رئيساً ما في المستقبل، غيره هو، سيشقى سعياً لتسديد تلك الديون.

دعونا نلقي نظرة من هنا على العوامل التي سارت بوكالة الاستخبارات المركزية في انزلاقها نحو الهاوية. بدأت الوكالة العمل في أيام رئاسة هاري ترومن ومهمتها انباؤه بما يجب ان يعرفه من اجل حل مشاكل البلاد على رقعة اللعبة الدولية. ولكن الرئيس ترومن، ذلك الرجل البسيط و«النموذج الأميركي العادي»، لم يكن ضليعاً في الشؤون الدولية، فكان على وكالة الاستخبارات ليس فقط إرشاده إلى وسائل حلّ مشاكله بل أيضاً تعريفه بتلك المشاكل، اعتبر الرئيس ان السوفيات مصممون على غزو العالم وانهم ينوون تحقيق نواياهم بأساليب تتعارض مع اتفاقيات جنيف. لذلك أجاز سلسلة من التوجيهات صدرت عن مجلس الأمن القومي وخوّلت وكالة الاستخبارات المركزية، وهي أصلاً هيئة لجمع المعلومات، بالتمدد إلى مجال العمليات الخفية الشبيهة بما اعتبره (عن حق) الأسلوب الذي يستعمله السوفيات ضدنا.

ثم جاءت أزمة كوريا وحربها التي أدخلت إلى الوكالة أشخاصاً ذوي صفة شبه عسكرية. وتلتها **عملية اجاكس وعملية غواتيمالا** فكانت بداية النهاية. والأسوأ من ذلك اننا بدأنا نأتي إلى سدة الحكم برؤساء اعتبروا بأنهم يعرفون ما هي المشاكل التي تواجههم، أو ابتهجوا بالحصول على تفسيرات لها ليس من خلال اسرة الاستخبارات بل على أيدي اختصاصيين في العثور على حلول. إن الذين قرأوا بإمعان ما كتبته حتى الآن يدركون ان الاشخاص والمنظمات المختصين بالعثور على الحلول ينزعون إلى العثور على مشاكل جديدة وإلى اعادة تعريف المشاكل القائمة كي يطبقوا عليها ما لديهم من حلول.

لم يمض وقت طويل حتى صارت الوكالة تمدّ البيت الأبيض بالمعلومات التي يطلبها، لا بتلك التي يحتاجها. بكلام آخر راحت الوكالة تتحرّى عدد الفرق العسكرية وتغرس الدبابيس الملوّنة في الخرائط وتجمع من المعلومات مااعتبر البيت الأبيض انه بحاجة إليها استعداداً لدرء حروب لم يكن السوفيات بوارد خوضها أو شنّها والأسوأ من ذلك ان البيت الأبيض اندفع في اجراءاته هذه دون تفهم ولو بدئي للاستراتيجية التي اختارها السوفيات لأنفسهم. وقاموا بممارستها، فاستحال عمل الوكالة في

أواخر الخمسينات جمعاً لمعلومات تتلاءم مع استراتيجيات افترض مخططونا العسكريون مسبقاً بأن السوفيات قد تبنّوها. طبعاً كان هؤلاء المخططون أشد الناس نفوذاً في الحكومة الأميركية لأن ميزانية البنتاغون أضخم من ميزانية أي وزارة أو هيئة في الدولة فكان بالتالي على أهل البنتاغون تبرير ضخامتها. لم يتوقف فرع وكالة الاستخبارات المركزية المختص بروسيا السوفياتية عن الاتيان بمعلومات ممتازة تشير إلى ان الاستراتيجيين السوفيات حصروا تفكيرهم آنذاك بنوع من الحرب الباردة لا صلة لها بحرب نووية ولا بحرب تقليدية. ووجدت تلك المعلومات طريقها من سلة البريد الوارد إلى المسؤولين المختصين إلى سلة البريد الخارج دون ان تثير ولو شرارة اهتمام واحدة.

تحولت وكالة الاستخبارات المركزية إلى وكالة تنعم بميزانية كبيرة باتت الحلول فيها تأتي في المرتبة الأولى. فأخذت على عاتقها عدة عمليات شبه عسكرية وجب ان تكون من مسؤولية البنتاغون. ثم راحت تقوم بعمليات عسكرية في جوهرها ـ كغيرها من العمليات العسكرية تتطلب اعداداً كبيرة من الرجال وكميات ضخمة من المعدات ومبالغ طائلة من الأموال. وأخيراً أخذت تبحث عن مشاكل لا تستدعي الكثير من الذكاء إنما تستوجب حلولاً باهظة التكاليف، أملاها عليها أحد عباقرتها دِك بيسّل. فرضيته الأساسية قامت على ان جمع المعلومات بالوسائل التقنية اللابشرية يأتي بمعلومات واقعية دقيقة، بينما تشوب بواطن الضعف البشري المعلومات التي يجنيها الجواسيس العاديون. قلنا له: حسناً، اننا نعلم كل شيء عن الجواسيس ولسنا بحاجة لأن تخبرنا بنقاط ضعفهم. ولكن معداتك التقنية لا تستطيع قراءة الافكار ولا تستطيع ان تخبرنا بشيء عن الدوافع والنوايا والشخصية (هنا تدخل اللعبة الشخصية) والعوامل الأخرى ذات التأثير في رسم الخطط والسياسات. وعندما تحلّل، ابتداء من الحاضر ورجوعاً إلى الماضي، المعلومات الواقعية الواردة من أجهزتك التقنية فإنك ترتكب خطأ الافتراض بأن العقليات التي رسمت تلك الخطط والسياسات إنما هي مثل عقلياتنا نحن الأميركيين، فلا يسعك إذاً بالوسائل التقنية اكتساب تفهّم للخصائص الحضارية التي تؤثر في القرار الذي يحاول الشخص المستهدف اتخاذه.

ما زلت أذكر بوضوح إلامَ تحولت وكالة الاستخبارات المركزية خلال الفترة الواقعية بين ١٩٥٥ و١٩٥٧، وكيف أخذ يدبّ في نفوس رؤساء المكاتب الاقليمية والعاملين في المواقع والمحطّات خارج البلاد الشعور بأننا مواطنون من الدرجة الثانية. فاتني أن أذكر انه حدث آنذاك فرار جاسوس إلى المعسكر الآخر ونجحت احدى عمليات الاختراق في مجال الاستخبارات. دُعينا إلى مكتب المدير لاجتماعات دامت يومين، فكانت وكالة الاستخبارات التي شاهدناها قبيل عيد الميلاد لعام ١٩٥٦ مختلفة كلياً عن تلك التي أسسناها قبل عشر سنوات. وبالمقارنة مثلاً، كان آلن دالس بالنسبة إلى دِك بيسّل مثل طبيب الضاحية بالنسبة إلى بحّاثة في علوم الطب، علماً بأن لكل منهما بالطبع سيئاته وحسناته. ولكونهما مَصدَري الإلهام الأولين في الوكالة كان ينبغي أن يشكّلا فريقاً عظيماً لو تعاونا سوية ولكنهما عملا في اتجاهين مختلفين. وفي أواخر الخمسينات اندفعت الوكالة تعمل في كل الاتجاهات من طائرات التجسس و «الارهاب الجراحي» والعقاقير والجيوش الخاصة و «البنى الداعمة» وغيرها، فباتت بنظر ريتشارد هِلْمز، رئيس مكتب العمليات الخاصة، خارجة عن كل سيطرة واشراف.

قضيت أنا أيضاً السنتين الأخيرتين من خدمتي في الوكالة في ما يصعب وصفه بعمل الاستخبارات التقليدي. ولانعدام توافر ما هو أفضل شرعنا أنا وكيم روزفلت نعمل في ما أسميناه **الدبلوماسية الخفية**، أي مناورات دبلوماسية وراء الكواليس لم نكن لنقوى على القيام بها لولا وجود جون فوستر على رأس وزارة الخارجية وأخيه آلن على رأس وكالة الاستخبارات المركزية. إسمياً، كنت أنا رئيس وحدة أركان العمل السياسي وتحملّت مسؤوليات عملي بكامل جديتها. ودأبت لدى عودتي من مصر على قضاء معظم أوقاتي في نشاطات الاركان التي سبق أن وصفتها: (١) تحديد أمكنة من العالم فيها أخطار تهدد سلامة الولايات المتحدة ولا يمكن إبطال مفعولها إلاّ بالعمل السياسي حسب

تعريفي له، (٢) ثم استنباط أشد الوسائل فعالية وأرخصها ثمناً للقيام بالعمليات اللازمة. وعندما رُقّي فرانك وايسنر إلى رتبة نائب المدير لشؤون التخطيط، حلّ محله دزموند فيتزجرالد وهو من بقايا مكتب الخدمات الاسراتيجية قضى كل سني خدمته في الشرق الأقصى. كان دزموند بهيّ الطلعة وجنتلمان من الطبقة الرفيعة لا يثق «بالوسيلة» ويعرف محدودياته كما انه بحاجة إلى أحد لمراقبة منطقة لا يعرف هو عنها شيئاً ويراقب كذلك مسؤول الوكالة في تلك المنطقة أي كيم روزفلت.

هكذا صارت تُحال عليَّ أكثر فأكثر عمليات سياسية خاصة من الدبلوماسية الخفية المتعلقة بالشرق الأوسط، أو هكذا ظن الأخوان دالس. عندما تطل مشكلة في المنطقة يفكر الاثنان فوراً بكيم روزفلت ونادراً ما فكّرا بأي دبلوماسي محترف علماً بأن في وزارة الخارجية عدة لجان تتعاطى مع مختلف أزمات ومشاكل الشرق الأوسط. وكان كيم يحضر معظم الاجتماعات وادعى أنا إلى بعضها. أما إذا كان لا بد لأحد ان يتوجه إلى ايران أو إلى مصر أو الاردن أو المملكة العربية السعودية ليقابل الشاه أو عبدالناصر او الملك حسين أو الملك سعود فلا يخطر ببال الاخوين دالس إلاّ كيم أو أنا وفي بعض الحالات كلانا معاً وفي حالاتٍ أخرى نذهب برفقة بعض المحترفين المرموقين مثل اڤريل هاريمان أو روبرت اندرسون أو أرك جونستن.

نما هذا التقليد من أيام غرفة الالعاب التي ساعدت في انشائها وكانت آنذاك فكرة طيبة. ويبدو لي الآن، بعد مرور وقت طويل على انشائها انها لم تحقق من أحلامنا بمقدار ما توقعناه. ومع ذلك أبرزت على رقعة الالعاب بعض الحالات التي تحتاج إلى إعادة النظر فيها. غير اننا أخفقنا في المكان الذي كان ينبغي لنا النجاح فيه: التشديد على ما يتخذ على رقعة الالعاب الدولية من قرارات تؤثر تأثيراً عميقاً في المصالح الأميركية في الخارج إنما يتخذها لاعبون يعتبرون ان المصالح الأميركية تأتي في المرتبة الثانية بعد مصالحهم، والتشديد أيضاً على انه عند تضارب مصالح اللاعبين الأجانب مع مصالحنا يجب أن تتحمل المصالح الأميركية إلى حد ما تبعة ذلك التضارب. فاللاعب، أياً كان، يعطي الأولوية لمصلحة بلاده أولاً وبأقصر قدر مستطاع. وعبارة «أقصى القدر المستطاع» هذه هي ما يضعه نصب عينيه أي خبير في العمل السياسي يُطلب إليه التعاطي مع قضية اللعبة الدولية. إننا نحاول في تعاطينا مع اللاعبين الآخرين، الاصدقاء منهم والأخصام، ان نخفض إلى الحد الأدنى مقدار ما يمكن ان يولوه من أولوية لمصالحهم على حساب مصالحنا. وعليه يجب ألا تصدمنا أو تدهشنا محاولاتهم الحصول على أقصى ما يستطيعون من منافع على حساب مصالحنا عندما لا تكون مصالح الفريقين متطابقة. ففي اللعبة الدولية يكثر الكلام عن «تطابق المصالح» ولكن دبلوماسيينا المحترفين، العلنيين منهم والمستترين، أعلم من أن يشاطروا جون فوستر دالس تبرّمه من رفض الدول الأخرى القبول بمبدأ ان كل ما هو مفيد لأميركا مفيد حكماً للعالم كله.

لم يخالفني أصدقائي البريطانيون الرأي حول هذا الموضوع ولكن معرفتهم بعلاقتي بالرئيس المصري جمال عبدالناصر عكّرت الأجواء بيننا. لذلك أرى من المناسب في هذا المجال الخوض في احد أوجه «التجربة الناصريّة» التي لا تزال مجهولة عندهم: انه الدور الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية في قضية السويس والخلاف الذي نشأ بينها وبين الحكومة البريطانية، كما وبينها وبين الحكومة الأميركية. لقد ناقشت هذا الموضوع مراراً حتى لتكاد تتقزز نفسي لذكره. ولما كنت أكتب للتاريخ (فهذا نوع من السيرة الذاتية أدوّنها) سأطرح مفهومي لدور وكالة الاستخبارات المركزية في تلك القضية علماً بأننا، نحن العاملين في المواقع، ظننا أن عملنا يتطابق مع مصالح السياسة الأميركية، في حين كان يخالفها في بعض الأوقات. وأودّ هنا أن ألفت الانتباه إلى أنني لست في معرض الدفاع عن ذلك المفهوم (علماً بأنني أظن ان التاريخ قد برهن على صحته)، فأنا هنا أطلع القراء على مضمونه.

● لننظر **أولاً** إلى رقعة اللعبة. في عدد من الاعتبارات الهامة اختلفت رقعة اللعبة الدولية التي حسبنا اننا نلعب عليها عن تلك التي حسب البريطانيون اننا كلانا نلعب عليها. فمع التزامنا التزاماً لا رجوع عنه بتأييد اسرائيل، كنا على بيّنة تامة أيضاً بما سيكلفنا ذلك من عداء عربي ومن خطر على مصدر هام للنفط. ومع العلم بأننا نحاول احلال السلام بين العرب واسرائيل، كانت الغاية الأهم من ذلك إرضاء الرأي العام عندنا مع ما يتضمنه ذلك من ادراك تام ان استمرار حال العداء أمر كتبت علينا معايشته. وفيما كانت كلمات ونستون تشرشل عن الامبراطورية لا تزال في آذان البريطانيين كنا قد أصبحنا متعاطفين علناً مع الحركات القومية، إذ اعترف وزير خارجيتنا علناً باعتقاده بأن سياسات بريطانيا «الاستعمارية» تحدّ من حرية التحرك الأميركي وبانه يحاول إبعاد حكومتنا عن تلك السياسات.

لم نحمل على محمل الجد كلام تشرشل وايدن من ان عبدالناصر قد «أطبق بكلتا يديه» على شريان حياة الامبراطورية وان القضية باتت قضية موت أو حياة الامبراطورية البريطانية، كلام راح الاثنان يلقيانه علينا نحن الأميركيين بروح أبوة متعالية وكأننا زمرة من الأولاد المعاقين. فقد بدا لنا ان حبل حياة الامبراطورية (ترعة السويس) ليس تحت رحمة عبدالناصر، بل على العكس فإن دوافعه لابقاء حبل الحياة هذا مفتوحاً باتت أقوى من ذي قبل.

● **ثانياً**: كان هناك عبدالناصر نفسه. عندما فكرنا ببيلي غراهام مسلم، تصورناه لمثل رقعة اللعب هذه، فكان جمال عبدالناصر أقرب شبيه معقول به. ذلك اننا لم نلحظ في لعبتنا مكاناً للدمى أمثال نوري باشا السعيد وغيره ممن جعلهم البريطانيون على رقعة لعبتهم. فقد ابتغينا زعيماً في مصر، زعيماً تتناسق آراؤه إلى حد ما مع آرائنا ومع آراء شعبه أيضاً ليتمكن من البقاء والاستمرار زعيماً محبوباً. واعتبرنا انه إذا كان لا بد له من صب عدائه على شيء (وكان لا بد له من ذلك حسب المبدأ القائل بأن تأليب الاتباع ضد شيء أسهل من جمعهم لتأييد شيء) وبالتالي فضلنا ان يوجه عداءه نحو «الاستعمار» على أن يوجّهه ضد اسرائيل. ورأينا ان لا بأس حتى في ان يتخذ موقفاً عدائياً من أميركا نفسها شرط ألا يرتد موقفه هذا بالضرر علينا وان يكون له مئة منفعة صريحة. يبقى ان أهم ما ابتغيناه منه أن يكون زعيماً شعبياً قوياً له من الجرأة ما يمكنه، عند توافر الفرص النفسية المناسبة من اتخاذ قرارات صعبة، علماً بأنني أعود وأشدّد هنا على وجوب ان تكون قراراته تلك ملائمة لمصالح مصر والولايات المتحدة معاً.

● **ثالثاً**: كان على الرقعة أيضاً **لعبة اسرائيل**. ففي شباط (فبراير) ١٩٥٥ شنّ الاسرائيليون غارة على غزة ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثين قتيلاً. وقد وجدنا فيها رغم وحشيتها انها من وجهة نظر الاسرائيليين انطباقاً تاماً مع أصول اللعب. ذلك انهم لما فقدوا كل أمل بقبول عبدالناصر بعقد صفقة سلام معهم حسب شروطهم رأوا من الأفضل ان يكون «عبدالناصر» الذي يريدونه معهم على رقعة اللعب الدولية عدواً عنيداً عوضاً عن عدو معتدل قد يتمكن يوماً من اغراء الاميركيين باعتداله وعقلانيته. والواقع ان عداء عبدالناصر قبل الغارة على غزة انصب على الاستعمار البريطاني (لاحظوا الفرق: العدو هو الاستعمار، بريطانيا) كما كان اهتمامه بالصراع العربي الاسرائيلي محدوداً ـ حسب اعتقادنا. ولكن الغارة سبّبت سلسلة من الأحداث كان واحد منها نقلة على رقعة اللعب صبّت في مصلحة اسرائيل وقربت أزمة السويس، ان الاسرائيليين ماهرون في تخطيط نقلاتهم على رقعة اللعبة الدولية.

● **رابعاً**: كان هناك بعد الغارة نقلات ونقلات مضادة. من الواضح ان الغارة قضت على أي ميل لدى عبدالناصر نحو مسايرة مخططات وزير الخارجية دالس لاقامة ترتيبات دفاعية اقليمية (وحولت إلى مهزلة حججنا أمام عبدالناصر بأن عدوه الحقيقي هو روسيا السوفياتية وليست اسرائيل)، وأثارت عاصفة من المطالبات المصرية بالحصول على اسلحة أميركية أرفقت بتهديدات واضحة من قبله بأنه

سيتحول إلى الاتحاد السوفياتي إذا ما تعذّر عليه الحصول عليها. وكانت النقلة التي غيرت طبيعة اللعبة بأكملها حصوله على الاسلحة السوفياتية وإعلانه عن ذلك في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥. وفيما مضينا في وكالة الاستخبارات المركزية نصرّ على زملائنا في الخارجية بأن عبدالناصر سيتخذ تلك الخطوة، فقط لأننا كلاعبين ينبغي علينا الاعتراف بأن أياً منا كان ليتخذها لو وجد نفسه في موقف كموقفه، استمرت وزارة خارجيتنا هي الأخرى في اصرارها على انه يخادع. على كل الأحوال، وبناءً على أمر من الاخوين دالس ذهبنا أنا وكيم روزڤلت إلى مصر لاقناع عبدالناصر بأن علينا نحن الفريقين الافادة من شعبيته الكبيرة المفاجئة للمغامرة باتخاذ قرار بغيض: أي تحريك مخطط يؤدي إلى عقد اتفاقية سلام مع اسرائيل.

● **خامساً**: الوزير دالس قصير النظر وقليل العقل. فقد غبنا عن ذاكرته كلياً! لم يكن قد مضى يوم كامل على وصولنا أنا وكيم إلى القاهرة، وفي أعقاب حصولنا على موافقة عبدالناصر على «القرار البغيض»، أصدرت وزارة الخارجية بياناً صحفياً بأن مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط جورج آلن سيتوجه إلى القاهرة ليبلغ عبدالناصر «انذاراً». لم يكن من الصعب على أحد (وعلينا بشكل خاص) ادراك ما حمل عبدالناصر على ان يرمي في سلة المهملات نص الخطاب الذي «أعددته» له لاعلان خبر صفقة الاسلحة السوفياتية، ويستبدله بخطاب غير معتدل حسب المقاييس الغربية. ومنذ ذلك اليوم أخذت العلاقات تنتقل من سيىء إلى أسوأ فبعدالناصر يتخذ اجراءات نعتبرها نحن منطبقة مع أصول اللعب بينما يتخذ الوزير دالس، الذي أصبح في موقع المبادرة، اجراءات وخطوات لا تعطي عبدالناصر أي مجال إلّا مجال التصعيد باتخاذه الاجراءات المعاكسة التي توقّعنا منه اتخاذها.

● **سادساً**: جاء تراجعنا عن عرضنا السابق بتمويل مشروع سد أسوان. أدركنا تماماً، نحن رجال وكالة المخابرات المركزية ضرورة سحب عرضنا بتمويل مشروع السد العالي: فأعضاء مجلسي الكونغرس من الولايات الجنوبية خافوا من ان يمكن المشروع المصريين من زرع مساحات اضافية قطناً؛ أما الأعضاء الذين يمثلون الولايات الغربية فغاظهم ان تنظر بعين الرضا إلى بناء سدّ في مصر بينما لا يحصلون هم على الأموال اللازمة لبناء سدود في ولاياتهم. كما كان هناك احتمال أن يؤدي الإصرار على منح مصر قرضاً إلى تعريض كل مشروع اقامة وكالة الانماء الدولية للخطر. وفي احدى الامسيات، بعد انصراف الموظفين إلى بيوتهم، جلس جون فوستر دالس وبيل راونتري الذي حل محل جورج آلن في منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، جلسا حتى ساعة متأخرة من الليل يكتبان توضيحاً لسبب سحب القرض غايته الهاب مشاعر عبدالناصر، والله أدرى ما السبب؟! أما نحن في الوكالة فلم تكن لنا أي علاقة بالتوضيح المذكور. وعندما سأل آلن دالس كيم روزڤلت عن رأيه به كان غضب كيم منه يعادل ثورة جمال عبدالناصر، علماً بأن كيم مارس من ضبط النفس مقداراً يفوق بقليل ما مارسه عبدالناصر. أقلقت ردة فعل كيم آلن دالس فما كان منه إلّا أن أخذنا أنا وفرانك وايسنر وكيم إلى وزارة الخارجية حيث جلسنا حول طاولة نحاول ان نتنبأ بردة فعل عبدالناصر. كان رأيي ورأي كيم وكذلك رأي بعض الزملاء في الخارجية ان ردّة فعله مهما تكن لن تكون في صالح ما أسميناه بسخرية «قضية السلم في الشرق الأوسط». ولكننا لم نتقدم بأي مقترحات محددة ـ باستثناء ما أوردته في فصل سابق عن تطرق فرانك وايسنر إلى احتمال قيام عبدالناصر بتأميم شركة قناة السويس فأسكتناه أنا وكيم.

● **سابعاً**: كان على الرقعة أيضاً السخط البريطاني على تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس. فعند الاعلان عن التأميم أطبق البريطانيون فوراً على المبادرات. جاريناهم في لعبتهم على الرغم من معرفتنا من ان الاستخبارات البريطانية على ما هي عليه من تفوق في مناطق الشرق الأوسط الأخرى لم تكن على علم بكل ما يجري داخل حكومة عبدالناصر وبالوضع العام في مصر. في احد الاجتماعات

التي عقدتها برفقة بعض زملائي في وكالة الاستخبارات المركزية مع ضباط من المخابرات البريطانية قبل قرابة الشهر من الهجوم البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر (العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦) للبحث في ما يجب ان نفعله بشأن عبدالناصر، عرض عليَّ أحد الضباط البريطانيين وثيقة سرية جداً تبين تنظيم المخابرات المصرية. ظننت في بادىء الأمر انه يمازحني! ذلك لأنها الترجمة الانكليزية للتنظيم الهرمي الذي أعددته بمساعدة زملائي في شركة بوز آلن آند همِلتن. ويبدو ان نظائرنا البريطانيين كانوا في جهل تام حيال ما كان يفعله فريق وكالتنا في مصر طيلة السنتين المنصرمتين.

كان أكثر ما أزعجنا عدم تصرف البريطانيين تصرف اللاعبين المتمرسين ذوي الأعصاب الهادئة. فكل ما قاله لنا زملاؤنا في المخابرات البريطانية والخارجية البريطانية لا يمتّ بأي صلة إلى أي ضباط أو مدنيين مصريين يمكنهم تشكيل حكومة إذا ما أزيل عبدالناصر من الحكم، أو إلى الوضع العام في مصر. ولم تكن أقوالهم أكثر من افتراضات وتكهنات، كما بدا انهم لم يكترثوا لأكثر من الاطاحة بعبدالناصر، بصرف النظر عن النتائج، بغية البرهان للعالم أن مغروراً برز حديثاً مثله لا يستطيع التباهي بالدوس على ذنب الأسد البريطاني دون عقاب. إن موقفهم هذا أشبه بموقف بطل من أبطال الشطرنج العالميين حاول تحطيم الطاولة لأن مبتدئاً في اللعبة استطاع زجّه في موقف حرج.

إذاً، ماذا كان يترتب علينا فعله؟ من المهم ادراك بأنه فيما كانت واشنطن تجاري لندن في الارغاء والازباد، وفيما طرأت بين آن وآخر في ذهن الرئيس ايزنهاور نفسه فكرة «الاطاحة بعبدالناصر» كنا نحن العاملين على الأرض على اتصال حميم بزكريا محيي الدين وغيره من كبار المسؤولين المصريين بشأن حسنات وسيئات التأميم (كما لو كنا زواراً متجردين قادمين من كوكب آخر)، نصفّق للحسنات وننبه بحزم من السيئات. وكانت حجتنا مع عبدالناصر بكل بساطة على النحو التالي: «حسناً، لقد كسبت هذه الجولة، ولكن وقبل ان تأتي جولة أخرى لا تستطيع كسبها، لماذا لا تستغل الفورة المؤيدة لك حالياً لاتخاذ اجراء خليق برجل دولة باتجاه تحقيق السلام في المنطقة كلها؟» وافق! بدأ بالاعلان (بمصداقية لم ترض وكالة الاستخبارات المركزية وحدها، بل كذلك وزارة الخارجية التي ما انفكت حتى اعلانه تهزأ بالموضوع) عن انه سيبقى ترعة السويس مفتوحة للملاحة، وسيدفع التعويضات اللازمة لمالكي الشركة السابقين وسيراعى كل القضايا الأخرى التي اعتبرها محامونا حدّاً أدنى لتصفية النزاعات القانونية التي نجمت عن التأميم.

دعا عبدالناصر مندوبين عن الدول التي درجت سفنها على استعمال قناة السويس للبحث في ظلاماتهم. وتبين ان ليس لهم اي ظلامات مشروعة. وعندما استقال المرشدون البحريون الأوروبيون استقالة جماعية، حل محلهم مرشدون مصريون وأمنوا الملاحة عبر القنال (الممر البحري) وحازوا رضا الجميع. والأهم من ذلك كله ان عبدالناصر أبلغ الرئيس ايزنهاور بأنه على استعداد، بعد هدوء الضجة القائمة حول قناة السويس، للاستماع باهتمام إلى أي اقتراح قد يتقدم به ايزنهاور لوضع برنامج عملي قابل للتطبيق من أجل تخفيض التوتر العربي الاسرائيلي «على السكة المؤدية إلى سلام دائم». وجدنا في ذلك كله ما يرضينا. أما البريطانيون فلم يرضوا عن شيء معتبرين ان قناة السويس هي «قناتهم» وانتهى الأمر.

زُود العاملون منّا مع عبدالناصر بتعليمات واضحة جداً بأن مهمتنا الأولى هي المحافظة على بقائه في السلطة. وعلى الرغم من كل سلبياته لم ير وزير الخارجية دالس أي سبب يحول دون ذلك. فهو محامٍ قضى كل حياته المهنية في معالجة قضايا ذات صلة بالقانون الدولي، وعليه لم يرَ ان لبريطانيا أي قضيةٍ من الناحية القانونية. فالرئيس عبدالناصر لا يستطيع تأميم القناة ذلك انها دون أدنى مجال للشك جزء من أرض الدولة المصرية فلا مجال إذاً لتأميمها، كما انه تصرف من ضمن حقوقه في تأميم شركة القناة وهي شركة مسجّلة في مصر حسب نصوص القانون المصري دون غيره، مهما أراد السير انطوني

ايدن وصف اجراء عبدالناصر بالخدعة القانونية. فالقضية بالنسبة للمحامي دالس قضية قانون، والقانون هو القانون. إضافة إلى ذلك، فقد سبق ان تقبلنا برضا عدة تأميمات أخرى، وان كانت أقل رهجة من الناحية السياسية، وكلها مشابهة لقضية تأميم شركة القناة واقتصر اصرارنا على تأمين التعويض المناسب أو الوعد المقبول به سواء كان موضوع التأميم شركة أو مؤسسة أو أي شيء آخر لم يُستعمل ضدنا.

● **وأخيراً**: كان هناك لعبتنا نحن. فحسب **أصول لعبة العمل السياسي الخفي** التي أضحينا نؤمن بها إيماناً ثابتاً لم يكن في الهجوم البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر أي بصيص من المنطق بل كان اسوأ عمل يمكن القيام به خصوصاً وان تنفيذه جاء ساذجاً جاعلاً من مساندة وكالة الاستخبارات المركزية الحالية لثوار الكونترا تبدو بالمقارنة ذكية جداً.هل يصعب على أحد تصور نتائج التشارك مع اسرائيل العدو المقيت ليس عند العرب وحدهم وكذلك في العالم الاسلامي كله؟ تصوروا ان الفرنسيين والبريطانيون دخلوا ساحة القتال «للفصل بين الفريقين المتنازعين» أي بين مصر واسرائيل، ليقولوا لهما بالتراجع عشرة أميال عن قناة السويس بينما كان الاسرائيليون لا يزالون على أربعين ميلاً عنها. أفلا يستطيع الاسرائيليون تفسير ذلك الأمر على انه يعني السماح لهم بالتقدم ثلاثين ميلاً باتجاهها! القضية كلها غباء، بل غباء مطبق.

استمر كبار المسؤولين في وزارتي الخارجية والدفاع في بريطانيا بالاصرار على انه لو قمنا بتأخير فرض الانسحاب على غزاة مصر أربعاً وعشرين ساعة فقط لسقط حكم عبدالناصر. في الواقع دهشنا لذلك الكلام الفارغ الذي لا تؤيده أي معلومات استخباراتية. فلم يكن لدينا أي معلومات تشير إلى امكانية صحته، وإذا كان لدى البريطانيين من معلومات حوله فلم يطلعونا عليها، إضافة إلى ذلك لم يتمكن أي منهم من افادتنا عما سنحصل عليه من المنافع لو انه سقط فعلاً.

ولننظر الآن إلى ما حدث فعلاً. فبدلاً من ابقاء قناة السويس مفتوحة أمام الملاحة البحرية أدت العملية إلى إقفالها وهو أمر يستطيع التنبؤ به أسخف محلّل استخباراتي سواء كان اميركياً أو بريطانياً. قطعت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية ببريطانيا وفرنسا والاردن والعراق علاقاتهما الدبلوماسية بفرنسا وحدها، ولكن علاقاتهما ببريطانيا تعرضت لتوتر شديد مهد الطريق لانقلاب عسكري في العراق بعد قرابة السنتين، مما أدى إلى سقوط حلف بغداد. أما على الصعيد الدولي فقد انصبّ على بريطانيا وفرنسا ليس فقط لوم روسيا السوفياتية والصين الشيوعية بل وكذلك لوم بعض دول (الكومنولث) ـ رابطة الشعوب البريطانية مثل كندا وباكستان والهند وسيلان. وظننا بأن أصدقاءنا البريطانيين قد تعلّموا الدرس.

أكثرهم لم يستفد من الدرس شيئاً وعزوا فشلهم إلى الضغوط الأمريكية ولا يزالون يصرّون حتى اليوم بأننا تخلينا عنهم في وقت حاجتهم إلينا، رافضين التصديق بأننا كأميركيين، على الرغم من اننا عملنا بصلة وثيقة مع جمال عبدالناصر منذ أن بدأ يفكر بالقيام بثورته وحتى وفاته المبكرة، تفهّمنا خلفية أزمة السويس تفهماً فاق ادراكهم لها. لم يبالوا مطلقاً بأن التاريخ أظهر خطأهم. لعلنا كنا آنذاك أمام «حماقة تاريخية» قامت على افكار تثبت مسبقاً مع تجاهل تام لكل الاشارات المعاكسة. ولكنني فكّرت آنذاك، وما زلت، بأن البريطانيين يزدهرون في الحماقة ويؤمّنون أوضاعهم بطريقة ما.

نعم. هكذا سنفعل، ذلك ان خبرة البشرية الطويلة تشير إلى ان الانسان يسيء العمل في مهنة الحكم والحكومة أكثر منه في أي مجال آخر تقريباً من مجالات النشاط البشري. إن في هذه الحكمة ما ينطبق على الحكومة في أميركا أكثر منه في بريطانيا، لا سيما في ما يختص باللعبة الدولية. ولكننا نحن أيضاً نؤمن أوضاعنا في النهاية بشكل ما، لنعود ونخربط الأمور من جديد. اتضح بعد انقشاع غبار قضية السويس اننا سجّلنا بعض التقدم الآني على رقعة اللعبة الدولية. ولم يخفَ على أحد أن

عبدالناصر خرج من أزمة السويس أقوى مما كان عليه وأكثر شعبية في مصر وفي الشرق الأوسط كله. ومع ذلك تعمد، عبر سفيرنا في القاهرة ريموند هير، تقديم الشكر لما أسدته له الولايات المتحدة من مساعدة إبان الغزو الثلاثي، وذكر السفير في الوقت نفسه بالوعد الذي قطعه له سابقاً «بعمل شيء ما» من أجل تخفيض التوترات مع اسرائيل». وأعرب زعماء العالم العربي الآخرون عن تقديرهم «لوقوفنا بوجه اسرائيل وحلفائها»، ومنهم نوري باشا السعيد الذي لا يزال الكثيرون من البريطانيين يصرون حتى اليوم بأنه أيّد الهجوم الثلاثي وهو الذي قال لسفيرنا في بغداد: «إن الهجوم الثلاثي عبارة عن مغامرة جنونية» كانت لتشكل له ارباكاً جديّاً لو انها نجحت. وقد أخبرني موظفون في الأمم المتحدة أثق بكلامهم ان وفوداً من العالم الثالث صارت تلاقي مندوبينا في الهيئة الدولية بابتسامة، وهو أمر استصعب تصديقه في بادىء الأمر. ومع الأسف لم يدم الأمر طويلاً ذلك لأن اقتراح سفيرنا في القاهرة «بوجوب استغلال الفرصة المؤاتية لتثبت موقع قوي لنا»، ذلك الاقتراح ترجم في واشنطن بشيء سُمّي «مبدأ أيزنهاور».

صحيح، مبدأ ايزنهاور! هذا الذي أعلن عنه بالادراك الدقيق للتوقيت الذي اشتهر به وزير خارجيتنا جون فوستر دالس وكان تعهداً بأن تقدم الولايات المتحدة قواتها المسلحة من أجل الدفاع عن أي حكومة في الشرق الأوسط «تتعرض لخطر العدوان المسلّح المكشوف من قبل أي دولة واقعة تحت سيطرة الشيوعية الدولية». ففي ذلك الوقت لم يكن في الشرق الأوسط كله دولة واحدة واقعة تحت سيطرة الشيوعية الدولية، ولا أي دولة مُهدَّدة بعدوان شيوعي. بل على العكس من ذلك كان السوفيات يعرضون السلاح والمساعدات الاقتصادية والدعم السياسي لأي دولة في الشرق الأوسط تقبل بذلك. فكان من شأن مبدأ ايزنهاور اثارة غضب تلك الدول العربية عينها التي كنا نحاول استمالتها بواسطة حملات عملنا السياسي، ومن جهة أخرى تنشيط ميول الفساد الأخلاقي لدى المرتزقة السياسيين العاملين لحسابنا.

وهنا ينبغي ان أكرّر ما سبق ان كتبته مرات عديدة مثلاً عما قاله لي مرة عبدالناصر: «ان عبقريتكم أنتم الأميركيين تكمن في انكم لا تأتون مطلقاً بأعمال غبية واضحة، بل فقط بأعمال غبية تجعلنا نفكر باحتمال وجود أشياء فاتنا الانتباه إليها». وأضاف بأنه يعتبر مبدأ ايزنهاور «احد أكثر الأخطاء حنكة يمكن لدبلوماسي من دولة عظمى ارتكابها». كنت شاباً آنذاك وأعرف البلدان الأخرى معرفة أوثق من معرفتي لبلادي. وقد احتجت لعدد أكبر من سنوات الخبرة في واشنطن لأدرك ان الكثير من «تحركاتنا الغبية»، إذا كانت كذلك، اتخذت لأسباب وجيهة جداً وليس من قبل اناس أغبياء.

كان ذلك الدرس نقطة تحول في حياتي وأحد حقائق الحياة التي عدّلت بموجبها لعبتي الشخصية.

الفصل التاسع عشر

مايلز كوپلاند وشركاه

هل يبحثون عن الحقيقة

جاءت نقطة التحول في حياتي وأنا في أواسط الثلاثينات من العمر يوم أدركت ألا أحمل على محمل الحقيقة والواقع كل كل ما يتلفظ به الناطقون باسم حكومتنا بغية إرضاء الرأي العام، وان ما يقولونه لا يعكس بالضرورة جوهر ما يفكرون به في أعماق نفوسهم، وان ذلك ليس نفاقاً بل انعكاساً لحاجة السلطة التنفيذية إلى تعديل اجراءاتها من أجل مجاراة ما يفرضه الكونغرس عليها ولكن دون كشف أوراقها أمام اللاعبين الأجانب.

احتجت إلى سنة أو اثنتين في العمل في واشنطن لأتعلم ان أي حكومة ديمقراطية، عندنا أو في الخارج، تضطر في بعض الأحيان إلى الخلط بين «الملحّ» و«المهم» (تعلمت خلال الحرب العالمية الثانية ان الاثنين قليلا ما يتطابقان) وان الضغوط الداخلية قد تحملها على التصرف بشكل يبدو متهوّراً للمراقب العادي. وسرعان ما خرجت بالنظرية التالية: يوجد في عقل الأمة الباطن شيء من البراغماتية الباردة التي تتحكم بها «المؤسسة». والمؤسسة هذه، أو سمّها ما شئت تستغل الأخطاء والانتكاسات القصيرة الأجل وتحوّها على المدى البعيد إلى انتصارات.

في بحثي عن الحقيقة وراء تصرفات حكومتنا حتى العام ١٩٥٧ خطر لي ان أنقّب حول موضوع التعثر الظاهري بطرح السؤالين: «إلى أين نحن متوجهون حقاً؟» و«هل ثمة كسب لنا هناك؟» كنت في وضع سمح لي أن أعلم بعدم وجود مخطط شامل أو عبقري استراتيجي يعمل وراء الستار في توجيه تصرفاتنا اضافة إلى عدم وجود أي استراتيجية مرسومة بوضوح - باستثناء مهازل مثل مبدأ ايزنهاور ومُتمّيات مشابهة طبخت تلبية لأغراض الحرب النفسية. إنما كان في أعماق ذلك كله مهارة خارقة في تخفيض الخسائر وزيادة المكاسب إلى أقصى الحدود الممكنة بحيث نخرج في النهاية رابحين. لقد نجحت ديمقراطيتنا في تأدية اغراضها لأنها أوصلت إلى مواقع القيادة أشخاصاً يحسنون التكلّم بلسانين.

رأى جيم ايخلبرغر (ايخ) كل ذلك بوضوح أكثر مني وكان قد سبق له ان عمل في فريقي للعمل السياسي في مصر عام ١٩٥٥، حيث كتبنا معاً تقريراً عنوانه: **«مشاكل القوى التي تواجه حكومة ثورية»**. وبعد ترجمته إلى العربية واطلاع زكريا محيي الدين عليه وفر لنا بعض الارشادات لتثبيت ثورة عبدالناصر. ووضعنا في اعقاب قضية السويس تقريراً مشابهاً اقترحنا فيه على الحكومة الأميركية خطوات واجراءات وتوصيات تستطيع الاستعانة بها لتثبيت ما أصابنا من مغانم من جراء وقوفنا بوجه الغزو البريطاني الفرنسي الاسرائيلي. لست أدري مطلقاً إذا كان أحد قد اطلع عليه باستثناء أفراد فريقنا، ولكنه فتح أمامي آفاقاً واسعة. ورحنا أنا وآيخ نبحث جدياً عما إذا كان ثمة اسلوب ما في الأعمال الجنونية التي ترتكبها حكومتنا وكلها بالطبع تسير في اتجاه معاكس لما ورد في تقريرنا من توصيات، فعثرنا على القليل من الجنون وعلى الكثير من الأساليب.

ركزنا على ما اعتبرناه أكثر الأفكار جنونية، أي انشاء ما سُمي «لجنة مستعملي قناة السويس»، وجوهر هذه الفكرة ان يقوم جمهور من الوجهاء بزيارة القاهرة ليوضحوا لعبدالناصر ان تأميم القناة مرفوض عند دول العالم الأخرى، وان عليه بعد انتهاء تسليته بالموضوع اعادة القناة إلى رجال راشدين يعرفون ادارة أمور كهذه. رأينا انا وآيخ في تلك الفكرة مجالات واسعة لمسرحيات هزلية ساخرة (وكنا

ومعنا كيم روزفلت قد عفنا محاولة العثور على شيء منطقي واحد في تلك الفوضى) فاندفعنا بكل حماس لاستغلالها فيما انهمك كيم بأعمال خفية حقا. وتمكن فعلا من اقناع آلن دالس ثم أخيه جون فوستر بإيفاد روبرت اندرسون (الملقب بوب الشريف) المقرب من الرئيس ايزنهاور للتهويل على العاهل السعودي بقطع عائدات النفط عنه ان هو توانى عن الانضمام إلى جبهة مناوئة لعبدالناصر تشمل المنطقة كلها. كما أرسل كيم صديقنا القديم ويلبور «بيل» ايفلاند للتأكد من تفاهم بوب الشريف مع الملك سعود.

لا ريب في ان اختيار هذين الرجلين كان بحد ذاته ضرباً من العبقرية النادرة. ذلك ان بوب الشريف لم يكن من أحذق محترفي الدبلوماسية المرموقين، فهو وان كان مترفعاً عن الصغائر، على استعداد لأن يقول لجليسه أن يرمي نفسه في البحر إذا كان في ذلك ارضاء لمرشده الرئيس ايزنهاور. وسبق لـ كيم روزفلت أن عرّف بيل ايفلاند على انه محترف ينزع إلى مخالطة الشخصيات المرموقة الأخرى الأقل منه ذكاء ولا يتوانى من جهة أخرى عن خَرْبَطة مجهودات تلك الشخصيات اذا كان في ذلك ما تنشرح له صدور المسؤولين عن ملفه الشخصي في واشنطن. أما اندرسون (بوب الشريف) فيحسن الكلام كأي مؤمن مفوّه بقضية فضلاً عن ان لا مجال مطلقاً للتشكيك في انه لا يستطيع التفاهم أبداً مع أشخاص ينتمون إلى حضارات أخرى. وهكذا، وبتضافر مجهودات ذينك الشخصين لن يحصل أي سوء تفاهم أو أي غموض. وعليه عندما قال اندرسون للملك سعود ما معناه ان الولايات المتحدة ستتوقف عن شراء النفط السعودي إذا توانت السعودية عن الاشتراك في حملة مناهضة لعبدالناصر ظن الملك ان أذنيه تخدعانه وسأل اندرسون بماذا سيستعيض الأميركيون عن النفط السعودي؟ فأجابه اندرسون: «بالطاقة النووية» وزكّى ايفلاند قول اندرسون.

لم أقف مطلقاً على نوايا كيم آنذاك، إنما على ما علمته انه تلّقى برقية بعد عودة الشخصيتين المذكورتين إلى واشنطن تفيد بأن الزيارة كانت ناجحة. بعد ذلك شبكنا كيم، آيخ وأنا، في سلسلة الاجتماعات التي أتيت على ذكرها في الفصل السابق، وفي محاولات متقطعة للتعاطف مع الحركة المناهضة لعبدالناصر التي درجت في تلك الحقبة. وتضمنت حملاتها فيما تضمنت مساعدات مالية للأردن، وتعاوناً مع البريطانيين للاطاحة بالحكومة السورية، وتقوية سبل الاتصال بعبدالناصر حتى يكون هناك حركة انقاذ مؤيدة له في حال فشل محاولات حكومتنا الرامية إلى الاطاحة به. غير ان جمعية مستخدمي قناة السويس ظلّت ما ظنناه أنا وآيخ (ثم انضم كيم إلينا) أملنا الأكبر.

المفروض باختصار ان تكون تلك الجمعية منظمة مؤلفة من الدول الغربية التي تستخدم القناة، مهمتها ادارة الممر البحري وتأمين المرشدين والخدمات وتحصيل الاتاوات واعطاء مصر «حصتها العادلة» منها. ارسلت الدعوات إلى من يلزم للحضور إلى لندن يوم ١٩ أيلول (سبتمبر) ومنها كتاب إلى عبدالناصر يعبر عن الأمل بتعاونه. وفي خطاب ألقاه في حفل تخريج ضباط في سلاح الطيران المصري أعلن عبدالناصر عن نيته تشكيل «جمعية لمستخدمي» ميناء لندن من مختلف الجنسيات مهمتها السيطرة والاشراف على الميناء وأضاف بأنه ينوي أيضاً ارسال كتاب إلى وزير الخارجية الأميركي جون فوستر دالس يطلب فيه تعاونه معه. أما ما حصل في أعقاب ذلك فالكل يعرفه.

قيل لي عن وجود «محضر مباحثات» في الملفات السرية التي أُفصِحَ عنها الآن. كتبته فور عودتي من رحلة سريعة لزيارة زكريا محيي الدين في القاهرة بُعيد عودة آيخ إلى واشنطن. وحسبما أذكر قدمت لمحيي الدين آنذاك رواية معدلة عما قاله آيخ لي ولكيم روزفلت. ثم سألته رأيه من فكرة براقة خطرت ببال آيخ وهو في طريق عودته من لندن إلى واشنطن، وهي انشاء منظومة نقل مشتركة تسهم بملكيتها شركات النفط ودول الشرق الأوسط العاملة في انتاج أو نقل النفط؟ أي كونسورتيوم يتألف من الحكومات وصناعة النفط يملك ويدير خطوط أنابيب النفط وقناة السويس على غرار طريقة ادارة خطوط السكك الحديدية في الولايات المتحدة.

كان ذلك قبل بضعة أشهر من العدوان الثلاثي على السويس، لذلك ليس من الصعب ادراك بأن محضري هذا وجميع الأوراق الأخرى المتصلة بالموضوع قبع في درج مكتب آلن دالس ولم يقرأه أحد. وبعد أقل من اسبوع على تراجع قوات الغزو الثلاثي عن منطقة السويس عاد آلن إلى المحضر واستمسك به خشبة خلاص وحيدة في متناوله. أعدت كتابته مراراً بالتعاون مع آيخ لتنسيقه مع ملاحظات كان فرانك وايسنر وغيره قد دوّنوها في الهوامش ثم أخذنا النص النهائي إلى مساعد وزير الخارجية آنذاك هربرت هوفر الابن الذي قال: «انه حري بالتفكير به». وعليه أجيز لكل منا، آيخ وأنا القيام بزيارة نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو لمناقشة الفكرة مع المسؤولين التنفيذيين في شركات النفط الذين تعرفنا إليهم خلال اجتماعات ما سُمي **لجنة الطوارىء لقضايا الشرق الأوسط»** التي حضرناها في الأشهر السابقة.

لم يعر أي من هؤلاء اهتماماً يذكر بفكرة منظومة النقل المشتركة، ولكنهم اهتموا بالدراسة المضنية التي انطوت الفكرة عليها، فعرضت ثلاث من الشركات الخمس التي زرناها (ستاندرد أويل ـ في نيو جرزي ـ وسوكوني موبيل، وغولف، وتكساس وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا) عرضت علينا وظائف فيها وقالت الشركتان الباقيتان بأنهما على استعداد للتعاقد معنا بصفة خبراء شرط شرط ان نؤمن زبائن آخرين. وبعد اسبوعين من تلك المحادثات اضافة إلى دراسات قمنا بها، على حساب عملنا في الوكالة بالطبع، صعدت خمرة الثقة بالنفس إلى رأس كل منا. وفي أعقاب حديث أجريناه مع كيم الذي تلقت ثقته بالوكالة لطمة قوية أثناء جلسة بينه وبين آلن وفرانك ورئيس قسم الشرق الأقصى حول عملية اقترح القيام بها في اندونيسيا، قررنا اعتماد مخطط للأجل الطويل نقبل أنا وآيخ بموجبه عرضاً تقدمت به شركة غولف اويل لنعمل معها بصفة مستشارين على ان ينضم كيم إلينا بعد استقراره. وفي غضون اسبوع كنا قد تعاقدنا ليس فقط مع شركة غولف بل وكذلك مع أحد أكبر المصارف العالمية واحدى اضخم شركات الطيران، شرط ابقاء تعاقدنا معهما سراً لأن مراسلينا فيهما لا يرتاحون لعلاقتنا بوكالة الاستخبارات المركزية. وكان دخلنا من عقودنا تلك يربو على ثلاثة أضعاف راتبنا من الحكومة.

أسباب متعددة حملتنا على القبول بصفة الاستشارية في شركة غولف، منها ان مقرها يقع في مدينة بيتسبورغ في ولاية بنسيلڤانيا حيث وُلد آيخ وترعرع، وانه لا يوجد في الشركة خبرة مثل خبرتي، وهي الوحيدة التي ليس فيها خبراء في الشؤون الاقليمية. فهي تحصل على معلوماتها الاقليمية من شركة بريتش بتروليوم، شريكتها في شركة نفط الكويت التي تمدها بنصائح أبوية لا قيمة واقعية لها. ولا بد ان المدراء التنفيذيين في الشركة البريطانية اعتبروا شركاءهم الأميركيين ابناء عم ريفيين يجب ألا يتعدى دورهم تكديس الأرباح على ان يتركوا شؤون الشرق الأوسط لخبرة البريطانيين.

قد يكون التنفيذيون في غولف أبناء عم ريفيين ولكنهم زبائن ممتازون عند عميلين عتيقين من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية لما يمكنهما تقديمه لهم من معلومات. فهم يجهلون شؤون الشرق الأوسط وحضاراته الغريبة عنا ويدركون جهلهم هذا فضلاً عن كونهم أذكياء. رالف رودز، نائب الرئيس التنفيذي هو الذي اكتشف النفط في الكويت ولم يسبق ان اكتشف من النفط في العالم أحد أكثر منه. إنه لا يعرف الكويت ولا الشرق الأوسط ولكنه على درجة من الذكاء تكفي لتقدير الخبرة لدى مشاهدتها. أما رئيس الشركة بيل وايتفورد فمعروف بأنه أقسى وأنشط وأكثر التنفيذيين أهلية وعدوانية في صناعة النفط ان لم يكن في الصناعة الأميركية اطلاقاً. وهناك أيضاً دايڤيد پروكتر، رئيس مجلس ادارة غولد وهو أشبه برئيس قبيلة هادىء الطبع يتمتع بحكمة وطول اناة وكان قد تجاوز سن الشباب رأينا فيه امكان التقدير بأن شخصين نشيطين مثلنا يحتاجان إلى عطلة قصيرة بين الحين والآخر.

وثمة الشركة عينها التي كانت قيمة موجوداتها عام ١٩٤٦ تقدر بسبعمئة واثنين وعشرين مليون دولار وارتفعت إلى أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار خلال احدى عشرة سنة، فيما بلغ دخلها

خلال الفترة نفسها ستة أضعاف ما كان عليه. وأهم ما عرفناه عنها ان ثلثي دخلها يأتي من عملياتها خارج الولايات المتحدة: من الكويت موقع أهم مخزوناتها النفطية، وان كلفة انتاج البرميل الواحد أقل من ١٠ سنتات فيما تبيع البرميل بدولار و٨٥ سنتاً. أبناء عم ريفيون حقاً! على الرغم من بعد تفكيري عن التجارة أدركت ان هؤلاء الرجال الثلاثة هم أكثر من مجرد مدراء في حانوت قروي. وخطر لي، لما كانوا رجال أعمال من أعلى المستويات، بأنهم لا شك يقدرون أهمية المعلومات التي تنقصهم ويمكن لشركة مثل «شركة كوبلاند آند آيخلبرغر»، كما سمينا شركتنا، ان توفرها لهم.

وأخيراً أحببنا مهمتنا. فبدلاً من العمل لدى شركة أخرى من شركات النفط العالمية ذات المصالح في دول متعددة، انحصرت مهامنا في دولة واحدة في الشرق الأوسط هي الكويت. في الواقع لم تكن مهمتنا مراقبة الكويت بمقدار ما كانت مراقبة جميع تطورات الشرق الأوسط التي قد تؤثر في مصالح شركة نفط الكويت التي تملك غولف نصفها ـ ومن تلك التطورات تقلبات قلق الاسرة الحاكمة في الكويت من التطورات السياسية في العراق ومصر اللتين ما انفك قادتهما عن التفكير بخطط يقدمون هم فيها ذكاءهم بينما تقدم الكويت الأموال.

لست أظن، رغم الفاصل الزمني بين يومنا هذا والأعوام من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٠ أن أحداً استطاع القيام بعمل دقيق ومجدي كالذي قمنا به أنا وآيخ. لقد اشتغلت بعد تلك الفترة مع شركات النفط السبع الكبرى باستثناء شركتي تكساس وبريتش بتروليوم، وثلاث من كبريات شركات النفط المستقلة واستحقيت كل فلس جنيته منها. وللقراء الذين يطمحون ان يصبحوا مستشارين كباراً أقول: إن أقل الشركات حاجة إليكم هي الشركات الاقرب إلى التعاقد معكم. وهذا القول قابل للانطباق على الزبائن الذين تعاملوا معنا آنذاك ـ مصرف ضخم، وشركة طيران عالمية ثم شركة من كبريات شركات البناء، وقد قمنا لصالحها ببعض التجسس الصناعي ـ وكانت كلها بمنتهى الرضا من خدماتنا طيلة فترة شراكتنا أنا وآيخ.

بيروت في صيف ١٩٥٧

وفي أواسط تموز (يوليو) ١٩٥٧ وصلنا بيروت واستقرينا في منازل مريحة وفتحنا مكاتبنا بلصق مكاتب شركة التابلاين المشرفة على ادارة خط انابيب النفط الممتد من الظهران في المملكة العربية السعودية إلى صيدا في لبنان، لحساب شركة النفط العربية الأميركية (آرامكو) التي تملكها أربع من شركات النفط الكبرى السبع، أي موبيل وستاندرد نيو جيرزي وتكساكو وستاندرد كاليفورنيا. وبفضل زميلنا القديم في وكالة الاستخبارات المركزية جيم انغلتن، أخذنا نقيم الحفلات وصرنا خلال ستة أشهر نُعرف بأننا نقيم أسخى الحفلات في بيروت.

لا بد لي هنا من بعض التوضيح للحفلات التي أقمناها بتمويل من قبل انغلتن. فهذا الرجل هو الشخص الوحيد في اسرة المخابرات في كل من واشنطن ولندن الذي كان متيقناً من ان هـ. آ. ر. (كيم) فيلبي هو عميل لدى الاستخبارات السوفياتية وسبق له ان قال ذلك لفيلبي نفسه في احد مطاعم جورجتاون فأجابه فيلبي ضاحكاً: «لن يصدقك أحد» غير ان جيم انغلتن قال لي، دون أن يضحك، ان عليَّ، ولو لمرة واحدة التخلي عن شعوري بالثقة بالناس وانضم إلى عدد صغير من المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين يؤمنون بامكانية انتماء فيلبي إلى الاستخبارات السوفياتية. وأضاف مقترحاً أن أراقب فيلبي (الذي سبق ان استقر في بيروت قبلنا ببضعة أشهر) وانه سيتكفل بدفع كل النفقات ـ نفقات الحفلات نظراً لأن عملي في مكافحة الجاسوسية هذا سيكون تحت غطاء الاتصالات والعلاقات الاجتماعية.

ما كاد يمر اسبوع أو اثنان على وجودنا في بيروت، ولم يكن قد تسنى لنا بعد مجرد التفكير بـ كيم